﴿إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾

سلسلة الإصلاح (١)

كيفَ تُصْلِحُ قَلبَكَ؟؟

وسائل إصلاح القلوب من الكتاب والسنة

تأليف

«أبو إسلام»

صالح بن طه عبد الواحد

إمام وخطيب مسجد إبراهيم الحاج حسن

الأردن – عمان

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤلف

إن الحمدَ لله نحمدهُ ونستعينهُ ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ من شرورِ أنفسِنا ومن سيئاتِ أعمالِنا، من يهدِه اللهُ فلا مضلَّ له، ومن يُضلل فلا هاديَ له، وأَشهدُ أن لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمداً عبدُه ورسولُه، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ١٠٢﴾ [آل عمران]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ١﴾ [النساء]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ٧١﴾ [الأحزاب].

أما بعدُ:

فإن أصدقَ الحديثِ كتابُ الله، وخيرَ الهدي هديُ محمدٍ ﷺ وشرَّ الأمورِ محدثاتُها، وكلَّ محدثةٍ بدعةٌ، وكلَّ بدعةٍ ضلالَةٌ، وكلَّ ضلالةٍ في النار.

يقولُ الله عز وجل على لسان شعيبٍ عليه السلام: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ٨٨﴾ [هود].

ويقولُ سبحانه على لسان موسى عليه السلام: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ١٤٢﴾ [الأعراف].

ويقول سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [هود].

ويقول سبحانه: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ [البقرة: ٢٢٠].

وانطلاقاً من هذه الأدلةِ فهذه سلسلةٌ من الإصلاحاتِ الشرعيةِ لإصلاحِ الأمةِ الإسلاميةِ، أبدأُها بإصلاحِ القلبِ واللسان، لأهميتهما للإنسانِ، فبصلاحِهما يَصلُحُ الجسدُ كُلُّه، وبصلاح الأجسادِ تصلُحُ الأُسَرُ، وبصلاح الأُسَرِ يصلُحُ المجتمعُ، وبصلاحِ المجتمعِ تصلُحُ الأمةُ.

فالقلبُ في الجسدِ كالراعي في رعيته؛ قال ﷺ: «**ألا وإن في الجسد مضغةً إذا صَلَحَت صلَحَ الجسدُ كلُّهُ، وإذا فسدت فسدَ الجسدُ كلُّه ألا وهي القلب**»(١).

واللسانُ بمثابةِ القائدِ الأعلى لأعضاءِ الجسد، قال ﷺ: «**إِذَا أَصبَحَ ابنُ آدَمَ فَإِنَّ الأَعضَاءَ كُلَّهَا تُكَفِّرُ اللِّسَانَ** -أي: تَذِلُّ له وتخضعُ- **فَتَقُولُ: اتَّقِ اللَّهَ فِينَا، فَإِنَّمَا نَحنُ بِكَ، فَإِن استَقَمتَ استَقَمنَا، وَإِن اعوَجَجتَ اعوَجَجنَا**»(٢).

وربطَ اللهُ عز وجل بينَ القلبِ واللسانِ في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد].

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩).

(٢) **حسن**: رواه الترمذي (٢٤٠٧)، وأحمد (٣/٩٥)، وعبد بن حميد (٩٧٧)، [«صحيح الترغيب» (٢٨٧١)].

فإن طابَ القلبُ واللسانُ طابَ الإنسانُ، وإن خبُثَ القلبُ واللسانُ خَبُثَ الإنسانُ.

• عن خالدٍ الرَّبعيِّ قال: (كان لقمانُ عبداً حَبشيّاً نجاراً، فقال له مولاه: اذبح لنا هذه الشاةَ، فذبحَها، فقال: أَخرج أطيبَ مُضغتين فيها، فأخرجَ اللسانَ والقلبَ، فمكثَ ما شاءَ اللهُ ثم قال: اذبح لنا هذه الشاةَ، فذبحها، فقال: أخرج أخبثَ مضغتين فيها، فأخرَجَ اللسانَ والقلبَ.

فقال له مولاه: أمرتُك أن تُخرجَ أطيبَ مضغتين فيها فأخرَجتَهما، وأمرتُك أن تُخرجَ أخبثَ مضغتين فأخرجتَهما.

فقال لقمانُ: (إنه ليسَ من شيءٍ أطيبُ منهما إذا طابا، ولا أخبثُ منهما إذا خبثا)[1].

ونبدأُ هذه السلسةَ من الإصلاحاتِ بأهمِّها ألا وهوَ القلب وستكونُ تحتَ عنوان:

(١) «تفسير الطبري» (١٨/٥٤٨)، و«ابن كثير» (٦/٣٣٣).

كيف تصلحُ قلبَك؟؟

مقدِّمَةٌ بينَ يديِ الكتابِ

وهذه المقدِّمةُ تحتوي على أربعةِ أَسئلةٍ:

السؤالُ الأولُ: لماذا سُمِّيَ القلبُ قلباً؟

• سُمِّيَ القلبُ قلباً لكثرةِ تقلُّبِهِ، وسرعةِ تَحوُّلِه، وتردُّدِ الخواطرِ عليه.

عن أبي موسى الأشعريِّ ﵁ قالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ: «**إِنَّمَا سُمِّيَ القَلبُ مِن تَقَلُّبِهِ، إِنَّمَا مَثَلُ القَلبِ كَمَثَلِ رِيشَةٍ مُعَلَّقَةٍ فِي أَصلِ شَجَرَةٍ يُقَلِّبُهَا الرِّيحُ ظَهرًا لِبَطنٍ**»[1].

وعن المقدادِ بنِ الأسودِ ﵁ قالَ: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**لَقَلبُ ابنِ آدَمَ أَشَدُّ انقِلَابًا مِن القِدْرِ إِذَا اجتَمَعَ غلياناً**»[2].

ولذلك كانَ رسولُ اللهِ ﷺ يُكثرُ من دعاءِ: «**يَا مُقَلِّبَ القُلُوبِ ثَبِّت قَلبِي عَلَى دِينِكَ**»[3].

---

(١) صحيح: رواه أحمد (٤/٤٠٨)، والبزار (٣١٨٩)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/٢٦٣)، والبيهقي في «الشعب» (٧٣٧)، [«صحيح الجامع» (٢٣٦٥)].

(٢) صحيح: رواه أحمد (٦/٤)، والبزار (٢١١٢)، والطبراني في «الكبير» (٢٠/٢٥٥/٦٠٣)، والحاكم (٣١٤٢)، [«السلسلة الصحيحة» (١٧٧٢)].

(٣) صحيح: رواه الترمذي (٢١٤٠)، وأحمد (٣/١١٢)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٦٨٣)، [«صحيح الجامع» (٧٩٨٧)].

وقال ﷺ لأمِّ سلَمةَ رضي الله عنها: «**يَا أُمَّ سَلَمَةَ! إِنَّهُ لَيسَ آدَمِيٌّ إِلَّا وَقَلبُهُ بَينَ إِصبَعَينِ مِن أَصَابعِ اللَّهِ، فَمَن شَاءَ أَقَامَ وَمَن شَاءَ أَزَاغَ**»(١).

ويقولُ ابنُ عمرَ رضي الله عنهما: كان أكثرَ أَيمانِهِ ﷺ: «**لا، ومصرِّفَ القلوبِ**»(٢).

ولذلك قالَ تعالى محذِّراً عبادَهُ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةًۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأنفال].

وقال تعالى مُعَلِّماً عبادَه دعاءَ القلوبِ: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾ ﴾ [آل عمران].

السؤالُ الثاني: ما هي أسماءُ القلبِ في القرآنِ الكريمِ؟

للقلبِ عدةُ أسماءٍ منها:

الأولُ: الفؤادُ:

قال تعالى: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ ﴾ [هود:١٢٠].

(١) **صحيح**: رواه الترمذي (٣٥٢٢)، وأحمد (٦/٣١٥)، وأبو يعلى (٦٩٨٦)، وعبد بن حميد (١٥٣٤)، [«السلسلة الصحيحة» (٢٠١٩)].

(٢) **إسناد جيد**: رواه ابن ماجه (٢٠٩٢)، والنسائي (٣٧٦٢)، وأبو يعلى (٥٥٢٠)، [«السلسلة الصحيحة» (٢٠٩٠)].

وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [الفرقان:٣٢].

أي: قلبك سمي فؤاداً لتوقده وحرارته، وقيل: الفؤادُ غيرُ القلبِ، وهو عَينُ القلب، وقيل باطنُ القلبِ، وقيل غشاءُ القلبِ، والمشهورُ أنَّ الفؤاد هو القلبُ(١).

الثاني: الصدرُ:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾ [الشَّرح]؛ أي: قلبك.

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٢٩].

قال الألوسيُّ رحمهُ اللهُ: (وإنما ذكرَ الصدرَ؛ لأنه محلُّ القلب)(٢).

الثالث: القلبُ:

يُطلَقُ القلبُ أحياناً -ويُرادُ به: العقلُ كما قالَ تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق:٣٧].

قال ابنُ جريرٍ رحمه الله: (والقلبُ في هذا الموضعِ العقلُ، وهو من قولهم: ما لفلانٍ قلبٌ، وما قلبُه معه، أي: ما عقلُه معَه، وأينَ ذهب قلبُك؟ يعني: أينَ ذهبَ عقلُك)(٣).

قال القرطبيُّ رحمه الله: (القلبُ قد يعبَّرُ عنه بالفؤادِ، والصدرِ، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [الفرقان:٣٢]، وقال: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾

(١) «شرح النووي على صحيح مسلم» (٣٤/٢).
(٢) «روح المعاني» (١٢٦/٣).
(٣) «تفسير الطبري» (١٧٧/٢٦).

[الشَّرح] يعني في الموضعين: قلبك، وقد يُعَبَّرُ به عن العقلِ، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق:٣٧]، أي: عقلٌ لأنَّ القلبَ محلُّ العقلِ في قولِ الأكثرين، والفؤادُ محلُّ القلبِ، والصدرُ محلُّ الفؤادِ. واللهُ أعلم)[1].

السؤالُ الثالثُ: أينَ يوجَدُ العقلُ؟

اختلفَ العلماءُ في مكانِ العقلِ على قولين:

الأول: أنه في القلبِ.

وهو قولُ أكثرِ العلماءِ؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ [الحج:٤٦].

قال القرطبيُّ رحمهُ اللهُ: (أضافَ العقلَ إلى القلبِ؛ لأنه مَحَلُّه، كما أنَّ السمعَ مَحَلُّهُ الأذُنُ)[2].

وقال ابنُ عطيةَ رحمه الله: (وهذه الآيةُ تقتضي أنَّ العقلَ في القلبِ وذلك هو الحقُّ، ولا يُنكرُ أن للدماغ اتصالاً بالقلبِ يوجبُ فسادَ العقلِ متى اختلَّ الدماغ)[3].

الثاني: أنه في الدماغ.

واحتجوا بأنه إذا فسدَ الدماغُ فسدَ العقلُ.

---

(١) «تفسير القرطبي» (١/١٨٩).

(٢) «تفسير القرطبي» (١٢/٧٧).

(٣) «المحرر الوجيز» (٤/١٢٧).

قال النوويُّ ﷺ: (لا حجةَ لهم في ذلك؛ لأنَّ اللهَ سبحانه وتعالى أجرى العادةَ بفسادِ العقلِ عند فسادِ الدماغِ، معَ أنَّ العقلَ ليس فيه، ولا امتناعَ من ذلك).

والصوابُ: أنَّ العقلَ في القلبِ، كما ذهبَ إليه الأكثرُ، لكن بينَ القلبِ والدماغِ اتصالٌ يوجبُ فسادَ العقلِ عندَ فسادِ الدماغ.

السؤالُ الرابعُ: ما هيَ أنواعُ القلوبِ في القرآنِ الكريم؟

القلوبُ في القرآنِ الكريمِ ثلاثةُ أنواعٍ:

الأول: القلبُ السليمُ:

قال تعالى: ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ٨٨ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ٨٩﴾ [الشعراء].

الثاني: القلبُ الميت.

قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَاۚ﴾ [الأنعام:١٢٢].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ١٧٩﴾ [الأعراف].

الثالث: القلبُ المريض.

قال تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ١٠﴾ [البقرة].

وقال تعالى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب:٣٢].

وقد جمعَ اللهُ بينَ هذهِ القلوبِ الثلاثةِ في موضعٍ واحدٍ في كتابه فقال تعالى: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ -وهذا هو القلب المريض- ﴿وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ -وهذا هو القلب الميت- ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ﴾ -وهذا هو القلب السليم- ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾ [الحج].

والقلبُ الذي ينجو صاحبُهُ من عذابِ النارِ، ويفوزُ بالجنة هو القلبُ السليمُ المنيبُ.

قال تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ [ق].

فإذا أردتَ أيها المسلمُ أن تنجوَ من عذابِ الدنيا والآخرة، وتفوزَ بسعادةِ الدنيا والآخرة فاحرِص على إصلاحِ قلبِك في كلِّ لحظةٍ من حياتك.

وإصلاحُ القلبِ يكونُ بعدةِ وسائِلَ مأخوذةٍ من الكتابِ والسنة وهي:

الوسيلة الأولى: معرفة أهمية القلب بالنسبة للإنسان.

الوسيلة الثانية: الإيمانُ الصادق والعملُ الصالح.

الوسيلة الثالثة: العلم الشرعي.

الوسيلة الرابعة: زيارة القبور.

الوسيلة الخامسة: محاسبة النفس.

الوسيلة السادسة: الدعاء.

الوسيلة السابعة: استقامة اللسان.

الوسيلة الثامنة: اجتنابُ الفتن.

الوسيلة التاسعة: الرحمة.

الوسيلة العاشرة: رحمة اليتيم.

الوسيلة الحادية عشرة: إخلاص العمل لله، ومناصحةُ ولاة الأمر، ولزومُ الجماعة.

الوسيلة الثانية عشرة: الخوف والرجاء.

الوسيلة الثالثة عشرة: حبُّ المساجدِ.

الوسيلة الرابعة عشرة: ذكرُ الله تعالى.

الوسيلة الخامسة عشرة: القرآن الكريم.

الوسيلة السادسة عشرة: معرفةُ أقسام القلوب.

الوسيلة السابعة عشرة: معرفة أمراضِ القلوب وعلاجها.

ومعرفة أمراض القلوب وعلاجِها يكون ذلك بثلاثة أمورٍ:

الأمرُ الأول: معرفةُ حقيقةِ مرض القلب.

الأمرُ الثاني: معرفة أقسام أدوية أمراض القلب.

الأمرُ الثالث: معرفة الداء والدواء.

ثم تكلمت عن بعض أدواءِ القلوب وعلاجها ومنها:

الداء الأول: الشركُ **وعلاجُه** التوحيد.

الداء الثاني: الرياء **وعلاجه** الإخلاص.

الداء الثالث: النفاق **وعلاجه** الإيمان الصادق.

الداء الرابع: الجهل **وعلاجه** العلم الشرعي.

الداء الخامس: الكبر **وعلاجه** التواضع.

الداء السادس: الحسد **وعلاجه** العقيدة الصحيحَة.

الداء السابع: القسوة **وعلاجه** اللِّين.

الداء الثامن: شهوة الفرج (الزنا) **وعلاجه** الاستعفاف.

الداء التاسع: اتباع الهوى **وعلاجه** اتباع الشرع.

الداء العاشر: المعاصي والذنوب **وعلاجه** التوبة النَّصوح.

فهذه سلسلةٌ من الدروس وخطب الجمعة ألقيتها في مسجد إبراهيم الحاج حسن/الأردن-عمان، سائلاً المولى في علاه أن يُصلحَ قلوبنا جميعاً، ويجعلنا من أهلِ هذه الآية ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ٨٨ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ٨٩﴾ [الشعراء].

وكتبه

أبو إسلام

صالح بن طه عبد الواحد

إمام وخطيب مسجد إبراهيم الحاج حسن

مساء يوم الاثنين الموافق

العاشر من شهر الله المحرم (عاشوراء) لعام ١٤٣٦هـ

الثالث من شهر تشرين الثاني لعام ٢٠١٤م

الوسيلة الأولى لإصلاح القلوب

معرفةُ أهميةِ القلبِ بالنسبةِ للإنسان

القلبُ أشرفُ ما في الإنسان؛ إن زاغَ؛ زاغَ صاحبُهُ، وإن ضلَّ؛ ضلَّ صاحبُه، وإن اهتدى؛ اهتدى صاحبُه.

والقلبُ في الجسدِ كالراعي في رعيتِه، وكالمَلِكِ المتصرِّفِ في جنوده، فالعنايةُ بإصلاحِ القلوبِ، ومعرفةِ أحوالها، وأسبابِ صلاحِها وفسادِها، من أعظمِ المهمات، وأجلِّ الواجبات؛ لأنَّ القلبَ كالملكِ للأعضاءِ بصلاحِه يكونُ صلاحُها، وبفساده يكونُ فسادُها.

قال ابنُ القيمِ رحمه الله: (ولما كانَ القلبُ لهذه الأعضاءِ كالملكِ المتصرفِ في جنودِه... كان الاهتمامُ بتصحيحِه وتسديدِه أولى ما اعتمدَ عليه السالكون، والنظرُ في أمراضِه وعلاجِها أهمُّ ما تَنَسَّكَ به الناسكون)(١).

وقد توافرت دلائلُ الشرعِ ونصوصُ الوحيِ على إيضاحِ ذلك، وبيانِ أهميتِه، وعظيمِ شأنِه ومنها:

أولاً: بصلاح القلب يَصلُحُ الجسدُ كُلُّه، وبفسادِه يَفسُدُ الجسدُ كُلُّه.

عن النعمانِ بنِ بشيرٍ رضي الله عنهما قال سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول: «**إِنَّ الحَلاَلَ بَيِّنٌ، وَإِنَّ الحَرَامَ بَيِّنٌ، وَبَينَهُمَا مُشتَبِهَاتٌ، لاَ يَعلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ**

(١) «إغاثة اللهفان» (١/٥).

استَبرَأَ لِدِينِهِ وَعِرضِهِ، وَمَن وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الحَرَامِ، كَالرَّاعِي يَرعَى حَولَ الحِمَى يُوشِكُ أَن يَرتَعَ فِيهِ، أَلاَ وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلاَ وَإِنَّ حِمَى اللَّهِ مَحَارِمُهُ، أَلاَ وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضغَةً إِذَا صَلَحَت صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَت فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلاَ وَهِيَ القَلبُ»[1].

• قال النوويُّ ﵀: (أجمعَ العلماءُ على عِظَمِ موقعِ هذ الحديثِ، وكثرةِ فوائدِه؛ وأنه أحدُ الأحاديثِ التي عليها مدارُ الإسلامِ،... قال العلماءُ: وسببُ عِظَمِ موقعِه أنه ﷺ نبه فيه على إصلاحِ المطعمِ والمشربِ والملبسِ وغيرِها... ثم بينَ أهمَّ الأمورِ؛ وهو مراعاةُ القلبِ، فقال ﷺ: «**ألا وإنَّ في الجسد مضغةً... إلى آخره**»[1]، فبين ﷺ أنَّ بصلاحِ القلبِ يصلُح باقي الجسدِ، وبفسادِه يفسدُ باقيه)[2].

وقال أيضًا: (وفي هذا الحديثِ: التأكيدُ على السعيِ في صلاحِ القلبِ، وحمايتِهِ من الفسادِ)[3].

ثانياً: القلبُ محلُّ النيات.

قال ﷺ: «**إِنَّمَا الأَعمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امرِئٍ مَا نَوَى، فَمَن كَانَت هِجرَتُهُ إِلَى اللهِ ورسولِهِ فهجرتُهُ إلى اللهِ ورسوله، ومن كانت هجرتُهُ لدُنيَا يُصِيبُهَا، أو امرَأَةٍ يَنكِحُهَا فَهِجرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيهِ**»[4].

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩).

(٢) «شرح النووي على صحيح مسلم» (١١/٢٧).

(٣) «شرح النووي على صحيح مسلم» (١١/٢٩).

(٤) **متفق عليه**: رواه البخاري (١)، ومسلم (١٩٠٧) بلفظ بالنيّة.

والنيةُ مَحَلُّها القلبُ، فإن صلَحَ القلبُ، صَلَحَتِ النياتُ، وإن صلحتِ النيات، قُبِلتِ الأَعمالُ عندَ الله تعالى، وإن فسد القلبُ، فسدتِ النياتُ، وإن فسدتِ النياتُ رُدَّتِ الأعمالُ، ولم تُقبلْ عندَ اللهِ عز وجل، ومن الأمثلةِ على ذلك:

الأول: مثالٌ لصلاح القلوب والنيات وقبول الأعمال:

• عن عمرَ بنِ الخطابِ رضي الله عنه قال سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «**انطَلَقَ ثَلَاثَةُ رَهطٍ مِمَّن كَانَ قَبلَكُم حَتَّى آوَاهُمُ المَبِيتُ إِلَى غَارٍ فَدَخَلُوهُ، فَانحَدَرَت صَخرَةٌ مِن الجَبَلِ فَسَدَّت عَلَيهِمُ الغَارَ، فَقَالُوا: إِنَّهُ لَا يُنجِيكُم مِن هَذِهِ الصَّخرَةِ إِلَّا أَن تَدعُوا اللَّهَ -تعالى- بِصَالِحِ أَعمَالِكُم، قَالَ رَجُلٌ مِنهُم: اللَّهُمَّ كَانَ لِي أَبَوَانِ شَيخَانِ كَبِيرَانِ وَكُنتُ لَا أَغبِقُ[1] قَبلَهُمَا أَهلًا وَلَا مَالًا، فَنَأَى بِي طَلَبُ الشَّجَرِ يوماً فلم أُرِح[2] عَلَيهِمَا حَتَّى نَامَا، فَحَلَبتُ غَبُوقَهُمَا فَوَجَدتُهُمَا نَائِمَينِ، فكَرِهتُ أن أُوقِظَهُمَا، وَأَن أغبِقَ قَبلَهُمَا أهلاً أو مالاً، فَلَبِثتُ والقَدَحُ عَلَى يَدِي أَنتَظِرُ استِيقَاظَهُمَا، حَتَّى بَرَقَ الفَجرُ[3]، والصِّبيَةُ يَتَضَاغَونَ[4] عِندَ قَدَميَّ، فاستَيقَظَا فَشَرِبا غَبُوقَهُمَا، اللَّهُمَّ إن كُنتُ فَعَلتُ ذلِكَ ابتِغَاءَ وَجهِكَ فَفَرِّج عَنّا مَا نَحنُ فِيهِ مِن هذِهِ الصَّخرَةِ، فانفَرَجَت شَيئاً لا يَستَطيعُونَ الخُروجَ مِنهُ.**

---

(١) أي: لا أقدّم قبلهما أهلاً ولا مالاً من رقيق وخادم.

(٢) أي: أرجع.

(٣) أي: ظهر ضوؤه.

(٤) يصيحون من الجوع والضّغاء: هو البكاء بصوت.

قَالَ الآخرُ: اللَّهُمَّ إِنَّهُ كانَت لِيَ ابنَةُ عَمّ، كَانَت أَحَبَّ النّاسِ إِلَيَّ» وفي رواية: «كُنتُ أُحِبُّها كأَشَدِّ مَا يُحِبُّ الرِّجَالُ النساءَ، فأَرَدتُهَا عَلَى نَفسِهَا[1] فامتَنَعَت مِنِّي حَتَّى أَلَمَّت بها سَنَةٌ مِنَ السِّنِينَ[2]، فَجَاءتنِي فَأَعطَيتُهَا عِشرِينَ وَمئةَ دينَارٍ عَلَى أن تُخَلِّيَ بَينِي وَبَينَ نَفسِهَا؛ فَفعلَت، حَتَّى إِذَا قَدَرتُ عَلَيهَا».

وفي رواية: «فَلَمَّا قَعَدتُ بَينَ رِجلَيهَا، قالت: اتَّقِ اللهَ وَلاَ تَفُضَّ الخَاتَمَ[3] إِلَّا بِحَقِّهِ، فَانصَرَفتُ عَنهَا وَهيَ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ، وَتَرَكتُ الذَّهَبَ الَّذِي أعطَيتُها، اللَّهُمَّ إن كُنتُ فَعَلتُ ذلِكَ ابتِغاءَ وَجهِكَ فافرُج عَنَّا مَا نَحنُ فيهِ، فانفَرَجَتِ الصَّخرَةُ غَيرَ أَنَّهُم لا يَستَطِيعُونَ الخُرُوجَ مِنهَا.

وَقَالَ الثَّالِثُ: اللَّهُمَّ استَأجَرتُ أُجَرَاءَ، وأَعطَيتُهُم أجرَهُم غيرَ رَجُلٍ واحِدٍ؛ تَرَكَ الَّذِي لَهُ وَذَهبَ، فَثمَّرتُ أجرَهُ حَتَّى كَثُرَت مِنهُ الأموَالُ، فَجَاءنِي بَعدَ حِينٍ فَقالَ: يَا عبدَ اللهِ! أَدِّ لِي أجرِي، فَقُلتُ: كُلُّ مَا تَرَى مِن أجرِكَ: مِنَ الإبلِ وَالبَقَرِ والغَنَمِ والرَّقيقِ. فقالَ: يَا عبدَ اللهِ، لاَ تَستَهزِىء بِي. فَقُلتُ: لاَ أَستَهزِئُ بِكَ، فَأَخَذَهُ كُلَّهُ فاستَاقَهُ فَلَم يترُك مِنهُ شَيئاً. اللَّهُمَّ إن كُنتُ فَعَلتُ ذلِكَ ابتِغَاءَ وَجهِكَ فافرُج عَنَّا مَا نَحنُ فِيهِ فانفَرَجَتِ الصَّخرَةُ فَخَرَجُوا يَمشُونَ»[4].

---

(١) أي: الجماع.

(٢) أي: نزلت بها سنة من السنين الجدبة.

(٣) كناية عن فض الفرج وعذرة البكارة.

(٤) **متفق عليه**: رواه البخاري (٢٢٧٢)، ومسلم (٢٧٤٣).

فانظر أخي المسلم! كيفَ فرَّج اللهُ سبحانه وتعالى الصخرةَ عن هؤلاءِ المكروبين؛ بصالحِ أعمالِهم وإخلاصِهم للهِ تعالى، وصلاح قلوبهم.

المثالُ الثاني: مثالٌ لفساد القلوب والنيات وعدم قبول الأعمال.

عن أبي هريرةَ رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يقول: «**إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقضَى يَومَ القِيَامَةِ عَلَيهِ رَجُلٌ استُشهِدَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ فَمَا عَمِلتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلتُ فِيكَ حَتَّى استُشهِدتُ، قَالَ: كَذَبتَ؛ وَلَكِنَّكَ قَاتَلتَ لأَن يُقَالَ: جَرِيءٌ! فَقَد قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجهِهِ حَتَّى أُلقِىَ فِى النَّارِ، وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ العِلمَ وَعَلَّمَهُ، وَقَرَأَ القُرآنَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلتَ فيها؟ قَالَ: تَعَلَّمتُ العِلمَ وَعَلَّمتُهُ، وَقَرَأتُ فِيكَ القُرآنَ، قَالَ: كَذَبتَ؛ وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمتَ لِيُقَالَ: عَالِمٌ! وَقَرَأتَ القُرآنَ لِيُقَالَ: قَارِئٌ! فَقَد قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجهِهِ حَتَّى أُلقِيَ فِى النَّارِ، وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيهِ، وَأَعطَاهُ مِن أَصنَافِ المَالِ، فَأُتِىَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا قَالَ: فَمَا عَمِلتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكتُ مِن سَبِيلٍ تُحِبُّ أَن يُنفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنفَقتُ فِيهَا لَكَ، قَالَ: كَذَبتَ؛ وَلَكِنَّكَ فَعَلتَ لِيُقَالَ: جَوَادٌ! فَقَد قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجهِهِ حتى أُلقِيَ فِي النَّارِ**»(١).

فانظر أخي المسلم كيف رُدَّت أعمالُهم ولم تقبلْ بفسادِ قلوبِهم ونياتِهم.

---

(١) **صحيح**: رواه مسلم (١٩٠٥).

ثالثاً: القلبُ محلُّ القرآنِ.

قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ -أي: القرآنُ- ﴿لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ١٩٥﴾ [الشعراء].

وقال تعالى: ﴿بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ﴾ [العنكبوت:٤٩].

وقد عابَ اللهُ عز وجل على الذين لا يستخدمون قلوبَهم في تدبر القرآنِ وحفظه.

فقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ٢٤﴾ [محمد].

فإذا أردتَ أخي المسلم! أن تكونَ من أهلِ القرآنِ، فأصلِح قلبَك أولاً وطَهِّرْهُ مِن أدناسِ المعاصي، فإنَّ القلبَ الطاهرَ هو محلُّ القرآنِ.

رابعاً: القلبُ محلُّ نظرِ الله تعالى.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ لاَ يَنظُرُ إِلَى صُوَرِكُم وَأَموَالِكُم، وَلَكِن يَنظُرُ إِلَى قُلُوبِكُم وَأَعمَالِكُم**»(١).

فالاعتبارُ بما في القلوبِ منَ الإيمانِ والصدقِ والإخلاصِ، وما في الجوارحِ من الأعمالِ الصالحةِ، فهذا موضعُ نظَرِ الخالقِ سبحانه، لا الصورِ الحسنةِ، أو الأموالِ الكثيرةِ.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٥٦٤).

قال المِناويُّ رحمه الله: (قد أبانَ هذا الحديثُ أنَّ محلَّ القلبِ موضعُ نظرِ الرب عز وجل، فيا عجباً ممن يهتمُّ بوجهِه الذي هو محلُّ نظرِ الخلقِ، فيغسلُه وينظفُه من القَذَرِ والدنسِ، ويُزينُه بما أمكن؛ لئلا يطلعَ فيه مخلوقٌ على عيبٍ، ولا يهتمُّ بقلبهِ الذي هو محلُّ نظرِ الخالقِ؛ فيطهرُه ويزينُه لئلا يطلعَ ربُّه على دنسٍ أو غيرِه فيه)(١).

خامساً: القلبُ هو محلُّ التقوى.

سُئِلَ ﷺ عن القلبِ المخمومِ فقالَ: «**هو التقيُّ النقيُّ الذي لا إثمَ فيه ولا بغيَ ولا حسد**»(٢).

وقال ﷺ: «**التَّقوَى هَا هُنَا، التَّقوَى هَا هُنَا، التَّقوَى هَا هُنَا**» وأشارَ إِلَى صَدرِهِ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ(٣).

وقال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ﴾ [الأعراف:٢٦].

والتقوى يا عبدَ اللهِ! هي زادُك إلى الدارِ الآخرة، قال تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٧﴾ [البقرة]، والتقوى هي التي تمنعُكَ منَ اقترافِ المعاصي والذنوب.

(١) «فيض القدير» (٢/٢٧٨).

(٢) **صحيح**: رواه ابن ماجه (٤٢١٦)، والبيهقي في «الشعب» (٤٤٦٢)، [«صحيح الترغيب» (٢٨٨٩)].

(٣) **صحيح**: رواه مسلم (٢٥٦٤).

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ٢٠١﴾ [الأعراف].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ٢٧ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٨ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٩﴾ [المائدة].

والتقوى هي التي تدفعُكَ إلى الأعمالِ الصالحة، قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤﴾ [آل عمران].

سادساً: القلبُ سريعُ التقلب.

وهل سُمِّيَ القلبُ قلباً إلا لسرعةِ تقلبهِ.

عن عبدِ اللهِ بنِ عمروِ بنِ العاصِ رضي الله عنهما أنه سمعَ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «**إِنَّ قُلُوبَ بَنِى آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ أُصبُعَيْنِ مِن أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ، كَقَلْبٍ وَاحِدٍ يُصَرِّفُهُ حَيثُ يَشَاءُ**»، ثم قالَ رسولُ الله ﷺ: «**اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ القُلُوبِ صَرِّف قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ**»[1].

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٦٥٤).

قولُه: «**اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ القُلُوبِ...**»، قال القرطبيُّ رحمه الله: (فإذا كان النبيُّ ﷺ يقوله معَ عظيمِ قَدرِه، وجلالِ منصِبِه، فنحنُ أولى بذلكَ اقتداءً به، قال الله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ﴾ [الأنفال:٢٤])[١].

وقال المِناويُّ رحمه الله: (قال الحليميُّ: هذا تعليمٌ منه لأمتِه أن يكونوا ملازمينَ لمقامِ الخوفِ، مُشفقينَ من سلبِ التوفيقِ، غيرَ آمنين من تضييعِ الطاعاتِ، وتتبعِ الشهواتِ)[٢].

قال البغويُّ رحمه الله: (فيه بيانُ أنَّ العبدَ ليسَ إليه شيءٌ من أمرِ سعادتِه أو شَقاوتِه، بل إنِ اهتدى فبهدايةِ اللهِ إياه، وإن ثَبَتَ على الإيمانِ فبتثبيتِه، وإن ضلَّ فبصرفِه عن الهدى. قالَ اللهُ سبحانه وتعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ﴾ [الحُجُرات:١٧]، وقالَ اللهُ سبحانه وتعالى إخباراً عن حمدِ أهلِ الجنةِ: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف:٤٣]، وقال الله عز وجل: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [إبراهيم:٢٧].

فاحذر أخي المسلمَ! دائماً من تقلّبِ القلبِ، وأكثِر من دعاءِ النبيِّ ﷺ: «**يَا مُقَلِّبَ القُلُوبِ ثَبِّت قَلبِي عَلَى دِينِكَ**»[٣].

---

(١) «تفسير القرطبي» (١/١٨٨).

(٢) «فيض القدير» (٥/١٣٩).

(٣) **صحيح**: رواه الترمذي (٢١٤٠)، وأحمد (٣/١١٢)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٦٨٣)، [«صحيح الجامع» (٧٩٨٧)].

سابعاً: القلبُ آنيةُ اللهِ في أرضه.

عن أبي عِنَبَةَ عبدِ اللهِ بن عِنَبَةَ رضي الله عنه أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: «**إنَّ للهِ آنيةً مِن أهلِ الأَرضِ، وآنيةُ رَبِّكُم قلوبُ عبادهِ الصالحينَ، وأَحَبُّها إليه أَليَنُهَا وَأَرَقُّها**»(١).

قالَ ابنُ تيميةَ رحمه الله: (وهذا مَثَلٌ حسنٌ، فإنَّ القلبَ إذا كان رقيقاً ليناً؛ كان قَبولُه للعلمِ سهلاً يسيراً، ورسَخَ العلمُ فيه وثبتَ وأَثَّرَ، وإن كانَ قاسياً غليظاً؛ كان قَبولُه للعلمِ صعباً عسيراً).

قولُه: «**وأَحَبُّها إليه**»، أي: أكثرُها حباً عنده(٢).

فاحرِص أخي المسلمَ! على طهارةِ قلبك، لأنَّ القلوبَ هي آنيةُ اللهِ من أهلِ الأرضِ، وهي أوعيةٌ، خيرُها أوعاها للعلمِ والإيمانِ؛ كيف لا؟

والنبيُّ صلى الله عليه وسلم يقولُ: «**القُلُوبُ أَوعِيَةٌ، وَبَعضُهَا أَوعَى مِن بَعضٍ، فَإِذَا سَأَلتُم اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَيُّهَا النَّاسُ فَاسأَلُوهُ وَأَنتُم مُوقِنُونَ بِالإِجَابَةِ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَستَجِيبُ لِعَبدٍ دَعَاهُ عَن ظَهرِ قَلبٍ غَافِلٍ**»(٣).

فهذه أسبابٌ تُبينُ أهمية القلب وتدفع للحديث عنه وعن وسائل إصلاحه، وهناك أسبابٌ أخرى تدفع للحديث عن القلب ومنها:

---

(١) **حسن**: رواه الطبراني في «مسند الشاميين» (٨٤٠)، [«صحيح الجامع» (٢١٦٣)].

(٢) «فيض القدير» (٤٩٦/٢).

(٣) **حسن لغيره**: رواه أحمد (١٧٧/٢)، والطبراني في «الكبير» (١٤١٠٠)، [«صحيح الترغيب» (١٦٥٢)].

أولاً: أَنَّ اللهَ سبحانه وتعالى أَمَرَ بتطهيرِ القلبِ، وَتنقيتِه، وَتزكيتِه، بَل جَعَلَ اللهُ سبحانه وتعالى مِن غاياتِ الرسالةِ المحمديةِ تزكيةَ النّاسِ، وَقدَّمَها على تعليمِهم الكتابَ وَالحكمة لأهميتِها، يقولُ اللهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة:٢].

قَالَ ابنُ القيمِ رحمه الله تعالى في قولِه تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾ [المدَّثر]: (جُمهُورُ المفسرينَ مِن السلفِ وَمَن بعدَهم عَلَى أَنَّ المرادَ بالثيابِ هنَا: القلبُ)(١).

ويقولُ سبحانه وتعالى عَن اليهودِ وَالمنافقينَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُواْ ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٤١﴾ [المائدة].

ثانياً: غَفلَةُ كثيرٍ من النّاسِ عَن قلوبِهم حتى دبَّت الغفلةُ عِندَ الخواصِّ، حتى أَنَّكَ ترى الكثيرَ مِن طلبةِ العلمِ وَالملتزمينَ يتوسعُ في الهدي الظاهرِ؛ وَربما يبحثُ

(١) «إغاثة اللهفان» (١/٥٢).

وَيَتَحرَّى بعضَ الأعمالِ الدقيقةِ، وَيتفقهُ فيها فقهاً جيداً، ولا شك أن البحثَ فيها نافعٌ وَمُهمٌ، وَلَكِن حِين يغفلُ عَن البحثِ فِي أَعمَالِ القلبِ وَأحوالِهِ، وَأدوائِهِ وَعِللِهِ، وَهذا أهمُّ وَأجلُّ؛ بَل وبِهِ البدايةُ؛ وبإهمالها وتأخيرها تكُونُ العَقَبَاتُ التي يَصعُبُ تَدَارُكُهَا مَعَ خُطُورَةِ المرضِ وعِظَمِ الآفة.

والذي ينظرُ لدعوةِ النبي ﷺ يَرَى أنَّها بدأت بالتزكيةِ والتربيةِ قَبلَ نزولِ الشرائعِ والأحكامِ، وَقَد رَمَى النبي ﷺ بِهَذَا الجيلِ الذي رَبَّاهُ وَزَكَّاهُ بَينَ بطونِ الأنصارِ بعدَ الهجرةِ؛ فأنشأَ بهم خيرَ جيلٍ عرفتهُ البشريةُ.

ثالثاً: إنَّ كثيراً مِن المشكلاتِ بَينَ النَّاس، وَبالأَخصِّ بَينَ بَعضِ طلبةِ العِلمِ وكثيرٍ مِن الملتزمينَ، سببُها أمراضٌ تَعتَرِي القلوبَ، وَلا تُبنى عَلَى حقائقَ شرعيةٍ، فهذه المشكلاتُ تترجمُ أحوالَ قلوبِ أصحابِها، وَمَا فِيهَا مِن أمراضٍ مثل: الحسدِ، وَالغِلِ، وَالكِبرِ، وَالاحتقار، وَسوءِ الظن، ودعوى الصَّواب... إلخ، وَسبيلُ حلِّها الأمثلُ هو علاجُ هذه القلوبِ، وَإلا فالمرضُ سيظهرُ بَينَ حِينٍ وَآخرَ كُلَّمَا ظهرت دواعِيه.

رابعاً: إنَّ سلامةَ القلبِ وَخلوصَه مِن كلِّ مَا يعيقُه عَن اللهِ سببٌ لسعادةِ الدُّنيَا وَالآخرةِ، فسلامةُ القلبِ من الشِّركِ والرِّياءِ والبدعِ والغلِّ وَالحسدِ وَالبغضاءِ وَسائرِ الأدواءِ؛ سببٌ للسّعادةِ وَالطمأنينةِ فِي الدُّنيَا وَالآخرةِ: ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ۝٨٩﴾ [الشعراء].

وَانظُر إِلَى حَالِ أَبِي بكرٍ ﷺ وَغيرِه ممن رُزِقَ قلبًا سليماً، خالياً من الضغائنِ وَالعِلَلِ، كَيفَ استَطَاعَ أَن يسبقَ غيرَه إِلَى اللهِ تعالى، وَما استطاعَ أَن ينافسَه أحدٌ؛ رَغمَ أَنَّهُ لَم يَلتَفِت إِلَى منافسةِ أحدٍ.

فَعَن عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: (أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يومًا أَن نَتَصَدَّقَ فَوَافَقَ ذَلِكَ مَالاً عِندِي، فَقُلتُ: اليَومَ أَسبِقُ أَبَا بَكرٍ إِن سَبَقتُهُ يومًا، فَجِئتُ بِنِصفِ مَالِي. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَا أَبقَيتَ لأَهلِكَ؟**»، قُلتُ: مِثلَهُ، قَالَ: وَأَتَى أَبُو بَكرٍ بِكُلِّ مَا عِندَهُ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَا أَبقَيتَ لِأَهلِكَ؟**»، قَالَ: أَبقَيتُ لَهُم اللَّهَ وَرَسُولَهُ، قُلتُ: لَا أُسَابِقُكَ إِلَى شَيءٍ أَبَدًا)(١).

وأهميةُ معرفةِ السَّيرِ إِلَى اللهِ عز وجل، وَإِصلاحِ القلبِ وَالمقاصدِ وَالأعمالِ؛ وَتعليمِ النّاسِ ذلك، وَتنبيههم على مفسِداتِ القلوبِ وَآفاتِها مِن أَعظَمِ الأعمالِ التي يرجوها المسلمُ. فكما أَنَّنا نشهدُ مَن يتخصَّصُ فِي أنواعِ العلومِ كالحديثِ وَالفقهِ والتفسيرِ وَالنَّحوِ وَالفرائضِ وَغيرِها، فيتقن هذه العلومَ، وَيبلِّغها النّاسَ، فَنَحنُ بحاجة إِلَى مَن يتقنُ الحديثَ عَن مقاماتِ القلبِ وَأَحوالِه، وَأعمالِه، وَعللِه وَأدوائِه، فيعلمها النَّاس، وَيصححُ مقاصدهم وَنيَّاتِهم، وَلَيسَ هَذَا دُونَ غيرِه مِن العلومِ الشرعيةِ، وَمما يدعو إلى الحزنِ وَالأَسَى أَنَّ أكثرَ الذينَ يتصدَّرونَ لمخاطبةِ القلوبِ فِي القديمِ وَالحديثِ غالبُهم عَلَى عَقَائِدَ منحرفةٍ وَبدعٍ مشتهرةٍ، يَجرِفُونَ إِليها القلوبَ، وَيطبعون عليها النفوسَ.

---

(١) حسن: رواه الترمذي (٣٦٧٥)، وأبو داود (١٦٧٨)، والدارمي (١٧٠١)، وعبد بن حميد (١٤)، [«المشكاة» (٦٠٣٠)].

فَهَذَا عمرو بن عبيد[١] الذي كان يُضرَبُ به المثلُ في الزُّهدِ وَالورعِ وَالعبادةِ وَحُسنِ الوعظِ وَترقيقِ القلوبِ؛ كان رأساً من رؤوسِ المبتدعةِ، فكان قَدَريّاً[٢] وَمِن دعاةِ المعتزلةِ[٣]، حتى غَرَّرَ بزهدِه وَشدَّةِ عبادتِه أَكثَرَ عامةِ المسلمينَ في زمانِه، حتى كادَ سفيانُ الثوري -أميرُ المؤمنينَ في الحديث- نفسُه أَن يهلكَ على يديهِ في أَوَّلِ الطلبِ لولا عنايةُ اللهِ سبحانه وتعالى لَهُ، وَصرفُه عَنهُ على يَدِ شيخِه أيوبَ السختياني.

فعن عبدِ الواحدِ بنِ زيدٍ قَالَ: (قَالَ لي أيوبُ: قل للثورِي: لا تَصْحَبْ عمرَو ابنَ عبيد. قَالَ: فقلتُ ذلك لهُ، فقالَ: إني أجدُ عندهُ أشياءَ لا أجدهَا عندَ غيرِه. فقلتُ ذلكَ لأيوب، فقالَ لي أيوبُ: مِن تلك الأشياءِ أخافُ عليه)[٤].

ولذلك كان لزاماً أن نتكلمَ عن القلبِ ووسائل إصلاحه وأحوالِه وعللِه وأمراضِه والوقايةِ منها، إذ الحديثُ عن القلبِ حديثٌ محببٌ للنفوسِ، فَبِمُجرَّدِ ذكر القلبِ ترى العينَ تنظرُ والأذنَ تسمعُ، بَل تَرَى كُلَّ جَارِحَةٍ فِيكَ تَشتَاقُ للسَّماعِ[٥].

(١) انظر «الميزان» للذهبي (٣/٢٧٣).

(٢) القدرية الذين ينفون القدر فأخذوا من الآيات والأحاديث ما يدل على إثبات القدرة المطلقة للعبد، فأثبتوا الفعل للإنسان ونفوا تقدير الله تعالى له، وأخذوا ما يثبت على أن الفعل من الإنسان وجعلوا الإنسان هو الذي يخلق فعل نفسه، والصواب أن الله خالق كل شيءٍ، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ۝٩٦﴾ [الصافات].

(٣) وهم في الحقيقة امتداد لفكر الخوارج، لكنهم لا يقولون: إن مرتكب الكبيرة يخرج من الملة، وإنما قالوا: يخرج من الإسلام ولا يدخل الكفر، فهو في منزلة بين المنزلتين، فهم لا يخرجونه من الإسلام؛ لأنّ الآيات والأحاديث التي في المؤمنين لا تنطبق عليه، ولا يدخلونه في الكفر لأن الآيات والأحاديث التي في الكافرين لا تنطبق عليه، فجعلوه في منزلة بين المنزلتين، ونفوا الصفات عن الله سبحانه وتعالى.

(٤) أبو نعيم في «الحلية» (٧/٣٣).

(٥) انظر «كتاب القلوب وآفاتها» (ص١٣-١٧).

الوسيلة الثانية لإصلاح القلوب

الإيمانُ الصادقُ والعملُ الصالحُ

الإيمانُ الصادقُ: قولٌ باللسانِ واعتقادٌ بالقلبِ وعملٌ بالجوارحِ، يزيدُ بالطاعةِ وينقصُ بالمعصيةِ.

والإيمانُ الصادقُ زينةُ القلبِ، ولذلكَ كانَ ﷺ يقول في دعائِه: «**اللَّهمَّ حبِب إلينا الإيمانَ وزيِّنهُ في قلوبنا، وكَرّه إلينا الكفرَ والفسوقَ والعصيانَ واجعلنا من الراشدين**»[1].

وهذا الدعاءُ مأخوذٌ من قولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ۝٨﴾ [الحُجُرات].

والإيمانُ الصادقُ له أركانٌ وشُعَبٌ:

قال ﷺ: «**الإيمانُ أن تؤمنَ باللهِ وملائكتِه وكتبِهِ ورسلِه واليومِ الآخرِ، وتؤمنَ بالقَدَرِ خيرِه وشَرِّه**»[2].

وقال ﷺ: «**الإيمانُ بضعٌ وسبعونَ شعبةً أو بعضٌ وستونَ شعبةً أعلاها لا إله إلا الله، وأدناها إماطةُ الأذى من الطريقِ، والحياءُ شعبةٌ منَ الإيمانِ**»[3].

---

(١) **صحيح**: رواه النسائي في «الكبرى» (١٠٣٧٠)، وأحمد (٣/ ٤٢٤)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٦٩٩)، والبزار (٣٧٢٤)، [«صحيح الأدب المفرد» (٥٤١)].

(٢) **صحيح**: رواه مسلم (٨).

(٣) **صحيح**: رواه مسلم (٣٥)، والحاكم (٩٠٠٤) واللفظ له.

والإيمانُ الصادقُ الذي هو زينةُ القلبِ يهدي صاحبَهُ إلى كُلِّ خيرٍ، قال تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [التغابن].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾﴾ [الطلاق].

والذين زَيَّنوا قلوبَهم وطهَّروها بالإيمان الصادقِ يتحصلون على ثمراتِ الإيمانِ في الدنيا والآخرة ومنها:

١. الأمنُ والأَمانُ، ولا يكونُ إلاّ لأهلِ الإيمانِ.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام].

٢. الحياةُ الطيبةُ وطمأنينةُ القلوبِ، ولا تكونُ إلاّ لأهلِ الإيمانِ.

قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل].

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد].

ولذلكَ قالَ بعضُ الصالحينَ: (لو علمَ الملوكُ وأبناءُ الملوكِ ما نحنُ فيه من النعيمِ والسرورِ، لجَالدونا عليهِ بالسيوفِ)[١].

(١) رواه أبو نعيم (٧/ ٣٧٠)، والبيهقي في «الزهد الكبير» (٨٠).

٣. الشيطانُ ليسَ له سلطانٌ على أهلِ الإيمانِ.

قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٩٩ إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ ١٠٠﴾ [النحل].

٤. الله عزَّ وجلَّ يتولّى الدفاعَ عن أهلِ الإيمانِ.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الحج:٣٨].

وقال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ٦٣﴾ [يونس].

وقال تعالى في الحديثِ القدسيِّ: «مَن عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَد آذَنتُهُ بِالحَربِ»[١].

٥. الأجرُ العظيمُ والبشرى يومَ القيامةِ لأهلِ الإيمان.

قال تعالى: ﴿وَسَوۡفَ يُؤۡتِ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَجۡرًا عَظِيمًا ١٤٦﴾ [النساء].

وقال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضۡلًا كَبِيرًا ٤٧﴾ [الأحزاب].

٦. الأُخوّةُ الصادقةُ والاتحادُ والاعتصامُ لا تكونُ أبداً إلا في ظلِّ الإيمانِ.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٌ﴾ [الحجرات:١٠].

وقال ﷺ: «المُسلِمُ أَخُو المُسلِم»[١].

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٦٥٠٢).

وقال ﷺ: «المُؤمِنُ لِلمُؤمِنِ كَالبُنيَانِ، يَشُدُّ بَعضُهُ بَعضاً»، وَشبَّكَ بين أصابعِه ﷺ[2].

وقال ﷺ: «**مَثَلُ المُؤمِنِينَ فِي تَوَادِّهِم وَتَرَاحُمِهِم وَتَعَاطُفِهِم، مَثَلُ الجَسَدِ، إِذَا اشتكَى مِنهُ عُضوٌ، تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالحُمَّى**»[3].

وكم منَ الناسِ من يدَّعي الإيمانَ وهو ليسَ بمؤمنٍ!

قال ربُّنا جَلَّ وعلا: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾﴾ [البقرة]

ولذلك كانَ من حكمةِ اللهِ جلَّ وعلا أنه لم يترك عبادَه هكذا بدونِ امتحانٍ واختبارٍ وابتلاءٍ، نعم! فإنه سبحانه إنما ابتلاهم لِيَميزَ الصادقَ في إيمانهِ من الكاذبِ المنافقِ.

٧. الثباتُ على الدين.

قال تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾ [إبراهيم].

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري (٢٤٤٢)، ومسلم (٢٥٨٠).

(٢) **متفق عليه**: رواه البخاري (٢٤٤٦)، ومسلم (٢٥٨٥) واللفظ للبخاري.

(٣) **متفق عليه**: رواه البخاري (٦٠١١)، ومسلم (٢٥٨٦) واللفظ لمسلم.

ومن الأمثلة على ثباتِ المؤمنينَ على دينهم:

المثالُ الأول: السَّحَرَةُ في قصةِ موسى مع فرعون:

لما ظهرَ أمرُ نبيِّ اللهِ موسى عليه السلام وكانَ من خبرِه ما كانَ، لم يكن من فرعونَ - عليهِ منَ اللهِ ما يستحقُّه- إلا أن جَمعَ السَّحَرةَ ليبرهنَ للناسِ أنَّ موسى عليه السلام ما هو إلا ساحرٌ!

وأرسلَ فرعونُ في المدائنِ حاشرينَ ليأتوا بِكُلِّ سحَّارٍ عليمٍ وانتشرَ الخبرُ.

وقيل للناسِ: هل أنتم مجتمعونَ لعلنا نتبعُ السحرةَ إن كانوا هم الغالبين؟ فاجتمَع الناسُ من كُلِّ مكانٍ، وجاءَ السحرةُ المَهَرَةُ من كلِّ مكانٍ لِنُصرة فِرعونَ على موسى وما جاءَ به.

وتعالَوا معي عبادَ الله لنتأملَ حالَ السحرةِ قبلَ أن يدخلَ الإيمانُ في قلوبِهم:

طلابُ دنيا، همتُهم دنيئةٌ، نظرتُهم قاصرةٌ، يحبونَ الشهواتِ والأعراضَ الدنيويةَ.

ولذلك قَبل أن ينزلوا إلى المبارزَةِ ذهبوا إلى فرعونَ، وقالوا له: ﴿أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾﴾ [الشعراء].

وفرعونُ يعرف طبائعَ هذا الصنفِ من البشرِ، فقال لهم مُطَمْئناً ومُبَشراً: ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الشعراء] أي: إن لكم ما تشتهونَ من الأموالِ، والهباتِ، ولكم كذلكَ من الرُّتَبِ والدرجاتِ ما تتطلعُ إليه نفوسُكم، وتصبو إليه شهواتُكم.

فلما اطمأنَّ السحرةُ على مصالحِهِمُ الدنيويةِ -لأنهم طلابُ دنيا- نزلوا إلى المبارزةِ.

وفي أرضِ المبارزةِ، السَّحَرةُ لا هَمّ لهم إلا الدنيا والمالُ والمناصبُ، لذلك قبلَ المبارزةِ تنازعوا أمرَهم بينهم، وأسَرُّوا النجوى! فما هي هذه النجوى التي أسَرُّوها؟ لقد أظهرَها اللهُ لنا في كتابه فقالَ تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُواْ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُواْ صَفًّاۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾﴾ [طه].

ثم بعدَ ذلك قالوا لموسى عليه السلام في أرضِ المبارزةِ -والناسُ من حولهم ينظرون:

﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾﴾ [طه].

وفي موضعٍ آخرَ:

﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾﴾ [الأعراف].

وهذا يدلُّ على أنهم على ثقةٍ بأنفسِهم أنَّ النصرَ حليفٌ لهم! وأيُّ غرورٍ كانوا فيه حينَ طلبوا؛ بل خَيَّروا موسى عليه السلام إما أن يُلقيَ أولاً، أو يكونوا هُمُ المُلقين؟! ثم ما كانَ من موسى عليه السلام إلا أن قالَ لهم: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْاْ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الشعراء].

انظروا إليهم: هذا هو عبدُ الدنيا؛ قبلَ أن يدخلَ الإيمانُ قلبَه: يركَعُ، ويسجدُ لفرعونَ، لا هَمَّ له إلا أن يحصُلَ على الدنيا، ولذلك فهم يُقسِمون بعزةِ فرعونَ!

بذلَ السحرةُ ما عندهم من قوةٍ وعلمٍ وفنٍّ في سِحرِ التخييلِ حتى إنهم جاءوا بسحرٍ عظيمٍ.

قال تعالى: ﴿قَالَ أَلْقُواْ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ١١٦﴾ [الأعراف]، وفي هذا الموقفِ العصيبِ الرهيبِ يتنزلُ التأييدُ والتثبيتُ لنبيِّ الله موسى عليه السلام قال تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ٦٧ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ٦٨ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ٦٩﴾ [طه].

ويَثْبُتُ نبيُّ اللهِ موسى عليه السلام ويلقي عصاه فإذا هي تلقَفُ بحقٍّ ما صنعوا! فما أدراك ما ذاكَ التعجبُ والحيرةُ والانبهارُ الذي أذهل السحرةَ، إنهم يعرفون السحرَ وفنونَه، بل إنهم جاءوا متحدين لموسى عليه السلام، وهاهم يوقنونَ دونَ أدنى شكٍّ أن ما فعلَه موسى عليه السلام ليس بسحرٍ، بل هو معجزةٌ منَ اللهِ عز وجل أيَّد بها رسولَه موسى عليه السلام تدلُّ على صدقه وعلى رسالتِه، وما أَن عرَفَ السحرةُ ذلك حتى دخلَ الإيمانُ في قلوبِهم وخَرُّوا لله سُجَّداً!

قال تعالى: ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ٧٠﴾ [طه].

وفي موضعٍ آخرَ:

قال تعالى: ﴿ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الشعراء].

اللهُ أكبرُ! قبلَ قليلٍ كانوا يسجدونَ ويركعونَ لفرعونَ!

قبل قليلٍ كانوا يقولونَ: بعزةِ فرعونَ!

والآن وبعد لحظاتٍ هاهم يركعونَ ويسجدونَ لربِّ العالمينَ، ربِّ السمواتِ والأرضِ! قالوا: آمنا بربِّ العالمين، ربِّ موسى وهارون.

إنه الإيمانُ إذا خالَطت بشاشَتُه القلبَ، إنها حلاوةُ الإيمانِ إذا تمكنت من القلبِ وتغلغلَت فيه.

فما هذا التغيرُ الذي حدَث؟!

فرعونُ -قبلَ قليلٍ- كان يعِدُ السَّحرةَ ويُمنّيهم بحطامِ الدنيا، حتى إنه قال لهم: نعم، وإنكم إذاً لمن المقربينَ فجمَعَ لهم بينَ المالِ والمنصبِ!

والآن: بعد أن آمنوا يهددُّهم بالقتلِ، والصَّلبِ، وتقطيعِ الأيدي والأرجلِ، ويتوعدُهم بالعذابِ المُهينِ الأليمِ، لكن هل يخافُ الذي ملأ الإيمانُ قلبَه من الجبابرةِ والطواغيتِ؟! وهل يخافُ مَن ذاقَ حلاوَة الإيمانِ ويتزعزعُ ولو نُشرَ بالمناشيرِ، ومُشِطَ بأمشاطِ الحديدِ ما دونَ لحمه وعظمهِ؟ أبداً، لا يتزعزعُ؛ لأنه علمَ أنه على الحقِّ، وعلمَ أنه ليسَ بعدَ الحقِّ إلا الضلالُ، وعلم أنَّ الحقَّ أحقُّ أن يُتَّبع.

إن اللهَ عز وجل أخبرنا في كتابِهِ العزيزِ بما هدَّد به فرعونُ السَّحرةَ من العذابِ الأليمِ، قال تعالى: ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [الشعراء].

وفي موضعٍ آخرَ قالَ لهم: ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾﴾[الشعراء].

تأملوا أولئكَ السحرةَ الذين كانوا يقولون قبلَ قليلٍ: ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ﴾، وكانوا يقولون: ﴿أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾﴾، ها همُ بعدَ أن دخلَ الإيمانُ في قلوبِهم أصبحوا يقولونَ: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا﴾[طه:٧٣].

فاللهمَّ يا مقلبَ القلوبِ والأبصارِ ثَبِّت قلوبَنا على دينك.

المثال الثاني: قصةُ الغلامِ المؤمن:

في هذه القصةِ -عبرةٌ لمن كانَ له قلبٌ أو ألقى السمعَ وهو شهيدٌ- فَلنتدبر هذه القصةَ، متلمّسين ما فيها من معانٍ عظيمةٍ في الإخلاص.

عن صهيبٍ ﷺ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**كَانَ مَلِكٌ فِيمَن كَانَ قَبلَكُم، وَكَانَ لَهُ سَاحِرٌ، فَلَمَّا كَبِرَ قَالَ لِلمَلِكِ: إِنِّى قَد كَبِرتُ فَابعَث إِلَيَّ غُلاَمًا أُعَلِّمهُ السِّحرَ، فَبَعَثَ إِلَيهِ غُلاَمًا يُعَلِّمُهُ، وكَانَ فِي طَرِيقِهِ إِذَا سَلَكَ رَاهِبٌ[1] فَقَعَدَ إِلَيهِ وَسَمِعَ كَلاَمَهُ فَأَعجَبَهُ، وكَانَ إِذَا أَتَى السَّاحِرَ مَرَّ بِالرَّاهِبِ وَقَعَدَ إِلَيهِ، فَإِذَا أَتَى السَّاحِرَ ضَرَبَهُ، فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى الرَّاهِبِ فَقَالَ: إِذَا خَشِيتَ السَّاحِرَ فَقُل حَبَسَنِي أَهلِي، وَإِذَا خَشِيتَ أَهلَكَ فَقُل: حَبَسَنِي السَّاحِرُ، فَبَينَمَا هُوَ على ذَلِكَ إِذ أَتَى عَلَى دَابَّةٍ عَظِيمَةٍ قَد حَبَسَتِ النَّاسَ فَقَالَ: اليَومَ أَعلَمُ: السَّاحِرُ أَفضَلُ أَمِ الرَّاهِبُ أَفضَلُ؟ فَأَخَذَ حَجَرًا فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِن كَانَ أَمرُ الرَّاهِبِ أَحَبَّ إِلَيكَ مِن أَمرِ السَّاحِرِ فَاقتُل هَذِهِ الدَّابَّةَ حَتَّى يَمضِيَ النَّاسُ، فَرَمَاهَا فَقَتَلَهَا، وَمَضَى النَّاسُ، فَأَتَى الرَّاهِبَ فَأَخبَرَهُ. فَقَالَ لَهُ الرَّاهِبُ: أَي بُنَيَّ! أَنتَ اليَومَ أَفضَلُ مِنِّى، قَد بَلَغَ مِن أَمرِكَ مَا أَرَى، وَإِنَّكَ سَتُبتَلَى، فَإِنِ ابتُلِيتَ فَلاَ تَدُلَّ عَلَيَّ. وَكَانَ الغُلاَمُ يُبرِئُ الأَكمَهَ[2] وَالأَبرَصَ وَيُدَاوِى النَّاسَ مِن سَائِرِ الأَدوَاءِ[3] فَسَمِعَ جَلِيسٌ لِلمَلِكِ كَانَ قَد عَمِيَ، فَأَتَاهُ بِهَدَايَا كَثِيرَةٍ فَقَالَ: مَا هَا هُنَا**

(١) متعبد من النصارى ممن كانوا على الدين الصحيح.

(٢) هو الذي ولد أعمى.

(٣) أي: الأمراض.

لَكَ أَجمَعُ، إِن أَنتَ شَفَيتَنِى فَقَالَ: إِنِّى لاَ أَشفِي أَحَدًا إِنَّمَا يَشفِي اللَّهُ؛ فَإِن أَنتَ آمَنتَ بِاللَّهِ دَعَوتُ اللَّهَ فَشَفَاكَ، فَآمَنَ بِاللَّهِ -تعالى- فَشَفَاهُ اللَّهُ -تعالى- فَأَتَى المَلِكَ فَجَلَسَ إِلَيهِ كَمَا كَانَ يَجلِسُ، فَقَالَ لَهُ المَلِكُ: مَن رَدَّ عَلَيكَ بَصَرَكَ؟ قَالَ رَبِّي، قَالَ: أَوَلَكَ رَبٌّ غَيرِي؟ قَالَ: رَبِّي وَرَبُّكَ اللَّهُ. فَأَخَذَهُ فَلَم يَزَل يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الغُلاَمِ، فَجِيءَ بِالغُلاَمِ فَقَالَ لَهُ المَلِكُ: أَي بُنَيَّ! قَد بَلَغَ مِن سِحرِكَ مَا تُبرِئُ الأَكمَهَ وَالأَبرَصَ وَتَفعَلُ وَتَفعَلُ. فَقَالَ: إِنِّي لاَ أَشفِي أَحَدًا إِنَّمَا يَشفِي اللَّهُ فَأَخَذَهُ فَلَم يَزَل يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الرَّاهِبِ، فَجِيءَ بِالرَّاهِبِ فَقِيلَ لَهُ: ارجِع عَن دِينِكَ فَأَبَى، فَدَعَا بِالمِنشَارِ فَوَضَعَ المِنشَارَ فِى مَفرِقِ رَأسِهِ[1] فَشَقَّهُ حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ، ثُمَّ جِيءَ بِجَلِيسِ المَلِكِ فَقِيلَ لَهُ: ارجِع عَن دِينِكَ فَأَبَى فَوَضَعَ المِنشَارَ فِى مَفرِقِ رَأسِهِ فَشَقَّهُ بِهِ حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ، ثُمَّ جِيءَ بِالغُلاَمِ فَقِيلَ لَهُ: ارجِع عَن دِينِكَ فَأَبَى فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِن أَصحَابِهِ فَقَالَ: اذهَبُوا بِهِ إِلَى جَبَلِ كَذَا وَكَذَا فَاصعَدُوا بِهِ الجَبَلَ؛ فَإِذَا بَلَغتُم ذُروَتَهُ[2] فَإِن رَجَعَ عَن دِينِهِ وَإِلَّا فَاطرَحُوهُ. فَذَهَبُوا بِهِ فَصَعِدُوا بِهِ الجَبَلَ فَقَالَ: اللَّهُمَّ اكفِنِيهِم بِمَا شِئتَ، فَرَجَفَ بِهِمُ الجَبَلُ، فَسَقَطُوا وَجَاءَ يَمشِي إِلَى المَلِكِ، فَقَالَ لَهُ المَلِكُ: مَا فَعَلَ أَصحَابُكَ؟ فقَالَ: كَفَانِيهِمُ اللَّهُ فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِن أَصحَابِهِ فَقَالَ: اذهَبُوا بِهِ فَاحمِلُوهُ فِى قُرقُورٍ[3] وتَوَسَّطُوا بِهِ البَحرَ فَإِن رَجَعَ عَن دِينِهِ وَإِلَّا فَاقذِفُوهُ به، فَذَهَبُوا بِهِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ اكفِنِيهِم بِمَا شِئتَ. فَانكَفَأَت بِهِمُ السَّفِينَةُ فَغَرِقُوا وَجَاءَ يَمشِي إِلَى

(١) وسطه.

(٢) أعلاه.

(٣) القُرقور: السفينة العظيمة.

المَلِكِ، فَقَالَ لَهُ المَلِكُ: مَا فَعَلَ أَصحَابُكَ؟ فقَالَ كَفَانِيهِمُ اللَّهُ. فَقَالَ لِلمَلِكِ: إِنَّكَ لَستَ بِقَاتِلِي حَتَّى تَفعَلَ مَا آمُرُكَ بِهِ. قَالَ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: تَجمَعُ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، وَتَصلُبُنِي عَلَى جِذعٍ[1] ثُمَّ خُذ سَهمًا مِن كِنَانَتِي[2] ثُمَّ ضَعِ السَّهمَ فِي كَبِدِ القَوسِ[3] ثُمَّ قُل: بِسمِ اللَّهِ رَبِّ الغُلاَمِ، ثُمَّ ارمِنِي فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلتَ ذَلِكَ قَتَلتَنِي. فَجَمَعَ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ وَصَلَبَهُ عَلَى جِذعٍ ثُمَّ أَخَذَ سَهمًا مِن كِنَانَتِهِ ثُمَّ وَضَعَ السَّهمَ فِي كَبِدِ القَوسِ ثُمَّ قَالَ بِسمِ اللَّهِ رَبِّ الغُلاَمِ، ثُمَّ رَمَاهُ فَوَقَعَ السَّهمُ فِي صُدغِهِ[4]، فَوَضَعَ يَدَهُ فِي صُدغِهِ فِي مَوضِعِ السَّهمِ فَمَاتَ، فَقَالَ النَّاسُ: آمَنَّا بِرَبِّ الغُلاَمِ، آمَنَّا بِرَبِّ الغُلاَمِ، آمَنَّا بِرَبِّ الغُلاَمِ، فَأُتِيَ المَلِكُ فَقِيلَ لَهُ: أَرَأَيتَ مَا كُنتَ تَحذَرُ، قَد وَاللَّهِ نَزَلَ بِكَ حَذَرُكَ، قَد آمَنَ النَّاسُ، فَأَمَرَ بِالأُخدُودِ[5] بِأَفوَاهِ السِّكَكِ فَخُدَّت[6]، وَأُضْرِمَ فيها النِّيرَانَ وَقَالَ: مَن لَم يَرجِع عَن دِينِهِ فَأَقحِمُوهُ فِيهَا[7] أَو قِيلَ لَهُ اقتَحِم، فَفَعَلُوا حَتَّى جَاءَتِ امرَأَةٌ وَمَعَهَا صَبِيٌّ لَهَا فَتَقَاعَسَت أَن تَقَعَ فِيهَا، فَقَالَ لَهَا الغُلاَمُ: يَا أُمَّهِ! اصبِرِي فَإِنَّكِ عَلَى الحَقِّ»[8].

---

(١) هو العود من أعواد النخل.

(٢) بيت السهام.

(٣) كبد القوس: وسطه.

(٤) الصُّدغ: ما بين العين إلى شحمة الأذن، النهاية.

(٥) الشقوق.

(٦) أي: شقت.

(٧) أي: ألقوه.

(٨) **صحيح**: رواه مسلم (٣٠٠٥).

فانظر كيف كان اللهُ يستجيبُ الدعواتِ المخلصةَ! وكيف كانتِ السُّننُ الكونيةُ تتبدلُ وتتغيرُ بأمر الله، وَبسببِ الإخلاصِ للهِ -تعالى-! لقد وقعَ الغلامُ في خطرٍ عظيمٍ عندما أخذوه ليطرحوه عن الجبل، فدعا اللهَ بإخلاصٍ شديدٍ: «**اللَّهمَّ اكفنيهم بما شئت**» فرجفَ بهم الجبلُ فسقطوا وجاء يمشي إلى الملكِ، لقد كانَ الإخلاصُ سبباً في نجاتِه من الموتِ، واستطاع بفضلِ اللهِ -سبحانه- أن يقتلَ بالإخلاصِ أعداءَ اللهِ -تعالى-، ثمَّ أخذوه في السفينةِ ليتخلصوا منه -لَـمّا رَأَوُا الإخلاصَ سِرَّ قُوته- وتوسَّطوا به البحرَ، فدعا اللهَ بإخلاصِ العبدِ للربِّ: «**اللَّهمَّ اكفنيهم بما شئتَ**» فانكفأت بهمُ السفينةُ فغرقوا، وجاءَ يمشي إلى الملكِ.

هذا هو الإخلاصُ الذي مَنَّ اللهُ به على هذا الغلام، نجّاه من خطرٍ عظيمٍ وهدى الناس، وقضى به على أعداءِ اللهِ تبارك وتعالى.

ثمَّ انظر كيفَ كان يشتدُّ إخلاصُ ذلك الغلام حين باعَ نفسه للهِ شهيداً، ضحى بنفسِه من أجلِ أن تكونَ كلمةُ الإخلاصِ هي السائدةُ في الأرض وهي المعمولُ بها، من أجل أن يقولَ الناسُ: «**آمنا بربِّ الغلامِ**».

لذلك قالَ للملكِ: «**إِنَّكَ لَستَ بِقَاتِلِي حَتَّى تَفعَلَ مَا آمُرُكَ بِهِ. قَالَ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: تَجمَعُ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، وَتَصلُبُنِي عَلَى جِذعٍ ثُمَّ ضَعِ السَّهمَ فِي كَبِدِ القَوسِ ثُمَّ قُل: بِسمِ اللهِ رَبِّ الغُلَامِ، ثُمَّ ارمِنِي فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلتَ ذَلِكَ قَتَلتَنِي. فَجَمَعَ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ وَصَلَبَهُ عَلَى جذعٍ ثُمَّ أَخَذَ سَهمًا مِن كِنَانَتِهِ ثُمَّ وَضَعَ السَّهْمَ فِي كَبِدِ**

الْقَوسِ ثُمَّ قَالَ بِسمِ اللَّهِ رَبِّ الْغُلَامِ ثُمَّ رَمَاهُ فَوَقَعَ السَّهْمُ فِي صُدغِهِ، فَوَضَعَ يَدَهُ فِي صُدْغِهِ فِي مَوْضِعِ السَّهْمِ فَمَاتَ، فَقَالَ النَّاسُ آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ».

الوسيلة الثالثة لإصلاح القلوب

العلم الشرعي

يقول الله عز وجل في كتابه: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ٨٣﴾ [المائدة].

ويقول ﷺ: «**أَوَّلُ زُمرَةٍ تَلِجُ الجَنَّةَ صُورَتُهُم عَلَى صُورَةِ القَمَرِ لَيلَةَ البَدرِ، لَا يَبصُقُونَ فِيهَا وَلَا يَمتَخِطُونَ وَلَا يَتَغَوَّطُونَ، آنِيَتُهُم الذَّهَبُ، أَمشَاطُهُم مِنَ الذَّهَبِ وَالفِضَّةِ، وَمَجَامِرُهُم الأَلُوَّةُ، وَرَشحُهُمُ المِسكُ، وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنهُم زَوجَتَانِ يُرَى مُخُّ سَاقِهِمَا مِن وَرَاءِ اللَّحمِ مِنَ الحُسنِ، لاَ اختِلاَفَ بَينَهُم وَلاَ تَبَاغُضَ، قُلُوبُهُم قَلبٌ وَاحِدٌ، يُسَبِّحُونَ اللهَ بُكرَةً وَعَشِيًّا**»(1).

وفي رواية: «**قُلُوبُهُم عَلَى قَلبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، لَا تَبَاغُضَ بَينَهُم، وَلَا تَحَاسُدَ**»(2).

سعادةُ العبدِ في الدنيا والآخرةِ تتوقفُ على صلاحِ قلبه، فالعاقلُ هو الذي يعملُ ليلاً ونهاراً لإصلاحِ قلبه، ومن وسائل إصلاح القلوب: العلم الشرعي.

والعلم الشرعي من أعظمِ الوسائلِ لإصلاح القلوب، وذلك لسببين:

---

(1) **متفق عليه**: رواه البخاري(٣٢٤٥)، ومسلم (٢٨٣٤).

(2) **صحيح**: رواه البخاري (٣٢٥٤).

الأول: أن القلبَ هو محلُ النيات، والنياتُ لا تصلحُ أبداً إلا بالعلم الشرعي ومصاحبة العلماء.

الثاني: أن القلبَ يمرضُ بمرضينِ هما: مرض الشهوات، ومرض الشبهات ولا علاج لهذين المرضين إلا بالعلم الشرعي ومصاحبة العلماء.

- وَالعلمُ الذي نَقصِدُهُ هو العلمُ الشَّرعيُّ، علمُ الكتابِ والسُّنةِ، علمُ الوحيَينِ، قالَ اللهُ، قالَ رسولهُ ﷺ، قالَ الصَّحابةُ رضي الله عنهم.
- العلمُ هو الذي يُورثُ صاحبَهُ الخشيةَ من الله. قالَ تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر:٢٨].
- العلمُ هو الذي أمرَ اللهُ رسولَهُ ﷺ أن يسألهُ المزيدَ منهُ. قالَ تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ١١٤﴾ [طه].

فكانَ ﷺ يُكثرُ من دعائِهِ: «**اللّهمَّ إِنِّي أَسأَلُكَ عِلمًا نَافِعًا، وَرِزقًا طَيِّبًا، وَعَمَلًا مُتَقَبَّلًا**»(١).

ويقولُ ﷺ: «**اللّهمَّ! انفَعنِي بِمَا عَلَّمتَنِي، وَعَلِّمنِي مَا يَنفَعُنِي، وَزِدنِي عِلمًا**»(٢).

(١) **صحيح**: رواه ابن ماجه (٩٢٥)، والنسائي في «الكبرى»(٩٨٥٠)، وأحمد (٦/٢٩٤)، وعبد بن حميد (١٥٣٣)، [«صحيح ابن ماجه» (٧٥٣)].

(٢) **حسن**: رواه الترمذي (٣٥٩٩)، وابن ماجه (٢٥١) من حديث أبي هريرة، والنسائي في «الكبرى» (٧٨١٩)، والحاكم (١٨٧٩)، من حديث أنس، [«السلسلة الصحيحة» (٣١٥١)].

• العلمُ الذي امتَنَّ اللهُ به على رسولِهِ ﷺ، فقالَ تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾ [النساء].

• العلمُ الذي هو ميراثُ محمدٍ ﷺ، قالَ ﷺ: «**أَلاَ إِنِّي أُوتِيتُ الكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ**»(١). -أي القرآنَ والسنةَ-.

وقالَ ﷺ: «**تَرَكتُ فِيكُم شَيئَينِ لَن تَضِلُّوا بَعدَهُمَا: كِتَابَ الله، وَسُنَّتِي**»(٢).

• الكتابُ والسُّنةُ ميراثُ محمدٍ ﷺ.

عن أبِي هريرةَ رضي الله عنه أنه مرَّ بسوقِ المدينةِ فَوقفَ عليها فقال: يا أهلَ السوقِ! ما أعجَزَكُم! قالوا: وما ذاك يا أبا هريرة؟ قال: ذاك ميراثُ رسولِ اللهِ ﷺ يُقسَمُ، وأنتم ها هنا؛ ألا تذهبونَ فتأخذونَ نصيبَكُم منه؟ قالوا: وأين هو؟ قال: في المسجدِ، فخَرَجوا سِراعاً، ووقف أبو هريرة لهم حتى رجعوا، فقال لهم: ما لكم؟ فقالوا: يا أبا هريرة! قد أتينا المسجد فدخلنا فيه، فلم نرَ فيه شيئاً يُقسَمُ! فقالَ لهم أبو هريرة: وما رأيتمُ في المسجدِ أحداً؟ قالوا: بلى؛ رأينا قوماً يُصَلُّونَ، وقوماً يَقرؤونَ القرآنَ، وقوماً يتذاكرونَ الحلالَ والحرامَ، فقال لهم أبو هريرة: ويحكُم! فذاك ميراثُ محمد ﷺ(٣).

(١) **صحيح**: رواه أبو داود (٤٦٠٤)، وأحمد (٤/١٣٠)، [«صحيح الجامع» (٢٦٤٣)].

(٢) **صحيح**: رواه البزار (٨٩٩٣)، والدارقطني (١٤٩)، والبيهقي في «الكبرى» (١٠/١١٤)، والحاكم (٣١٩) واللفظ له [«صحيح الجامع» (٢٩٣٧)].

(٣) **حسن**: رواه الطبراني في «الأوسط» (١٤٢٩)، [«صحيح الترغيب» (٨٣)].

• العلمُ الشَّرعيُّ هو الذي تَعرِفُ به ربَّك الذي خَلقَك، وتَعرِفُ به نفسَك.

• العلمُ الذي تعرفُ به الإيمانَ من الكُفرِ، والتَّوحيدَ من الشِّركِ، والهُدى من الضَّلالِ، والسُّنَّةَ من البدعةِ، والحلالَ من الحرامِ.

• العلمُ الذي هو أفضلُ من المالِ والجاهِ والسُّلطانِ.

• قالَ عليُّ بنُ أبي طالبٍ رضي الله عنه لِرجُلٍ مِن أصحابِهِ: (يا كُمَيلُ! العِلمُ خَيرٌ مِنَ المَالِ؛ العِلمُ يَحرُسُكَ وَأَنتَ تَحرُسُ المَالَ، وَالعِلمُ حَاكِمٌ وَالمَالُ مَحكُومٌ عَلَيهِ، والمَالُ تُنقِصُهُ النَفَقَةُ، وَالعِلمُ يَزكُو بِالإِنفَاقِ)[1].

• وقالَ والدٌ لولده: (يا بنيّ: عليك بالعلم فإنك إن افتقرتَ كان لك مالاً، وإن استغنيت كان لك جمالاً)[2].

• وقالَ بعضُ السَّلفِ: (إذا أردتَ الدُّنيا فعليكَ بالعلمِ، وإذا أردتَ الآخرةَ فعليكَ بالعلمِ، وإذا أردتَ الدُّنيا والآخرةَ فعَليكَ بالعلم).

• وقالَ بعضُ السَّلفِ أيضاً: (ليسَ شيءٌ أعزَّ من العلمِ، الملوكُ حُكّامٌ على النّاسِ، والعُلماءُ حكّامٌ على المُلوك)[3].

(١) رواه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ٨٠) وابن عبدالبر في «جامع بيان العلم وفضله» (٢٨٤).

(٢) ذكره الشجري في «ترتيب الأمالي» (٣٣٤) كشعر.

(٣) ذكره الطيوري في«الطيوريات» (٥٠٤)، وابن عبدالبر في «جامع بيان العلم وفضله» (٣١١) بدون سند. وهو من كلام أبي الأسود الدؤلي

كيفَ لا؟ والله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ [يوسف].

واحتاجَ المَلِكُ إلى يوسفَ عليه السلام وهو سجينٌ في داخل السجن.

وسادَ الحسنُ البصريُّ البصرةَ بعلمه. دخل رجلٌ البصرةَ فسألَ، مَن سَيِّدُ هذه البلدة؟ فقالوا لهُ: الحسنُ البصريُّ. قال: وبما سادهم؟ قالوا: استغنى عن دنياهُم واحتاجوا لعلمِه، فسادهم[1].

أما أهلُ العلمِ الذين تصلح بهم القلوب ويُبشِّرُهم ربُّهم في كتابِه، ورسولُهم ﷺ في سُنَّتِه فهُم:

أولاً: الذين أمر اللهُ عزَّ وجلَّ بطاعتهم

قالَ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء:٥٩].

وقد اختلفَ المُفسِّرونَ في أولي الأمرِ، فمنهم من قال: هم الأمراءُ، ومنهم من قال: هم العُلماء. والرّاجح أنهم هم الأُمراءُ والعُلماء.

يقول الإمامُ ابن قيِّم الجوزيَّةِ رحمه الله: (وَالتَّحقِيقُ أَنَّ الأُمَرَاءَ إِنَّمَا يُطَاعُونَ إِذَا أَمَرُوا بِمُقتَضَى العِلمِ؛ فَطَاعَتُهُم تَبَعٌ لِطَاعَةِ العُلَمَاءِ؛ فَإِنَّ الطَّاعَةَ إِنَّمَا تَكُونُ فِي المَعرُوفِ وَمَا أَوجَبَهُ العِلمُ، فَكَمَا أَنَّ طَاعَةَ العُلَمَاءِ تَبَعٌ لِطَاعَةِ الرَّسُولِ، فَطَاعَةُ الأُمَرَاءِ تَبَعٌ لِطَاعَةِ

(١) قريباً منه ذكره الحموي في «معجم الأدباء» (١٤٧٧).

العُلَمَاءِ، وَلَـمَّا كَانَ قِيَامُ الإِسلَامِ بِطَائِفَتَي العُلَمَاءِ وَالأُمَرَاءِ، وَكَانَ النَّاسُ كُلُّهُم لَهُم تبَعًا، كَانَ صَلَاحُ العَالَمِ بِصَلَاحِ هَاتَينِ الطَّائِفَتَينِ، وَفَسَادُهُ بِفَسَادِهِمَا)[1].

ثانياً: أهلُ العلمِ الذين أوجبَ اللهُ على الناسِ الرجوعَ إليهم وسؤالَهم عما أُشكلَ عليهم.

قالَ تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣، والأنبياء:٧].

في موضعَينِ من كتابِ اللهِ يأمرُ ربُّنا -جلَّ وعلا- عبادَهُ أن يسألوا أهلَ العلمِ الربانيين فقط، وذلك لأن أهلَ العلمِ يُجيبونَ بـ(قال اللهُ، وقال رسولُهُ) ويَزِنونَ الأمورَ بميزانِ الكتابِ والسُّنَّةِ وفَهمِ الصَّحابةِ رضي الله عنهم.

والناظرُ في أحوالِ كثيرٍ من النّاسِ -إلا من رَحمِ ربِّي- يرى أنهم يَسألونَ المُفكّرينَ والمُثقَّفينَ والحركيِّينَ والتّكفيريِّينَ وأهلَ الأهواءِ والمبتدعةَ فضَلُّوا وأضلّوا.

وقد أخبرَنا النَّبيُّ ﷺ عن ذلكَ فقالَ: «**إِنَّ الله تَعَالَى لاَ يَقبِضُ العِلمَ انتِزَاعًا يَنتَزِعُهُ مِنَ العِبَادِ، وَلَكِن يَقبِضُ العِلمَ بِقَبضِ العُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَم يُبقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤُوساً جُهَّالًا، فَسُئِلُوا فَأَفتَوا بِغَيرِ عِلمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا**»[2].

(١) «إعلام الموقعين» (١/ ١٠).

(٢) **متفق عليه**: رواه البخاري (١٠٠) ومسلم (٢٦٧٣).

وقالَ ابنُ مسعودٍ رضي الله عنه: (لَا يَزَالُ النَّاسُ بِخَيرٍ مَا أَتَاهُمُ العِلمُ مِن أَصحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَمِن أَكَابِرِهِم، فَإِذَا جَاءَ العِلمُ مِن قِبَلِ أَصَاغِرِهِم[1] فَذَلِكَ حِينَ هَلَكُوا)[2].

ثالثاً: أهلُ العلمِ هم أهلُ الفهمِ والخشيةِ لا يخافون إلا من الله.

والدليلُ على فهمهم

قالَ تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [العنكبوت].

قالَ ابنُ كثيرٍ -رحمَه اللهُ تعالى-: (وما يفهمُها ويتدبَّرُها إلا الرَّاسخونَ في العلمِ المُتَضَلِّعونَ منه)[3].

والدليلُ على خشيتهم

قالَ تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر:٢٨].

وقالَ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾﴾ [الأحزاب].

(١) الصغيرُ هو الجاهلُ وإن كان شيخاً كبيراً، والكبيرُ هو العالمُ وإن كان فتىً صغيراً.

(٢) رواه ابن الأعرابي(٩٢٦)، والطبراني في «الكبير» (٨٥٨٩)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (١٠٦٠).

(٣) «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٤١٤).

رابعاً: أهلُ العلمِ هم ورثةُ الأنبياء.

قالَ ﷺ: «**وَإِنَّ العُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنبِيَاءِ، وَإِنَّ الأَنبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرهَمًا، وإنَّمَا وَرَّثُوا العِلمَ، فَمَن أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ**»(١).

خامساً: أهلُ العلمِ هم أولياءُ الله.

قالَ تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ٦٣﴾ [يونس].

وقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**قَالَ الله تعالى: مَن عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَد آذَنتُهُ بِالحَربِ**»(٢).

وقالَ أبو حنيفةَ رحمه الله: (إن لم يكُنِ الفقهاءُ أولياءَ الله؛ فليسَ للهِ ولي)(٣).

وقالَ الإمامُ أحمدُ رحمَه الله: (لحومُ العلماءِ مسمومةٌ، من شمَّها مَرِض، ومن أكلها مات)(٤).

وقالَ ابنُ المباركِ: (من استَخفَّ بالعُلماءِ ذهبَت آخرتُه، ومن استَخفَّ بالأمراءِ ذهبَت دنياه، ومن استَخفَّ بالإخوانِ ذهبَت مروءَتُه)(٥).

---

(١) **حسن لغيره**: رواه الترمذي (٢٦٨٢)، وأبو داود (٣٦٤١)، وابن ماجه (٢٢٣)، [«صحيح الترغيب» (٧٠)].

(٢) **صحيح**: رواه البخاري (٦٥٠٢).

(٣) عزاه للشافعي السخاوي في «المقاصد الحسنة» (٢١٨/١).

(٤) كتاب «المعيد في أدب المفيد والمستفيد» للعلموي (ص٧١).

(٥) «تاريخ دمشق» لابن عساكر (٤٤٤/٣٢).

سادساً: أهلُ العلمِ هم أبصرُ الناسِ بالشرِّ ومداخلِ الشرِّ والفتنِ، وأعلمُ الناسِ بالخيرِ والهدى

ولذلك هم النّاطِقونَ بالحقِّ في الدُّنيا ويومَ يقومُ الأشهادُ.

• أما في الدُّنيا فيَظهرُ ذلكَ من مَوقفِهم من فتنةِ المالِ في قصّةِ قارون.

قالَ تعالى: ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [القصص].

فأهلُ العلمِ هنا كانوا مُتميِّزينَ عن غيرِهم، فهم بُصراءُ بالشَّرِّ وعلماءُ بالخَيرِ، فلما رأَوُا النّاسَ يتمنَّونَ مثلَ ما أوتيَ قارون، حذَّروهم من الشَّرِّ، وبيَّنوا لهم الخيرَ، وأن الدارَ الآخرةَ خيرٌ لمن آمن، وعَمِلَ صالحاً ولم يَعرِف هؤلاءِ الذين تمَنَّوا حظوظَ الدُّنيا أن العُلماءَ على الحقِّ إلا حينَما حلَّت عقوبةُ اللهِ بقارونَ، عندَها: ﴿ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [القصص].

• وهذا ما يَقعُ من كثيرٍ من النّاسِ إذا جاءَتِ الفتنةُ وعرفَها العُلماءُ وحذَّروهم منها، فلا يَستجيبونَ للعُلماءِ بسببِ الهوى والتَّحزُّبِ والتَّقليدِ الأعمى، فإذا ذهبَتِ الفِتنةُ عرَفَها هؤلاءِ ونَدِموا في وقتٍ لا يَنفعُ فيه النَّدم.

• ولذلك لما نَصحَ مؤمنُ آلِ فرعونَ فرعونَ وقومَه ولم يَستجيبوا له قالَ لهم: ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [غافر: ٤٤].

أما في الآخرةِ ويومَ يقومُ الأشهادُ فأهلُ العلم هم الذين يَتكلَّمون

قالَ تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ أي: العلماءُ الرَّبّانيُّونَ، ﴿إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ﴾ -أي: يومَ القيامة، ﴿وَٱلسُّوٓءَ﴾ أي: سوءَ العذاب ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

وقالَ تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍۚ كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الروم].

سابعاً: العُلماءُ في الأرضِ كالنُّجومِ في السَّماء.

قال أبو مسلمٍ الخَولانيُّ: (مَثَلُ العلماءِ في الأرضِ مثلُ النُّجومِ في السَّماءِ، إذا بدَت للنّاسِ اهتدَوا بها، وإذا خَفِيَت عليهم تَحيَّروا)[1].

والنُّجومُ في السَّماءِ لها ثلاثةُ فوائدٍ:

الفائدة الأولى: أنها علاماتٌ للناس يَهتدونَ بها في الظُّلمات

يقولَ الله تعالى: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ [النحل].

الفائدة الثانية: أنها زينةٌ السماء

يقولُ الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ [الملك:٥].

---

(١) «تذكرة السامع والمتكلم» للسمعاني(ص١٠).

الفائدة الثالثة: أنها رجومٌ للشّياطينِ الذين يَسترقون السمع

يقولُ الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَـٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَـٰطِينِ﴾ [الملك:٥].

والعلماءُ تَجتمِعُ فيهم هذه الأوصافُ، فهم:

• الهداةُ الذين يَهتدي بهم النّاسُ في الظُّلماتِ، حيثُ يَشتبِهُ الحقُّ بالباطل.

• وهم زينةُ هذه الأرض.

• وهم رجومٌ للشَّياطينِ الذين يَخلِطونَ الحقَّ بالباطلِ، ويُدخِلونَ في الدِّينِ ما ليسَ فيه من أهلِ البدعِ والأهواءِ والضَّلالات(١).

• فالعلماءُ بالحُجَّةِ والبُرهانِ جَعلَهمُ اللهُ عزَّ وجلَّ رجوماً لأهلِ الأهواءِ والبدعِ والضلالات ومرضى القلوب. وأضرِبُ لذلكَ مثلاً واحداً وهو: **أهلُ العلم معَ الخوارج.**

الخوارجُ: فرقةٌ ضالةٌ يَتَّبعونَ أهواءَهم، ولا يَرجِعونَ في أيِّ أمرٍ من أُمورِهم إلى العُلماءِ.

قالَ ﷺ في وصفهم: «**يَقرَءُونَ القُرآنَ يَحسَبُونَ أَنَّهُ لَهُم وَهُوَ عَلَيهِم**»(٢).

وقالَ ﷺ: «**سُفَهَاءُ الأَحلاَمِ**»(٣) أي: سفهاءُ العقولِ، يَضَعونَ الأشياءَ في غيرِ مواضعِها.

---

(١) «شرح حديث أبي الدرداء في طلب العلم» لابن رجب الحنبلي (ص١٦).

(٢) **صحيح**: رواه مسلم (١٠٦٦).

(٣) **متفق عليه**: رواه البخاري (٣٦١١)، ومسلم (١٠٦٦).

وقالَ ﷺ: «**يُحسِنُونَ القِيلَ وَيُسِيئُونَ الفِعلَ... وَيَدعُونَ إِلَى كِتَابِ اللهِ وَلَيسُوا مِنهُ فِي شَيءٍ**»(١) حتى أنهم كما قالَ ﷺ: «**يَقُولُونَ مِن خَيرِ قَولِ البَرِيَّةِ**»(٢).

فلما خَرجَتِ الحَروريَّةُ على عليِّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه قالوا: لا حُكمَ إلا للهِ، قالَ عليٌّ رضي الله عنه تَعليقاً على كَلِمتِهم هذه: (كلمةُ حقٍّ أُريدَ بها باطل) أي: يَضعونَها في غيرِ موضعِها.

وكما قالَ ﷺ: «**وَيُسيئُونَ الفِعلَ**»، فإنهم كما قالَ ﷺ: «**يَقتُلُونَ أَهلَ الإِسلاَمِ وَيَدَعُونَ أَهلَ الأَوثَانِ**»(٣).

وقد جَمعوا معَ سوءِ فَهمِهم اتباعَهُم لأهوائِهم كما قالَ ﷺ: «**وَإِنَّهُ سَيَخرُجُ فِي أُمَّتِي قَومٌ تَتَجَارَى بِهِمُ الأَهوَاءُ، كَمَا يَتَجَارَى الكَلَبُ بِصَاحِبِهِ، لا يَبقَى مِنهُ عِرقٌ وَلاَ مَفْصِلٌ إِلا دَخَلَهُ**»(٤).

ومعَ هذا كلِّه فإنهم يُعجِبونَ النّاسَ ويُعجَبون بأنفسِهم، فقد قالَ النَّبيُّ ﷺ: «**إِنَّ فِيكُم قَومًا يَتَعَبَّدُونَ حَتَّى يُعجِبُوا النَّاسَ، ويُعجِبُهُم أَنفُسُهُم، يَمرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمرُقُ السَّهمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ**»(٥).

---

(١) **صحيح**: رواه أبو داود (٤٧٦٥)، وأحمد (٣/٢٢٤)، [«ظلال الجنة» (٩٤٠)].

(٢) **متفق عليه**: رواه البخاري (٣٦١١)، ومسلم (١٠٦٦).

(٣) **متفق عليه**: رواه البخاري (٣٣٤٤)، ومسلم (١٠٦٤).

(٤) **حسن صحيح**: رواه أبو داود (٤٥٩٧)، وأحمد (٤/١٠٢)، والحاكم (٤٤٣)، [«صحيح الترغيب» (٥١)].

(٥) **صحيح**: رواه أبو يعلى (٤٠٦٦)، [«السلسلة الصحيحة» (١٨٩٥)].

• وقالَ ﷺ أيضاً في وصفِهم: «**شَرُّ الخَلقِ وَالخَلِيقَةِ**»(١).

• وقالَ ﷺ: «**الخَوَارِجُ كِلَابُ أَهلِ النَّارِ**»(٢).

فالخوارجُ فرقةٌ ضالةٌ يَتَّبعونَ أهواءَهم يَخدَعونَ النّاسَ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، يَظهَرونَ أمامَ النّاسِ بالإصلاح وهم من أفسدِ الناسِ، العلماءُ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ لهم بالمرصادِ؛ يَرُدونَ على شُبُهاتِهم، ويُحَذِّرونَ النّاسَ من شَرِّهم، فها هو ابنُ عبّاسٍ رضي الله عنهما حَبرُ الأمةِ وتُرجمانُ القرآن يذهبُ إلى الخوارجِ في دارِهم التي اعتزَلوا فيها ليَخرُجوا على أميرِ المؤمنينَ عليِّ بنِ أبي طالبٍ رضي الله عنه، فتعالَوا بنا لنَستمِعَ إليه وهو يَقذِفُ بالحقِّ الذي مَعه على الباطلِ الذي معَ الخوارج ﴿فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞۚ﴾ [الأنبياء:١٨].

يقولُ ابنُ عبّاسٍ رضي الله عنهما: لما خَرجَتِ الحَروريَّةُ -وهم الخوارجُ- اعتزَلوا في دارِهم وكانوا ستَّةَ آلافٍ. فقلتُ لعليٍّ رضي الله عنه: يا أميرَ المؤمنين! أبرِد بالظُّهرِ لعَلِّي آتي هؤلاءِ القَوم؛ فأُكلِّمُهم. قال: إني أخافُ عليك، قلتُ: كلا. قال: فقمتُ ودخلتُ عليهم في نصفِ النَّهارِ وهم قائلونَ -وقتَ القيلولة-، فسَلَّمتُ عليهم. فقالوا: مرحباً بك يا ابنَ عبّاسٍ، فما جاءَ بك؟ قلتُ لهم: أتيتكُم من عندِ أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ وصهرِه، وعليهم نزَلَ القرآن، وهم أعلمُ بتأويلِه منكُم، وليسَ فيكُم منهُم أحدٌ؛ لأبلغَكم ما يقولون، وتُخبِرون بما تقولون. قلت: أخبِروني ماذا نَقِمتُم على أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ وابنِ عمِّه؟ قالوا: ثلاث.

---

(١) **صحيح**: رواه مسلم (١٠٦٧).

(٢) **صحيح**: رواه ابن ماجه (١٧٣)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٩٠٤) كلاهما عن ابن أبي أوفى، والطبراني في «الكبير» (٨٠٤٢) عن أبي أمامة واللفظ له، [«صحيح الجامع» (٣٣٤٧)].

قلتُ: ما هنَّ؟ قالوا: أما إحداهنَّ فإنه حكَّمَ الرِّجالَ في أمرِ اللهِ؛ وقالَ تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ ما شأنُ الرِّجالِ والحُكم؟ فقلت: هذه واحدةٌ، قالوا: وأما الثّانيةُ فإنه قاتلَ، ولم يسبِ، ولم يَغنَم، فإن كانوا كفاراً سَلَبَهم، وإن كانوا مؤمنينَ ما أَحلَّ قتالَهم؟ قلت: هذه اثنتانِ فما الثّالثةُ. قالوا: إنه مَحى نفسَه عن أميرِ المؤمنينَ فهو أميرُ الكافرينَ. قلت: هل عندَكم شيءٌ غيرُ هذا؟ قالوا: حُسبُنا هذا.

قلتُ: أرأيتُم إن قرأتُ عليكُم من كتابِ اللهِ، ومن سنَّةِ نبيِّه ﷺ ما يرُدُّ قولَكُم، أترضَون؟ قالوا: نعم. قلت: أما قولُكم حكَّمَ الرِّجالَ في أمرِ اللهِ، فأنا أقرأُ عليكُم في كتابِ اللهِ أن قد صيَّرَ اللهُ حكمَه إلى الرِّجالِ في ثَمنِ ربعِ درهمٍ؛ فأمرَ اللهُ الرِّجالَ أن يَحكُموا فيه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [المائدة:٩٥] الآية، فأنشدتُكم باللهِ تعالى أحُكمُ الرِّجال في أرنبٍ، ونحوِه من الصَّيدِ أفضل، أم حكمُهم في دمائِهم وصلاحِ ذاتِ بينهِم؟ وأنتم تعلَمونَ أن اللهَ لو شاءَ لحكمَ، ولم يُصير ذلكَ إلى الرِّجال.

قالوا: بل هذا أفضلُ. وفي المرأةِ وزوجِها قالَ تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ﴾ [النساء:٣٥]. فأنشدتُكم باللهِ حُكمُ الرِّجالِ في صلاحِ ذاتِ بينهِم، وحَقنِ دمائِهم أفضلُ من حكمِهم في امرأةٍ؟ أخرجتُ من هذه؟ قالوا: نعم. قلت: وأما قولُكم: قاتلَ ولم يَسبِ ولم يَغنَم، أفتَسبونَ أمَّكُم عائشةَ، وتَستحِلُّون منها ما تَستحِلُّونَ من غيرِها. وهي أمُّكُم؟ فإن قلتم: إنا نَستَحِلُّ منها ما نَستحِلُّ من غيرِها. فقد كفرتُم،

ولئن قلتُم: ليسَت بأمِّنا. فقد كفرتُم، لأن اللهَ تعالى يقولُ: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ﴾ [الأحزاب:٦]. فأنتم تدُورون بينَ ضلالتَين، فأتوا منهما بمخرج. قلت: فخرجتُ من هذه؟ قالوا: نعم. وأما قولُكم محى اسمَه من أميرِ المُؤمنينَ - فأنا آتيكُم بمَن تَرضونَ، وأراكم قد سَمعتُم أن النَّبيَّ ﷺ يومَ الحُدَيبيةِ صالحَ المُشركينَ، فقال لعليٍّ رضي الله عنه: اكتُب هذا ما صالحَ عليه محمدٌ رسولُ اللهِ ﷺ فقالَ المُشركونَ: لا واللهِ ما نَعلَمُ أنك رسولُ اللهِ؛ لو نعلمُ أنكَ رسولُ اللهِ لأطعناكَ، فاكتُب: محمدُ بنُ عبدِ الله.

فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: امحُ يا علي رسولَ الله، اللَّهـمَّ إنك تعلَمُ أني رسولُك، امحُ يا عليّ، واكتُب: هذا ما صالحَ عليه محمَّدُ بنُ عبدِ الله. فواللهِ لرسولُ اللهِ ﷺ خيرٌ من عليٍّ وقد محا نفسَه؛ ولم يكن محَوُه ذلكَ يَمحوه من النُّبوَّةِ. خَرجتُ من هذه؟ قالوا: نعم، فرجع منهم ألفان وخرج سائرُهم -أي: على عليِّ بن أبي طالب- فقُتِلوا على ضلالتهم، فقتلهم المهاجرون والأنصار[1].

هكذا يَفعلُ الجهلُ بأصحابِهِ، يُفسِدونَ في الأرضِ، ويَبتدِعونَ في الدِّينِ، ويَظُنُّونَ أنهم يُحسِنونَ صنعاً.

• قالَ تعالى في وصفِ هؤلاء: ﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الكهف].

(١) **حسن**: رواه النسائي في «الكبرى» (٨٥٢٢)، والحاكم (٢٦٥٦)، والبيهقي في «الكبرى» (١٧٩/٨)، [«الصحيح المسند من فضائل الصحابة»].

• وَقَالَ الحَسَنُ البصريُّ رحمه الله تعالى: (العَامِلُ عَلَى غَيرِ عِلمٍ كَالسَّالِكِ عَلَى غَيرِ طَرِيقٍ، وَالعَامِلُ عَلَى غَيرِ عِلمٍ يُفسِدُ أَكثَرَ مِمَّا يُصلِحُ، فَاطلُبُوا العِلمَ طَلَبًا لَا تَضُرُّوا بِالعِبَادَةِ، وَاطلُبُوا العِبَادَةَ طَلَبًا لَا تَضُرُّوا بِالعِلمِ، فَإِنَّ قَومًا طَلَبُوا العِبَادَةَ وَتَرَكُوا العِلمَ حَتَّى خَرَجُوا بِأَسيَافِهِم عَلَى أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَلَو طَلَبُوا العِلمَ لَم يَدُلَّهُم عَلَى مَا فَعَلُوا)(١).

والذين تعلموا العلم الشرعي وأصلحوا قلوبهم به يُبشِّرُهم ربُّهم في كتابِه، ورسولُهم ﷺ في سُنَّتِه بما يلي:

أولاً: بالرفعةِ في الدنيا والآخرة.

قالَ تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة:١١].

وقالَ تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾ [الأنعام].

وقالَ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ تعالى يَرفَعُ بِهَذَا الكِتَابِ أَقوَامًا، وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ**»(٢).

وقالَ ﷺ: «**وَأُحَدِّثُكُم حَدِيثًا فَاحفَظُوهُ، إِنَّمَا الدُّنيَا لِأَربَعَةِ نَفَرٍ، عَبدٍ رَزَقَهُ الله مَالًا وَعِلمًا، فَهُوَ يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ، وَيَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ، وَيَعلَمُ لِلَّهِ فِيهِ حَقًّا، فَهَذَا بِأَفضَلِ المَنَازِلِ، وَعَبدٍ رَزَقَهُ الله عِلمًا وَلَم يَرزُقهُ مَالًا، فَهُوَ صَادِقُ النِّيَّةِ يَقُولُ: لَو أَنَّ لِي مَالًا لَعَمِلتُ بِعَمَلِ فُلَانٍ فَهُوَ بِنِيَّتِهِ فَأَجرُهُمَا سَوَاءٌ**»(٣).

---

(١) «جامع بيان العلم وفضله» لابن عبدالبر (٩٠٥).

(٢) **صحيح**: رواه مسلم (٨١٧).

(٣) **صحيح لغيره**: رواه الترمذي (٢٣٢٥)، وابن ماجه (٤٢٢٨)، وأحمد (٤/ ٢٣١)، [«صحيح الترغيب» (١٦)].

فاللهُ عزَّ وجلَّ يَرفَعُ أهلَ العلمِ إلى أفضلِ المنازلِ في الدُّنيا والآخرةِ، ومن رَفعَه اللهُ بالعلمِ فلن يَستطيعَ أحدٌ أن يَخْفِضَهُ أبداً.

ثانياً: يا أهلَ العلمِ أبشِروا فأنتُم عندَ اللهِ بمَنزلةِ المُجاهدِينَ في سبيلِ اللهِ بل تَقومونَ بأفضلِ الجهاد.

قالَ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [التوبة].

فسمَّى ربُّنا -جلَّ وعلا- طلبَ العلمِ والخُروجَ لطلبِه نفيراً كالنَّفيرِ لمُلاقاةِ العَدوِّ.

• وقالَ تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ﴾ -أي: بالقرآنِ وما نَزلَ إليكَ من الحَقِّ -أي: بالعلمِ- ﴿جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ [الفرقان].

• وقالَ ﷺ: «**جَاهِدُوا المُشرِكِينَ بِأَموَالِكُم وَأَنفُسِكُم وَأَلسِنَتِكُم**»[1].

ومعلومٌ أن الجهادَ باللِّسانِ يكونُ بإقامةِ الحُجَّةِ عليهم، وهذا لا يكونُ إلا بالعِلمِ الشَّرعيِّ.

• وقالَ ﷺ: «**مَن جَاءَ مَسجِدِي هَذَا، لَم يَأتِهِ إِلَّا لِخَيرٍ يَتَعَلَّمُهُ أَو يُعَلِّمُهُ، فَهُوَ بِمَنزِلَةِ المُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللهِ**»[2].

---

(١) **صحيح**: رواه أبو داود (٢٥٠٤)، والنسائي (٣٠٩٦)، وأحمد (١٢٤/٣)، [«صحيح الجامع» (٣٠٩٠)].

(٢) **صحيح**: رواه ابن ماجه (٢٢٧)، وأحمد (٤١٨/٢)، وأبو يعلى (٦٤٧٢)، [«صحيح الترغيب» (٨٧)].

• وقالَ أبو الدَّرداءِ رضي الله عنه: (مَن رَأَى الغُدُوَّ وَالرَّوَاحَ فِي طَلَبِ العِلمِ لَيسَ بِجِهَادٍ، فَقَد نَقَصَ عَقلُهُ وَرَأيُهُ)(١).

• وقالَ ابنُ عبّاسٍ رضي الله عنهما: (أفضلُ الجهادِ: مَن بَنَى مسجِداً فَعَلَّم فيه القرآنَ وَالفِقهَ وَالسُّنَّةِ)(٢).

فجهادُ العلماءِ بالحُجَّةِ والبُرهانِ أفضلُ الجهادِ، وذلك لأن الجهادَ بالسَّيفِ والسِّنانِ يَقدِرُ عليه كلُّ أحدٍ، أمَّا الجهادُ بالحجةِ والبُرهانِ لا يَقدِرُ عليه إلا أهلُ العلم.

ثالثاً: يا أهلَ العلمِ أبشروا بسعادة الدنيا والآخرة

فالنَّبيُّ صلى الله عليه وسلم دعا لكم، وأهلُ السَّماواتِ والأرضِ يَدعونَ لكم.

• قالَ صلى الله عليه وسلم: «**نَضَّرَ الله امرأً سَمِعَ مِنَّا شَيئًا فَبَلَّغَهُ كَمَا سَمِعَهُ، فَرُبَّ مُبَلِّغٍ أَوعَى مِن سَامِعٍ**»(٣).

• وقالَ صلى الله عليه وسلم: «**إِنَّ الله وَمَلَائِكَتَهُ وَأَهلَ السَّمَوَاتِ وَالأَرَضِينَ حَتَّى النَّملَةَ فِي جُحرِهَا وَحَتَّى الحُوتَ لَيُصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّمِ النَّاسِ الخَيرَ**»(٤).

---

(١) «إحياء علوم الدين» (١/٩).

(٢) «تفسير القرطبي» (٨/٢٩٦).

(٣) **حسن صحيح**: رواه الترمذي (٢٦٥٧)، وابن ماجه (٢٣٢)، وأحمد (١/٤٣٦)، [«صحيح الترغيب» (٨٩)].

(٤) **حسن لغيره**: رواه الترمذي (٢٦٨٥)، والطبراني في «الكبير» (٧٩١٢)، [«صحيح الترغيب» (٨١)].

• وقالَ ﷺ: «**وَإِنَّ العَالِمَ لَيَستَغفِرُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرضِ، وَالحِيتَانُ فِي جَوفِ المَاءِ، وَإِنَّ فَضلَ العَالِمِ عَلَى العَابِدِ كَفَضلِ القَمَرِ لَيلَةَ البَدرِ عَلَى سَائِرِ الكَوَاكِبِ، وَإِنَّ العُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنبِيَاءِ، وَإِنَّ الأَنبِيَاءَ لَم يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرهَمًا، إِنَّمَا وَرَّثُوا العِلمَ، فَمَن أَخَذَه أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ**»(١).

• وقالَ ﷺ: «**خَيرُكُم مَن تَعَلَّمَ القُرآنَ وَعَلَّمَهُ**»(٢).

• وقالَ ﷺ: «**مَن يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيرًا يُفَقِّههُ فِي الدِّينِ**»(٣).

فمن تَفقَّهَ في دينِ اللهِ فقد أرادَ اللهُ بهِ الخيرَ والسَّعادةَ في الدُّنيا والآخرةِ، فما بالُكم بمن فَقَّه المُسلمِين؟!

رابعاً: يا أهلَ العلمِ أبشِروا بجنةٍ عرضُها السَّماواتُ والأرض.

• قالَ ﷺ: «**مَن سَلَكَ طَرِيقًا يَطلُبُ فِيهِ عِلمًا، سَلَكَ اللهُ بِهِ طَرِيقًا مِن طُرقِ الجَنَّةِ**»(٤).

• وقالَ تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر:٢٨].

(١) **حسن لغيره**: رواه الترمذي (٢٦٨٢)، وأبو داود (٣٦٤١)، وابن ماجه (٢٢٣)، [«صحيح الترغيب» (٧٠)].

(٢) **صحيح**: رواه البخاري (٥٠٢٧).

(٣) **متفق عليه**: رواه البخاري (٣١١٦)، ومسلم (١٠٣٧).

(٤) **حسن لغيره**: رواه الترمذي (٢٦٨٢)، وأبو داود (٣٦٤١)، وابن ماجه (٢٢٣)، [«صحيح الترغيب» (٧٠)].

• قالَ ابنُ القَيِّمِ رحمَه الله: (وهذا حَصرٌ لخَشيتِه في أولي العلمِ. وقالَ تعالى: ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾﴾ وقد أخبر أن أهلَ خشيتِه همُ العلماءُ، فدَلَّ على أن الجزاءَ المذكورَ للعُلماءِ بمَجموعِ النَّصَّين)(١).

• وقالَ تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [آل عمران]. وقالَ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾﴾ [الكهف].

والعُلماءُ دائماً في مُقدِّمةِ المُتَّقينَ والصّالحينَ، بل هم أفضلُ البَشرِ بعدَ الأنبياءِ، والدليلُ على ذلكَ أن اللهَ استشهدَ بهم على أجلِّ مشهودٍ وهو توحيدهُ سبحانه، فإنهُ لو كان أحدٌ أشرفَ من العلماءِ لقَرنَهم اللهُ باسمِه، واسمِ ملائكتِه.

قالَ تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ [آل عمران].

فمن أراد أن يكون من العلماء وأن يصلح اللهُ قلبه فعليه بالعلم الشرعي، ومجالسة أهل العلم، ومصاحبة العلماء.

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٥١).

الوسيلةُ الرابعة لإصلاح القلوب

زيارةُ القبورِ

زيارةُ القبورِ منَ الوسائلِ المهمةِ الفَعَّالةِ التي تُصلحُ القلوبَ.

• عن أنسِ بنِ مالكٍ رضي الله عنه قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**كُنتُ نَهَيتُكُم عَن زِيَارَةِ القُبُورِ ألا فزوروها فإنَّهَا تُرِقُّ القَلبَ، وَتُدمِعُ العَينَ، وَتُذَكِّرُ الآخِرَةَ، وَلَا تَقُولُوا هُجرًا**»(١).

• وعَن أَبِى هُرَيرَةَ رضي الله عنه قَالَ: زَارَ النَّبِىُّ ﷺ قَبرَ أُمِّهِ، فَبَكَى وَأَبكَى مَن حَولَهُ فَقَالَ: «**استَأذَنتُ رَبِّي فِى أَن أَستَغفِرَ لَهَا، فَلَم يُؤذَن لِي، وَاستَأذَنتُهُ فِى أَن أَزُورَ قَبرَهَا فَأَذِنَ لِي، فَزُورُوا القُبُورَ فَإِنَّهَا تُذَكِّرُ المَوتَ**»(٢).

• وعَنِ بُرَيدَةَ رضي الله عنه قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ في سفرٍ، [وفي رواية: في غزوةِ الفتح]، فَنَزَلَ بِنَا وَنَحنُ مَعَهُ، قَرِيبٌ مِن أَلفِ رَاكِبٍ، فَصَلَّى رَكعَتَينِ، ثُمَّ أَقبَلَ عَلَينَا بِوَجهِهِ وَعَينَاهُ تَذرِفَانِ، فَقَامَ إِلَيهِ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ، فَفَدَاهُ بِالأَبِ وَالأُمِّ، يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا لَكَ؟ قَالَ: «**إِنِّي سَأَلتُ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ فِي الِاستِغفَارِ لِأُمِّي، فَلَم يَأذَن لِي، فَدَمَعَت عَينَايَ رَحمَةً لَهَا مِن النَّارِ، [واستأذنتُ ربي في زيارتِها فأذنَ لي]، وَإِنِّي كُنتُ نَهَيتُكُم عَن زِيَارَةِ القُبُورِ فَزُورُوهَا، وَلتَزدكمُ زِيَارَتُهَا خَيرًا**»(٣).

---

(١) **صحيح**: رواه أحمد (٣/ ٢٣٧ و٢٥٠)، والحاكم (١٣٩٣) واللفظ له، [«صحيح الجامع» (٤٥٨٤)].

(٢) **صحيح**: رواه مسلم (٩٧٦).

(٣) **صحيح**: رواه أحمد (٥/ ٣٥٥)، والحاكم (١٣٩١)، [«أحكام الجنائز» (ص١٨٨)].

والخيرُ الذي يتحصلُ عليهِ المسلمُ عندَ زيارتِه للقبورِ هو:

أولاً: تذكرُ الموتِ وسكراتِه.

ثانياً: تذكرُ عذابِ القبرِ ونعيمِه.

ثالثاً: تذكرُ أسبابِ عذابِ القبرِ.

رابعاً: تذكرُ المنجياتِ من عذابِ القبرِ.

وكلُّ ذلكَ يُصلحُ القلبَ، ويدفعهُ إلى الأعمالِ الصالحةِ.

أولاً: تذكّرُ الموتِ وسكراتِه

عَن هَانِئٍ مَولَى عُثمَانَ قَالَ: كَانَ عُثمَانُ إِذَا وَقَفَ عَلَى قَبرٍ بَكَى حَتَّى يَبُلَّ لِحيَتَهُ، فَقِيلَ لَهُ: تَذكُرُ الجَنَّةَ وَالنَّارَ فَلَا تَبكِي وَتَبكِي مِن هَذَا؟ فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ القَبرَ أَوَّلُ مَنزِلٍ مِن مَنَازِلِ الآخِرَةِ، فَإِن نَجَا مِنهُ فَمَا بَعدَهُ أَيسَرُ مِنهُ، وَإِن لَم يَنجُ مِنهُ فَمَا بَعدَهُ أَشَدُّ مِنهُ**»، وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**مَا رَأَيتُ مَنظَرًا قَطُّ إِلَّا القَبرُ أَفظَعُ مِنهُ**»(١).

• الإيمانُ باليومِ الآخر ركنٌ من أركان الإيمان ومعناهُ بصورةٍ إجماليَّةٍ: الإيمانُ بكلِّ ما أخبرَ بهِ الله عزَّ وجلَّ في كتابِه، وأخبرَ بهِ رسُولُهُ ﷺ ممَّا يكونُ بعدَ الموتِ، من فِتنةِ القبر، وعذابِهِ ونعيمِه، والبعثِ، والحشرِ، والصُّحفِ، والحسابِ، والميزانِ، والحوضِ، والصِّراطِ، والشَّفاعةِ، والجنَّةِ، والنَّارِ، وما أعدَّ اللهُ لأهلِهما جميعاً.

---

(١) حسن: رواه الترمذي (٢٣٠٨)، وابن ماجه (٤٢٦٧)، والحاكم (١٣٧٣)، [«المشكاة» (٨)].

قالَ الإمامُ الطَّحاويُّ: (ونُؤمنُ بمَلَكِ الموتِ الموكَّلِ بقبضِ أرواحِ العالمين، وبعذابِ القبرِ لمن كان لهُ أهلاً، وسُؤالِ مُنكرٍ ونكيرٍ في قبرهِ عن ربِّهِ ودينِهِ ونبيِّه، على ما جاءت بهِ الأخبارُ عن رسولِ اللهِ ﷺ وعنِ الصَّحابةِ رِضوانُ الله عليهم أجمعين. والقبرُ روضةٌ من رِياضِ الجنَّة، أو حُفرةٌ من حُفَرِ النِّيران. ونُؤمنُ بالبعثِ وجزاءِ الأعمالِ يومَ القيامة، والعَرضِ والحساب، وقراءةِ الكتابِ، والثَّوابِ والعقابِ، والصِّراطِ والميزانِ، والجنَّةُ والنَّارُ مخلوقتان، لا تفنيانِ أبداً ولا تَبيدان، وأنَّ اللهَ تعالى خلقَ الجنَّةَ والنَّارَ، وخلقَ لهما أهلاً، فمن شاءَ منهم إلى الجنَّةِ فضلاً منه، ومن شاء منهم إلى النَّارِ عدلاً منه)[1].

فمن أوَّلِ ما يجبُ الإيمانُ به من اليومِ الآخرِ الإيمانُ **بالموتِ وسكراتِه**، إنه هو المفضي بالعبدِ إلى منازلِ الآخرة، وهو السَّاعةُ الصُّغرى.

(فساعةُ كلِّ إنسانٍ موتُه، وهي المشارُ إليها بقولهِ تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾﴾ [الأنعام]، ومعلومٌ أنَّ هذهِ الحسرةَ تنالُ الإنسانَ عندَ موته)[2].

• **(والإيمانُ بالموتِ يتناولُ أُموراً:**

(١) «العقيدة الطحاوية» تعليق الألباني (٥٠ و٥١).

(٢) «المفردات» (٢٤٨).

مِنهَا: تَحَتُّمُهُ عَلَى مَن كَانَ فِي الدُّنيَا مِن أَهلِ الأَرضِ وَالسَّمَاوَاتِ، مِنَ الإِنسِ وَالجِنِّ وَالمَلَائِكَةِ وَغَيرِهِم مِنَ المَخلُوقَاتِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٢٧)﴾ [الرحمن].

وَقَالَ لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ (٣٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ (٣١)﴾ [الزُّمَر].

وقال لهُ أيضاً: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ ۖ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ (٣٤) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (٣٥)﴾ [الأنبياء].

وَقَالَ تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (١١)﴾ [السجدة].

وَفِي الصَّحِيحِ عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُولُ: «**أَعُوذُ بِعِزَّتِكَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ، الَّذِي لَا يَمُوتُ وَالجِنُّ وَالإِنسُ يَمُوتُونَ**»(١).

ومنها: أَنَّ كُلًّا لَهُ أَجلٌ مَحدُودٌ، وَأَمَدٌ مَمدُودٌ، يَنتَهِي إِلَيهِ، لَا يَتَجَاوَزُهُ وَلَا يقصُرُ عَنهُ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلًا ۗ﴾ [آل عمران:١٤٥].

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري (٧٣٨٣)، ومسلم (٢٧١٧) واللفظ للبخاري.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ [النساء:٧٨].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [الجمعة].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الأعراف].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الأنعام].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾ [فاطر].

وَعَن عَبدِ اللَّهِ بن مسعودٍ رضي الله عنه قَالَ: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ الصَّادِقُ المَصدُوقُ قَالَ: «**إِنَّ أَحَدَكُم يُجمَعُ فِي بَطنِ أُمِّهِ أَربَعِينَ يومًا، ثُمَّ عَلَقَةً مِثلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضغَةً مِثلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَبعَثُ اللَّهُ مَلَكًا، فَيُؤمَرُ بِأَربَعٍ: بِرِزقِهِ، وَأَجَلِهِ، وَشَقِيٌّ أَو سَعِيدٌ. فَوَاللَّهِ إِنَّ أَحَدَكُم أَو الرَّجُلَ يَعمَلُ بِعَمَلِ أَهلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَينَهُ وَبَينَهَا غَيرُ بَاعٍ أَو ذِرَاعٍ، فَيَسبِقُ عَلَيهِ الكِتَابُ فَيَعمَلُ بِعَمَلِ أَهلِ الجَنَّةِ فَيَدخُلُهَا، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعمَلُ بِعَمَلِ أَهلِ الجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَينَهُ وَبَينَهَا غَيرُ ذِرَاعٍ أَو ذِرَاعَينِ فَيَسبِقُ عَلَيهِ الكِتَابُ فَيَعمَلُ بِعَمَلِ أَهلِ النَّارِ فَيَدخُلُهَا**»(١).

---

(١) **صحيح**: رواه البخاري (٦٥٩٤).

وَمِنهَا: الإِيمَانُ بِأَنَّ ذَلِكَ الأَجَلَ المَحتُومَ، وَالحَدَّ المَرسُومَ لِانتِهَاءِ كُلِّ عُمرٍ إِلَيهِ، لَا اطِّلَاعَ لَنَا عَلَيهِ، وَلَا عِلمَ لَنَا بِهِ، وَأَنَّ ذَلِكَ مِن مَفَاتِيحِ الغَيبِ الَّتِي استَأثَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِعِلمِهَا عَن جَمِيعِ الخَلقِ، فَلَا يَعلَمُهَا إِلَّا هُوَ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾﴾ [لقمان].

وَعَنِ ابنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «**مَفَاتِحُ الغَيبِ خَمسٌ، لَا يَعلَمُهَا إِلَّا اللَّهُ: لَا يَعلَمُ مَا فِي غَدٍ إِلَّا اللَّهُ، وَلَا يَعلَمُ مَا تَغِيضُ الأَرحَامُ إِلَّا اللَّهُ، وَلَا يَعلَمُ مَتَى يَأتِي المَطَرُ أَحَدٌ إِلَّا اللَّهُ، وَلَا تَدرِي نَفسٌ بِأَيِّ أَرضٍ تَمُوتُ، وَلَا يَعلَمُ مَتَى تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا اللَّهُ**»(١).

وَمِنهَا: ذِكرُ العَبدِ المَوتَ وَجَعلُهُ عَلَى بَالِهِ، إِذ أَنَّهُ الحَائِلُ بينَ العبدِ وَآمَالِهِ، وَهُوَ المُفضِي بِهِ إِلَى أَعمَالِهِ، وَإِلَى الحَسَنِ وَالقَبِيحِ مِن أَقوَالِهِ وَأَفعَالِهِ، وَإِلَى الجَزَاءِ الأَوفَى مِنَ الحكَمِ العَدلِ فِي شَرعِهِ وَقَدَرِهِ، وَقَضَائِهِ وَوَعدِهِ وَوَعِيدِهِ، فَلَا يُعَاقِبُ أَحَدًا بِذَنبِ غَيرِهِ، وَلَا يَهضِمُهُ ذَرَّةً مِن حُسنِ أَعمَالِهِ. عَن أَبِي هُرَيرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «**أَكثِرُوا ذِكرَ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ يَعنِي المَوتَ**»(٢).

---

(١) **صحيح**: رواه البخاري (٧٣٧٩).

(٢) **حسن صحيح**: رواه الترمذي (٢٣٠٧)، وابن ماجه (٤٢٥٨)، والنسائي (١٨٢٤)، وأحمد (٢/٢٩٢)، [«صحيح الترغيب» (٣٣٣٣)].

(قال العلماء: هذا كلامٌ مُختصرٌ وجيز، قد جمعَ التَّذكرة، وأبلغَ في الموعظة، فإنَّ من ذكرَ الموتَ حقيقةَ ذِكرِه؛ نغَّص عليهِ لذَّتَهُ الحاضِرةَ، ومنعهُ من تمنِّيها في المستقبل، وزهَّدهُ فيما كان فيهِ يُؤمِّلُ، ولكنَّ النُفوسَ الرَّاكدةَ، والقُلوبَ الغافلةَ، تحتاجُ إلى تطويلِ الوُعَّاظ، وتزويقِ الألفاظ، وإلَّا ففي قولهِ ﷺ: «**أَكثِرُوا ذِكرَ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ يَعنِي المَوتَ**»، مع قولهِ تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عمران:١٨٥]، ما يكفي السَّامعَ لهُ، ويشغلُ النَّاظرَ فيه، وكانَ أميرُ المؤمنينَ عمرُ بنُ الخطَّابِ كثيراً ما يتمثَّلُ بهذهِ الأبيات:

لا شيءَ ممَّا ترى تبقى بشاشتُهُ ... يبقى الإلهُ ويفنى المالُ والولدُ

لم تُغنِ عن هُرمُزٍ يوماً خزائنُهُ ... والخلدَ قد حاولت عادٌ فما خلدوا

ولا سُليمانَ إذ تجري الرِّياحُ لهُ ... والإنسُ والجنُّ فيما بينها تردُ

أينَ الملوكُ التي كانت لعزَّتها ... من كلِّ أوبٍ إليها وافدٌ يفِدُ

حوضٌ هنالكَ موردٌ بلا كذبٍ ... لا بُدَّ من وِردِهِ يوماً كما وردوا[(١)]

وَمِنهَا: وَهُوَ المَقصُودُ الأَعظَمُ التَّأَهُّبُ لَهُ قَبلَ نُزُولِهِ، وَالِاستِعدَادُ لِمَا بَعدَهُ قَبلَ حُصُولِهِ. وَالـمُبَادَرَةُ بِالعَمَلِ الصَّالِحِ وَالسَّعيِ النَّافِعِ قَبلَ دُهُومِ البَلَاءِ وَحُلُولِهِ، إذ هُوَ الفَيصَلُ بَينَ هَذِهِ الدَّارِ وَبَينَ دَارِ القَرَارِ، وَهُوَ الفَيصلُ بَينَ سَاعَةِ العَمَلِ وَالجَزَاءِ عَلَيهِ، وَالحَدُّ الفَارِقُ بَينَ أَوَانِ تَقدِيمِ الزَّادِ وَالقُدُومِ عَلَيهِ، إذ لَيسَ بَعدَهُ لِأَحَدٍ مُسْتَعْتَبٌ وَلَا اعتِذَارٌ، وَلَا زِيَادَةٌ فِي الحَسَنَاتِ وَلَا نَقصٌ مِنَ السَّيِّئَاتِ، وَلَا حِيلَةٌ

(١) ابن عساكر في تاريخه (٣١٦/٤٤).

وَلَا افتِدَاء، وَلَا دِرهَمٌ وَلَا دِينَار، وَلَا مَقعَدٌ وَلَا مَنزِل، إِلَّا القَبرَ، وَهُوَ إِمَّا رَوضَةٌ مِن رِيَاضِ الجَنَّةِ أَو حُفرَةٌ مِن حُفَرِ النَّارِ، إِلَى يَومِ البَعثِ وَالجَزَاءِ، وَجَمعِ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ، وَأَهلِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرَضِينَ، وَالموقِفِ الطَّوِيلِ بَينَ يَدَي القَوِيِّ المَتِينِ: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾﴾ [المطففين]، الحَكمِ العَلِيمِ، المُقسِطِ العَدلِ الحَكِيمِ، الَّذِي لَا يَحِيفُ وَلَا يَجُورُ، وَلَا يَظلِمُ مِثقَالَ ذَرَّةٍ: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود]، ثُمَّ إِمَّا نُعَيمٌ مُقِيمٌ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ، وَإِمَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي نَارِ الجَحِيمِ، فلِكُلِّ ظَاعِنٍ مَقَرٌّ، وَلِكُلِّ نَبَأٍ مُستَقَرٌّ. وَسَوفَ تَعلَمُونَ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [المؤمنون:١٠٠].

وَهَذَا سُؤَالُهُمُ الرَّجعَةَ عِندَ الِاحتِضَارِ، وَكَذَلِكَ يَسأَلُونَ الرَّجعَةَ إذا وُقِفوا على ربِّهِم للسُّؤال، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ ۖ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [السجدة].

وَكَذَلِكَ يَسأَلُونَ الرَّجعَةَ إِذَا وُقِفُوا عَلَى النَّارِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنعام].

وَكَذَلِكَ يَسأَلُونَ الرَّجعَةَ وَهُم فِي غَمَرَاتِ الجَحِيمِ وَعَذَابِهَا الأَلِيمِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ [فاطر].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُۚ قَدْ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الأعراف].

وَعَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: (مَن كَانَ لَهُ مَالٌ يُبَلِّغُهُ حَجَّ بَيتِ رَبِّهِ، أَو تَجِبُ عَلَيهِ فِيهِ زَكَاةٌ فَلَم يَفعَل سَأَلَ الرَّجعَةَ قبلَ الموتِ). فقال رجُلٌ: يا ابن عَبَّاسٍ! اتَّقِ اللهَ، فَإِنَّمَا يَسأَلُ الرَّجعَةَ الكُفَّار.

فقال ابنُ عبَّاسٍ: سأتلو عَلَيكَ بِذَلِكَ قُرآنًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [المنافقون][1].

(١) رواه الترمذي (٣٣١٦).

وَقَـالَ قَتَـادَةُ فِي قَولِـهِ تَعَـالَى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ٩٩﴾ [المؤمنون]، قَالَ: كَانَ العَلَاءُ بنُ زِيَادٍ يَقُولُ: لِيُنزِلَنَّ أَحَدُكُم نَفسَهُ أَنَّهُ قَد حَضَرَهُ المَوتُ فَاستَقَالَ رَبَّهُ فَأَقَالَهُ، فَليَعمَل بِطَاعَةِ الله تَعَالَى(١).

وَقَالَ قَتَادَةُ: وَاللَّهِ مَا تَمَنَّى إِلَّا أَن يَرجِعَ فَيَعمَلَ بِطَاعَةِ اللَّهِ، فَانظُرُوا أُمنِيَةَ الكَافِرِ المُفَرِّطِ، فَاعمَلُوا بِهَا، وَلَا حَولَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ(٢).

لذلكَ أمر رسولُ الله ﷺ بالمبادرةِ بالأعمالِ الصَّالحةِ فقال: «**بَادِرُوا بِالأَعمَالِ سِتًّا: طُلُوعَ الشَّمسِ مِن مَغرِبِهَا أَوِ الدُّخَانَ أَوِ الدَّجَّالَ أَوِ الدَّابَّةَ أَو خَاصَّةَ أَحَدِكُم أَو أَمرَ العَامَّةِ**»(٣).

وَعَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**نِعمَتَانِ مَغبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصِّحَّةُ وَالفَرَاغُ**»(٤).

وَعَنهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لِرَجُلٍ وَهُوَ يَعِظُهُ: «**اغتَنِم خَمسًا قَبلَ خَمسٍ: حَيَاتَكَ قَبلَ مَوتِكَ، وَصِحَّتَكَ قَبلَ سَقمِكَ، وَفَرَاغَكَ قَبلَ شُغلِكَ، وَشَبَابَكَ قَبلَ هَرَمِكَ، وَغِنَاكَ قَبلَ فَقرِكَ**»(٥).

---

(١) رواه الدينوري في «المجالسة» (٤٨٧).

(٢) ذكره الواحدي في «الوسيط» (٣/٢٩٨).

(٣) **صحيح**: رواه مسلم (٢٩٤٧).

(٤) **صحيح**: رواه الترمذي (٢٣٠٤)، وابن ماجه (٤١٧٠)، والنسائي في «الكبرى» (١١٨٠٠)، [«صحيح الجامع» (٦٧٧٨)].

(٥) **صحيح**: رواه النسائي «الكبرى» (١١٨٣٢)، وابن أبي شيبة (٣٤٣١٩)، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/١٤٨)، والبيهقي في «الشعب» (١٠٢٥٠) عن عمرو بن ميمون، والحاكم (٧٨٤٦) عن ابن عباس، [«صحيح الجامع» (١٠٧٧)].

يَعنِي أَنَّ هَذِهِ الخَمسَ: أَيَّامَ الشَّبَابِ، وَالصِّحَّةِ، وَالغِنَى، وَالفَرَاغِ، وَالحَيَاةِ، هِيَ أَيَّامُ العَمَلِ وَالتَّأَهُّبِ وَالِاستِعدَادِ وَالِاستِكثَارِ مِنَ الزَّادِ، فَمَن فَاتَهُ العَمَلُ فِيهَا لَم يُدرِكهُ عِندَ مَجِيءِ أَضدَادِهَا، وَلَا يَنفَعهُ التَّمَنِّي لِلأَعمَالِ بَعدَ التَّفرِيطِ وَالإِهمَالِ، فِي زَمَنِ الفُرصَةِ وَالإِمهَالِ، فَإِنَّ بَعدَ كُلِّ شَبَابٍ هَرَمًا، وَبَعدَ كُلِّ صِحَّةٍ سَقَمًا، وَبَعدَ كُلِّ غِنًى فَقرًا، وَبَعدَ كُلِّ فَرَاغٍ شُغلًا، وَبَعدَ كُلِّ حَيَاةٍ مَوتًا، فَمَن فَرَّطَ فِي العَمَلِ أَيَّامَ الشَّبَابِ لَم يُدرِكهُ فِي أَيَّامِ الهَرَمِ، وَمَن فَرَّطَ فِيهِ فِي أَوقَاتِ الصِّحَّةِ لَم يُدرِكهُ فِي أَوقَاتِ السَّقَمِ...

وقد بيَّنَ الله تعالى في كتابِهِ صِفةَ مجيءِ الموتِ بسكراتِهِ فقال: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنۡۜ رَاقٖ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلۡفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمَسَاقُ ﴿٣٠﴾﴾ [القيامة].

وقال تعالى: ﴿فَلَوۡلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمۡ حِينَئِذٖ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُبۡصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوۡلَآ إِن كُنتُمۡ غَيۡرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرۡجِعُونَهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوۡحٞ وَرَيۡحَانٞ وَجَنَّتُ نَعِيمٖ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٞ لَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٞ مِّنۡ حَمِيمٖ ﴿٩٣﴾ وَتَصۡلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلۡيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٩٦﴾﴾ [الواقعة].

وَعَن أَبِي هُرَيرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**إِذَا حُضِرَ المُؤمِنُ أَتَتهُ مَلَائِكَةُ الرَّحمَةِ بِحَرِيرَةٍ بَيضَاءَ فَيَقُولُونَ: اخرُجِي رَاضِيَةً مَرضِيًّا عَنكِ، إِلَى رَوحِ اللهِ وَرَيحَانٍ وَرَبٍّ غَيرِ**

غَضبَانَ، فتَخرُجُ كَأَطيَبِ رِيحِ المِسكِ، حَتَّى أَنَّهُ لَيُنَاوِلُهُ بَعضُهُم بَعضًا حَتَّى يَأتُونَ بِهِ بَابَ السَّمَاءِ فَيَقُولُونَ: مَا أَطيَبَ هَذِهِ الرِّيحَ الَّتِي جَاءَتكُم مِنَ الأَرضِ؟! فَيَأتُونَ بِهِ أَروَاحَ المُؤمِنِينَ فَلَهُم أَشَدُّ فَرَحًا بِهِ مِن أَحَدِكُم بِغَائِبِهِ يَقدَمُ عَلَيهِ، فَيَسأَلُونَهُ: مَاذَا فَعَلَ فُلَانٌ؟ مَاذَا فَعَلَ فُلَانٌ؟ فَيَقُولُونَ: دَعُوهُ فَإِنَّهُ كَانَ فِي غَمِّ الدُّنيَا، فَإِذَا قَالَ: أَمَا أَتَاكُم؟ قَالُوا: ذُهِبَ بِهِ إِلَى أُمِّهِ الهَاوِيَةِ. وَإِنَّ الكَافِرَ إِذَا احتُضِرَ أَتَتهُ مَلَائِكَةُ العَذَابِ بِمِسحٍ، فَيَقُولُونَ: اخرُجِي سَاخِطَةً مَسخُوطًا عَلَيكِ، إِلَى عَذَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ. فَتَخرُجُ كَأَنتَنِ رِيحِ جِيفَةٍ، حَتَّى يَأتُونَ بِهِ بَابَ الأَرضِ فَيَقُولُونَ: مَا أَنتَنَ هَذِهِ الرِّيحَ؟! حَتَّى يَأتُونَ بِهِ أَروَاحَ الكُفَّارِ»[(1)].

فتصوَّر نفسكَ أيُّها الإنسانُ على فِراشِ الموت، وتخيَّل أيَّ النداءِ ستسمع؟! هل سيُقال لنفسِك: «**اخرُجِي رَاضِيَةً مَرضِيًّا عَنكِ، إِلَى رَوحِ اللهِ وَرَيحَانٍ وَرَبٍّ غَيرِ غَضبَانَ**» أو يُقالُ لها: «**اخرُجِي سَاخِطَةً مَسخُوطًا عَلَيكِ، إِلَى عَذَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ**».

(وتفكَّر يا مغرُورُ في الموتِ وسكَراتِه، وصُعوبةِ كأسِهِ ومرارتِه، فيا لَلموتِ من وعدٍ ما أصدقه! ومن حاكمٍ ما أعدله! كفى بالموتِ مُفزِّعاً لِلقُلوب، ومُبَكِّياً لِلعُيون، ومُفرِّقاً لِلجماعات، وهاذِماً لِلَّذَّات، وقاطِعاً لِلأُمنيات.

فهل تفكَّرتَ يا ابنَ آدمَ في يومِ مصرعِك، وانتِقالِكَ من موضِعك، إذا نُقِلتَ من سَعَةٍ إلى ضيق، وخانكَ الصَّاحِبُ والرَّفيق، وهَجرَكَ الأخُ والصَّديق، وأُخِذتَ من

(١) **صحيح**: رواه النسائي (١٨٣٣)، والبزار (٩٥٤٢)، والحاكم (١٣٠٢)، [«السلسلة الصحيحة» (١٣٠٩)].

فِراشِكَ وغِطائكَ إلى غَرر، وَغَطَّوْكَ بعدَ لينِ لحافِها بِتُراب ومَدر! فيا جامِعَ المـال، والمجتهِدَ في البُنيان، ليسَ لكَ من مالِكَ إلَّا الأكفان، بل هي لِلخرابِ والذَّهاب، وجِسمُكَ لِلتُّراب! فأينَ الذي جمعتَهُ من المـال، فهل أنقذكَ من الأهوال؟! كلَّا، بل تركتَهُ لمن لا يحمدُك، وقدِمتَ بأوزارِكَ على من لا يعذُرُك)[(١)].

فتَفكر يا مغرُورُ في قِصَرِ عُمُرِكَ واقترابِ أجلِك، وقصِّر من أملِك، وَ«**كُن فِي الدُّنيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَو عَابِرُ سَبِيلٍ**».

وَكَانَ ابنُ عُمَرَ رضي الله عنهما يَقُولُ: (إِذَا أَمسَيتَ فَلَا تَنتَظِرِ الصَّبَاحَ، وَإِذَا أَصبَحتَ فَلَا تَنتَظِرِ المسَاءَ، وَخُذ مِن صِحَّتِكَ لمرَضِكَ، وَمِن حَيَاتِكَ لموتِكَ)[(٢)].

وقد أخرجَ البُخاريُّ هذا الحديثَ في كتابِ الرِّقاقِ من صحيحِه، ثمَّ عقَّبَ عليهِ بقولِه: (بَاب فِي الأَمَلِ وَطُولِهِ وَقَولِ الله تَعَالَى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾ [آل عمران] وَقَولِهِ: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾﴾ [الحجر] وَقَالَ عَلِيُّ ابنُ أَبِي طَالِبٍ: (ارتَحَلَتِ الدُّنيَا مُدبِرَةً، وَارتَحَلَتِ الآخِرَةُ مُقبِلَةً، وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنهُمَا بَنُونَ، فَكُونُوا مِن أَبنَاءِ الآخِرَةِ، وَلَا تَكُونُوا مِن أَبنَاءِ الدُّنيَا، فَإِنَّ اليَومَ عَمَلٌ وَلَا حِسَابَ، وَغَدًا حِسَابٌ وَلَا عَمَلٌ)[(٣)].

---

(١) «التذكرة» للقرطبي (٩، ١٠).

(٢) **صحيح**: رواه البخاري (٦٤١٦).

(٣) **صحيح**: ذكره البخاري معلقاً في كتاب الرقاق (باب في الأمل وطوله)، وذكر قريباً منه موصولاً في «تغليق التعليق» (١٥٨/٥).

(لقد آنَ لِلنَّائمِ أن يستَيقِظَ من نومِه، وحانَ لِلغافلِ أن ينتبِهَ من غفلتِهِ قبلَ هُجوم الموتِ بمرارةِ كأسِه، وقبلَ سُكونِ حركاتِه، وخُمودِ أنفاسِه، ورِحلتِهِ إلى قبره، ومقامِهِ بينَ أرماسِه.

عن عُمرَ بنِ عبدِ العزيزِ أنَّهُ كتبَ إلى أُناسٍ من أصحابِهِ يُوصيهم، فكان مِمَّا أوصاهم به:

أمَّا بعد: فإنِّي أُوصيكم بتقوى الله العظيم، والمراقبةِ له، واتَّخِذوا التَّقوى والورَعَ زاداً فإنَّكم في دارٍ عمَّا قريبٍ تنقلِبُ بأهلها، والله في عرَصاتِ القيامةِ وأهوالِها يسألكم عن الفتيلِ والنَّقير، فاللهَ اللهَ عبادَ الله! اذكروا الموتَ الذي لا بُدَّ منه، واسمعوا قولَ الله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [الأنبياء:٣٥]، وقولَهُ: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾﴾ [الرحمن]، وقولَه: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾﴾ [محمد]، فقد بلغني -والله أعلم- أنَّهم يُضربونَ بسياطٍ من نارٍ)[1][2].

ثانياً: تذكر عذاب القبر ونعيمه:

عَن زَيدِ بنِ ثَابِتٍ قَالَ: (بينَمَا النَّبِيُّ ﷺ فِي حَائِطٍ لِبَنِي النَّجَّارِ عَلَى بَغلَةٍ لَهُ وَنَحنُ مَعَهُ، إِذ حَادَت بِهِ فَكَادَت تُلقِيهِ، وَإِذَا أَقبُرٌ سِتَّةٌ أَو خَمسَةٌ أَو أَربَعَةٌ، فَقَالَ: «مَن

(١) «التذكرة» (١٩ و٢٠).

(٢) انظر كتاب «الأربعون المنبرية في أشراط الساعة» لفضيلة الشيخ عبد العظيم بن بدوي حفظه الله.

يَعرِفُ أَصحَابَ هَذِهِ الأَقبُرِ؟». فَقَالَ رَجُلٌ أَنَا. قَالَ: «**فَمَتَى مَاتَ هَؤُلاَءِ؟**». قَالَ: مَاتُوا فِي الإِشرَاكِ. فَقَالَ: «**إِنَّ هَـذِهِ الأُمَّـةَ تُبـتَلَى فِي قُبُورِهَـا، فَلَـولاَ أَن لاَ تَـدَافَنُوا، لَدَعَوتُ اللَّهَ أَن يُسمِعَكُم مِن عَذَابِ القَبرِ الَّذِي أَسمَعُ مِنهُ**». ثُمَّ أَقبَلَ عَلَينَا بِوَجهِهِ فَقَالَ: «**تَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِن عَذَابِ النَّارِ**». قَالُوا: نَعُوذُ بِاللَّهِ مِن عَذَابِ النَّارِ، فَقَالَ: «**تَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِن عَذَابِ القَبرِ**». قَالُوا: نَعُوذُ بِاللَّهِ مِن عَذَابِ القَبرِ. قَالَ: «**تَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنَ الفِتَنِ مَا ظَهَرَ مِنهَا وَمَا بَطَنَ**». قَالُوا: نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الفِتَنِ مَا ظَهَرَ مِنهَا وَمَا بَطَنَ، قَالَ: «**تَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِن فِتنَةِ الدَّجَّالِ**» قَالُوا نَعُوذُ بِاللَّهِ مِن فِتنَةِ الدَّجَّالِ)(١).

(القبرُ واحِدُ القُبورِ في الكثرة، وأقبُرٍ في القلّة، ويُقالُ لِلمدفنِ مقبرةٌ، وقد جاء في التَّنزيلِ: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ ٢١﴾ [عبس]، أي: جعلَ لهُ قبراً يُوارَى فيهِ إكراماً له، ولم يجعلهُ ممَّا يُلقَى على وجهِ الأرضِ تأكلُهُ الطَّيرُ والعوافي)(٢).

فإذا تحقَّقَ الموتُ وجبتِ المُبادرةُ بتجهيزِه، كما قال ﷺ: «**أَسرِعُوا بِالجَنَازَةِ فَإِن تَكُ صَالِحَةً فَخَيرٌ تُقَدِّمُونَهَا، وَإِن يَكُ سِوَى ذَلِكَ فَشَرٌّ تَضَعُونَهُ عَن رِقَابِكُم**»(٣).

وقد أخبرَنا رسُولُ الله ﷺ أنَّهُ لن تموتَ نفسٌ حتى تُبشَّرَ بما لها عندَ الله.

عَن عَائِشَةَ رضي الله عنها عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**مَن أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَمَن كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ**»، قَالَت عَائِشَةُ: إِنَّا لَنَكرَهُ المَوتَ! قَالَ: «**لَيسَ ذَاكِ،**

(١) **صحيح**: رواه مسلم (٢٨٦٧).

(٢) «التذكرة» للقرطبي(٨٨ و٨٩).

(٣) **متفق عليه**: رواه البخاري (١٣١٥)، ومسلم (٩٤٤).

وَلَكِنَّ المُؤمِنَ إِذَا حَضَرَهُ المَوتُ بُشِّرَ بِرِضوَانِ اللَّهِ وَكَرَامَتِهِ، فَلَيسَ شَيءٌ أَحَبَّ إِلَيهِ مِمَّا أَمَامَهُ، فَأَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ وَأَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَإِنَّ الكَافِرَ إِذَا حُضِرَ بُشِّرَ بِعَذَابِ اللَّهِ وَعُقُوبَتِهِ، فَلَيسَ شَيءٌ أَكرَهَ إِلَيهِ مِمَّا أَمَامَهُ، كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ وَكَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ»(١).

ولذلك يحرصُ المؤمنُ على الإسراعِ به، ويتمنَّى الكافِرُ أن لا يذهبوا به، كما في الحديثِ عَن أَبِي سَعِيدٍ الخُدرِيِّ ﵁ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**إِذَا وُضِعَتِ الجِنَازَةُ وَاحتَمَلَهَا الرِّجَالُ عَلَى أَعنَاقِهِم فَإِن كَانَت صَالِحَةً قَالَت قَدِّمُونِي، وَإِن كَانَت غَيرَ صَالِحَةٍ قَالَت: يَا وَيلَهَا! أَينَ يَذهَبُونَ بِهَا، يَسمَعُ صَوتَهَا كُلُّ شَيءٍ إِلَّا الإِنسَانَ، وَلَو سَمِعَهُ صَعِقَ**»(٢).

فإذا انتهوا بهِ إلى القبرِ ألحدوه، ثمَّ أسلموهُ في تلكَ الحُفرةِ المُظلمةِ الموحِشَة، فِراشُهُ التُّراب، وجليسُهُ الدُّود، وأنيسُهُ العمل، عَن أَنَسِ بنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**يَتبَعُ المَيِّتَ ثَلَاثَةٌ، فَيَرجِعُ اثنَانِ وَيَبقَى مَعَهُ وَاحِدٌ، يَتبَعُهُ أَهلُهُ وَمَالُهُ، وَعَمَلُهُ، فَيَرجِعُ أَهلُهُ وَمَالُهُ، وَيَبقَى عَمَلُهُ**»(٣).

وَعَنهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّهُ لَيَسمَعُ قَرعَ نِعَالِهِم**»(٤)، يعني إذا انصرفوا، فأَوَّلُ ما يلقاهُ مِنَ القبرِ أَنَّهُ يضُمُّهُ ضمَّةً شديدةً، تَخْتلِفُ منها أضلاعُه، وتنقطِعُ منها أوصالُه، ولا ينجو من هذه الضَّمَّةِ أحَد، لا مَلِكٌ ولا وزير، ولا غنيٌّ

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري (٦٥٠٧)، ومسلم(٢٦٨٤) واللفظ للبخاري.

(٢) **صحيح**: رواه البخاري (١٣١٤).

(٣) **متفق عليه**: رواه البخاري (٦٥١٤)، ومسلم (٢٩٦٠).

(٤) **متفق عليه**: رواه البخاري (١٣٣٨)، ومسلم (٢٨٧٠).

ولا فقير، ولا عظيمٌ ولا حقير، ولا كبيرٌ ولا صغير، ولا بَرٌّ ولا فاجر، ولا صالِحٌ ولا طالِح.

عَنِ ابنِ عُمَرَ رضي الله عنهما عَن رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**هَذَا الَّذِي تَحَرَّكَ لَهُ العَرشُ، وَفُتِحَت لَهُ أَبوَابُ السَّمَاءِ، وَشَهِدَهُ سَبعُونَ أَلفًا مِن المَلَائِكَةِ، لَقَد ضُمَّ ضَمَّةً ثُمَّ فُرِّجَ عَنهُ**»(١). -يعني: سعدَ بْنَ معاذٍ رضي الله عنه-.

ثمَّ يأتي الميِّتَ مَلَكانِ أسودانِ أزرقان، يُقالُ لأحدِهما المُنكر، وللآخَرِ النَّكير، سُمِّيا بذلك لأنَّ خلقَهما غريبٌ عجيب، لا يَسُرُّ النَّاظرين، ولكَ أن تتخيَّلَ مدى الذُّعرِ والرُّعبِ الذي سيُصيبُ الميِّتَ وهو في قبرِه وحيداً فريداً، في ظُلمةٍ أَشَدَّ من ظُلمةِ الليلِ البهيم، وهو لا يملِكُ دفعاً، ولا يستطيعُ هرباً.

عَن أَبِي هُرَيرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِذَا قُبِرَ المَيِّتُ أَتَاهُ مَلَكَانِ أَسوَدَانِ أَزرَقَانِ، يُقَالُ لِأَحَدِهِمَا المُنكَرُ وَالآخَرُ النَّكِيرُ، فَيَقُولَانِ: مَا كُنتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟ فَيَقُولُ مَا كَانَ يَقُولُ، هُوَ عَبدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، أَشهَدُ أَن لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولَانِ: قَد كُنَّا نَعلَمُ أَنَّكَ تَقُولُ هَذَا، ثُمَّ يُفسَحُ لَهُ فِي قَبرِهِ سَبعُونَ ذِرَاعًا فِي سَبعِينَ، ثُمَّ يُنَوَّرُ لَهُ فِيهِ، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: نَم، فَيَقُولُ: أَرجِعُ إِلَى أَهلِي فَأُخبِرُهُم، فَيَقُولَانِ: نَم كَنَومَةِ العَرُوسِ الَّذِي لَا يُوقِظُهُ إِلَّا أَحَبُّ أَهلِهِ إِلَيهِ حَتَّى يَبعَثَهُ اللَّهُ مِن مَضجَعِهِ ذَلِكَ. وَإِن كَانَ مُنَافِقًا قَالَ: سَمِعتُ النَّاسَ يَقُولُونَ فَقُلتُ**

(١) **صحيح**: رواه النسائي (٢٠٥٥)، والطبراني في «الأوسط» (١٧٠٧)، [«صحيح الجامع» (٦٩٨٧)].

مِثلَهُ لَا أَدرِي، فَيَقُولَانِ: قَد كُنَّا نَعلَمُ أَنَّكَ تَقُولُ ذَلِكَ، فَيُقَالُ لِلأَرضِ التَئِمِي عَلَيهِ، فَتلَتَئِمُ عَلَيهِ، فَتَختَلِفُ فِيهَا أَضلَاعُهُ، فَلَا يَزَالُ فِيهَا مُعَذَّبًا حَتَّى يَبعَثَهُ اللَّهُ مِن مَضجَعِهِ ذَلِكَ»(١).

وَعَن أَنَسِ بنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: (إِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ دَخَلَ نَخلًا لِبَنِي النَّجَّارِ، فَسَمِعَ صَوتًا فَفَزِعَ، فَقَالَ: «**مَن أَصحَابُ هَذِهِ القُبُورِ؟**» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! نَاسٌ مَاتُوا فِي الجَاهِلِيَّةِ. فَقَالَ: «**تَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِن عَذَابِ النَّارِ، وَمِن فِتنَةِ الدَّجَّالِ**». قَالُوا: وَمِمَّ ذَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «**إِنَّ المُؤمِنَ إِذَا وُضِعَ فِي قَبرِهِ أَتَاهُ مَلَكٌ فَيَقُولُ لَهُ: مَا كُنتَ تَعبُدُ؟ فَإِنِ اللَّهُ هَدَاهُ قَالَ: كُنتُ أَعبُدُ اللَّهَ. فَيُقَالُ لَهُ: مَا كُنتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟ فَيَقُولُ: هُوَ عَبدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ. فَمَا يُسأَلُ عن شَيءٍ غَيرِهَا. فَيُنطَلَقُ بِهِ إِلَى بَيتٍ كَانَ لَهُ فِي النَّارِ فَيُقَالُ لَهُ: هَذَا بَيتُكَ كَانَ لَكَ فِي النَّارِ وَلَكِنَّ اللَّهَ عَصَمَكَ وَرَحِمَكَ فَأَبدَلَكَ بِهِ بَيتًا فِي الجَنَّةِ. فَيَقُولُ: دَعُونِي حَتَّى أَذهَبَ فَأُبَشِّرَ أَهلِي! فَيُقَالُ لَهُ: اسكُن. وَإِنَّ الكَافِرَ إِذَا وُضِعَ فِي قَبرِهِ أَتَاهُ مَلَكٌ، فَيَنتَهِرُهُ فَيَقُولُ لَهُ: مَا كُنتَ تَعبُدُ؟ فَيَقُولُ: لَا أَدرِي. فَيُقَالُ لَهُ: لَا دَرَيتَ وَلَا تَلَيتَ. فَيُقَالُ لَهُ: فَمَا كُنتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟ فَيَقُولُ: كُنتُ أَقُولُ مَا يَقُولُ النَّاسُ. فَيَضرِبُهُ بِمِطرَاقٍ مِن حَدِيدٍ بَينَ أُذُنَيهِ فَيَصِيحُ صَيحَةً يَسمَعُهَا الخَلقُ غَيرَ الثَّقَلَينِ**»(٢)).

---

(١) **حسن**: رواه الترمذي (١٠٧١)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٨٦٤)، والبزار (٨٤٦٢)، وابن حبان (٣١١٧)، [«صحيح الترغيب» (٣٥٦٠)].

(٢) **صحيح**: رواه أبو داود (٤٧٦١)، [«صحيح الترغيب» (٣٥٥٥)].

وهكذا يتِمُّ سؤالُ القبرِ بعدَ الفراغِ من الدَّفنِ مُباشرةً، ولذلكَ: (كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا فَرَغَ مِن دَفنِ المَيِّتِ وَقَفَ عَلَيهِ فَقَالَ: «**استَغفِرُوا لأَخِيكُم وَسَلُوا لَهُ التَّثبِيتَ فَإِنَّهُ الآنَ يُسأَلُ**»(١)).

فإذا فُرِغَ من السُّؤالِ رأى الميِّتُ ما أُعِدَّ لهُ منْ نعيم الجنَّةِ أو عذاب النَّار: عَنِ ابنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قال: «**إِنَّ أَحَدَكُم إِذَا مَاتَ عُرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ بِالغَدَاةِ وَالعَشِيِّ؛ إِن كَانَ مِن أَهْلِ الجَنَّةِ فَمِن أَهْلِ الجَنَّةِ، وَإِن كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَمِنْ أَهْلِ النَّارِ، يُقَالُ: هَذَا مَقْعَدُكَ حَتَّى يَبْعَثَكَ اللهُ إِليهِ يومَ القيامَةِ**»(٢).

قال الإمامُ ابنُ أبي العِزِّ في شرحِ الطَّحاويَّة: (وَقَد تَوَاتَرَتِ الأَخبَارُ عَن رَسُولِ الله ﷺ في ثُبُوتِ عَذَابِ القَبرِ وَنَعِيمِه لِمَن كَانَ لِذَلِكَ أَهلًا، وَسُؤَالِ المَلَكَينِ، فَيَجِبُ اعتِقَادُ ثُبُوتِ ذَلِكَ وَالإِيمَانُ به، وَلَا يُتَكَلَّمُ في كَيفِيَّتِه، إذ لَيسَ لِلعَقلِ وُقُوفٌ على كَيفِيَّتِه، لِكَونِه لَا عَهدَ لهُ بهِ في هذهِ الدَّارِ، وَالشَّرعُ لَا يأتي بِمَا تُحِيلُه العُقُولُ، وَلَكِنَّه قَد يأتي بِمَا تَحَارُ فيهِ العُقُولُ، فَإِنَّ عَودَ الرُّوحِ إلى الجَسَدِ لَيسَ على الوَجه المَعهُودِ في الدُّنيَا، بَل تُعَادُ الرُّوحُ إليه إِعَادَةً غَيرَ الإِعَادَة المَألُوفَة في الدُّنيَا، فَالرُّوحُ لَهَا بِالبَدَنِ خَمسَةُ أَنوَاعٍ مِنَ التَّعَلُّقِ، مُتَغَايِرَةُ الأَحكَامِ:

أَحَدُهَا: تَعَلُّقُهَا بِهِ في بَطنِ الأُمِّ جَنِينًا.

---

(١) **صحيح:** رواه أبو داود (٣٢٢١)، والحاكم (١٣٧٢)، والبيهقي في «السنن الكبرى»(٤/٥٦)، [«صحيح الجامع» (٤٧٦٠)].

(٢) **متفق عليه:** رواه البخاري (١٣٧٩)، ومسلم (٢٨٦٦) واللفظ له.

الثَّانِي: تَعَلُّقُهَا به بَعدَ خُرُوجِهِ إلى وَجهِ الأَرضِ.

الثَّالِثُ: تَعَلُّقُهَا بِهِ فِي حَالِ النَّومِ، فَلَهَا به تَعَلُّقٌ بِهِ مِن وَجه، وَمُفَارَقَةٌ مِن وَجه.

الرَّابِعُ: تَعَلُّقُهَا به في البَرزَخِ، فَإِنَّهَا وَإِن فَارَقَته وَتَجَرَّدَت عنه فَإِنَّهَا لَم تُفَارِقْهُ فِرَاقًا كُلِّيًّا بِحَيثُ لَا يَبقَى لَهَا إليهِ التِفَاتٌ أَلبَتَّة، بل هي مُتَّصلةٌ بِهِ اتِّصالاً، لَا يُوجِبُ حَيَاةَ البَدَنِ إلى يومِ القِيَامَة.

الخَامِسُ: تَعَلُّقُهَا به يَومَ بَعثِ الأَجسَادِ، وَهُوَ أَكمَلُ أَنوَاعِ تَعَلُّقِهَا بِالبَدَنِ، وَلَا نِسبَة لِمَا قبلهُ مِن أَنوَاعِ التَّعَلُّقِ إليه، إذ هُوَ تَعَلُّقٌ لَا يَقبَلُ البَدَنُ معه مَوتًا وَلَا نومًا وَلَا فَسَادًا، فَالنَّومُ أَخُو الموتِ. فمن تَأَمَّلَ هَذَا انزاحَ عنهُ إِشكَالَاتٌ كثيرة.

وَلَيسَ السُّؤَالُ فِي القَبرِ لِلرُّوحِ وَحدَهَا، ولا لِلبدَنِ وحده، وإنَّما السُّؤالُ لِلرُّوحِ والبدنِ معاً، وَكَذَلِكَ عَذَابُ القَبرِ ونعيمُهُ يَكُونُ لِلنَّفسِ وَالبَدَنِ جَمِيعًا، بِاتِّفَاقِ أَهلِ السنة وَالجَمَاعَة، تَنعَمُ النَّفسُ وَتُعَذَّبُ مُفرَدَةً عَنِ البَدَنِ وَمُتَّصِلَةً به.

قال: وَاعلَم أَنَّ عَذَابَ القَبرِ هُوَ عَذَابُ البَرزَخِ، فَكُلُّ مَن مَاتَ وَهُوَ مُستَحِقٌّ لِلعَذَابِ نَالَه نَصِيبُهُ منه، قُبِرَ أَو لَم يُقبَر، أَكَلَتهُ السِّبَاعُ أَوِ احتَرَقَ حتى صَارَ رَمَادًا وَنُسِفَ فِي الهَوَاءِ، أَو صُلِبَ أَو غَرِقَ فِي البَحرِ، وَصَلَ إِلى رُوحِه وَبَدَنِه مِنَ العَذَابِ مَا يَصِلُ إلى المَقبُورِ.

وَمَا وَرَدَ مِن إجلَاسِه وَاختِلَافِ أَضلَاعِه وَنَحوِ ذَلِكَ فَيَجِبُ أَن يُفهَمَ عَنِ الرَّسُولِ ﷺ مُرَادُهُ مِن غَيرِ غُلُوٍّ وَلَا تَقصِيرٍ، فَلَا يُحَمَّلُ كَلَامُهُ مَا لَا يَحتَمِلُه، وَلَا

يُقْصَرُ بِهِ عَن مُؤداهِ، ومَا قَصَدَهُ مِنَ الهُدَى وَالبَيَانِ، فَكَم حَصَلَ بِإِهمَالِ ذَلِكَ وَالعُدُولِ عنهُ مِنَ الضَّلَالِ وَالعُدُولِ عَنِ الصَّوَابِ مَا لَا يَعلَمُهُ إِلَّا الله.

والحَاصِلُ أَنَّ الدُّورَ ثَلَاثَة: دَارُ الدُّنيَا، وَدَارُ البَرزَخِ، وَدَارُ القَرَارِ.

وَقَد جَعَلَ الله لِكُلِّ دَارٍ أَحكَامًا تَخُصُّهَا، وَرَكَّبَ هَذَا الإِنسَانَ مِن بَدَنٍ وَنَفسٍ، وَجَعَلَ أَحكَامَ الدُّنيَا على الأَبدَانِ، وَالأَروَاحُ تَبَعٌ لَهَا، وَجَعَلَ أَحكَامَ البَرزَخِ على الأَروَاحِ، وَالأَجسادُ تَبَعٌ لَهَا، فَإِذَا جَاءَ يَومُ الحَشرِ صَارَ الحُكمُ وَالنَّعِيمُ وَالعَذَابُ على الأَروَاحِ وَالأَجسَادِ جَمِيعاً.

فَإِذَا تَأَمَّلتَ هَذَا المعنى حَقَّ التَّأَمُّلِ، ظَهَرَ لَكَ كَونُ القَبرِ رَوضَةً مِن رِيَاضِ الجَنَّة، أَو حُفرَةً مِن حُفَرِ النَّارِ مُطَابِقٌ لِلعَقلِ، وأَنَّهُ حَقٌّ لَا مِريَة فيه، وَبِذَلِكَ يَتَمَيَّزُ المُؤمِنُونَ بِالغَيبِ مِن غَيرِهِم.

وَيَجِبُ أَن يُعلَمَ أَنَّ النَّارَ التي فِي القَبرِ وَالنَّعِيمَ لَيسَ مِن جِنسِ نَارِ الدُّنيَا وَلَا نَعِيمِهَا، وَإِن كَانَ الله تعالى يَحمِي عليه التُّرَابَ وَالحِجَارَة التي فَوقَهُ وَتَحتَهُ حتى تكُونَ أَعظَمَ حَرًّا مِن جَمرِ الدُّنيَا، وَلَو مَسَّهُ أَهلُ الدُّنيَا لَم يُحِسُّوا بِهَا، وأَعجَبُ مِن هَذَا أَنَّ الرَّجُلَينِ يُدفَنُ أَحَدُهُمَا إِلى جَنبِ صَاحِبِه، وَهَذَا فِي حُفرَة مِنَ النَّارِ، وَهَذَا فِي رَوضَةٍ مِن رِيَاضِ الجَنَّة، لَا يَصِلُ مِن هَذَا إِلى جَارِه شَيءٌ مِن حَرِّ نَارِه، وَلَا مِن هَذَا إِلى جَارِه شَيءٌ مِن نَعِيمِه، وَقُدرَةُ الله أَوسَعُ مِن ذَلِكَ وَأَعجَبُ، وَلَكِنَّ النُّفُوسَ مُولَعَةٌ بِالتَّكذِيبِ بِمَا لَم تُحِط به عِلمًا، وَقَد أَرَانَا الله تعالى فِي هذهِ الدَّارِ مِن عَجَائِبِ قُدرَتِه مَا هُوَ أَبلَغُ مِن هَذَا بِكَثِيرٍ، وَإِذَا شَاءَ الله أَن يُطلِعَ على ذَلِكَ بَعضَ عِبَادِهِ

أَطلَعَه، وَغَيَّبَهُ عَن غيره، وَلَو أَطلَعَ الله على ذَلِكَ العِبَادَ كُلَّهُم لَزَالَت حِكمَة التَّكلِيفِ وَالإِيمَانِ بِالغَيبِ، وَلَمَا تَدَافَنَ النَّاسُ، كَمَا فِي الصَّحِيحِ عَن أَنَسٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**لَولَا أَن لَا تَدَافَنُوا لَدَعَوتُ الله أَن يُسمِعَكُم مِن عَذَابِ القَبرِ**»[1])[2].

قال القُرطبيُّ: (وامتناعُ التدافُنِ لو سُمعَ عذابُ القبرِ يحتملُ أن يكونَ سببُهُ غَلبَةُ الخوفِ عندَ سماعِه، فيغلبُ الخوفُ على الحيِّ، فلا يقدِر على قُربِ القبرِ للدَّفن، أو يهلِكُ الحيُّ عندَ سماعِه، إذ لا يُطاقُ سماعُ شيءٍ من عذابِ الله في هذهِ الدَّار.

ألا ترى أنَّهُ إذا سمِعَ النَّاسُ صعقةَ الرَّعدِ القاصف، أو الزَّلازِلِ الهائلة هلكَ كثيرٌ من الناس! وأينَ صعقةُ الرَّعدِ من صيحةِ الذي تضربهُ الملائكةُ بمطارقَ من حديد، التي يسمعُها كلُّ من يليهِ إلَّا الثَّقلين، وقد قال ﷺ: «**وَلَو سَمِعَهَا الإِنسَانُ لَصَعِقَ**»[3]).

فإن قيلَ: أَوَ لم يُذكرْ عذابُ القبرِ في القرآنِ الكريم؟

فالجوابُ: بلى، ذُكرَ عذابُ القبرِ في القُرآنِ الكريمِ في مواضِعَ كثيرة:

منها قولُه تعالى: ﴿**يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأٓخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ٢٧**﴾ [إبراهيم].

عَنِ البَرَاءِ بنِ عَازِبٍ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَال: ﴿**يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ**﴾ قَالَ: «**نَزَلَت فِي عَذَابِ القَبرِ، فَيُقَالُ لَهُ: مَن رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّيَ**

(١) **صحيح**: رواه مسلم (٢٨٦٨).

(٢) «شرح الطحاوية» لابن أبي العز الحنفي (٤٥٠-٤٥٣).

(٣) **صحيح**: رواه البخاري (١٣٨٠).

الله، وَنَبِيِّي مُحَمَّدٌ ﷺ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ﴾»[1].

وقال تعالى عن قومِ نوحٍ: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَارًا فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾﴾ [نوح].

قال الألوسيُّ: (هيَ نارُ البرزخِ، والمرادُ عذابُ القبرِ، ومن ماتَ في ماءٍ أو نارٍ أو أكلتهُ السِّباعُ أوِ الطَّيرُ -مثلاً- أصابهُ ما يُصيبُ المقبورَ من العذاب)[2].

وقال بعض أهل العلم: (هذه الآية دليلٌ على عذابِ القبرِ، وذلكَ من وجهين:

الأوَّل: أنَّ الفاءَ في قولهِ: ﴿فَأُدْخِلُواْ نَارًا﴾ تدلُّ على أنَّه حصلت تلكَ الحالةُ عقِبَ الإغراق، فلا يُمكنُ حملُها على عذابِ الآخرة، وإلَّا بطلت دِلالةُ هذهِ الفاء.

الثَّاني: أنَّهُ قال ﴿فَأُدْخِلُواْ﴾ على سبيلِ الإخبارِ عن الماضي، وهذا إنَّما يصدقُ لو وقعَ ذلك).

وقال تعالى عن آلِ فرعون: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر].

قال القُرطبيّ: (الجمهورُ على أنَّ هذا العرضَ في البرزخ. واحتج بعض أهل العلم في تثبيت عذاب القبر بقوله تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ [غافر:٤٦]، ما دامت الدنيا.

(١) **صحيح**: رواه مسلم (٢٨٧١).

(٢) «روح المعاني» للألوسي(٢٩/٩٨).

كذلك قال مجاهد وعكرمة ومقاتل ومحمد بن كعب كلهم قال: هذه الآية تدل على عذاب القبر في الدنيا، ألاَ تراه يقول عن عذاب الآخرة: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر].

عَن ابنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ أَحَدَكُم إِذَا مَاتَ عُرِضَ عَلَيهِ مَقعَدُهُ بِالغَدَاةِ وَالعَشِيِّ إِن كَانَ مِن أَهلِ الجَنَّةِ فَمِن أَهلِ الجَنَّةِ وَإِن كَانَ مِن أَهلِ النَّارِ فَمِن أَهلِ النَّارِ، فَيُقَالُ: هَذَا مَقعَدُكَ حَتَّى يَبعَثَكَ اللَّهُ يَومَ القِيَامَةِ**»[(1)][(2)].

ولقد هدَّدَ الله تَعَالى مُشرِكِي مَكَّةَ بعَذابِ يَومِ القيَامةِ ثُمَّ تَوعَّدهم بعذابِ القَبرِ قَبلَه فقال لنَبيِّه ﷺ: ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الطور].

عن قَتَادة أَنَّ ابنَ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما كانَ يقُولُ: (إِنَّكم لتجِدُونَ عذابَ القَبرِ في كتابِ الله ثُمَّ يقرأُ: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ [الطور:٤٧])[(3)].

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُاْ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [النحل].

(١) **متفق عليه**: البخاري (١٣٧٩)، ومسلم (٢٨٦٦).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (١٥/٣١٩).

(٣) «جامع البيان» الطبري (٢١/٦٠٣).

قال ابنُ كثيرٍ: (يُخبرُ تعالى عن حالِ المُشركينَ الظَّالمينَ أنفُسَهم عندَ احتِضارهم ومجيءِ الملائكةِ إليهم لِقبضِ أرواحهم الخبيثة ﴿فَأَلْقَوُاْ ٱلسَّلَمَ﴾ [النحل:٢٨] أي: أظهروا السَّمعَ والطَّاعةَ والانقِيادَ قائلينَ: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۚ﴾ [النحل:٢٨].

فقالَ الله مُكذِّباً لهم في قيلِهم ذلكَ: ﴿بَلَىٰٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَلَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [النحل] أي: بئسَ المقيلُ والمقامُ والمكانُ من دارِ هوانٍ لمن كانَ مُتكبِّراً عن آياتِ الله واتِّباعِ رُسلِه، وهم يدخلونَ جهنَّمَ من يومِ مماتِهم بأرواحِهم، وينالُ أجسادَهم في قبورِها من حرِّها وسَمومِها، فإذا كانَ يومُ القِيامةِ سُلِكت أرواحُهم في أجسادِهم، وخُلِّدوا في نارِ جهنَّم: ﴿لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ﴾ [فاطر:٣٦].

كما قال تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر])[1].

وهكذا تظاهرت نُصوصُ الكتابِ والسُّنَّةِ على إثباتِ سُؤالِ القبرِ وفتنتهِ، ونعيمِهِ وعذابِه، وعلى ذلكَ أجمعَ أئِمَّةُ السُّنَّة، ولم يُنكِرهُ إلَّا المُبتدِعة.

فإن قيلَ: وهل عذابُ القبرِ دائمٌ أم مُنقطِعٌ؟

فالجوابُ: (أنَّ عذابَ القبرِ نوعان: منهُ ما هو دائم، وذلكَ جزاءُ الكافرين، كما قال تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر]).

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٥٦٧/٢).

وفي حديث البراء بنِ عازبٍ ﭬ في قصَّةِ الكافرينَ قال النبيُّ ﷺ: «**ثُمَّ يُفتحُ لهُ بابٌ إلى النَّارِ، فينظرُ إلى مقعدِهِ فيها حتى تقومَ السَّاعة**».

والنَّوعُ الثَّاني ما يكونُ مُدَّةً ثُمَّ ينقطع، وهو عذابُ بعضِ العُصاةِ الَّذينَ خفَّت جرائمُهم، فيُعذَّبُ بحسَبِ جُرمِهِ، ثُمَّ يُخفَّفُ عنه)[(١)].

وهكذا يكونُ الموتى في قُبورِهم مُنعَّمينَ أو مُعذَّبينَ، فلا يزالونَ هكذا إلى يومِ الدِّين، كما قال ربُّ العالمين: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ١٠٠﴾ [المؤمنون].

تلك هي حقيقَةُ القَبر، رَوضَةٌ من رياضِ الجنَّة، أو حُفرَةٌ مِن حُفَرِ النَّار، لذلكَ كانَ عُثمانُ إذَا وقفَ على قَبرٍ بكى حَتَّى يَبُلَّ لِحيَتَه.

ورُوِيَ عَن عليٍّ أَنَّه خرجَ إلى مقبرةٍ فَلَمَّا أشرفَ عليها قال: يا أهلَ القبُورِ أَخبِرُونا عنكم أو نُخبِرُكم، أَمَّا خَبرُ مَن قبلنا: فالمالُ قد اقتُسِم، والنِّساءُ قد تزوَّجنَ، والمساكِنُ قد سكنَها قَومٌ غيرُكم، ثُمَّ قَالَ: أَمَا والله لو استَطاعُوا لقَالُوا: لم نرَ زاداً خيراً مِنَ التَّقوى[(٢)].

ابن آدم!

قِفْ بالقُبورِ وقُلْ على ساحَاتِها ... مَنْ منكمُ المَغمورُ في ظلُماتِها
ومَنِ المُكرَّمُ منكمُ في قَعرِهَا ... قَد ذَاقَ بردَ الأمنِ مِنْ رَوعَاتِها

(١) «شرح العقيدة الطحاوية» لابن أبي العز الحنفي (٤٥٣).

(٢) ذكره القرطبي في «التذكرة» (١٣١).

أَمَّا السُّكونُ لِذِي العُيونِ فواحِدٌ ... لا يستَبِينُ التَّفاضُلَ في درجَاتِها
لَو جاوبُوكَ لأخبَرُوكَ بألسُنٍ ... تَصِفُ الحَقَائِقَ بَعدُ مِن حالاَتِها
أَمَّا المطيعُ فنازِلٌ فِي رَوضَةٍ ... يفضِي إلى ما شاءَ مِن درجَاتِها
والمُجرِمُ الطَّاغِي بها مُتقلِّبٌ ... في حُفرَةٍ تأوِي به إلى حيَّاتِها
وعَقَارِبٌ تسعَى إلَيهِ فَرُوحُهُ ... فِي شِدَّةِ التَّعذِيبِ مِن لدَغَاتِها[1]

هذا هو ما أُعِدَّ للإنسانِ في قَبرِه: تُرَابٌ ودُودٌ، ظُلمةٌ ووَحشَةٌ، صَدِيدٌ يسيل، وفُرُشٌ تبلَى، وريحٌ متغيِّرٌ، أَلَيسَ ذلكَ شاهِدَ صِدقٍ لِمن قَالَ:

والله لَو عَاشَ الفتَى في عُمُرِهِ ... ألفاً مِنَ الأعوَامِ مَالِكَ أَمرِهِ
مُتَنَعِّماً فِيهَا بكُلِ لذيذةٍ ... مُتلذِّذاً فِيهَا بسُكنَى قَصرِه
لا يَعتريهِ الهمُّ طُولَ حياتهِ ... كلَّا ولا تَرِدُ الهُمومُ بصَدرِهِ
مَا كَانَ ذلِكَ كلُّه في أَن يَفِي ... بمَبيتِ أوَّلِ ليلَةٍ فِي قَبرِهِ

ومع ذلك فكثيرٌ من الناس عن الموت والقبر والحشر غافلون.

كما قال القائل:

أَمَا والله لو علِمِ الأنامُ ... لِما خُلقوا لما غفلوا وناموا
لقد خُلقوا لأمرٍ لو رأته ... عيونُ قلوبِهم تاهوا وهاموا
مماتٌ ثم قبرٌ ثم حشرٌ ... وتوبيخٌ وأهوالٌ عظامُ
ليومِ الحشرِ قد عملت رجالٌ ... فصلّوا من مخافتِه وصاموا
ونحنُ إذا أُمِرنا أو نُهينا ... كأهلِ الكهفِ أيقاظٌ نيامُ

---

(١) ذكره ابن الجوزي في «بستان العارفين» (١٩٨).

ثالثاً: تذكرُ أسباب عذابِ القبر.

عَن ابنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه قَالَ: مَرَّ النَّبِيُّ ﷺ بِحَائِطٍ مِن حِيطَانِ المَدِينَةِ أَو مَكَّةَ فَسَمِعَ صَوتَ إِنسَانَينِ يُعَذَّبَانِ فِي قُبُورِهِمَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**يُعَذَّبَانِ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ، ثُمَّ قَالَ: بَلَى! كَانَ أَحَدُهُمَا لَا يَستَتِرُ مِن بَولِهِ، وَكَانَ الآخَرُ يَمشِي بِالنَّمِيمَةِ. ثُمَّ دَعَا بِجَرِيدَةٍ فَكَسَرَهَا كِسرَتَينِ، فَوَضَعَ عَلَى كُلِّ قَبرٍ مِنهُمَا كِسرَةً. فَقِيلَ لَهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! لِمَ فَعَلتَ هَذَا؟ قَالَ: لَعَلَّهُ أَن يُخَفَّفَ عَنهُمَا مَا لَم تَيبَسَا، أَو إِلَى أَن يَيبَسَا**»(١).

قالَ الإمامُ ابنُ العربيِّ: (أخبرَ النبيُّ ﷺ عن صاحِبي هذينِ القبرينِ أنَّهما يُعذَّبان، فكانَ ذلكَ إعلاماً بعذابِ القبر، وعذابُ القبرِ حقٌّ، صدَّقَ بهِ أهلُ السُّنَّة، وكذَّبتهُ المُبتدِعَة، وقد ذكرهُ الله في كتابه، وتكاثرت عن رسولِ الله ﷺ الرِّواياتُ به، وهو أوَّلُ درجاتِ الآخرة)(٢).

وقد نصَّ الحديثُ على سببَينِ من أسبابِ عذابِ القبر:

الأوَّل: عدَمُ الاستِتارِ من البول:

(وقد رُوِيَ -هذا اللَّفظُ- على ثلاثةِ أوجُه «**لا يستتر**» من التَّستُّر، و«**لا يستنزِهُ**» من الاستنزاه، وهو البُعد، و«**لا يستبرئ**» من البراءة. فأمَّا قولُهُ «**لَا يستتر**» بتاءينِ اثنتينِ من الاستتارِ فيحتملُ وجهين: **أحدُهما:** أنَّهُ لا يُبالي بكشفِ عورَتِه. **الثاني:** أنَّهُ

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري (٢١٦)، ومسلم (٢٩٢).

(٢) «عارضة الأحوذي» (١/٧٨).

لا يُبالي بإضافةِ البولِ إلى ثِيابه، فلا يجعلُ بينَهُ وبينهُ حاجِزاً من ماءٍ أو حِجارة، ولا يستنزه، وقد كان بنو إسرائيلَ إذا أصابَ ثوبَ أحدِهمُ البولُ قرضَهُ، فخفَّفَ الله عن هذهِ الأُمَّة، فجعلَ حِجابَها عنِ النَّجاسةِ الطَّهارةَ بالماء. وأمَّا قولُهُ «**لَا يستبرِئُ**» فهو أبلغُ في التَّوقِّي والتَّحفُّظ، ومعناه: أنَّهُ كانَ لا يُبالي، أستوفى إخراجَ الماءِ أم لا، فإذا توضَّأ خرجَ الماءُ بعدَ ذلكَ فيكونُ ناقِضاً لِلوُضوءِ، مُبطِلاً لِلصَّلاة).

فالاستِنزاهُ منَ البولِ واجب، وطهارةُ الثَّوبِ والبدنِ منهُ واجبة.

السَّبَبُ الثَّاني من أسبابِ عذابِ القبر: المشيُ بالنَّميمَة:

(وهي لُغةً: اسمٌ من: نَمَّ الحديثَ ينِمُّهُ وينُمُّه نَمّاً)[1].

واصطِلاحاً: (نقلُ كلامِ النَّاسِ بعضِهم إلى بعضٍ على جِهَةِ الإفساد)[2].

قال الإمامُ الذَّهبيُّ: (وهي حرامٌ بإجماعِ المسلمين، وقد تظاهرت على تحريمِها الدَّلائلُ الشَّرعيَّةُ من الكتابِ والسُّنَّة.

قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ (١٠) هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ (١١)﴾ [القلم].

وفي الصَّحيحينِ عَن حُذَيفَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**لَا يَدخُلُ الجَنَّةَ قَتَّاتٌ**»[3]، وفي رواية لمسلم: «**لَا يَدخُلُ الجَنَّةَ نَمَّامٌ**»[4].

---

(١) «لسان العرب» لابن منظور (١٢/٥٩٢).

(٢) «الأذكار» للنووي (٢٩٩).

(٣) **متفق عليه**: رواه البخاري (٦٠٥٦)، ومسلم (١٠٥).

(٤) **صحيح**: رواه مسلم (١٠٥).

وقد عدَّ النبيُّ ﷺ النَّمَّامَ شرَّ النَّاسِ فقال: «**تَجِدُ مِن شَرِّ النَّاسِ يَومَ القِيَامَةِ عِندَ اللَّهِ ذَا الوَجهَينِ، الَّذِي يَأتِي هَؤُلَاءِ بِوَجهٍ وَهَؤُلَاءِ بِوَجهٍ**»(١).

وأهلُ الشَّرِّ الحريصونَ عليهِ يجبُ الحذرُ منهم والبُعدُ عنهم، فقد نهانا الله تعالى عن طاعتِهم فقال: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ ۝١١﴾ [القلم].

وعليهِ: (فكُلُّ من حُمِلت إليهِ النَّميمةُ وقيلَ لهُ: إنَّ فُلاناً قالَ فيكَ كذا وكذا، أو فعلَ في حقِّكَ كذا وكذا، فعليهِ سِتَّةُ أُمور:

الأوَّل: أن لا يُصدِّقَه، لأنَّ النَّمَّام فاسِق، وهو مردودُ الشَّهادة، قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَـٰلَةٖ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ۝٦﴾ [الحُجُرات].

الثَّاني: أن ينهاهُ عن ذلكَ وينصحَ لهُ ويُقبِّحَ عليهِ فِعلَه، قال الله تعالى: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [لقمان:١٧].

الثَّالث: أن يُبغِضَهُ في الله تعالى، فإنَّهُ بغيضٌ عندَ الله، ويجِبُ بُغضُ من يُبغِضُهُ الله.

الرَّابع: أن لا تظُنَّ بأخيكَ الغائبِ ظنَّ السَّوء، لأنَّ الله تعالى قال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٞ﴾ [الحُجُرات:١٢].

الخامس: أن لا يحمِلكَ ما حُكِيَ لكَ على التَّجسُّسِ والبحثِ لتتَحقَّق، لأنَّ الله تعالى قال: ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾ [الحُجُرات:١٢].

(١) صحيح: رواه البخاري (٦٠٥٨).

السَّادس: أن لا ترضى لنفسِكَ ما نهيتَ النَّمَّامَ عنه، فلا تحكي نميمَتَهُ فتقول: قال لي فُلانٌ كذا وكذا، فتكونَ بذلكَ نمَّاماً ومُغتاباً، وتكونَ قد أتيتَ ما نَهيتَ عنه.

وقد رُوِيَ عن عُمرَ بنِ عبدِ العزيز أنَّهُ (دخلَ عليهِ رجُلٌ فذكرَ لهُ عن رجُلٍ شيئاً، فقال لهُ عُمر: إن شِئتَ نظرتُ في أمرِكَ، فإن كُنتَ كاذِباً فأنتَ من أهلِ هذه الآيــة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [الحُجُــرات:٦]، وإن كُنــتَ صادِقاً فأنتَ من أهلِ هذه الآية ﴿هَمَّازٖ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٖ ١١﴾ [القلم]، وإن شئتَ عفونا عنك؟ فقال الرجُل: العفوَ يا أميرَ المؤمنين، ولا أعودُ إليهِ أبداً)(١).

وقال الحسن: (من نَمَّ لكَ نَمَّ عليك)(٢). وهذا إشارةٌ إلى أنَّ النَّمَّامَ ينبغي أن يُبغَضَ ولا يوثَقُ بقولِه ولا بصداقته، وكيفَ لا يُبغَضُ وهو لا ينفكُّ عنِ الكذِبِ والغيبَةِ، والغدرِ والخيانة، والغِلِّ والحسد، والنِّفاقِ، والإفسادِ بينَ النَّاسِ والخديعة، وهم ممَّن يسعَونَ في قطعِ ما أمرَ الله بِهِ أن يُوصلَ، ويُفسِدونَ في الأرض؟)(٣).

فهذا ما يجِبُ على المُجتمعِ تجاهَ النَّمَّام، أمَّا النَّمَّامُ نفسُهُ فعليهِ أن يتَّقِيَ اللهَ ويتوبَ إليه، وأن يعلمَ أنَّ الله سميعٌ لأقواله، عليمٌ بأفعاله، وقد وكَّل بهِ ملَكينِ كريمَينِ: ﴿عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٞ ١٧ مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ ١٨﴾ [ق:١٨]، ولْيتذكَّرْ قولَ النبيِّ ﷺ: «**إِنَّ العَبدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِن سَخَطِ اللَّهِ لَا يُلقِي لَهَا بَالًا**

(١) «الأذكار» للنووي (٣٤٨).

(٢) عزاه البيهقي في «شعب الإيمان» (١٠٦٨١) للخليل بن أحمد الفراهيدي.

(٣) «الإحياء» للغزالي (٣/١٥٦).

يَهوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ»(١)، وقولَهُ ﷺ لِمُعاذٍ وقد وصَّاهُ بصِيانَةِ لِسانه، فقال مُعاذٌ: وَإنَّا لمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتكَلَّمُ بِهِ؟! فقَالَ ﷺ: «**ثَكِلَتكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ! وَهَل يَكُبُّ النَّاسَ عَلَى وُجُوهِهِم فِي النَّارِ إِلَّا حَصَائِدُ أَلسِنَتِهِم**»(٢).

السَّببُ الثَّالثُ من أسبابِ عذابِ القبرِ الغِيبة:

عن جابرٍ رضي الله عنه قال: كُنَّا مَعَ النَّبيِّ ﷺ فَأَتَى عَلَى قَبرَينِ يُعَذَّبُ صَاحِبَاهُمَا، فَقَال: «**إِنَّهُمَا لَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ، وَبَلَى! أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ يَغتَابُ النَّاس، وَأَمَّا الآخَرُ فَكَانَ لَا يَتَأَذَّى مِنَ البَول**»(٣).

وعَن أَبِي بَكرَةَ رضي الله عنه قَالَ: (بَينَمَا أنا أُمَاشِي رَسُولَ الله ﷺ وَهُوَ آخِذِي بِيَدِي وَرَجُلٌ عَن يَسَارِهِ فَإِذَا نَحنُ بِقَبرَينِ أَمَامَنَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ. وَبَلَى! وَمَا يُعَذَّبَانِ إِلَّا فِي البَولِ وَالغِيبَةِ**»(٤))(٥).

وهكذا صرَّح النَّبيُّ ﷺ بأَنَّ الغيبةَ مِن أَسبابِ عذابِ القَبر، (وقال قتادة: ذُكِرَ لنا أَنَّ عذابَ القَبرِ ثلاثةُ أثلاث: ثُلُثٌ مِنَ الغِيبَة، وثُلُثٌ من النَّمِيمَة، وثُلُثٌ مِنَ البَول)(٦).

---

(١) **صحيح**: رواه البخاري (٦٤٧٨).

(٢) **صحيح لغيره**: رواه الترمذي (٢٦١٦)، وابن ماجه (٣٩٧٣)، والنسائي في «الكبرى» (١١٣٣٠)، وأحمد (٥/٢٣٦)، [«صحيح الترغيب» (٢٨٦٦)].

(٣) **صحيح لغيره**: رواه البخاري في «الأدب المفرد» (٧٣٥)، [«صحيح الأدب المفرد»].

(٤) **حسن صحيح**: رواه أحمد (٥/٣٥)، [«صحيح الترغيب» (٢٨٤١)].

(٥) «فتح الباري» (١٠/٣٧٠-٣٧١).

(٦) رواه ابن أبي الدنيا في «الصمت» (١٨٩).

قال ابنُ حجر: (وقد أبدَى بعضُهم للجَمع بَينَ هذِه الخِصَالِ الثَّلاثِ مُنَاسَبةً، وهي أَنَّ البرزخَ مقدِّمَةُ الآخِرَة، وأوَّلُ ما يُقضَى فِيه يومَ القِيَامةِ مِن حُقوقِ الله الصَّلاة، ومِن حُقوقِ العبادِ الدِّماء، ومِفتَاحُ الصَّلاةِ التَّطهُّرُ مِنَ الحدَثِ والخبَث، ومِفتَاحُ الدِّماءِ الغِيبَةُ، والسَّعيُ بينَ النَّاسِ بالنَّمِيمَةِ بنَشرِ الفِتَنِ الَّتي تُسفَكُ بسبَبِها الدِّماء)(١).

فالغِيبَةُ إذَن مِنَ الكبائر، وهي حرَامٌ بالكتابِ والسُّنَةِ وإجماعِ الأُمَّة: قال تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ [الحُجُرات].

عَن جَابِرٍ رضي الله عنه قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فَارتَفَعَت رِيحٌ مُنتِنَةٌ فَقَالَ ﷺ: «**أَتَدرُونَ مَا هَذِهِ الرِّيحُ؟ هَذِهِ رِيحُ الَّذِينَ يَغتَابُونَ المُؤمِنِينَ**»(٢).

وَعَن أَنَسِ بنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**لَمَّا عُرِجَ بِي مَرَرتُ بِقَومٍ لَهُم أَظفَارٌ مِن نُحَاسٍ يَخمُشُونَ وُجُوهَهُم وَصُدُورَهُم، فَقُلتُ: مَن هَؤُلَاءِ يَا جِبرِيلُ؟! قَالَ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَأكُلُونَ لُحُومَ النَّاسِ وَيَقَعُونَ فِي أَعرَاضِهِم**»(٣).

(١) «فتح الباري» (١٠/٤٧٢).

(٢) **حسن لغيره**: رواه أحمد (٣/٣٥١)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٧٣٢)، [«صحيح الترغيب» (٢٨٤٠)].

(٣) **صحيح لغيره**: رواه أبو داود (٤٨٧٨)، وأحمد (٣/٢٢٤)، والطبراني في «الأوسط» (٨)، [«صحيح الترغيب» (٢٨٣٩)].

وَعَن أَبِي هُرَيرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا الغِيبَةُ؟ قَالَ: «**ذِكرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكرَهُ**»، قَالَ: أَرَأَيتَ إِن كَانَ فِيهِ مَا أَقُولُ؟ قَالَ: «**إِن كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدِ اغتَبتَهُ، وَإِن لَم يَكُن فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَد بَهَتَّهُ**»(١).

والواجِبُ على المُسلمِ إذا سَمِعَ غِيبَةَ أخيهِ أَن ينهَى المُغتَابَ، وأَن يذبَّ عَن أخيه لقوله ﷺ: «**المسلِمُ أَخُو المسلِمِ لَا يَظلِمُهُ وَلَا يُسلِمُهُ**»(٢) وفي رواية: «**لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يَخذُلُهُ**»(٣).

وَعَن أَبِي الدَّردَاءِ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**مَن رَدَّ عَن عِرضِ أَخِيهِ رَدَّ اللَّه عَن وَجهِهِ النَّارَ يومَ القِيَامَةِ**»(٤).

وَعَن أَسمَاءَ بِنتِ يَزِيدَ رضي الله عنها عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**مَن ذَبَّ عَن لَحمِ أَخِيهِ بِالغِيبَةِ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَن يُعتِقَهُ مِن النَّارِ**»(٥).

فإن لم يفعَل واستَمعَ للمُغتابِ وأقرَّه كان شريكَه في الإثم، لقوله تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ

---

(١) **صحيح**: رواه الترمذي (١٩٣٤)، وأبو داود (٤٨٧٤)، وأحمد (٢/ ٣٨٤)، [«صحيح الترغيب» (٢٨٤٤)].

(٢) **متفق عليه**: رواه البخاري (٢٤٤٢)، ومسلم (٢٥٨٠).

(٣) **صحيح**: رواه مسلم (٢٥٦٤).

(٤) **صحيح لغيره**: رواه الترمذي (١٩٣١)، وأحمد (٦/ ٤٥٠)، والبيهقي في «الشعب» (٧٢٢٩)، [«صحيح الترغيب» (٢٨٤٨)].

(٥) **صحيح**: رواه أبو داود (١٧٣٧)، و أحمد (٦/ ٤٦١)، وعبد بن حميد (١٥٧٩)، والطبراني في «الكبير» (٢٤/ ١٧٦/ ٤٤٢)، [«غاية المرام» (٤٣١)]

﴿حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾﴾ [النساء].

والواجِبُ على المُغتَابِ أَن يندمَ ويتُوبَ إلى الله تعالى ويستغفِرَهُ فإنَّ الله عرَّض بالتَّوبةِ للمُغتابِينَ فنَهاهم عن الغِيبَةِ ثُمَّ قال: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ [الحُجُرات].

فمن تَابَ تابَ الله عليه: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾﴾ [الحُجُرات]، وعَلَيهِ أَن يستحِلَّ أخاه الذي اغتَابَهُ من غِيبَتِهِ إن أَمِنَ مِنَ التَّحلُّل المَفسدَة.

فقد قال ﷺ: «**مَن كَانَت لَهُ مَظلَمَةٌ لِأَخِيهِ مِن عِرضِهِ أَو شَيءٍ، فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنهُ اليَومَ، قَبلَ أَن لَا يَكُونَ دِينَارٌ وَلَا دِرهَمٌ، إِن كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أُخِذَ مِنهُ بِقَدرِ مَظلَمَتِهِ، وَإِن لَم تَكُن لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِن سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ فَحُمِلَ عَلَيهِ**»(١).

فإن كانَتِ المَفسَدَةُ من استحلال أخيه غير مأمونةٍ فعليه بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ﴾ [هود:١١٤]، وقول النبي ﷺ: «**وَأَتبِعِ السَّيِّئَةَ الحسَنَةَ تَمحُهَا**»(٢).

فليَجْتهِدْ في برِّ من أساءَ إليه باغتِيابِه، وليَجتهِدْ في الإحسانِ إليه وإكرَامِه، فَيُهاديَه ويُواسيَه، ويُشاركَه أفراحَه وأتراحَه، ويقضِيَ حاجَاتِه، لعلَّه أَن يُغفَر له ما قد مضَى من زلَّاته.

---

(١) **صحيح**: رواه البخاري (٢٤٤٩).

(٢) **حسن لغيره**: رواه الترمذي (١٩٨٧)، وأحمد (٥/١٥٣)، والدارمي (٢٨٣٣)، والبزار (٤٠٢٢)، [«صحيح الترغيب» (٢٦٥٥)].

وهناك أسبابٌ أُخرى لعذاب القبر تُؤخذ من هذا الحديث:

عَن سَمُرَةَ بنِ جُندُبٍ ﷺ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِمَّا يُكثِرُ أَن يَقُولَ لِأَصحَابِهِ: «**هَل رَأَى أَحَدٌ مِنكُم مِن رُؤيَا؟**» قَالَ: فَيَقُصُّ عَلَيهِ مَن شَاءَ اللَّهُ أَن يَقُصَّ، وَإِنَّهُ قَالَ ذَاتَ غَدَاةٍ: «**إِنَّهُ أَتَانِي اللَّيلَةَ آتِيَانِ، وَإِنَّهُمَا ابتَعَثَانِي، وَإِنَّهُمَا قَالَا لِي: انطَلِق، وَإِنِّي انطَلَقتُ مَعَهُمَا، وَإِنَّا أَتَينَا عَلَى رَجُلٍ مُضطَجِعٍ، وَإِذَا آخَرُ قَائِمٌ عَلَيهِ بِصَخرَةٍ، وَإِذَا هُوَ يَهوِي بِالصَّخرَةِ لِرَأسِهِ فَيَثلَغُ رَأسَهُ، فَيَتَهَدهَدُ الحَجَرُ هَا هُنَا، فَيَتبَعُ الحَجَرَ فَيَأخُذُهُ، فَلَا يَرجِعُ إِلَيهِ حَتَّى يَصِحَّ رَأسُهُ كَمَا كَانَ ثُمَّ يَعُودُ عَلَيهِ فَيَفعَلُ بِهِ مِثلَ مَا فَعَلَ المَرَّةَ الأُولَى. قَالَ: قُلتُ لَهُمَا: سُبحَانَ اللَّهِ! مَا هَذَانِ؟ قَالَ: قَالَا لِي: انطَلِق انطَلِق. قَالَ: فَانطَلَقنَا، فَأَتَينَا عَلَى رَجُلٍ مُستَلقٍ لِقَفَاهُ، وَإِذَا آخَرُ قَائِمٌ عَلَيهِ بِكَلُّوبٍ مِن حَدِيدٍ، وَإِذَا هُوَ يَأتِي أَحَدَ شِقَّي وَجهِهِ فَيُشَرشِرُ شِدقَهُ إِلَى قَفَاهُ، وَمَنخِرَهُ إِلَى قَفَاهُ، وَعَينَهُ إِلَى قَفَاهُ، ثُمَّ يَتَحَوَّلُ إِلَى الجَانِبِ الآخَرِ فَيَفعَلُ بِهِ مِثلَ مَا فَعَلَ بِالجَانِبِ الأَوَّلِ، فَمَا يَفرُغُ مِن ذَلِكَ الجَانِبِ حَتَّى يَصِحَّ ذَلِكَ الجَانِبُ كَمَا كَانَ، ثُمَّ يَعُودُ عَلَيهِ فَيَفعَلُ مِثلَ مَا فَعَلَ المَرَّةَ الأُولَى، قَالَ: قُلتُ سُبحَانَ اللَّهِ! مَا هَذَانِ؟ قَالَ: قَالَا لِي انطَلِق انطَلِق، فَانطَلَقنَا فَأَتَينَا عَلَى مِثلِ التَّنُّورِ، قَالَ فَأَحسِبُ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: فَإِذَا فِيهِ لَغَطٌ وَأَصوَاتٌ، قَالَ فَاطَّلَعنَا فِيهِ فَإِذَا فِيهِ رِجَالٌ وَنِسَاءٌ عُرَاةٌ، وَإِذَا هُم يَأتِيهِم لَهَبٌ مِن أَسفَلَ مِنهُم فَإِذَا أَتَاهُم ذَلِكَ اللَّهَبُ ضَوضَوا، قَالَ: قُلتُ لَهُمَا: مَا هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: قَالَا لِي انطَلِق انطَلِق، قَالَ: فَانطَلَقنَا فَأَتَينَا عَلَى نَهَرٍ حَسِبتُ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ أَحمَرَ مِثلَ الدَّمِ، وَإِذَا فِي النَّهَرِ رَجُلٌ سَابِحٌ يَسبَحُ، وَإِذَا عَلَى شَطِّ النَّهَرِ رَجُلٌ قَد جَمَعَ عِندَهُ حِجَارَةً**

كَثِيرَةً، وَإِذَا ذَلِكَ السَّابِحُ يَسبَحُ مَا يَسبَحُ، ثُمَّ يَأتِي ذَلِكَ الَّذِي قَد جَمَعَ عِندَهُ الحِجَارَةَ فَيَفغَرُ لَهُ فَاهُ فَيُلقِمُهُ حَجَرًا، فَينطَلِقُ يَسبَحُ، ثُمَّ يَرجِعُ إِلَيهِ، كُلَّمَا رَجَعَ إِلَيهِ فَغَرَ لَهُ فَاهُ فَأَلقَمَهُ حَجَرًا، قَالَ: قُلتُ لَهُمَا: مَا هَذَانِ؟ قَالَ: قَالَا لِي انطَلِق انطَلِق، قَالَ: فَانطَلَقنَا فَأَتَينَا عَلَى رَجُلٍ كَرِيهِ المَرآةِ، كَأَكرَهِ مَا أَنتَ رَاءٍ رَجُلًا مَرآةً، وَإِذَا عِندَهُ نَارٌ يَحُشُّهَا وَيَسعَى حَولَهَا، قَالَ: قُلتُ لَهُمَا: مَا هَذَا؟ قَالَ: قَالَا لِي انطَلِق انطَلِق، فَانطَلَقنَا فَأَتَينَا عَلَى رَوضَةٍ مُعتَمَّةٍ، فِيهَا مِن كُلِّ لَونِ الرَّبِيعِ، وَإِذَا بَينَ ظَهرَي الرَّوضَةِ رَجُلٌ طَوِيلٌ لَا أَكَادُ أَرَى رَأسَهُ طُولًا فِي السَّمَاءِ، وَإِذَا حَولَ الرَّجُلِ مِن أَكثَرِ وِلدَانٍ رَأَيتُهُم قَطُّ، قَالَ: قُلتُ لَهُمَا مَا هَذَا؟ مَا هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: قَالَا لِي انطَلِق انطَلِق، قَالَ: فَانطَلَقنَا فَانتَهَينَا إِلَى رَوضَةٍ عَظِيمَةٍ لَم أَرَ رَوضَةً قَطُّ أَعظَمَ مِنهَا وَلَا أَحسَنَ، قَالَ: قَالَا لِي ارقَ فِيهَا، قَالَ فَارتَقَينَا فِيهَا فَانتَهَينَا إِلَى مَدِينَةٍ مَبنِيَّةٍ بِلَبِنِ ذَهَبٍ وَلَبِنِ فِضَّةٍ، فَأَتَينَا بَابَ المَدِينَةِ فَاستَفتَحنَا فَفُتِحَ لَنَا، فَدَخَلنَاهَا، فَتَلَقَّانَا فِيهَا رِجَالٌ شَطرٌ مِن خَلقِهِم كَأَحسَنِ مَا أَنتَ رَاءٍ وَشَطرٌ كَأَقبَحِ مَا أَنتَ رَاءٍ، قَالَ: قَالَا لَهُم اذهَبُوا فَقَعُوا فِي ذَلِكَ النَّهَرِ، قَالَ: وَإِذَا نَهَرٌ مُعتَرِضٌ يَجرِي كَأَنَّ مَاءَهُ المَحضُ فِي البَيَاضِ، فَذَهَبُوا فَوَقَعُوا فِيهِ، ثُمَّ رَجَعُوا إِلَينَا قَد ذَهَبَ ذَلِكَ السُّوءُ عَنهُم، فَصَارُوا فِي أَحسَنِ صُورَةٍ، قَالَ: قَالَا لِي هَذِهِ جَنَّةُ عَدنٍ، وَهَذَاكَ مَنزِلُكَ، قَالَ: فَسَمَا بَصَرِي صُعُدًا، فَإِذَا قَصرٌ مِثلُ الرَّبَابَةِ البَيضَاءِ قَالَ: قَالَا لِي هَذَاكَ مَنزِلُكَ، قَالَ قُلتُ لَهُمَا: بَارَكَ اللهُ فِيكُمَا، ذَرَانِي فَأَدخُلَهُ، قَالَا أَمَّا الآنَ فَلَا وَأَنتَ دَاخِلَهُ، قَالَ قُلتُ لَهُمَا: فَإِنِّي قَد رَأَيتُ مُنذُ اللَّيلَةِ عَجَبًا! فَمَا هَذَا الَّذِي رَأَيتُ؟ قَالَ: قَالَا لِي أَمَا إِنَّا سَنُخبِرُكَ، أَمَّا الرَّجُلُ الأَوَّلُ الَّذِي أَتَيتَ عَلَيهِ يُثلَغُ رَأسُهُ بِالحَجَرِ فَإِنَّهُ

الرَّجُلُ يَأخُذُ القُرآنَ فَيَرفُضُهُ، وَيَنَامُ عَن الصَّلَاةِ المَكتُوبَةِ، وَأَمَّا الرَّجُلُ الَّذِي أَتَيتَ عَلَيهِ يُشَرشَرُ شِدقُهُ إِلَى قَفَاهُ، وَمَنخِرُهُ إِلَى قَفَاهُ، وَعَينُهُ إِلَى قَفَاهُ، فَإِنَّهُ الرَّجُلُ يَغدُو مِن بَيتِهِ فَيَكذِبُ الكَذبَةَ تَبلُغُ الآفَاقَ، وَأَمَّا الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ العُرَاةُ الَّذِينَ فِي مِثلِ بِنَاءِ التَّنُّورِ فَإِنَّهُم الزُّنَاةُ وَالزَّوَانِي، وَأَمَّا الرَّجُلُ الَّذِي أَتَيتَ عَلَيهِ يَسبَحُ فِي النَّهَرِ وَيُلقَمُ الحَجَرَ فَإِنَّهُ آكِلُ الرِّبَا، وَأَمَّا الرَّجُلُ الكَرِيهُ المَرآةِ الَّذِي عِندَ النَّارِ يَحُشُّهَا وَيَسعَى حَولَهَا فَإِنَّهُ مَالِكٌ خَازِنُ جَهَنَّمَ، وَأَمَّا الرَّجُلُ الطَّوِيلُ الَّذِي فِي الرَّوضَةِ فَإِنَّهُ إِبرَاهِيمُ ﷺ، وَأَمَّا الوِلدَانُ الَّذِينَ حَولَهُ فَكُلُّ مَولُودٍ مَاتَ عَلَى الفِطرَةِ، قَالَ: فَقَالَ بَعضُ المُسلِمِينَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! وَأَولَادُ المُشرِكِينَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: وَأَولَادُ المُشرِكِينَ، وَأَمَّا القَومُ الَّذِينَ كَانُوا شَطرٌ مِنهُم حَسَنًا وَشَطرٌ قَبِيحًا فَإِنَّهُم قَومٌ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا تَجَاوَزَ اللَّهُ عَنهُم»(١).

قد تضمَّنَ هذا الحديثُ خمسةَ أسبابٍ من أسبابِ عذابِ القبر:

الأوَّل والثاني: رَفضُ القرآنَ، والنَّومُ عنِ الصَّلاةِ المكتوبة:

إنَّ القُرآنَ الكريمَ هو حبلُ الله المتين، وهو النُّورُ المُبين، والصِّراطُ المُستقيم، عِصمةٌ لمن تمسَّكَ به، ونجاةٌ لمنِ اتَّبعه: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ١﴾ [هود]، ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ٤١ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٌ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ٤٢﴾ [فُصِّلَت].

(١) صحيح: رواه «البخاري» (٧٠٤٧).

فيهِ نبأُ ما قبلكم، وخبرُ ما بعدكم، وحُكمُ ما بينكم، هو الفصلُ ليسَ بالهزل، من تركهُ من جبَّارٍ قصمهُ الله، ومنِ ابتغى الهُدى في غيرِهِ أضلَّهُ الله، وقد تكفَّلَ الله تعالى لمن قرأَ القرآنَ وعملَ بما فيهِ أن لا يضِلَّ في الدُّنيا، ولا يشقى في الآخِرة، فقال تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾﴾ [طه].

وقِراءةُ القُرآنِ قُربةٌ من أعظَمِ القُرب، وعِبادةٌ من أجلِّ العبادات، يُعطي الله تباركَ وتعالى عليّها منَ الأجرِ والثَّوابِ ما لا يُعطي على غيرِها، وقد بيَّنَ النبيُّ ﷺ كثرةَ هذا الأجرِ بقوله: «**مَن قَرَأَ حَرفًا مِن كِتَابِ اللَّهِ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ وَالحَسَنَةُ بِعَشرِ أَمثَالِهَا، لَا أَقُولُ الم حَرفٌ، وَلَكِن أَلِفٌ حَرفٌ، وَلَامٌ حَرفٌ، وَمِيمٌ حَرفٌ**»(١).

وأخبرَ ﷺ أنَّ القُرآنَ يرفعُ صاحِبَهُ في الدُّنيا والآخِرة: عَن عَامِرِ بنِ وَاثِلَةَ أَنَّ نَافِعَ بنَ عَبدِ الحَارِثِ لَقِيَ عُمَرَ بِعُسفَانَ، وَكَانَ عُمَرُ يَستَعمِلُهُ عَلَى مَكَّةَ، فَقَالَ: مَنِ استَعمَلتَ عَلَى أَهلِ الوَادِي؟ فَقَالَ: ابنَ أَبزَى. قَالَ: وَمَنِ ابنُ أَبزَى؟ قَالَ: مَولًى مِن مَوَالِينَا. قَالَ فَاستَخلَفتَ عَلَيهِم مَولًى؟! قَالَ: إِنَّهُ قَارِئٌ لِكِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَإِنَّهُ عَالِمٌ بِالفَرَائِضِ. قَالَ عُمَرُ: أَمَا إِنَّ نَبِيَّكُم ﷺ قَد قَالَ: «**إِنَّ اللَّهَ يَرفَعُ بِهَذَا الكِتَابِ أَقوَامًا وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ**»(٢).

---

(١) **صحيح**: رواه الترمذي (٢٩١٠)، والبيهقي في «الشعب» (١٨٣٠)، [«صحيح الترغيب» (١٤١٦)].

(٢) **صحيح**: رواه مسلم (٨١٧).

وَعَن عَبدِ اللَّهِ بنِ عَمرٍو رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**يُقَالُ لِصَاحِبِ القُرآنِ: اقرَأ وَارتَقِ وَرَتِّل كَمَا كُنتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنيَا، فَإِنَّ مَنزِلَكَ عِندَ آخِرِ آيَةٍ تَقرَؤُهَا**»(١).

ولكنَّ المُرادَ بصاحِبِ القُرآنِ هو الذي يُلازِمُ تلاوتَهُ والعملَ به، ولذلكَ اقترنَ العملُ بالتِلاوةِ اقتِرانَهُ بالإيمان، قال تعالى: ﴿**ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ**﴾ [العنكبوت:٤٥].

وأمرَ رسُولَهُ ﷺ أن يُصرِّحَ بهذا الأمرِ فقال: ﴿**إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ**﴾ [النمل:٩١-٩٢].

وقال تعالى: ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾**﴾ [فاطر:٣٠].

وَعَنِ النَّوَّاسِ بنِ سَمعَانَ الكِلَابِيِّ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «**يُؤتَى بِالقُرآنِ يَومَ القِيَامَةِ وَأَهلِهِ الَّذِينَ كَانُوا يَعمَلُونَ بِهِ، تَقدُمُهُ سُورَةُ البَقَرَةِ وَآلُ عِمرَانَ**»، وَضَرَبَ لَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثَلَاثَةَ أَمثَالٍ مَا نَسِيتُهُنَّ بَعدُ، قَالَ: «**كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ، أَو ظُلَّتَانِ سَودَاوَانِ بَينَهُمَا شَرقٌ، أَو كَأَنَّهُمَا حِزقَانِ مِن طَيرٍ صَوَافَّ تُحَاجَّانِ عَن صَاحِبِهِمَا**»(٢).

---

(١) **حسن**: رواه الترمذي (٢٩١٤)، وأبو داود (١٤٦٤)، والنسائي في «الكبرى» (٨٠٠٢)، [«المشكاة» (٢٦)].

(٢) **صحيح**: رواه مسلم (٨٠٥).

ولذلكَ قال بعضُ العُلماء: (إنَّ من عمِلَ بالقُرآنِ فكأنَّهُ يقرؤُهُ دائماً وإن لم يقرأه، ومن لم يعمل بالقرآنِ فكأنَّما لم يقرأْهُ وإن قرأهُ دائماً، وقد قال الله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٩﴾ [ص]، فمُجرَّدُ التِّلاوةِ والحِفظِ لا يُعتبرُ اعتِباراً يترتَّبُ عليهِ المراتِبُ العليَّةُ في الجنَّةِ العالية)(١).

وهذا معنى قولِ الله عزَّ وجلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ [البقرة:١٢١].

(عنِ ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما قال: يتَّبِعونَهُ حقَّ اتِّباعه. وعنِ ابنِ مسعودٍ رضي الله عنه قال: والّذي نفسي بيده! إنَّ حقَّ تلاوتِهِ أن يُحِلَّ حلالَه، ويُحرِّمَ حرامَه، ويقرأَهُ كما أنزلَهُ الله، ولا يُحرِّفَ الكلمَ عن مواضِعه، ولا يتأوَّلَ منهُ شيئاً على غيرِ تأويله.

وعن قيسِ بنِ سعدٍ قال: ﴿يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ يتَّبِعُونهُ حقَّ اتِّباعه، ألم ترَ إلى قوله تعالى: ﴿وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ٢﴾ [الشمس]، يعني الشَّمسَ إذا تبِعها القمر.

وعنِ الحسنِ قال: ﴿يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ يعملونَ بمُحكَمِه، ويؤمنونَ بمُتَشابِهِهِ، ويكِلُونَ ما أشكلَ عليهم إلى عالِمه)(٢).

فمن قرأ القُرآنَ وعمِلَ بما فيهِ كانَ القُرآنُ حجَّةً له، ومن قرأ القُرآنَ ولم يعمل بما فيهِ فقد رفضَ القرآنَ بعدَ أن أوتيَه، وكانَ القرآنُ حُجَّةً عليه، وعُذِّبَ على ذلكَ في القبر.

---

(١) «عون المعبود» (٤/٣٣٩).

(٢) «جامع البيان» للطبري (١/٥١٩، ٥٢٠).

كما في الحديث: «**وَإِنَّا أَتَينَا عَلَى رَجُل مُضطَجِع، وَإِذَا آخَرُ قَائِمٌ عَلَيهِ بِصَخرَةٍ، وَإِذَا هُوَ يَهوِي بِالصَّخرَةِ لِرَأسِهِ فَيَثلَغُ رَأسَهُ، فَيَتَهَدهَدُ الحجَرُ هَا هُنَا، فَيَتبَعُ الحجَرَ فَيَأخُذُهُ، فَلَا يَرجِعُ إِلَيهِ حَتَّى يَصِحَّ رَأسُهُ كَمَا كَانَ ثُمَّ يَعُودُ عَلَيهِ فَيَفعَلُ بِهِ مِثلَ مَا فَعَلَ المرَّةَ الأُولَى. قَالَ: قُلتُ لَهُمَا: سُبحَانَ الله! مَا هَذَانِ؟ قَالَا: إِنَّهُ الرَّجُلُ يَأخُذُ القُرآنَ فَيَرفُضُهُ، وَيَنَامُ عَنِ الصَّلَاةِ المكتُوبَةِ**»[١].

قال الحافظُ ابنُ حجر: (قال ابنُ هبيرة: رفضُ القرآنِ بعدَ حِفظِهِ جنايةٌ عظيمة؛ لأنَّهُ يوهِمُ أنَّهُ رأى فيهِ ما يوجِبُ رفضَه، فلمَّا رفضَ أشرفَ الأشياءِ وهو القرآنُ عوقِبَ في أشرفِ أعضائِهِ وهو الرَّأس)[٢].

فالواجبُ على من حفِظَ القرآنَ أن يتعاهدَهُ كما وصَّى النبيُّ ﷺ حيثُ قال: «**تَعَاهَدُوا القُرآنَ فَوَالَّذِي نَفسِي بِيَدِهِ لَهُوَ أَشَدُّ تَفَصِّيًا مِن الإِبِلِ فِي عُقُلِهَا**»[٣]. تفصياً أي تَفَلُّتاً.

وَعَنِ ابنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**إِنَّمَا مَثَلُ صَاحِبِ القُرآنِ كَمَثَلِ صَاحِبِ الإِبِلِ المُعَقَّلَةِ، إِن عَاهَدَ عَلَيهَا أَمسَكَهَا، وَإِن أَطلَقَهَا ذَهَبَت**»[٤].

---

(١) **صحيح**: رواه النسائي في «الكبرى» (٧٦١١)، وأحمد (٥/٨)، والبزار (٤٥١٣)، [«صحيح الترغيب» (٥٧٨)].

(٢) «فتح الباري» (١٢/٤٤٤).

(٣) **متفق عليه**: رواه البخاري (٥٠٣٣)، ومسلم (٧٩١) واللفظ للبخاري.

(٤) **متفق عليه**: رواه البخاري (٥٠٣١)، ومسلم (٧٨٩).

وَزَادَ مسلم: «**وَإِذَا قَامَ صَاحِبُ الْقُرآنِ فَقَرَأَهُ بِاللَّيلِ وَالنَّهَارِ ذَكَرَهُ وَإِذَا لَمْ يَقُم بِهِ نَسِيَهُ**»[1].

وقد أفادَ الحديثُ أنَّ النَّومَ عنِ الصَّلاةِ المكتوبةِ مُتَعَمِّداً كبيرةٌ من الكبائرِ التي توجِبُ عذابَ القبر، ولذلكَ: «**كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَكرَهُ النَّومَ قَبلَ العِشَاءَ**» مخافةَ خُروجِ وقتِها، ويكرهُ «**الحديثَ بَعدَهَا**»[2] مخافةَ خُروجِ الفجرِ عن وقته.

وَعَن عَبدِ اللَّهِ بنِ أَبِي قَتَادَةَ عَن أَبِيهِ قَالَ: «**سِرنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ لَيلَةً، فَقَالَ بَعضُ القَومِ: لَو عَرَّستَ بِنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ! قَالَ أَخَافُ أَن تَنَامُوا عَن الصَّلَاةِ!**» قَالَ بِلَالٌ: أَنَا أُوقِظُكُم. فَاضطَجَعُوا[3]، فلم يأذن لهم ﷺ في النَّومِ مع كونِهم مُجهَدينَ منَ السَّيرِ في السَّفرِ مخافةَ أن تفوتَهمُ الصَّلاة، حتى تعهَّدَ بلالٌ بأن يسهرَ هو ليحرُسَ لهمُ الوقت، فإذا طلعَ الفجرُ أيقظهم.

وهكذا يجِبُ على كلِّ من نامَ أن يأخُذَ بالأسبابِ التي يبعَثُهُ الله من نومِهِ بها، أمَّا أن ينامَ الرَّجُلُ غيرَ عازِمٍ على الصَّلاةِ في أوَّلِ وقتها فقد عرَّضَ نفسَهُ لذلكَ الوعيد، والعياذُ بالله.

---

(١) **صحيح**: رواه مسلم (٧٨٩).

(٢) **صحيح**: رواه البخاري (٥٦٨).

(٣) **صحيح**: رواه البخاري (٥٩٥).

السَّببُ الثَّالثُ من أسبابِ عذابِ القبر: الكذب:

(وهوَ الإخبارُ بالشيءِ على خلافِ ما هو عليه)[1]، (وهوَ من قبائحِ الذُّنوبِ وفواحشِ العُيوب)[2]، ولا يتحرَّاهُ إلَّا كافِرٌ أو مُنافِق.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [النحل].

قال تعالى عنِ المنافقين: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾﴾ [البقرة].

وَعَن أَبِي هُرَيرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**آيَةُ المُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخلَفَ، وَإِذَا اؤتُمِنَ خَانَ**»[3].

ولذلكَ قابلَ الله تعالى الكافرينَ بالصَّادقينَ فقال: ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾﴾ [الأحزاب]، فالصَّادقونَ هُمُ المؤمنون، والكافرونَ هُمُ الكاذبون، ولذلكَ إذا كانَ يومُ القيامة ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ﴾ [آل عمران:١٠٦]، تبيضُّ وُجوهُ الصَّادقين، وتسودُّ وُجوهُ الكاذبين، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ﴾ [الزُّمَر:٦٠].

---

(١) «فتح الباري» (٦/٢٤٢)، وكذا في «نضرة النعيم» (١١/٥٨٣٢).

(٢) «إحياء علوم الدين» للغزالي (٣/١٣٣).

(٣) **متفق عليه**: رواه البخاري (٣٣)، ومسلم (٥٩).

فالكذِبُ كبيرةٌ منَ الكبائر، وأعظمُهُ إثماً الكذِبُ على الله:

ومنَ الكذِبِ على الله: وصفُهُ تعالى بما لم يصِفْ بهِ نفسَهُ ممَّا لا يليقُ بجلاله، ولذلك قال الله تعالى عنِ المشركين: ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ [الصافات].

وقال تعالى عنِ القرآنِ الكريم: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَآئِهِمْۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾﴾ [الكهف].

ومنَ الكذبِ على الله: التَّحليلُ والتَّحريمُ بلا هدىً ولا كتابٍ منير، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [يونس].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾ [النحل].

ومن الكذبِ على الله: أن يدَّعِيَ الرَّجُلُ أنَّهُ رأى في المنامِ كذا وكذا، وهو لم يرَ شيئاً: عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما عَنِ النَّبيِّ ﷺ قَالَ: «**مَن تحَلَّمَ بِحُلمٍ لَم يَرَهُ كُلِّفَ أَن يَعقِدَ بَينَ شَعِيرَتَينِ وَلَن يَفعَلَ**»(١).

(١) صحيح: رواه البخاري (٧٠٤٢).

وأعظمُ الكذبِ إثماً بعدَ الكذبِ على الله تعالى الكذِبُ على رسول الله ﷺ:

عَنِ المُغِيرَةِ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ كَذِبًا عَلَيَّ لَيسَ كَكَذِبٍ عَلَى أَحَدٍ، مَن كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَليَتَبَوَّأْ مَقعَدَهُ مِن النَّارِ**»(١).

ويلي ذلكَ في الإثمِ أن يكذِبَ الرجُلُ في يمينهِ ليُضيِّعَ حقَّ أخيه: عَن أَبِي أُمَامَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**مَنِ اقتَطَعَ حَقَّ امرِئٍ مُسلِمٍ بِيَمِينِهِ فَقَد أَوجَبَ اللَّهُ لَهُ النَّارَ وَحَرَّمَ عَلَيهِ الجَنَّةَ**». فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: وَإِن كَانَ شَيئًا يَسِيرًا يَا رَسُولَ اللَّهِ! قَالَ: «**وَإِن قَضِيبًا مِن أَرَاكٍ**»(٢).

فالكذِبُ يوجِبُ عذابَ النَّارِ في الآخِرةِ وعذابَ القبرِ في البرزخ، كما في الحديث: «**فَانطَلَقنَا، فَأَتَينَا عَلَى رَجُلٍ مُستَلقٍ لِقَفَاهُ، وَإِذَا آخَرُ قَائِمٌ عَلَيهِ بِكَلُّوبٍ مِن حَدِيدٍ، وَإِذَا هُوَ يَأتِي أَحَدَ شِقَّي وَجهِهِ فَيُشَرشِرُ شِدقَهُ إِلَى قَفَاهُ، وَمَنخِرَهُ إِلَى قَفَاهُ، وَعَينَهُ إِلَى قَفَاهُ، ثُمَّ يَتَحَوَّلُ إِلَى الجَانِبِ الآخَرِ فَيَفعَلُ بِهِ مِثلَ مَا فَعَلَ بِالجَانِبِ الأَوَّلِ، فَمَا يَفرُغُ مِن ذَلِكَ الجَانِبِ حَتَّى يَصِحَّ ذَلِكَ الجَانِبُ كَمَا كَانَ، ثُمَّ يَعُودُ عَلَيهِ فَيَفعَلُ مِثلَ مَا فَعَلَ المَرَّةَ الأُولَى، قَالَ: قُلتُ سُبحَانَ اللَّهِ! مَا هَذَانِ؟ قَالَا: إِنَّهُ الرَّجُلُ يَغدُو مِن بَيتِهِ فَيَكذِبُ الكَذبَةَ تَبلُغُ الآفَاقَ**»(٣).

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري (١٢٩١)، ومسلم (٤).

(٢) **صحيح**: رواه مسلم (١٣٧).

(٣) **صحيح**: رواه النسائي في «الكبرى» (٧٦١١)، وأحمد (٨/٥)، والبزار (٤٥١٣)، [«صحيح الترغيب» (٥٧٨)].

فعليكم بالصِّدقِ، وإيّاكم والكذب، فـ«**إِنَّ الصِّدقَ يَهدِي إِلَى البِرِّ، وَإِنَّ البِرَّ يَهدِي إِلَى الجَنَّةِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصدُقُ حَتَّى يَكُونَ صِدِّيقًا، وَإِنَّ الكَذِبَ يَهدِي إِلَى الفُجُورِ، وَإِنَّ الفُجُورَ يَهدِي إِلَى النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكذِبُ حَتَّى يُكتَبَ عِندَ اللهِ كَذَّابًا**»(١).

الرَّابعُ من أسبابِ عذابِ القبر: الزِّنا:

إنَّ الله تعالى خلقَ الزَّوجينِ الذَّكرَ والأنثى، وجعل في كلٍّ منهما ميلاً نحوَ الآخَرِ من أجلِ أن يتَّصِلا الاتِّصالَ المُباحَ الذي تدورُ به عجلةُ الحياة، وتخرجُ بهِ الذُّرِّيَّةُ التي قدَّرها الله، وقد حرَّمَ الله تعالى الاتِّصالَ بينَ الجِنسينِ بأيِّ طريقةٍ غيرِ طريقةِ النِّكاح، وَعدَّ مَن سلكَ الطُّرُقَ المُحرَّمةَ مُعتدِياً باغِياً، فقال: ﴿**وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ۝٧**﴾ [المؤمنون].

وتوعَّد الله تعالى أولئك البُغاةَ بأشدِّ أنواعِ العقُوباتِ في الدُّنيا، والبرزخ، والآخرة، أمَّا في الدُّنيا فالجَلدُ للأعزَبِ، والرَّجمُ للمُحصَن.

أمَّا الأوَّل فقد قال الله تعالى فيه: ﴿**ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖۖ وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ وَلۡيَشۡهَدۡ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢**﴾ [النور].

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري (٦٠٩٤)، ومسلم (٢٦٠٧).

وأَمَّا الثَّانِي فقد رجمَ رَسُولُ الله ﷺ ورجَمَ الصَّحابَةُ مِن بعدِه.

وأَمَّا عقوبَةُ الزِّنا في البرزَخِ فهي المَذكُورةُ في قوله ﷺ: «**فَانطَلَقنا فَأَتَينا عَلَى مِثلِ التَّنُّورِ، قَالَ فَأَحسِبُ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: فَإِذَا فِيهِ لَغَطٌ وَأَصواتٌ، قَالَ فَاطَّلَعنا فِيهِ فَإِذَا فِيهِ رِجَالٌ وَنِسَاءٌ عُرَاةٌ، وَإِذَا هُم يَأْتِيهِم لَهَبٌ مِن أَسفَلَ مِنهُم فَإِذَا أَتَاهُم ذَلِكَ اللَّهَبُ ضَوضَوا، قَالَ: قُلتُ لَهُمَا: مَا هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: فَإِنَّهُم الزُّنَاةُ وَالزَّوَانِي**».

وأَمَّا عقُوبَتُهم في الآخرة فقد قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾﴾ [الفرقان].

ولكنَّ بابَ التَّوبَةِ مفتوحٌ والله يتوبُ على من تابَ، ولذلك استَثنى مِن هذه العقُوبةِ التَّائبين فقال تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [الفرقان].

فيا معشرَ المؤمنين: احفَظُوا فُروجَكم، ويا معشرَ المُؤمِنات: احفَظنَ فروجَكُنَّ، قال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ [النور: ٣٠-٣١].

يا أيُّها الرَّجلُ الَّذي ينتَهِكُ أعراضَ المسلِمِينَ! قِف معَ نَفسِكَ وقفَةَ تأمُّلٍ وتدبُّرٍ ومُحاسَبة، وقُل يا فلان: أتُحِبُّ هذا لأُمِّك؟ أتُحِبُّه لأُختك؟ أتُحِبُّه لخالتك؟

أتُحِبُّه لعمَّتك؟ أتحبُّه لزوجتك؟ أتحبُّه لابنَتك؟ وسيكونُ جوابُ العَقل: لَا، لَا، لَا، فَقُل: فَما بالُكَ تَنتِهكُ عوراتِ المسلمين وهم إخوانُك، وهذهِ المرأَةُ الَّتي خَدَعتَها حتَّى أخذتَ منها ما أخذتَ هي أُمُّ فُلانٍ، أو خَالتُه، أو عمَّتُه، أو بنتُه، أو امرأَتُه، فما لا تُحِبُّه لنسائِك اكرَهْهُ لنسَاءِ المسلمين.

الخامسُ من أسبابِ عذابِ القبر: الربا:

إِنَّ الله تعالى خلقَ الخلقَ، وقدَّرَ لهم أرزَاقَهم، وأمرَهم باكتِسابها بما أباحَ لهم مِن وسَائِلِ الكَسبِ، ونهاهم عن الكَسبِ الحرام فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [البقرة].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾﴾ [النساء].

عن أبي أمامة أَنَّ رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّ رُوحَ القُدسِ نَفَثَ فِي رُوعِي، أَنَّ نَفساً لَن تَمُوتَ حَتَى تَستكمِلَ أَجَلَها، وتَستَوعِبَ رِزقَها، فَاتَقُوا الله، وأَجمِلُوا فِي الطَّلَبِ، ولَا يَحمِلَنَّ أَحَدَكُمُ استِبطَاءُ الرِّزقِ أَن يَطلُبَه بِمَعصِيةِ اللهِ، فَإِنَّ الله تَعَالى لَا يُنَالُ مَا عِندَهُ إِلَّا بِطَاعَتِه**»(١).

---

(١) صحيح: رواه الطبراني في «الكبير» (٧٦٩٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (١٠/٢٦)، [«صحيح الجامع» (٢٠٨٥)].

ومِنَ الكَسبِ الحَرام: أكلُ الرِّبا، وهو مُحَرَّمٌ بالكتابِ والسُّنَّةِ وإجماعِ الأُمة، قال تعـالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ [البقرة:٢٧٨-٢٧٩].

(وهي حربٌ على الأعصابِ والقلوب، وحربٌ على البركةِ والرَّخاء، وحربٌ على السَّعادةِ والطُّمأنينَة، وحربٌ على الأمنِ والأمان)[١]، فلا ترى المُرابِيَ إلَّا قلِقاً مُضطرِباً، خائفاً بائساً، حزيناً كئيباً، يشكو من تعبِ أعصابه، وقِلَّةِ راحته، وانشغالِ بالِهِ ﴿ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾ [المائدة].

كما قال تعالى: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾﴾ [البقرة].

ولكنَّ المُرابينَ لا يخافونَ عذابَ الآخِرة، لذلكَ هدَّدهمُ الله تعالى بمحقِ ما يجمعـونَ فقـال: ﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾﴾ [البقرة].

ولقد عدَّ النبيُّ ﷺ الرِّبا من كبائرِ الذُّنوبِ المُهلِكةِ فقال: «**اجتَنِبُوا السَّبعَ المُوبِقَاتِ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: الشِّركُ بِاللَّهِ، وَالسِّحرُ، وَقَتلُ النَّفسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالحَقِّ، وَأَكلُ الرِّبَا، وَأَكلُ مَالِ اليَتِيمِ، وَالتَّوَلِّي يَومَ الزَّحفِ، وَقَذفُ المُحصَنَاتِ المُؤمِنَاتِ الغَافِلَاتِ**»[٢].

(١) «في ظلال القرآن» (١/٤٨٦).

(٢) **متفق عليه**: رواه البخاري (٢٧٦٦)، ومسلم (٨٩).

وشدَّدَ ﷺ الوعيدَ والنَّكيرَ على آكلي الرِّبا فقال: «**دِرهَمُ رِبًا يَأكُلُهُ الرَّجُلُ وَهُوَ يَعلَمُ أَشَدُّ عِندَ الله مِن سِتَّةٍ وَثَلَاثِينَ زَنيَةً**»(١).

وعنِ ابنِ مسعودٍ رضي الله عنه قال: قال النبيُّ ﷺ: «**الرِّبَا ثَلَاثَةٌ وَسَبعُونَ بَاباً، أَيسَرُهَا مِثلُ أَن يَنكِحَ الرَّجُلُ أُمَّه**»(٢).

فيا آكِلَ الرِّبا اتَّقِ الله وتُب إليه، وأقلِع عمَّا أنتَ فيهِ قبلَ أن يُصيبَكَ وعيدُ الله في الدُّنيا بالمحقِ، وفي القبرِ بالعذابِ الذي وصفهُ النبيُّ ﷺ بقوله: «**فَانطَلَقنَا فَأَتَينَا عَلَى نَهَرٍ حَسِبتُ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ أَحمَرَ مثلَ الدَّمِ، وَإِذَا فِي النَّهَرِ رَجُلٌ سَابِحٌ يَسبَحُ، وَإِذَا عَلَى شَطِّ النَّهَرِ رَجُلٌ قَد جَمَعَ عِندَهُ حِجَارَةً كَثِيرَةً، وَإِذَا ذَلِكَ السَّابِحُ يَسبَحُ مَا يَسبَحُ، ثُمَّ يَأتِي ذَلِكَ الَّذِي قَد جَمَعَ عِندَهُ الحِجَارَةَ فَيَفغَرُ لَهُ فَاهُ فَيُلقِمُهُ حَجَرًا، فَيَنطَلِقُ يَسبَحُ، ثُمَّ يَرجِعُ إِلَيهِ، كُلَّمَا رَجَعَ إِلَيهِ فَغَرَ لَهُ فَاهُ فَأَلقَمَهُ حَجَرًا، قَالَ: قُلتُ لَهُمَا: مَا هَذَانِ؟ قَالَا: إِنَّهُ آكِلُ الرِّبَا**».

قال الحافظُ ابنُ حجر: (قال ابنُ هبيرة: إنَّما عوقِبَ آكل الرِّبا بسِباحَتِهِ في النَّهرِ الأحمرِ وإلقامهِ الحجارةَ؛ لأنَّ أصلَ الرِّبا يجري في الذَّهب، والذَّهبُ أحمر، وأمَّا إلقامُ المَلَكِ لهُ الحجرَ فإنَّهُ إشارةٌ إلى أنَّهُ لا يُغني عنهُ شيئاً، وكذلكَ الرِّبا، فإنَّ صاحِبَهُ يتخيَّلُ أنَّ مالَهُ يزيد، والله من ورائهِ مُحِقُه)(٣)، والعياذُ بالله.

(١) صحيح: رواه أحمد (٥/٢٢٥)، والبزار (٣٣٨١)، والدارقطني (٢٨٤٣)، [«صحيح الترغيب» (١٨٥٥)].

(٢) صحيح لغيره: رواه الحاكم (٢٢٥٩)، والبيهقي في «الشعب» (٥١٣١)، [«صحيح الترغيب» (١٥٨١)].

(٣) «فتح الباري» (١٢/٤٤٥).

رابعاً: زيارةُ القبورِ تذكرُ المنجيات من عذاب القبر:

عَن أَبِي هُرَيرَةَ ﵁ عَنِ النبيِّ ﷺ قَال: «إِنَّ المَيِّتَ إِذَا وُضِعَ فِي قَبرِهِ إِنَّهُ يَسمَعُ خَفقَ نِعَالِهِم حِينَ يُوَلُّونَ مُدبِرينَ، فَإِن كَانَ مُؤمِنًا كَانَتِ الصَّلَاةُ عِندَ رَأسِهِ، وَكَانَ الصِّيَامُ عَن يَمِينِهِ، وَكَانَتِ الزَّكَاةُ عَن شِمَالِهِ، وَكَانَ فِعلُ الخَيرَاتِ مِنَ الصَّدَقَةِ وَالصَّلَاةِ وَالمَعرُوفِ وَالإِحسَانِ إِلَى النَّاسِ عِندَ رِجلَيهِ، فَيُؤتَى مِن قِبَلِ رَأسِهِ فَتَقُولُ الصَّلَاةُ: مَا قِبَلِي مَدخَلٌ، ثُمَّ يُؤتَى عَن يَمِينِهِ فَيَقُولُ الصِّيَامُ: مَا قِبَلِي مَدخَلٌ، ثُمَّ يُؤتَى عَن يَسَارِهِ فَتَقُولُ الزَّكَاةُ: مَا قِبَلِي مَدخَلٌ، ثُمَّ يُؤتَى مِن قِبَلِ رِجلَيهِ فَيَقُولُ فَعَلُ الخَيرَاتِ مِنَ الصَّدَقَةِ وَالصِّلَةِ وَالمَعرُوفِ وَالإِحسَانِ إِلَى النَّاسِ مَا قِبَلِي مَدخَلٌ، فَيُقَالُ لَهُ: اجلِس، فَيَجلِسُ قَد مَثُلَت لَهُ الشَّمسُ، وَقَد آذَنَت لِلغُرُوبِ، فَيُقَالُ لَهُ: أَرَأَيتَكَ هَذَا الَّذِي كَانَ قِبَلَكُم، مَا تَقُولُ فِيهِ؟ وَمَاذَا تَشهَدُ بِهِ عَلَيهِ؟ فَيَقُولُ: دَعُونِي حَتَّى أُصَلِّي، فَيَقُولُونَ: إِنَّكَ سَتَفعَلُ، أَخبِرنَا عَمَّا نَسأَلُكَ عَنهُ، أَرَأَيتَكَ هَذَا الَّذِي كَانَ قِبَلَكُم، مَا تَقُولُ فِيهِ؟ وَمَاذَا تَشهَدُ عَلَيهِ؟ فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ! أَشهَدُ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَأَنَّهُ جَاءَ بِالحَقِّ مِن عِندِ اللَّهِ، فَيُقَالُ لَهُ: عَلَى ذَلِكَ حَيِيتَ، وَعَلَى ذَلِكَ مُتَّ، وَعَلَى ذَلِكَ تُبعَثُ إِن شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ يُفتَحُ لَهُ بَابٌ مِن أَبوَابِ الجَنَّةِ، فَيُقَالُ لَهُ: هَذَا مَقعَدُكَ مِنهَا، وَمَا أَعَدَّ اللَّهُ لَكَ فِيهَا، فَيَزدَادُ غِبطَةً وَسُرُورًا، ثُمَّ يُفتَحُ لَهُ بَابٌ مِن أَبوَابِ النَّارِ، فَيُقَالُ لَهُ: هَذَا مَقعَدُكَ مِنهَا، وَمَا أَعَدَّ اللَّهُ لَكَ فِيهَا لَو عَصَيتَهُ، فَيَزدَادُ غِبطَةً وَسُرُورًا، ثُمَّ يُفسَحُ لَهُ فِي قَبرِهِ سَبعُونَ ذِرَاعًا، وَيُنَوَّرُ لَهُ فِيهِ، وَيُعَادُ الجَسَدُ لِمَا بُدِئَ مِنهُ، فَتُجعَلُ نَسمَتُهُ فِي النَّسِمِ الطَّيِّبِ، وَهِيَ طَيرٌ تَعلُقُ فِي شَجَرِ الجَنَّةِ، فَذَلِكَ قَولُهِ:

﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ ﴾ [إبراهيم]»[1].

وقد عَيَّنَ النبيُّ ﷺ للنجاةِ من عذابِ القبرِ أسباباً، فعليك بها!

ومِن هذه الأسبابِ ما جاء في هذا الحديثِ مِنَ الصَّلَاةِ والزَّكاةِ وفِعلِ الخَيرِ.

أَمَّا الصَّلاةُ فهي عمودُ الدِّين، وأعظَمُ حقٍّ لله ربِّ العالمين، لذلك فرضَها بنَفسِه ليلَةَ المِعراج مُشافَهةً منهُ لرسُولِه ﷺ مِن وراءِ حجابٍ بلَا وَاسِطَةِ المَلك، وأكثرَ في القُرآنِ الكريمِ من الأمرِ بإقامتِها ومدحِ مُقِيميها.

قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [النور].

وقال تعالى: ﴿ قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾﴾ [إبراهيم].

ورغَّبَ سبحانه وتعالى في إقامتِها ببيانِ فَضلِها وعظيمِ ثوَابِها وأجرِها:

فبيَّنَ سبحانهُ وتعالى أنَّ الصَّلَاةَ تُطهِّرُ الإنسانَ من الأخلاقِ الدَّنيئةِ والصِّفاتِ القبيحة، فقال تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ﴾ [العنكبوت:٤٥].

(١) حسن: رواه ابن حبان (٣١١٣)، والبيهقي في «إثبات عذاب القبر» (٦٧)، [«صحيح الترغيب» (٣٥٦١)].

وقــال تعــالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [المعارج].

وعن أبي هريرةَ رضي الله عنه قال: قيل يا رسولَ الله! إنَّ فُلاناً يُصلِّي اللَّيلَ كُلَّه، فإذا أصبحَ سرَق! فقال: «**سَيَنهَاهُ مَا تَقُول** -أو قال-: **سَتَمنَعُهُ صَلَاتُه**»(١).

وأخبَر سبحانهُ أنَّ الصَّلاةَ تُطهِّرُ الإنسانَ من دَنسِ الذَّنبِ إذا صلى بعدَه، فقال تعـالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [هود].

وَعَن عُثمَانَ رضي الله عنه قَال: حَدَّثَنَا رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم فَقَالَ: «**مَا مِن مُسلِمٍ يَتَطَهَّرُ فَيُتِمُّ الطُّهُورَ الَّذِي كَتَبَ الله عَلَيهِ، فَيُصَلِّي هَذِهِ الصَّلَوَاتِ الخَمسَ، إِلَّا كَانَت كَفَّارَاتٍ لِمَا بَينَهَا**»(٢).

وَعَن أَنَسِ بنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: (كُنتُ عِندَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فَجَاءَهُ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنِّي أَصَبتُ حَدًّا فَأَقِمهُ عَلَيَّ! قَالَ: وَلَم يَسأَلهُ عَنهُ. قَالَ: وَحَضَرَت الصَّلَاةُ، فَصَلَّى مَعَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم، فَلَمَّا قَضَى النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم الصَّلَاةَ قَامَ إِلَيهِ الرَّجُلُ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنِّي أَصَبتُ حَدًّا فَأَقِم فِيَّ كِتَابَ اللَّهِ! قَالَ: «**أَلَيسَ قَد صَلَّيتَ مَعَنَا؟**» قَالَ: نَعَم. قَالَ: «**فَإِنَّ اللَّهَ قَد غَفَرَ لَكَ ذَنبَكَ**» أَو قَالَ «**حَدَّكَ**»)(٣).

---

(١) **صحيح**: رواه البزار (٩٢١٧)، وابن حبان (٢٥٦٠)، [«المشكاة» (١٩)].

(٢) **صحيح**: رواه مسلم(٢٣١).

(٣) **متفق عليه**: رواه البخاري (٦٨٢٣)، ومسلم (٢٧٦٤).

وَعَن أَبِى هُرَيرَةَ ﷺ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**أَرَأَيتُم لَو أَنَّ نَهرًا بِبَابِ أَحَدِكُم يَغتَسِلُ مِنهُ كُلَّ يَومٍ خَمساً، مَا تَقُولُ ذَلِكَ يُبقِي مِن دَرَنِهِ؟**» قَالُوا: لَا يُبقِي مِن دَرَنِهِ شَيئاً. قَالَ: «**فَذَلِكَ مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الخَمسِ يَمحُو اللَّهُ بِهِنَّ الخَطَايَا**»(١).

وأخبرَ الله تعالى أنَّ إقامَ الصلاةِ من أعظَمِ أسبابِ الرَّحمةِ وموجباتِ الجنَّة.

قال تعالى: ﴿**وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ٥٦**﴾ [النور].

ثُمَّ بيَّنَ منازِلَهم في الجنَّةِ هيَ أعلى المنازِلِ.

فقال تعالى: ﴿**وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ٩ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ١١**﴾ [المؤمنون].

وَعَن جَابِرٍ ﷺ قَالَ: (أَتَى النَّبِيَّ ﷺ النُّعمَانُ بنُ قَوقَلٍ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَرَأَيتَ إِذَا صَلَّيتُ المَكتُوبَةَ، وَحَرَّمتُ الحَرَامَ، وَأَحلَلتُ الحَلَالَ، أَأَدخُلُ الجَنَّةَ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**نَعَم**»)(٢).

ومن فضلِ الصَّلاةِ أنَّها تمنعُ عن المُصلِّي عذابَ القبرِ إذا جاءهُ من قِبَلِ رأسِه، فتقولُ الصَّلاةُ المفروضةُ: ما قِبَلي مدخل، ومن فضلِ النَّافِلةِ أنَّها تمنعُ عنِ المُصلِّي عذابَ القبرِ إذا جاءهُ من قِبَلِ رِجلَيه، فيُستحبُّ لِلمصلِّي إذا حافظَ على الفريضةِ أن يأتِيَ بالنَّافلة، وهيَ قِسمانَ: مُقيَّدةٌ ومُطلقة.

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري (٥٢٨)، ومسلم (٦٦٧).

(٢) **صحيح**: رواه مسلم (١٥).

فالمُقيَّدةُ هيَ الرَّواتِبُ القبليَّةُ والبعدِيَّة، وهيَ ثنتا عشرةَ ركعة:

عَن أُمِّ حَبِيبَةَ رضي الله عنها قَالَت: سَمِعتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**مَن صَلَّى اثنَتَي عَشرَةَ رَكعَةً فِي يَومٍ وَلَيلَةٍ بُنِيَ لَهُ بِهِنَّ بَيتٌ فِي الجَنَّةِ**»(١).

وأمَّا النَّوافِلُ المُطلقةُ: فمنها الضُّحى، وقِيامُ اللَّيل، والصَّلاةُ بينَ العِشاءَين، والتَّطوُّعُ في غيرِ أوقاتِ الكراهة، وقد قال النبيُّ ﷺ: «**الصَّلَاةُ خَيرُ مَوضُوعٍ، فَمَنِ استَطَاعَ أَن يَستكثِرَ فَليَستكثِر**»(٢).

فاستكثِروا -رحمكمُ الله- من النَّافلةِ بعدَ الفريضة، فإنَّ الصَّلاةَ من المُنجياتِ من عذابِ القبر.

ومن المُنجياتِ الصِّيام، فإذا أُتِيَ الرَّجُلُ في قبرِهِ من قِبَلِ يمينِهِ قالَ الصِّيامُ: ما قِبَلي مدخل، فيمنعُهُ الصِّيامُ من العذاب.

وصِيامُ رمضانَ رُكنٌ من أركانِ الإسلام، وهو من أفضلِ الأعمالِ وأحبِّها إلى الرَّحمن، ولذلكَ استأثرَ الله بِهِ دونَ سائرِ أعمالِ الإنسان:

عَن أَبِي هُرَيرَةَ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: كُلُّ عَمَلِ ابنِ آدَمَ لَهُ إِلَّا الصِّيَامَ، فَإِنهُ لِي وَأَنَا أَجزِي بِهِ**»(٣).

---

(١) **صحيح**: رواه مسلم (٧٢٨).

(٢) **حسن لغيره**: رواه الطبراني في «الأوسط» (٢٤٣)، [«صحيح الترغيب» (٣٩٠)].

(٣) **متفق عليه**: رواه البخاري (١٩٠٤)، ومسلم (١١٥١).

ولِذلكَ لم يُحِدَّ الله عزَّ وجلَّ لجزائهِ حدّاً كما حدَّ لسائرِ الأعمال، وإنَّما قال النبيُّ ﷺ: «**كُلُّ عَمَلِ ابنِ آدَمَ يُضَاعَفُ؛ الحَسَنَةُ عَشرُ أَمثَالِهَا إِلَى سَبعِمِائَةِ ضِعفٍ. قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: إِلَّا الصَّومَ فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجزِي بِهِ؛ يَدَعُ شَهوَتَهُ وَطَعَامَهُ مِن أَجلِي**»(١).

ومن فضائلِ الصِّيامِ أنَّهُ يشفعُ لصاحبِهِ يومَ القيامة: عَن عَبدِ اللَّهِ بنِ عَمرو بنِ العاصِ رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**الصِّيَامُ وَالقُرآنُ يَشفَعَانِ لِلعَبدِ يَومَ القِيَامَةِ، يَقُولُ الصِّيَامُ: أَي رَبِّ! مَنَعتُهُ الطَّعَامَ وَالشَّهوَةَ فَشَفِّعنِي فِيهِ، وَيَقُولُ القُرآنُ: مَنَعتُهُ النَّومَ بِاللَّيلِ فَشَفِّعنِي فِيهِ، قَالَ: فَيُشَفَّعَانِ**»(٢).

ومن فضائله أنَّه يقي صاحِبَهُ من النَّار:

عَن عُثمَانَ بنِ أَبِي العَاصِي رضي الله عنه قَالَ: سَمِعتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**الصِّيَامُ جُنَّةٌ مِنَ النَّارِ، كَجُنَّةِ أَحَدِكُم مِن القِتَالِ**»(٣).

ومن فضائله أنَّه يوجِبُ الجنَّة:

عَن سَهلٍ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ فِي الجَنَّةِ بَابًا يُقَالُ لَهُ الرَّيَّانُ، يَدخُلُ مِنهُ الصَّائِمُونَ يَومَ القِيَامَةِ، لَا يَدخُلُ مِنهُ أَحَدٌ غَيرُهُم، يُقَالُ: أَينَ الصَّائِمُونَ؟ فَيَقُومُونَ، لَا يَدخُلُ مِنهُ أَحَدٌ غَيرُهُم، فَإِذَا دَخَلُوا أُغلِقَ فَلَم يَدخُل مِنهُ أَحَدٌ**»(٤).

(١) **صحيح**: رواه البخاري (٧٤٩٢)، ومسلم (١١٥١)واللفظ له.

(٢) **صحيح**: رواه أحمد (٢/١٧٤)، والحاكم (٢٠٣٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (٨/١٦١)، والبيهقي في «الشعب» (١٨٣٩)، [«صحيح الترغيب» (٩٨٤)].

(٣) **صحيح**: رواه ابن ماجه (١٦٣٩)، والنسائي في «الكبرى» (٢٥٥٢)، وأحمد (٤/٢٢)، [«صحيح الترغيب» (٩٨٢)].

(٤) **متفق عليه**: رواه البخاري (١٨٩٦)، ومسلم (١١٥٢).

فصُومُوا رمضانَ، فـ«**مَن صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِهِ**»(١)، وأكثِروا من نوافلِ الصِّيامِ ما استَطعتُم، فإن لم تفعلوا فلا يَعجزنَّ أحدُكم عن صيامِ ثلاثةِ أيَّامٍ من كلِّ شهرٍ: عَن عَبدِ اللَّهِ بنَ عَمرٍو رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «**صَومُ ثَلاثَةِ أيَّامٍ مِنَ الشَّهرِ صَومُ الشَّهرِ كُلِّهِ**»(٢).

ومن المُنجِياتِ من عذابِ القبرِ الزَّكاة:

وهيَ رُكنٌ من أركانِ الإسلام، وقد قُرِنت بالصَّلاةِ في اثنتينِ وثمانينَ آيةً من القُرآن، وقد رغَّبَ الله تعالى في إيتائها ببيانِ فضلها:

فأخبر سُبحانهُ وتعالى أنَّها تُطهِّرُ الإنسَانَ من الأخلاقِ الدَّنيئةِ والصِّفاتِ القبيحة، فقالَ تعالى: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ١٠٣﴾ [التوبة].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعٗا ٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا ٢١ إِلَّا ٱلۡمُصَلِّينَ ٢٢ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ ٢٣ وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ٢٥﴾ [المعارج].

وأخبرَ سُبحانهُ أنَّ الزَّكاةَ من موجباتِ رحمته:

فقال تعالى: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ١٥٦﴾ [الأعراف].

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري (٣٨)، ومسلم (٧٦٠).

(٢) **صحيح**: رواه مسلم (١١٥٩).

وأخبر سبحانه أَنَّ الزَّكاةَ تُطهِّرُ الإنسَانَ من دنَسِ الذَّنبِ:

فقال تعالى: ﴿ لَئِنۡ أَقَمۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيۡتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرۡتُمُوهُمۡ وَأَقۡرَضۡتُمُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ فَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ١٢ ﴾ [المائدة].

عَن أَبِي أُمَامَةَ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَخطُبُ فِي حَجَّةِ الوَدَاعِ، فَقَالَ: «**اتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُم، وَصَلُّوا خَمسَكُم، وَصُومُوا شَهرَكُم، وَأَدُّوا زَكَاةَ أَموَالِكُم، وَأَطِيعُوا ذَا أَمرِكُم، تَدخُلُوا جَنَّةَ رَبِّكُم**»[1].

وَعَن أَبِي هُرَيرَةَ رضي الله عنه أَنَّ أَعرَابِيًّا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: دُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ إِذَا عَمِلتُهُ دَخَلتُ الجَنَّةَ، قَالَ: «**تَعبُدُ اللَّهَ لاَ تُشرِكُ بِهِ شَيئًا، وَتُقِيمُ الصَّلاَةَ المَكتُوبَةَ، وَتُؤَدِّي الزَّكَاةَ المَفرُوضَةَ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ**»، قَالَ: وَالَّذِي نَفسِي بِيَدِهِ لاَ أَزِيدُ عَلَى هَذَا، فَلَمَّا وَلَّى قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**مَن سَرَّهُ أَن يَنظُرَ إِلَى رَجُلٍ مِن أَهلِ الجَنَّةِ فَلْيَنظُرْ إِلَى هَذَا**»[2].

ومن فضائلها أَن تمنَعَ عن صاحِبها عذابَ القَبر إذا أُتِيَ من قِبَلِ يساره، فإذا أُتِيَ من قِبَلِ رِجلَيهِ منَعته صدَقةُ التَّطوُّعِ، ولذلك رغَّبَ الله فيها كما رغَّبَ في الزَّكاةِ.

---

(١) **صحيح**: رواه الترمذي (٦١٦)، وأحمد (٥/٢٥١)، والطبراني في «الكبير» (٧٦٦٤)، والحاكم (١٩)، [«السلسلة الصحيحة» (٨٦٧)].

(٢) **متفق عليه**: رواه البخاري (١٣٩٧)، ومسلم (١٤).

فقال تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗاۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٗا وَأَعۡظَمَ أَجۡرٗاۚ﴾ [المزَّمل: ٢٠].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُصَّدِّقِينَ وَٱلۡمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقۡرَضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا يُضَٰعَفُ لَهُمۡ وَلَهُمۡ أَجۡرٞ كَرِيمٞ ١٨ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ وَنُورُهُمۡۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ١٩﴾ [الحديد].

وقد بيَّنَ النبي ﷺ أَنَّ للصدقةِ باباً.

عَن أَبِي هُرَيرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**مَن أَنفَقَ زَوجَينِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، نُودِيَ مِن أَبوَابِ الجَنَّةِ يَا عَبدَ اللَّهِ هَذَا خَيرٌ، فَمَن كَانَ مِن أَهلِ الصَّلَاةِ دُعِيَ مِن بَابِ الصَّلَاةِ، وَمَن كَانَ مِن أَهلِ الجِهَادِ دُعِيَ مِن بَابِ الجِهَادِ، وَمَن كَانَ مِن أَهلِ الصِّيَامِ دُعِيَ مِن بَابِ الرَّيَّانِ، وَمَن كَانَ مِن أَهلِ الصَّدَقَةِ دُعِيَ مِن بَابِ الصَّدَقَةِ**»(١).

ومن فَضائِلِ الصَّدقةِ أَنَّها تمحُو الخطايا كما قال النبي ﷺ: «**وَالصَّدَقَةُ تُطفِئُ الخَطِيئَةَ كَمَا يُطفِئُ الماءُ النَّارِ**»(٢).

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري (١٨٩٧)، ومسلم (١٠٢٧).

(٢) **صحيح لغيره**: رواه الترمذي (٢٦١٦)، والنسائي في «الكبرى» (١١٣٣٠)، وأحمد (٥/٢٤٨)، [«صحيح الترغيب» (٨٦٨)].

وقال تعالى: ﴿إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾﴾ [البقرة].

عَن أَبِي هُرَيرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «**سَبعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَومَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ ... وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بصدقةٍ فأَخفاها حَتَّى لَا تَعلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنفِقُ يَمِينُهُ**»(١).

ومن المُنجِيَاتِ من عذابِ القَبر: صَنَائِعُ المَعروفِ والإحسانُ إلى النَّاس، فإذا أُتِيَ الرَّجُلُ في قَبرِه مِن رِجلَيه قالَ فِعلُ الخَيراتِ مِن الصَّدقَةِ والصَّلاةِ والمَعروفِ والإحسانِ إلَى النَّاس: ما قِبَلِي مدخل.

إِنَّ الإنسانَ لا يعيشُ وحدَه أبداً، فهو في أُسرَتِه فِي مُجتَمعٍ صغير، وفي مدرَستِه طالباً أو مُعَلِّماً في مُجتَمعٍ أكبر، وفي المسجدِ الجامِعِ في مُجتَمعٍ، وفي الشَّارعِ والسُّوقِ في مُجتَمعٍ، وقد فَرضَ الله على كلِّ فردٍ في أيِّ مُجتَمعٍ كان أَن يُحسِنَ مُعاملةَ النَّاس وأَن يُعاشِرَهم بالمَعرُوف.

قال تعالى: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾﴾ [النساء].

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١).

ورغَّبَ في الإحسان فقال تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ١٩٥﴾ [البقرة].

وشَهِدَ للمُحسِنينَ بالهُدى، وحكَمَ لهم بالفلاحِ.

فقال تعالى: ﴿الٓمٓ ١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ٢ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ٣ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ٥﴾ [لقمان].

وأَسكَنهم الجنَّة بسبَب هذا الإحسانِ.

فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ١٥ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ١٦ كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ١٧ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ١٨ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ١٩﴾ [الذاريات].

كما أمرَ سُبحَانه بفِعل المَعروفِ.

فقالَ تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ١٩٩﴾ [الأعراف].

ووعَدَ عَلَى فِعلِ المعروفِ إيماناً واحتِساباً أجراً عظيماً.

فقال تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ١١٤﴾ [النساء].

وبيَّنَ النَّبيُّ ﷺ أَنَّ أبوابَ المعروفِ كثيرة[1].

(١) انظر كتاب «خير الناس» لشيخنا عبد العظيم بدوي حفظه الله، فقد جمع فيه من أبواب الخير الكثير الكثير.

فقال ﷺ: «**كُلُّ مَعرُوفٍ صَدَقَةٌ، وَإِنَّ مِن المَعرُوفِ أَن تَلقَى أَخَاكَ بِوَجهٍ طَلقٍ، وَأَن تُفرِغَ مِن دَلوِكَ فِي إِنَاءِ أَخِيكَ**»(١).

وَعَن أَبِي ذَرٍّ ﵁ قَالَ: قَالَ لِيَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لاَ تَحقِرَنَّ مِنَ المَعرُوفِ شَيئًا وَلَو أَن تَلقَى أَخَاكَ بِوَجهٍ طَلقٍ**»(٢).

وَعَن أَبِي هُرَيرَةَ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**كُلُّ سُلاَمَى مِنَ النَّاسِ عَلَيهِ صَدَقَةٌ، كُلَّ يَومٍ تَطلُعُ فِيهِ الشَّمسُ يَعْدِلُ بَينَ الاِثنَينِ صَدَقَةٌ، وَيُعِينُ الرَّجُلَ فِي دَابَّتِهِ، فَيَحمِلُ عَلَيهَا أَو يَرفَعُ عَلَيهَا مَتَاعَهُ صَدَقَةٌ، وَالكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ خُطوَةٍ يَخطُوهَا إِلَى الصَّلاَةِ صَدَقَةٌ، وَيُمِيطُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ**»(٣).

ومما يُنجي من عذاب القبر أو فتنته:

- الاستشهاد في ساحة القتال:

عن المقداد بن معد يكرب ﵁ قال: قال ﷺ: «**للشهيد عند الله ست خصال: يُغفر له في أول دُفعة من دمه، ويرى مقعدَه من الجنة، ويُجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويحلى حلية الإيمان، ويزوج من الحور العين، ويشفع في سبعين إنساناً من أقاربه**»(٤).

---

(١) **صحيح لغيره**: رواه الترمذي (١٩٧٠)، وأحمد (٣/ ٣٦٠)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٣٠٤)، [«صحيح الترغيب» (٢٦٨٤)].

(٢) **صحيح**: رواه مسلم (٢٦٢٦).

(٣) **متفق عليه**: رواه البخاري (٢٩٨٩)، ومسلم (١٠٠٩).

(٤) **صحيح**: رواه الترمذي (١٦٦٣)، وابن ماجه (٢٧٩٩)، وأحمد (٤/ ١٣١)، [«صحيح الترغيب» (١٣٧٥)].

وعـن رجـل مـن أصـحاب النَّبـيِّ ﷺ: أن رجـلاً قـال: يـا رسـول الله، مـا بـال المـؤمنين يُفتنون في قبورهم إلا الشهيد؟ قال: «**كفى ببارقةِ[1] السيوف على رأسه فتنة**»[2].

• الرباط في سبيل الله تعالى:

عَن سَلمَانَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ ﷺ: «**رِبَاطُ يَومٍ وَلَيلَةٍ خَيرٌ مِن صِيَامِ شَهرٍ وَقِيَامِهِ، وَإِن مَـاتَ جَـرَى عَلَيـهِ عَمَلُـهُ الَّـذِى كَـانَ يَعمَلُـهُ وَأُجـرِيَ عَلَيـهِ رِزقُـهُ، وَأَمِـنَ الفَتَّانَ[3]**»[4].

وَقال ﷺ: «**كُلُّ مَيِّتٍ يُختَمُ عَلَى عَمَلِهِ إِلَّا المُرَابِطَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَإِنَّهُ يُنمَى لَه عَمَلُهُ إِلَى يَومِ القِيَامَةِ، وَيَأمَنُ فِتنَةَ القَبرِ**»[5].

• الموت بداء البطن:

عن عبد الله بن يسار قال: كنت جالساً وسليمانَ بن صُرَد وخالدَ بنَ عُرفطة، فذكروا أن رجلاً توفي، مات ببطنه، فإذا هما يشتهيان أن يكونا شهداء جنازته، فقال أحدهما للآخر: ألـم يقل رسول الله ﷺ: «**من يقتلْه بطنُه فلن يُعذَّبَ في قبره**». فقال الآخر: بلى، وفي رواية: صَدَقْتَ[6].

---

(١) أي: لمعان.

(٢) **صحيح**: رواه النسائي (٢٠٥٣)، [«صحيح الترغيب» (١٣٨٠)] .

(٣) أي: فتان القبر نسأل الله تعالى العافية.

(٤) **صحيح**: رواه مسلم (١٩١٣).

(٥) **صحيح**: رواه الترمذي (١٦٢١)، وأبو داود (٢٥٠٠)، وأحمد (٦/ ٢٠)، وابن حبان (٤٦٢٤)، [«صحيح الترغيب» (١٢١٨)]

(٦) **صحيح**: رواه النسائي (٢٠٥٢)، وأحمد (٤/ ٢٦٢)، والطبراني في«الكبير» (٤١٠٣)، [«أحكام الجنائز» (ص٣٨)].

• قراءة سورة تبارك:

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال ﷺ: «**سورة تبارك هي المانعة من عذاب القبر**»(١).

وعنه أيضاً قال: (يُؤتى الرجلُ في قبره، فتُؤتى رجلاهُ فتقول رجلاهُ: ليس لكم على ما قِبَلي سبيلٌ، كان يقرأُ بي سورة الملك، ثم يُؤتى من قِبَلِ صدرهِ أو بطنه، فتقولُ: ليس لكم على ما قِبَلي سبيلٌ، كان يقرأُ بي سورة الملك، ثم يُؤتى رأسهُ فتقول: ليس لكم على ما قِبَلي سبيل، كان يقرأُ سورة المانعة تمنع من عذاب القبر، وهي في التوراة سورة الملك، من قرأها في ليلة فقد أكثر وأطنب)(٢).

• الموت يومَ الجمعة أو ليلتَها:

قال ﷺ: «**مَا مِن مُسلِمٍ يَمُوتُ يَومَ الجُمُعَةِ، أَو لَيلَةَ الجُمُعَةِ، إِلَّا وَقَاهُ اللَّهُ تعالى فِتنَةَ القَبرِ**»(٣).

فاحرِصْ يا عبد الله على زيارة القبور، فإنها من أعظم الوسائل لإصلاح القلوب.

---

(١) **صحيح**: رواه النسائي في«الكبرى» (١٠٤٧٩)، والطبراني في «الأوسط» (٦٢١٦)، [«السلسلة الصحيحة» (١١٤٠)].

(٢) **حسن**: رواه الحاكم (٣٨٣٩)، والبيهقي في «الشعب» (٢٢٧٩)، [«صحيح الترغيب» (١٤٧٥)].

(٣) **حسن لغيره**: رواه الترمذي (١٠٧٤)، وأحمد (٢/١٦٩)، [«صحيح الترغيب» (٣٥٦٢)].

الوسيلة الخامسة لإصلاح القلوب

محاسبة النفس

القلبُ والنفسُ يَكثرُ ورودُهما في الكتابِ والسنةِ مع غيرِهما من الألفاظِ المشابهةِ كالفؤادِ ونحوِ ذلك، وقد سبقَ في البابِ الأولِ بيانُ معاني هذه الألفاظِ والصلةِ بينها، وملخصُ ذلكَ أنَّ القلبَ يُمَثِّلُ دائرةً من دوائرِ النفسِ الإنسانيةِ تستقرُّ فيها العواطفُ المختلفةُ، وهو محلُّ الاعتبارِ والهدايةِ والإيمانِ، وأما الفؤادُ فله دائرةٌ أعمقُ داخلَ القلبِ، تتركزُ فيها مجموعةٌ من خصائصِ النفسِ ووظائفِها، والحدُّ الفاصلُ بينَ الدائرةِ الكبرى التي تُمثِّلُ النفسَ عموماً، وبينَ دائرةِ القلبِ يعدُّ موضعاً للغرائزِ والأهواءِ والشهواتِ، ويمكنُ أن نطلقَ على هذا الحدِّ دائرةَ سطحِ النفسِ، فإذا بَقِيت تلكَ الغرائزُ والشهواتُ في دائرةِ سطحِ النفسِ، ولم تغزُ القلبَ بسهامِها، فذلكَ حالُ صحةِ القلبِ وسلامتهِ من الأمراضِ، وهذا ما يحققُ النجاةَ لصاحبهِ يومَ القيامة.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء].

وهذا القلبُ إذا لم يتعهدْه صاحبُه بذكرِ اللهِ تعالى، ومراقبتهِ ودوامِ الخشيةِ منه، فإنَّ الشهواتِ سُرعانَ ما تتسربُ إليه، وهنا تبدأ بوادرُ المرضِ، ويزدادُ تغلغلُ حُبِّ الدنيا وشهواتِها إلى ذلكَ القلبِ، حتى يطغى على حُبِّ اللهِ ورسولِه، فيمرضُ القلبُ، ويضعفُ الإيمانُ فيه، فإذا لم يتداركِ العبدُ هذا المرَضَ، وَدَاوَمَ

على العصيانِ فإنَّ القلبَ يقسو ويشتدُّ مرضُه حتى يُغَلَّفَ ويُطمَس، ويُقفلَ ويُطبَعَ عليه، ويزيغَ عن الحَقِّ، وعندَها تكونُ حالةُ موتِ القلبِ، التي هي أسوأُ الحالاتِ، لأنها تنقلُ صاحبَها من الإيمانِ إلى الكفرِ، وتجعلُه في مرتبةِ البهائم.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف].

ومما وردَ من أَوصافِ هذا القلبِ في كتابِ الله تعالى أنه قلبٌ أعمى، قال سبحانه: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج].

فالعمى الحقيقيُّ ليسَ عمى البصرِ، وإنما هو عمى القلبِ والبصيرةِ، لأن أعمى البصرِ يستطيعُ السيرَ في الطريقِ بالاستعانةِ بعصاً أو دليل، أما أعمى القلبِ فلا دليلَ يرشدُه، فهو يتخبطُ في كُلِّ اتجاهٍ، ويقعُ في كُلِّ هاويةٍ، ويصطدمُ بكلِّ ما يعترضُ طريقَه، فهو في زيغٍ دائمٍ، وقلبُه مقفلٌ مختومٌ بما فيه من ظلمات.

قالَ تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥﴾﴾ [الصف].

وقال عز وجل: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [البقرة].

وقال سبحانه: ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [التوبة].

وقد وردَ في آياتِ القرآنِ الكريمِ ذكرُ بضعةٍ وعشرينَ وصفاً لأمراضِ القلوبِ المعنويةِ وهي: الرَّينُ والزيغُ والطبعُ والصرفُ والضيقُ والحرجُ والختمُ والإقفالُ والإشرابُ والرعبُ والقساوةُ والإصرارُ وعدمُ التطهيرِ والنفورُ والاشمئزازُ والإنكارُ والشكوكُ والإبعادُ والتأبِّي والبغضاءُ والغفلةُ والغَمرةُ واللهوُ والارتيابُ والنفاقُ.

قال ابن القيم رحمه الله: وقد اتَّفَقَ السَّالكونَ إلى اللهِ على اختلافِ طُرُقِهم، وتبايُنِ سُلوكِهِم على أَنَّ النفسَ قاطعةٌ بينَ القلبِ وبينَ الوصولِ إلى الرَّبِّ، وأَنَّهُ لا يُدخَلُ عليهِ سبحانَه، ولا يوصَلُ إليهِ إلَّا بعدَ إماتِتِها، وتَركِها بمخالفتِها والظَّفَرِ بها.

فإنَّ النَّاسَ على قسمينِ:

قسمٌ ظَفِرَت بهِ نفسُهُ فملكَتهُ وأَهلَكَتهُ وصارَ طَوعاً لها تحتَ أَوامرِها.

وقسمٌ ظَفِروا بنفوسِهِم فقَهَروها، فصارت طوعاً لهم منقادةً لأوامِرِهِم.

قالَ بعضُ العارفينَ: انتهى سَفَرُ الطَّالبينَ إلى الظَّفَرِ بأَنفُسِهم، فمَن ظَفِرَ بنفسِهِ؛ أَفلَحَ وأَنجَحَ، ومَن ظَفِرَت بهِ نفسُهُ خَسِرَ وهَلَكَ. قالَ تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات].

فمن حاسبَ نفسَهُ فقد زكاها، ومن زكى نفسهُ فقد أفلح قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾﴾ [الشمس].

ومن زكى نفسهُ طَهُرَ قلبُه، فمن أراد أن يُصلحَ قلبه فعليه بتزكية نفسه، وتزكيةُ النفس تكونُ بمحاسبتها دائماً؛ فالمحاسبة للنفس وسيلةٌ فعالةٌ في إصلاح القلوب.

مُحَاسَبةُ النَّفسِ(١)

عَن حَنظَلَةَ الأُسَيْدِيِّ رضي الله عنه -وَكَانَ مِن كُتَّابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ- قَالَ: (لَقِيَنِي أَبُو بَكرٍ، فَقَالَ: كَيفَ أَنتَ يَا حَنظَلَةُ؟ قَالَ: قُلتُ: نَافَقَ حَنظَلَةُ. قَالَ: سُبحَانَ اللَّهِ مَا تَقُولُ؟ قَالَ: قُلتُ: نَكُونُ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأيَ عَينٍ، فَإِذَا خَرَجنَا مِن عِندِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَافَسنَا الأَزوَاجَ وَالأَولاَدَ وَالضَّيعَاتِ فَنَسِينَا كَثِيرًا. قَالَ أَبُو بَكرٍ: فَوَاللَّهِ إِنَّا لَنَلقَى مِثلَ هَذَا. فَانطَلَقتُ أَنَا وَأَبُو بَكرٍ حَتَّى دَخلنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قُلتُ: نَافَقَ حَنظَلَةُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**وَمَا ذَاكَ؟**». قُلتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ نَكُونُ عِندَكَ تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأيَ عَينٍ، فَإِذَا خَرَجنَا مِن عِندِكَ عَافَسنَا الأَزوَاجَ وَالأَولاَدَ وَالضَّيعَاتِ نَسِينَا كَثِيرًا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**وَالَّذِى نَفسِي بِيَدِهِ إِنْ لَو تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِندِي وَفِى الذِّكرِ لَصَافَحَتكُمُ المَلاَئِكَةُ عَلَى فُرُشِكُم وَفِي طُرُقِكُم، وَلَكِن يَا حَنظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً**». ثَلاَثَ مَرَّاتٍ(٢).

هكذا كانوا يُراقبون أحوالَهم، ويُحاسبون أنفسَهم، وقد أمرَ اللهُ تعالى بمحاسبَةِ النفسِ، فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ ﴾ [الحشر:١٨].

---

(١) انظر كتاب «التحفة السنية» لشيخنا عبد العظيم بن بدوي حفظه الله.

(٢) **صحيح**: رواه مسلم (٢٧٥٠).

قال ابنُ القيم: (يقول تعالى: لينظر أحدُكم ما قدَّمَ ليومِ القيامةِ من الأعمالِ: أَمِنَ الصالحاتِ التي تُنجِيه، أم مِنَ السَّيئات التي تُوبقه)(١).

والمحاسبةُ: هي كما قال الإمامُ الماورديُّ: محاسبةُ النَّفسِ أَن يتصفحَ الإنسانُ في ليلِهِ ما صدرَ من أفعالِ نهارِهِ، فإن كانَ محموداً أمضاه، وأتبعَه بما شاكَلهُ وضاهاه، وإن كان مذموماً استدركَه إن أمكن، وانتهى عن مثلِهِ في المستقبل(٢).

وللسلفِ رضوانُ الله عليهم أحوالٌ عجيبةٌ في محاسبةِ أنفسِهم: عن الأحنفِ بنِ قيسٍ أَنَّهُ كان يجيء إلى المصباحِ فيضعُ أصبعَهُ فيه، ثُمَّ يقولُ: حِسَّ يا حُنيف، ما حملك على ما صنعتَ يومَ كذا؟ ما حملك على ما صنعتَ يومَ كذا؟(٣).

وقال ابنُ أبي الدُّنيا: حدثني رجلٌ من قريشٍ -ذُكِرَ أَنَّهُ من ولدِ طلحةَ بنِ عُبيدِ الله- قال: كان توبةُ بنُ الصَّمةِ بالرِّقةِ، وكان مُحاسباً لنفسِه، فحسبَ يوماً، فإذا هو ابنُ ستينَ سنة، فحسبَ أيامها، فإذا هي واحدٌ وعشرونَ ألفَ يومٍ وخمسمائةِ يوم، فصرخ وقال: يا ويلتي، ألقى ربِّي بواحدٍ وعشرين ألفَ ذنب؟ كيف وفي كلِّ يومٍ آلافٌ من الذنوبِ، ثُمَّ خرَّ مغشيّاً عليه، فإذا هو ميت، فسمعوا قائلاً يقولُ: يا لكِ رَكضَةٌ إلى الفردوسِ الأعلى(٤).

---

(١) «إغاثة اللهفان» (١/٨٤).

(٢) «أدب الدنيا والدين» (٣٤٢) كذا في «نضرة النعيم» (٨/٣٣١٧).

(٣) «إغاثة اللهفان» لابن القيم (١/٧٩).

(٤) «إغاثة اللهفان» لابن القيم (١/٧٩).

وقال أنسُ بنُ مالكٍ ﵁: سمعتُ عمرَ بنَ الخطابِ ﵁ يوماً وقد خرجتُ معه حتى دخلَ حائطاً، فسمعتُه يقول: وبيني وبينَه جدار، وهو في جوفِ الحائط: عمرُ بنُ الخطابِ، أميرُ المؤمنينَ، بخٍ بخٍ!! والله لتتقينَّ اللهَ يا ابنَ الخطاب، أو ليعذبنَّك[1].

وقال إبراهيمُ التيمِيُّ: مثَّلتُ نفسي في الجنةِ، آكلُ من ثمارِها، وأشربُ من أنهارِها، وأُعانقُ أبكارَها، ثُمَّ مثَّلتُ نفسي في النَّارِ آكلُ من زقومِها، وأشربُ من صديدِها، وأُعالجُ سلاسلَها وأغلالَهَا، فقلتُ لنفسي: يا نفس، أي شيءٍ تريدين؟ قالت: أَن أُردَّ إلى الدُّنيا فأعملَ صالحاً. قال: قلتُ: فأنتِ في الأُمنيَةِ فاعملي[2].

وكما كانوا يحاسبون أنفسَهم فقد كانوا يتواصَونَ بالمُحاسبة:

عن عمرَ بنِ الخطابِ ﵁ أَنَّه قال: حاسبُوا أنفسَكم قبلَ أَن تُحاسَبُوا، وزنوا أنفسَكم قبلَ أَن تُوزَنوا، فإِنَّه أهونُ عليكم في الحسابِ غداً أَن تُحاسبُوا أنفسَكم اليوم، وتزيَّنوا للعرضِ الأكبر ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾﴾ [الحاقة][3].

وكتب ﵁ إلى بعضِ عمَّالِه، فكان في آخرِ كتابِهِ: أَن حاسب نفسَك في الرَّخاءِ قبلَ حسابِ الشدَّة، فإِنَّه من حاسبَ نفسَه في الرَّخاءِ قبلَ حسابِ الشدَّةِ عاد مرجعه إلى الرضى والغِبطة، ومن ألهته حياتُه وشغلته أهواؤه عادَ أمرُه إلى النَّدامةِ

(١) «محاسبة النفس» لابن أبي الدنيا (٢٣)، كذا في «نضرة النعيم» (٨/٣٣٢٢).
(٢) «محاسبة النفس» لابن أبي الدنيا (٢٤)، كذا في «نضرة النعيم» (٨/٣٣٢٢).
(٣) «إغاثة اللهفان» لابن القيم (١/٧٨).

والحسرة، فتذكر ما توعظُ به، لكي ما تنتهي عمَّا يُنهى عنه، وتكونَ عندَ التذكرةِ والموعظةِ من أولي النُّهى[1].

وقال مالكُ بنُ دينار: رحمَ اللهُ عبداً قال لنفسِه: ألستِ صاحبةَ كذا؟ ألستِ صاحبةَ كذا؟ ثُمَّ ذمَّها، ثُمَّ خطمها، ثُمَّ ألزمها كتابَ الله عز وجل فكان لها قائداً[2].

وإنَّما يهتمُّ بمحاسبةِ نفسِه من أيقنَ بمُحاسبةِ ربِّه له، يقول أحد العلماءِ: قال اللهُ تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء]، وقال تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾﴾ [المجادلة]، وقال تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة].

---

(١) «إغاثة اللهفان» لابن القيم (١/٧٩).

(٢) «إغاثة اللهفان» لابن القيم (١/٧٩).

فعرَف أربابُ البصائرِ من جملةِ العبادِ أَنَّ اللهَ تعالى لهم بالمرصاد، وأَنَّهم سيُناقَشون في الحسابِ، ويُطالَبون بمثاقيلِ الذرِّ من الخَطَراتِ واللحظات، وتحققوا أَنَّه لا يُنجيهم من هذه الأخطارِ إِلَّا لزومُ المحاسبة، وصدقُ المراقبة، ومطالبةُ النَّفسِ في الأنفَاسِ والحركات، ومحاسبتُها في الخطراتِ واللحظات، فمن حاسبَ نفسَه قبلَ أَن يُحاسبَ خفَّ في القيامةِ حسابُه، وحضر عند السؤالِ جوابُه، وحسنَ مُنقلَبُه ومآبُه، ومن لم يحاسب نفسَه دامت حسراتُه، وطالت في عرصاتِ القيامةِ وقَفاتُه، وقادتْهُ إلى الخِزي والمَقتِ سيئاتُه، فَلَمَّا انكشف لهم ذلك، عَلِمُوا أَنَّه لا يُنجيهم منه إِلَّا طاعةُ الله، وقد أمرَهم بالصبرِ والمُرابطةِ، فقال عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾ ﴾ [آل عمران]، فرابَطوا أنفسَهم أوَّلاً بالمُشارطةِ، ثُمَّ بالمُراقبةِ، ثُمَّ بالمُحاسبة، ثُمَّ بالمعاقبة، ثُمَّ بالمجاهدة، ثُمَّ بالمعاتبة.

أَمَّا المشارطةُ، فتكونُ أَوَّلَ النَّهارِ، فإذا فرَغ من فريضةِ الصبحِ فرَّغَ قلبَه ساعةً لمُشارطةِ النفس، فيقولُ لها: يا نفسُ، ما لي بضَاعةٌ إِلَّا العمر، ومهما فنيَ فقد فنيَ رأسُ المال، ووقع اليأسُ من التجارةِ وطلب الربحِ، وهذا اليومُ الجديدُ قد أمهلني اللهُ فيه، وأنسأَ في أجلي، وأنعم عليَّ به، ولو توفَّاني لكنتُ أتمنى أَن يُرجِعَني إلى الدُّنيا يوماً واحداً حتى أعملَ فيه صالحاً، فاحسبي يا نفسُ أَنَّكِ قد تُوفِّيتِ ثُمَّ قد

رُدِدتِ، فإياكِ ثُمَّ إياكِ أَن تُضيِّعي هذا اليوم، فإِنَّ كلَّ نفَسٍ من الأنفاس جوهرةٌ لا قيمةَ لها.

ثُمَّ يُوَظِّفُ لها الوظائف، ويضعُ لها برنامجَ عملِ اليومِ والليلة، فيقولُ لها: الآنَ وقد أديتِ الصبحَ في جماعةٍ، وأتيتِ بالأذكارِ المشروعة دبرَ كلِّ صلاة، مطلوبٌ الإتيانُ بأذكارِ الصَّباح، وقراءةِ وِردِ القرآن، ثُمَّ صلاةِ الضحى، ومطلوبٌ المحافظةُ على الصلواتِ الخمسِ في الجماعةِ مع إدراكِ تكبيرةِ الإحرام، ومطلوبٌ المحافظةُ على السننِ الرواتبِ القبليَّةِ والبعديَّة، ومطلوبٌ صلةُ الرحم، وبرُّ الوالدين، وعيادةُ المريض، وإغاثةُ الملهوف، وقضاءُ حاجةِ الأرملةِ واليتيمِ والمسكين، والتَّصدُّقُ عليهم، ومطلوبٌ المحافظةُ على أذكارِ المساء، وأذكارِ النوم، والمحافظةُ على قيامِ الليل، والنومُ على طهارة.

ثُمَّ تُبيِّنُ لها ما يجبُ اجتنابُه من النظرِ المحرَّم، والكلامِ المحرم، والاستماعِ المحرم، والأكلِ المحرم، والوطءِ المحرم، ونحوِ ذلك مما يجبُ اجتنابُه.

فإذا أوصى الإنسانُ نفسَهُ، وشرطَ عليها ما ذكرناه، فلا يبقى إِلَّا المراقبةُ لها عندَ الخوضِ في الأعمال، وملاحظتُها بالعينِ الطالبة، فإِنَّها إن تُركت طغت وفسدت.

وينبغي أَن يُراقبَ الإنسانُ نفسَهُ قبلَ العملِ وفي العمل، هل حرَّكَه عليه هوى النفس، أو المُحرِّكُ له هو اللهُ تعالى خاصة؟ فإِن كان اللهُ تعالى أمضاه، وإِلَّا

تركَه، وهذا هو الإخلاصُ. قال الحسنُ: رحمَ اللهُ عبداً وقفَ عندَ همِّهِ، فإِن كان لله مضى، وإِن كان لغيره تأخر(١).

وقد شرحَ هذا بعضُهم فقال: إذا تحركتِ النَّفسُ لعملٍ من الأعمالِ وهمَّ به العبد، وقفَ أوَّلاً ونظر: هل ذلك العملُ مقدورٌ له أو غيرُ مقدور؟ فإِن لم يكن مقدوراً لم يُقدِم عليه، وإِن كانَ مقدوراً وقفَ وقفةً أخرى ونظر: هل فعلُهُ خيرٌ له من تركِهِ؟ أو تركُهُ خيرٌ له من فعلِهِ؟ فإِن كان الثَّاني تركَهُ ولم يُقدِم عليه، وإِن كان الأولُ وقفَ وقفةً ثالثةً ونظر: هلِ الباعثُ عليه إرادةُ وجهِ الله عز وجل وثوابِه، أو إرادةُ الجاهِ والثناءِ والمالِ من المخلوق؟ فإِن كان الثَّاني لم يُقدِم عليه، وإِن أفضى به إلى مطلوبِه، لئلا تعتادَ النَّفسُ الشِّرك، ويخفَّ عليها العملُ لغيرِ الله، فبقَدْرِ ما يخفُّ عليها ذلك يثقلُ عليها العملُ لله تعالى، حتى يصيرَ أثقلَ شيءٍ عليها، وإِن كان الأولُ وقفَ وقفةً أخرى ونظر: هل هو مُعانٌ عليه، وله أعوانٌ يُساعدونه ويُبصِّرونه إذا كان العملُ محتاجاً إلى ذلك أم لا؟ فإِن لم يكن له أعوانٌ أمسكَ عنه، كما أمسكَ النَّبيُّ ﷺ عن الجهادِ بمكةَ حتى صار له شوكةٌ وأنصار، وإِن وجدَه مُعاناً عليه فليُقدِم عليه فإِنَّه منصورٌ بإذنِ الله عز وجل(٢).

فهذه مُراقبةُ العبدِ في الطَّاعة، ومراقبتُه في المعصيةِ تكونُ بالتوبةِ والندمِ والإقلاع، ومراقبتُه في المباحِ تكونُ بمراعاةِ الأدب، والشُّكرِ على النِّعم، فإِنَّه لا

(١) «مختصر منهاج القاصدين» لابن قدامة (٣٧٢، ٣٧٣).
(٢) «إغاثة اللهفان» لابن القيم (٨١، ١/٨٢).

يخلو من نعمةٍ لابدَّ من الشُّكرِ عليها، ولا يخلو من بليَّةٍ لابدَّ من الصَّبرِ عليها، وكلُّ ذلك من المراقبة[1].

فإذا انقضى النَّهارُ ودخلَ الليلُ فعلى العبدِ قبلَ أَن يأويَ إلى فراشِه أَن يخلوَ بنفسِهِ ساعة. يطالبُ النَّفس فيها بما شرطَ عليها، ويحاسبُها على جميعِ حركاتِها وسكناتِها، كما يفعلُ التُّجارُ في الدُّنيا مع الشركاءِ في آخرِ كلِّ سنة، أو شهر، أو يوم، حِرصاً منهم على الدُّنيا، وخوفاً من أَن يفوتَهم منها ما لو فاتَهم لكانتِ الخِيَرَةُ لهم في فواتِه، ولو حصلَ فلا يبقى إِلَّا أياماً قلائل، فكيف لا يحاسبُ العاقلُ نفسَهُ فيما يتعلَّق به خطرُ الشَّقاوةِ والسَّعادةِ أبدَ الآباد، ومعنى المحاسبةِ مع الشَّريكِ؛ أَن ينظرَ رأسَ المالِ وفي الربحِ والخسران، ليتبيَّنَ له الزَّيادةُ من النُّقصان، فإن كان من فضلٍ حاصلٍ استوفاه وشكَره، وإن كان من خسرانٍ طالبَه بضمانِه وكلَّفه تداركَه في المستقبل، فكذلك رأسُ مالِ العبدِ في دينِه الفرائض، وربحُه النَّوافلُ والفضائل، وخسرانُه المعاصي، وموسمُ هذه التجارةِ جملةُ النَّهار، ومعاملةُ نفسِهِ الأمارةِ بالسوء، فيحاسبُها أولاً على الفرائض، فإن أدَّاها على وجهها شكرَ اللهَ تعالى عليها ورغَّبها في مثلِها، وإن فوَّتَها لعذرٍ طالبها بالقضاء، وإن أدَّاها ناقصةً كلَّفها الجبرانَ بالنَّوافل، وإنِ ارتكب معصيةً اشتغل بعقوبتِها ومعاتبتِها ليستوفيَ منها ما يتدارك به ما فَرَّط.

(١) «مختصر منهاج القاصدين» لابن قدامة (٣٧٢، ٣٧٣).

وها هو جدولُ محاسبةٍ يستعانُ به على محاسبةِ النَّفس:

هل صليَت الفجرَ في جماعة؟	هل قلتَ الأذكارَ المشروعة دبرَ الصَّلاة؟
هل جلستَ في مصلاكَ حتى الشُّروق؟	هل قلت أذكارَ الصباح؟
هل قرأتَ وردكَ من القرآن؟	هل صليتَ الضحى؟
هل صليتَ الخمسَ في جماعة؟	هل أدركتَ تكبيرةَ الإحرامِ في كلِّ صلاة؟
هل صليتَ الرواتبَ القبليةَ والبعديةَ؟	هل كنتَ خاشعاً في صلاتك؟
هلِ اجتنبتَ مجالسَ السوء؟	هل تركتَ الإكثارَ من الضحكِ والمزاح؟
هل غضضتَ بصرَكَ؟	هل أمسكتَ لسانَك عمَّا لا خيرَ فيه؟
هل طهَّرتَ فمَكَ من الكذبِ والغيبةِ والنَّميمة؟	هل طهَّرتَه من خبثِ الدخان؟
هل تحريتَ الحلالَ في الطَّعامِ والشَّراب؟	هل تصدَّقتَ على الفقراء؟
هل عُدتَ مريضاً أو زرتَ أخاً في الله؟	هل دعوتَ إلى الله أهلكَ وجيرانَك وإخوانك؟
هل حضرتَ مجلسَ علم؟	هل قلتَ أذكارَ المساء؟

فإذا فرغَ من محاسبةِ نفسِهِ فلابدَّ أَن يطَّلِعَ منها على تقصيرٍ في واجب، أوِ ارتكابِ مُحَرَّمٍ، فعليه إنِ اطلعَ من نفسِهِ على ذلك أَن يُعاتِبَها ويُوبِّخَها، فإنَّ النفسَ خُلِقَت أمارةً بالسوءِ، ميالةً إلى الشَّر، فرَّارةً من الخير، فإن أهملتَها جمحت وشرَدت، ولم تظفر بها بعدَ ذلك، وإن لازمتَها بالتوبيخِ والمعاتبةِ والعذلِ والملامة، كانت نفسُك هي النَّفسُ اللَّوامةُ التي أقسمَ اللهُ بها، ورجوتَ أَن تصيرَ النَّفسَ المطمئنةَ المدعوةَ إلى أَن تدخلَ في زمرةِ عبادِ الله راضيةً مرضيَّة.

وإِنَّمَا يكونُ اللومُ والعتابُ على التقصيرِ في النَّوافل، أو انهماكٍ في المباح، أَمَّا إذا كان التقصيرُ في الفرائضِ والانهماكُ في المحرمات، فلابدَّ من المعاقبةِ، بإلزامِها من الطَّاعاتِ ما يتداركُ به ما فاتَ من الثوابِ والحسنات، وإِن شقَّ عليها ذلك، كأَن يُلزِمَها بصيامِ النَّهارِ، أو قيامِ الليل، أو التَّصدقِ بشيءٍ من المال، ونحوِ ذلك، كما رُوي عن عمرَ رضي الله عنه أَنَّه خرجَ إلى حائطٍ له، ثُمَّ رجعَ وقد صلى النَّاسُ العصر، فقالَ: إِنَّمَا خرجتُ إلى حائطي، ورجعتُ وقد صلى النَّاسُ العصر، حائطي صدقةٌ على المساكين. قال الليثُ: إِنَّمَا فاتته الجماعة. ورويَ عنه أَنَّهُ شغله أمرٌ عن المغربِ حتى طلع نجمان، فَلَمَّا صلَّاها أعتقَ رقبتين.

ومرَّ حسانُ بنُ سنانٍ بِغُرفةٍ، فقال: متى بُنِيَت هذه؟ ثُمَّ أقبلَ على نفسِه فقال: تسألينَ عمَّا لا يعنيكِ، لأعاقبنَّكِ بصومِ سنة، فصامها[1].

وهكذا كانت عقوبةُ أولي الحزمِ لأنفسِهم، والعجبُ أَنَّك تعاقبُ عبدَك وأمتَك وأهلَك وولدَك على ما يصدرُ من سوءِ خلق، وتقصيرٍ في أمر، وتخافُ أَنَّك لو تجاوزتَ عنهم لخرجَ أمرُهم عنِ الاختيارِ وبَغَوا عليك، ثُمَّ تُهملُ نفسَك، وهي أعظم عدوٍّ لك، وأشدُّ طغياناً عليك، وضررُك من طغيانها أعظمُ من ضررِك من طغيانِ أهلِك، فإِنَّ غايتَهم أَن يُشوِّشُوا عليك معيشةَ الدُّنيا، ولو عقلتَ لعلمتَ أَنَّ

---

(١) «مختصر منهاج القاصدين» لابن قدامة (٣٧٤، ٣٧٥).

العيشَ عيشُ الآخرةِ، وأَنَّ فيه النعيمَ المقيمَ الذي لا آخِرَ له، ونفسُك التي تُنغِّصُ عليك عيشَك عيشَ الآخرة، فهي أولى بالمعاقبةِ من غيرِها.

فمن حاسب نفسه حتى زَكَت واطمأنت، صَلُحَ قلبه، ومن صَلُح قلبُه فقد صلح الجسدُ كلُّه.

الوسيلة السادسة لإصلاح القلوب

الدعاء

يقولُ ﷺ: «إِنَّ الحلاَلَ بَيِّنٌ، وَإِنَّ الحَرَامَ بَيِّنٌ، وَبَينَهُمَا مُشتَبِهَاتٌ لاَ يَعلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ. فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ استَبرَأَ لِدِينِهِ وَعِرضِهِ، وَمَن وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الحَرَامِ، كَالرَّاعِي يَرعَى حَولَ الحِمَى، يُوشِكُ أَن يَرتَعَ فِيهِ. أَلاَ وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمىً. أَلاَ وَإِنَّ حِمَى اللَّهِ مَحَارِمُهُ، أَلاَ وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضغَةً إِذَا صَلَحَت صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَت، فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلاَ وَهِيَ القَلبُ»(١).

أَجمع العلماءُ على عِظَمِ هذا الحديث، وقال بعضُهمُ هو ثُلُثُ الإسلامِ لما فيه من الفوائدِ العِظام، والتي منها أنَّ العبدَ إذا صَلَحَ قلبُهُ استطاعَ أن يُميزَ بينَ الحلالِ والحرامِ فيسعدَ في الدنيا والآخرة.

ومن أعظمِ وسائِلِ إصلاحِ القلوبِ: الدعاء.

وقد عَلَّمَنا اللهُ عز وجل في كتابه دعاءَ القلوبِ لندعو به، فقال تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾ [آل عمران].

وأخبَرنا سبحانه في كتابه عن دعاءِ الصالحين الذين جاءوا بعدَ الصحابةِ رضي الله عنهم.

فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الحشر].

---

(١) صحيح: رواه مسلم (١٥٩٩).

وقد عَلَّمنا النبيُّ ﷺ في سنتِه دعاءَ القلوبِ.

فكانَ يقولُ ﷺ: «**اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ القُلُوبِ صَرِّف قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ**»(١).

وكانَ يقولُ ﷺ: «**يَا مُقَلِّبَ القُلُوبِ ثَبِّت قَلبِي عَلَى دِينِكَ**»(٢).

وكانَ يقولُ ﷺ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِن فِتنَةِ النَّارِ، وَعَذَابِ النَّارِ، وَفِتنَةِ القَبرِ، وَعَذَابِ القَبرِ، وَشَرِّ فِتنَةِ الغِنَى، وَشَرِّ فِتنَةِ الفَقرِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِن شَرِّ فِتنَةِ المَسِيحِ الدَّجَّالِ، اللَّهُمَّ اغسِل قَلبِي بِمَاءِ الثَّلجِ وَالبَرَدِ، وَنَقِّ قَلبِي مِن الخَطَايَا كَمَا نَقَّيتَ الثَّوبَ الأَبيَضَ مِن الدَّنَسِ، وَبَاعِد بَينِي وَبَينَ خَطَايَايَ كَمَا بَاعَدتَ بَينَ المَشرِقِ وَالمَغرِبِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِن الكَسَلِ وَالمَأثَمِ وَالمَغرَمِ**»(٣).

وكانَ يقولُ ﷺ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي عَبدُكَ وَابنُ عَبدِكَ وَابنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِيَّ حُكمُكَ، عَدلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ، أَسأَلُكَ بِكُلِّ اسمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيتَ بِهِ نَفسَكَ، أَو عَلَّمتَهُ أَحَدًا مِن خَلقِكَ، أَو أَنزَلتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَو استَأثَرتَ بِهِ فِي عِلمِ الغَيبِ عِندَكَ، أَن تَجعَلَ القُرآنَ رَبِيعَ قَلبِي، وَنُورَ صَدرِي، وَجَلَاءَ حُزنِي، وَذَهَابَ هَمِّي**»(٤).

---

(١) **صحيح**: رواه مسلم (٢٦٥٤).

(٢) **صحيح**: رواه الترمذي (٢١٤٠)، وابن ماجه (٣٨٣٤)، وأحمد (١١٢، ٢٥٧)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٦٨٣)، [«صحيح الجامع» (٧٩٨٧)].

(٣) **متفق عليه**: رواه البخاري (٦٣٧٧)، ومسلم (٥٨٩).

(٤) **صحيح**: رواه أحمد (١/٣٩١، ٤٥٢)، وأبو يعلى (٥٢٩٧)، والبزار (١٩٩٤)، وابن حبان(٩٧٢)، [«صحيح الترغيب» (١٨٢٢)].

وكانَ يقولُ ﷺ: «رَبِّ أَعِنِّي وَلَا تُعِن عَلَيَّ، وَانصُرنِي وَلَا تَنصُر عَلَيَّ، وَامكُر لِي وَلَا تَمكُر عَلَيَّ.. اغسِل حَوبَتِي، وَأَجِب دَعوَتِي، وَثَبِّت حُجَّتِي، وَسَدِّد لِسَانِي، وَاهدِ قَلبِي، وَاسلُل سَخِيمَةَ صَدرِي»(١).

وكانَ يقولُ ﷺ: «اللَّهُمَّ إني أسألُك أن ترفعَ ذكري، و تضعَ وِزري، و تُصلِحَ أمري، وتطهرَ قلبي، وَتُحَصِّنَ فرجي، وتُنورَ لي قلبي، وتغفرَ لي ذنبي»(٢).

وكانَ ﷺ يَستعيذُ من شرِّ القُلوبِ.

فيقولُ ﷺ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِن شَرِّ سَمعِي، وَمِن شَرِّ بَصَرِي، وَمِن شَرِّ لِسَانِي، وَمِن شَرِّ قَلبِي»(٣).

وكانَ يقولُ ﷺ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِن قَلبٍ لَا يَخشَعُ، وَمِن دُعَاءٍ لَا يُسمَعُ، وَمِن نَفسٍ لَا تَشبَعُ، وَمِن عِلمٍ لَا يَنفَعُ»(٤).

---

(١) **صحيح**: رواه الترمذي (٣٥٥١)، وأبو داود (١٥١٠)، وابن ماجه (٣٨٣٠)، وأحمد (١/٢٢٧)، [«صحيح الجامع» (٣٤٨٥)].

(٢) **صحيح**: رواه الطبراني في الأوسط (٦٢١٨)، والحاكم (١٩١١)، والبيهقي في «الدعوات الكبير» (٢٥٦)، قال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح غير محمد بن زنبور وعاصم بن عبيد وهما ثقتان [«مجمع الزوائد» (١١/٤٧)].

(٣) **صحيح**: رواه الترمذي (٣٤٩٢)، وأبو داود (١٥٥١) والنسائي (٥٤٤٤)، وأحمد (٣/٤٢٩)، [«صحيح الجامع» (١٢٩٢)].

(٤) **صحيح لغيره**: رواه أبو داود (١٥٤٨)، والنسائي (٥٤٦٧)، وابن ماجه (٢٥٠) من حديث أبي هريرة، و رواه الترمذي (٣٤٨٢)، والنسائي (٥٤٤٢) من حديث عبد الله بن عمرو [«صحيح الترغيب» (١٧١٢)].

فالدعاءُ من أعظمِ وسائلِ إصلاحِ القلوبِ، ولذلك جاءتِ الأَدلةُ في الكتابِ والسنةِ تحثُّ على الدعاءِ ومنها:

قولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر:٦٠].

وقولُه تعالى: ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ [النساء:٣٢].

وقال ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: أَنَا عِندَ ظَنِّ عَبدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا دَعَانِي**»(١).

وقال ﷺ: «**لَيسَ شَيءٌ أَكرَمَ عَلَى اللَّهِ مِن الدُّعَاءِ**»(٢).

وقال ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ حَيِيٌّ كَرِيمٌ، يَستَحيِي إِذَا رَفَعَ الرَّجُلُ إِلَيهِ يَدَيهِ أَن يَرُدَّهُمَا صِفرًا خَائِبَتَينِ**»(٣).

وقال ﷺ: «**مَا مِن مُسلِمٍ يَدعُو بِدَعوَةٍ لَيسَ فِيهَا إِثمٌ وَلَا قَطِيعَةُ رَحِمٍ إِلَّا أَعطَاهُ اللَّهُ بِهَا إِحدَى ثَلَاثٍ؛ إِمَّا أَن تُعَجَّلَ لَهُ دَعوَتُهُ، وَإِمَّا أَن يَدَّخِرَهَا فِي الآخِرَةِ، وَإِمَّا أَن يَكُفَّ عَنهُ مِن السُّوءِ مِثلَهَا**»، قَالُوا: إِذًا نُكثِرُ؟! قَالَ: «**اللَّهُ أَكثَرُ**»(٤).

وقال ﷺ: «**إنَّ الدعاءَ ينفعُ مما نزل ومما لم ينزل؛ فعليكم عبادَ اللهِ بالدعاء**»(٥).

---

(١) **صحيح**: رواه مسلم (٢٦٧٥).

(٢) **حسن**: رواه الترمذي (٣٣٧٠)، وابن ماجه (٣٨٢٩)، وأحمد (٢/٣٦٢)، والبخاري في «الأدب المفرد»(٧١٢)، [«صحيح الترغيب» (١٦٢٩)].

(٣) **صحيح**: رواه الترمذي (٣٥٥٦) واللفظ له، وأبو داود (١٤٨٨)، وابن حبان (٨٧٦)، [«صحيح الترغيب» (١٦٣٥)].

(٤) **حسن صحيح**: رواه أحمد (٣/١٨)، [«صحيح الترغيب» (١٦٣٣)].

(٥) **حسن لغيره**: رواه الترمذي (٣٥٤٨)، والحاكم (١٨١٥)، [«صحيح الترغيب» (١٦٣٤)].

والدعاءُ ينفعُ إذا توفرتِ الشروطُ وانتفَتِ الموانعُ.

وشروطُ الدعاء:

الشرطُ الأولُ: الإخلاصُ في الدعاء.

قال تعالى: ﴿فَٱدْعُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [غافر:١٤].

وقال ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما: «**إذا سألتَ فاسألِ الله**»(١).

الشرطُ الثاني: المتابعةُ لرسولِ الله ﷺ.

وذلك لأنَّ الدعاءَ من أعظمِ العباداتِ، ومن شروطِ قبولِ العبادةِ: الإخلاصُ لله والمتابعةُ للرسولِ ﷺ.

قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف].

وقال ﷺ: «**مَن عَمِلَ عَمَلاً لَيسَ عَلَيهِ أَمرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**»(٢).

الشرطُ الثالث: الثقةُ باللهِ واليقينُ بالإجابة.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فاطر].

---

(١) **صحيح**: رواه الترمذي (٢٥١٦)، وأحمد (١/٣٠٣)، والطبراني في «الأوسط» (٥٤١٧)، [«صحيح الجامع» (٧٩٥٧)]. .

(٢) **صحيح**: رواه مسلم (١٧١٨).

وقال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾ [الحجر].

وقال ﷺ: «**ادعُوا اللَّهَ وَأَنتُم مُوقِنُونَ بِالإِجَابَةِ**»(١).

الشرطُ الرابعُ: حضورُ القلبِ، والخشوعُ والرغبةُ فيما عندَ اللهِ من الثوابِ، والرهبةُ مما عندَه من العقابِ.

فاللهُ عز وجل أثنى على عبادِهِ الصالحينَ الذين يدعونه بالرغبةِ والرهبةِ.

قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء].

وقال ﷺ: «**ادعُوا اللَّهَ وَأَنتُم مُوقِنُونَ بِالإِجَابَةِ، وَاعلَمُوا أَنَّ اللَّهَ لَا يَستَجِيبُ دُعَاءً مِن قَلبٍ غَافِلٍ لَاهٍ**»(٢).

الشرطُ الخامسُ: العزمُ والجزمُ في الدعاء.

ولهذا نهى ﷺ عن الاستثناءِ في الدعاء.

فقال: «**إذا دعا أحدُكُم فليعزمْ في الدُّعاءِ ولا يقُل: اللّٰهم إن شئتَ فأعطِني، فإنَّ اللهَ لا مُستكْرِهَ له**»(٣).

---

(١) **حسن لغيره**: رواه الترمذي (٣٤٧٩)، والبزار (١٠٠٦١)، والطبراني في «الأوسط» (٥١٠٩)، والحاكم (١٨١٧)، [«صحيح الترغيب» (١٦٥٣)].

(٢) **حسن لغيره**: رواه الترمذي (٣٤٧٩)، والبزار (١٠٠٦١)، والطبراني في «الأوسط» (٥١٠٩)، والحاكم (١٨١٧)، [«صحيح الترغيب» (١٦٥٣)].

(٣) **متفق عليه**: رواه البخاري (٦٣٣٨)، ومسلم (٢٦٧٨).

وقال ﷺ: «إِذَا دَعَا أَحَدُكُم فَلَا يَقُل: اللَّهُمَّ اغفِر لِي إِن شِئتَ، وَلَكِن لِيَعزِم المَسأَلَةَ، وَليُعَظِّم الرَّغبَةَ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَتَعَاظَمُهُ شَيءٌ أَعطَاهُ»(١).

وأما موانعُ الدعاء:

أولاً: استعمالُ الحرامِ، أكلاً وشرباً، وَلُبساً، وتغذيةً.

وهذا واضحٌ في كثيرٍ من المسلمين اليوم، ولذلك تراهم يدعون ليلاً ونهاراً وفي صلاتهم ولا يُستَجابُ لهم.

وكيف يُستجابُ لهم؟

والنبيُّ ﷺ يقولُ: «أَيُّهَا النَّاسُ! إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لاَ يَقبَلُ إِلاَّ طَيِّبًا، وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ المُؤمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ المُرسَلِينَ فَقَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًا﴾ [المؤمنون:٥١]، وَقَالَ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾ [البقرة:١٧٢]، ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ، أَشعَثَ أَغبَرَ، يَمُدُّ يَدَيهِ إِلَى السَّمَاءِ: يَا رَبِّ يَا رَبِّ! وَمَطعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بِالحَرَامِ، فَأَنَّى يُستَجَابُ لِذَلِكَ؟!»(٢).

ثانياً: أن يدعوَ المسلمُ بإثمٍ أو قطيعةِ رحمٍ أو يستعجلَ الإجابةَ.

قال ﷺ: «لاَ يَزَالُ يُستَجَابُ لِلعَبدِ مَا لَم يَدعُ بِإِثمٍ أَو قَطِيعَةِ رَحِمٍ، مَا لَم يَستَعجِل». قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَا الاِستِعجَالُ؟ قَالَ: «يَقُولُ: قَد دَعَوتُ وَقَد دَعَوتُ فَلَم أَرَ يَستَجِيبُ لِي، فَيَستَحسِرُ عِندَ ذَلِكَ وَيَدَعُ الدُّعَاءَ»(٣).

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٦٣٣٩)، ومسلم (٢٦٧٩).

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٠١٥).

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٧٣٥).

ثالثاً: تركُ الأمرِ بالمعروفِ والنهيِّ عن المنكر.

قال ﷺ: «**وَالَّذِي نَفسِي بِيَدِهِ لَتَأمُرُنَّ بِالمَعرُوفِ وَلَتَنهَوُنَّ عَنِ المُنكَرِ أَو لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَن يَبعَثَ عَلَيكُم عِقَابًا مِنهُ، ثُمَّ تَدعُونَهُ فَلَا يُستَجَابُ لَكُم**»(1).

وإذا تركتِ الأمةُ الأمرَ بالمعروفِ والنهيَ عن المنكرِ كثرتِ المعاصي والذنوب، وكَثْرَةُ المعاصي والذنوبِ تمنعُ من إجابةِ الدعاء.

وكيف نرجو إجابةً لدعاءٍ قد سَدَدْنا طريقَها بالذنوبِ

رابعاً: كثرةُ المخالفاتِ الشرعية.

قال رجلٌ لإبراهيمَ بنِ أدهمَ: (قال اللهُ عز وجل: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ [غافر:٦٠]، فما لنا ندعو فلا يُستَجابُ لنا؟ فقال إبراهيم: من أجلِ خمسةِ أشياءَ. قال: وما هي؟ قال:

١- عرفتمُ اللهَ فلم تُؤدوا حقَّه.

٢- وقرأتمُ القرآنَ فلم تعملوا بما فيه.

٣- وقلتم: نحبُّ الرسولَ وتركتُم سنتَه.

٤- وقلتم: نلعنُ إبليسَ، وأطعتموه.

٥- وتركتم عيوبَكم وأخذتم في عيوبِ الناس)(2).

---

(1) **حسن لغيره**: رواه الترمذي (٢١٦٩)، وأحمد (٥/٣٨٨)، [«صحيح الترغيب» (٢٣١٣)].

(2) انظر: «الدعاء المأثور» للطرطوشي (ص١٢٥، ١٢٦).

فهذه مخالفات شرعيةٌ وقعَ فيها كثيرٌ من المسلمين، ومع ذلك يقولون فما لنا ندعو ولا يُستجابُ لنا؟!

- فكم من المسلمين عرفوا حقَّ اللهِ وهو عبادتُه وحدَهُ لا شريكَ له، ومعَ ذلك تورطوا في الشركِ الأصغرِ والأكبرِ فأنى يُستجابُ لهم؟

- وكم من المسلمين يقرؤون القرآنَ ولم يعملوا بما فيه، فالله يأمرُ في كتابه بإقامةِ الصلاةِ فيقول: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [المزَّمل:٢٠]، وكم من المسلمين ضيَّعوا الصلاة: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ﴾ [مريم:٥٩]، والله عز وجل ينهى في كتابه عن الرِّبا فيقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ﴾ [آل عمران:١٣٠]، وكم من المسلمين أكلَ الرِّبا، فأنى يستجابُ لهم؟

- وكم من المسلمين يدعي محبةَ النبيِّ ﷺ وتَرَك سنتهُ، بل هناك من المسلمين مَن يُعادي سنتَهُ وهديَه ﷺ؟!

- وكم من المسلمين مَن يلعنُ إبليسَ وهوَ يُطيعُهُ، واللهُ عز وجل يوبخُ هؤلاءِ فيقولُ لهم: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢۚ بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا ٥٠﴾ [الكهف]، ويخبرُنا ربُّنا جل وعلا عن قولِ الشيطانِ لهؤلاءِ في الآخرةِ فيقول سبحانه: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم

بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٢)﴾ [إبراهيم].

فالشيطانُ أمرَ بالتبرج، واللهُ عز وجل أمرَ بالحجاب.

فكم من المسلمين عصى اللهَ واستجابَ للشيطان؟

وكم منَ المسلمين تركَ عيوبَه وانشغلَ بعيوبِ الناس؟

والنبيُّ ﷺ يقول لمن أرادَ النجاة: «**أَمسِك عَلَيكَ لِسَانَكَ، وَليَسَعكَ بَيتُكَ، وَابكِ عَلَى خَطِيئَتِكَ**»(١).

ويقول ﷺ: «**يَا مَعشَرَ مَن آمَنَ بِلِسَانِهِ وَلَم يَدخُلِ الإِيمَانُ قَلبَهُ! لا تَغتَابُوا المُسلِمِينَ، وَلا تَتَّبِعُوا عَورَاتِهِم؛ فَإِنَّهُ مَنِ اتَّبَعَ عَورَاتِهِم يَتَّبِعِ اللَّهُ عَورَتَهُ، وَمَن يَتبعِ اللَّهُ عَورَتَهُ يَفضَحْهُ فِي بَيتِهِ**»(٢).

بل هناك من المسلمين من لا يخافُ اللهَ فيرمي أخاهُ المسلم بما هو منه بريء .. فأنى يستجابُ لهؤلاء؟

فمن أراد أن يُصلحَ اللهُ قلبَهُ فعليه بالدعاءِ بشروطِه، والابتعادِ عن موانعِهِ، سائلاً المولى في علاه أن يُصلحَ قلوبَنا وأن يستجيبَ دعاءَنا.

---

(١) **صحيح لغيره**: رواه الترمذي (٢٤٠٦)، وأحمد (٥/٢٥٩)، والطبراني في «الكبير» (٧٤١)، [«صحيح الترغيب» (٢٧٤١)].

(٢) **حسن صحيح**: رواه أبو داود (٤٨٨٠)، وأحمد (٤/٤٢٠)، وأبو يعلى (٧٤٢٣)، [«صحيح الجامع» (٧٩٨٤)].

الوسيلةُ السابعة لإصلاح القلوب

استقامةُ اللسانِ

يقولُ اللهُ عز وجل: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء].

ويقول سبحانه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ [ق:٣٧] -أي: قلب سليم-.

ويقولُ ﷺ: «**أَلاَ وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضغَةً، إِذَا صَلَحَت صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَت فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلاَ وَهِيَ القَلبُ**»(١).

ويقول ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ لاَ يَنظُرُ إِلَى صُوَرِكُم وَأَموَالِكُم، وَلَكِن يَنظُرُ إِلَى قُلُوبِكُم وَأَعمَالِكُم**»(٢).

أدلةٌ من الكتابِ والسنةِ تُصرحُ بأَن سعادةَ العبدِ في الدنيا والآخرة لا تكونُ إلا بصلاحِ قلبِه، فعلى العاقلِ أن يعملَ ليلاً وَنهاراً لإِصلاحِ قلبِه، ومن أعظمِ وسائلِ إصلاحِ القلوبِ:

استقامة اللسان:

يقولُ ﷺ: «**لَا يَستَقِيمُ إِيمَانُ عَبدٍ حَتَّى يَستَقِيمَ قَلبُهُ، وَلَا يَستَقِيمُ قَلبُهُ حَتَّى يَستَقِيمَ لِسَانُهُ**»(٣).

---

(١) صحيح: رواه مسلم (١٥٩٩).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٥٦٤).

(٣) حسن: رواه أحمد (١٩٨/٣)، [«صحيح الترغيب» (٢٨٦٥)].

فاستقامةُ اللسانِ تؤدي إلى استقامةِ القلبِ، (أي: صلاحه)، واستقامةُ القلبِ يؤدي إلى استقامةِ العبدِ على إيمانِه.

أي أنَّ استقامة اللسانِ تؤدي إلى استقامةِ الجَسدِ كُلِّه، واعوجاجُ اللسانِ يؤدي إلى اعوجاجِ الجسدِ كلِّه.

ولذلك قال ﷺ: «**إِذَا أَصبَحَ ابنُ آدَمَ فَإِنَّ الأَعضَاءَ كُلَّها تُكَفِّرُ اللِّسَانِ**» -أي تخضعُ وتَذلُّ- «**فتَقُولُ:**» -أي الأعضاءُ- «**اتَّقِ اللَّهَ فِينَا، فَإِنَّما نحنُ بكَ، فإِن استَقَمتَ استَقَمنَا، وَإِنِ اعوَجَجتَ اعوَجَجنَا**»(١). والقلبُ أهمُّ أعضاءِ الجسد.

ولما كان أكثرُ خطايا ابنِ آدمَ بسببِ لسانِه، كما أخبرَ النبيُّ ﷺ فقال: «**أكثرُ خطايا ابنِ آدمَ في لسانه**»(٢).

فقد اهتمَّ النبيُّ ﷺ بكلِّ ما يعملُ على استقامةِ اللسانِ، ويظهرُ ذلكَ من وصايا النبيِّ ﷺ لكلِّ مَن سأله.

الوصيةُ الأولى: لما سأله رجلٌ عن أفضلِ المسلمِينَ، أوصاه باستقامةِ اللسان.

عن أبي موسى رضي الله عنه قال: (قلتُ: يا رسولَ الله! أيُّ المسلمينَ أفضلُ؟

قال: «**مَن سَلِمَ المُسلِمُونَ مِن لِسَانِهِ وَيَدِهِ**»(٣)).

---

(١) **حسن:** رواه الترمذي (٢٤٠٧)، وعبد بن حميد (٩٧٧)، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/٣٠٩)، [«صحيح الترغيب» (٢٨٧١)].

(٢) **صحيح:** رواه الطبراني في«الكبير» (١٠٤٤٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/١٠٧)، والبيهقي في «الشعب» (٤٥٨٤)، [«السلسلة الصحيحة» (٥٣٤)].

(٣) **متفق عليه:** رواه البخاري (١١)، ومسلم (٤٢).

الوصيةُ الثانيةُ: ولما سأله رجلٌ عن أفضلِ الأعمالِ، أوصاه باستقامةِ اللسانِ.

عن عبد الله بن مسعودٍ ﵁ قال: (سألتُ رسولَ اللهِ ﷺ فقلت: يا رسولَ الله! أيُّ الأعمالِ أفضلُ؟ قال: «الصلاةُ على ميقاتها».

قلت: ثم ماذا يا رسولَ الله؟! قال: «**أن يسلمَ الناسُ من لسانِك**»[(١)]).

الوصية الثالثة: ولما سأله رجلٌ عن النجاةِ، أوصاهُ باستقامة اللسانِ.

عن عقبةَ بن عامرٍ ﵁ قال: (قلت: يا رسولَ الله! ما النجاةُ؟ قال: «**أَمسِك عليك لسانكَ، وليسَعْكَ بيتُك، وابكِ على خطيئتِك**»[(٢)]).

الوصيةُ الرابعةِ: ولما طلبَ منه ﷺ رجلٌ أمراً يعتصمُ به، أَمَره باستقامةِ اللسان.

عن سفيانَ بنِ عبدِ الله الثقفيِّ ﵁ قال: (قلتُ: يا رسولَ الله! حَدِّثني بأمر أعتصمُ به، قال: «**قل: ربيَ الله، ثم استقم**»، قال: قلت: يا رسولَ الله! ما أخوفُ ما تخافُ علي؟ فأخذَ بلسانِ نفسِه ثم قال: «**هذا**»[(٣)]).

---

(١) **صحيح:** رواه الطبراني في «الكبير» (٩٨٠٢)، والبيهقي في «الشعب» (٤٥٧٩)، [«صحيح الترغيب» (٢٨٥٢)].

(٢) **صحيح لغيره:** رواه الترمذي (٢٤٠٦)، وأحمد (٥/٢٥٩)، والطبراني في «الكبير» (٧٤١)، [«صحيح الترغيب» (٢٧٤١)].

(٣) **حسن صحيح:** رواه الترمذي (٢٤١٠)، وابن ماجه (٣٩٧٢)، وأحمد (٣/٤١٣)، [«صحيح الترغيب» (٢٨٦٢)].

الوصيةُ الخامسةُ: ولما طلبَ منه ﷺ رجلٌ وصيةً، أوصاهُ باستقامةِ اللسانِ.

عن أسودَ بنِ أصرمَ رضي الله عنه قال: قلتُ: يا رسولَ الله! أوصني.

قال: «**تملكُ يدَك**».

قلتُ: فما أملكُ إذا لم أملكْ يدي؟

قال: «**تملكُ لسانكَ**».

قال: قلت: فماذا أملكُ إذا لم أملكْ لساني؟

قال: «**لا تَبسُطْ يَدكَ إلا إلى خير، ولا تقلْ بلسانك إلا معروفاً**»(١).

وعن معاذٍ رضي الله عنه أنه قال: (يا رسول الله! أوصني.

قال: «**اعبدِ اللهَ كأنك تراه، واعْدُدْ نفسَكَ في الموتى، وإن شئتَ أنبأتُكَ بما هو أملكُ بك من هذا كُلِّه؟**».

قال: «هذا» وأشارَ بيدِه إلى لسانِه)(٢).

الوصيةُ السادسةُ: ولما طلبَ رجلٌ منه ﷺ عملاً يُدخِلُه الجنةَ، ويُباعدُه عن النارِ، أوصاه باستقامةِ اللسانِ.

قال معاذٌ رضي الله عنه يا رسولَ اللهِ! أخبرنِي بعملٍ يدخلُني الجنة، ويباعدُني من النار؟

(١) **صحيح:** رواه ابن أبي الدنيا في «الورع» (١١٢)، والطبراني في «الكبير» (٨١٨)، [«صحيح الترغيب» (٢٨٦٧)].

(٢) **حسن صحيح:** رواه ابن أبي الدنيا في «الصمت» (٢٢) [«صحيح الترغيب» (٢٨٧٠)].

قال: «**لقد سألتَ عن عظِيمٍ، وإنه ليسيرٌ على من يَسَّرَه اللهُ عليه**» فَبَعدَ أن أمره بأركانِ الإسلامِ، وَدَلَّهُ على أبوابِ الخيرِ، قال له: «**ألا أخبرُك بمَلاكِ ذَلك كلِّه؟**».

قلت: بلى يا رسول الله!

قال: «**كُفَّ عليكَ هذا!**» وأشارَ إلى لسانِه.

قلت: يا نبيَّ اللهِ! وإنا لمُؤاخَذون بما نتكلمُ به؟

قال: «**ثَكِلَتكَ أمُّك، وهل يَكُبُّ الناسَ في النارِ على وجوههم، -أو قال: عَلى مناخرِهم، إلا حصائدُ ألسنتهم؟**»(١).

• ولذلكَ ردَّ النبيُّ ﷺ شهادةَ مَن شهِدَ لمن مات ولو في أرضِ المعركةِ بالجنة أو بالشهادةِ؛ وعَلَلَ ذلكَ ﷺ بأنه -أي الميتَ- ربما لم يستقمْ لسانُه. لأَنَّهُ تكلمَ فيما لا يَعنيه.

• عن أنسٍ ﷺ قال: (تُوفي رجلٌ، فقال رجلٌ آخرُ -ورسولُ الله ﷺ يسمع- أَبشِر بالجنة! فقالَ رسولُ الله ﷺ: «**أَوَلا تدري؟! فلعلَّهُ تكلمَ فيما لا يَعنيه**»(٢).

• وعنه أيضاً قال: (استُشهِدَ رجلٌ منا يومَ أُحُدٍ، فوُجِدَ على بَطنِهِ صخرةٌ مربوطةٌ من الجوعِ، فَمَسَحَت أمُّه الترابَ عن وجهِه، وقالت: هنيئاً لكَ يا بُنيَّ الجنةُ! فقالَ النبيُّ ﷺ: «**ما يُدريكِ؟! لعله كانَ يتكلمُ فيما لا يعنيه**»(٣).

---

(١) **صحيح لغيره**: رواه الترمذي (٢٦١٦)، وابن ماجه (٣٩٧٣)، والنسائي في «الكبرى» (١١٣٣٠)، وأحمد (٥/ ٢٣١)، [«صحيح الترغيب» (٢٨٦٦)].

(٢) **صحيح لغيره**: رواه الترمذي (٢٣١٦)، [«صحيح الترغيب» (٢٨٨٢)].

(٣) **صحيح لغيره**: رواه البيهقي في «الشعب» (٤٦٥٦)، [«صحيح الترغيب» (٢٨٨٣)].

• وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (قُتِلَ رجلٌ على عهدِ رسولِ اللهِ ﷺ شهيداً، فبكت عليه باكيةٌ، فقالت: واشهيداه!).

فقال ﷺ: «**ما يُدريكِ أنهُ شهيدٌ؟! لعله كان يتكلمُ فيما لا يَعنيه**»[1].

ولذلك لا يجوزُ لَنا شرعاً أن نقطعَ لأحدٍ ماتَ بالجنة أو بالشهادةِ؛ ولو قُتل في المعركة إلا بِنصٍّ منَ الكتابِ أو السنة. لأنَّ مَن شَهدنا له بالجنةِ أو بالشهادةِ ربما يكونُ قد تكلمَ فيما لا يعنيه.

وتأمَّلْ حالَ المسلمينَ اليومَ! فتراهُم بسببِ جَهلِهم في الدينِ يتساهلونَ في إطلاقِ لفظِ (الشهيد) على كُلِّ مَن قُتِلَ منهم في معركةٍ، معَ أنَّ المطلوبَ منهم شرعاً أن لا يقطعوا لأحدٍ مات أو قُتل بالشهادةِ، بل يقولوا: نَحسَبُه عندَ اللهِ شهيداً، ولا نزكي على الله أحداً.

ولكن بسببِ الجهلِ بالدين، والتعصبِ البغيضِ نسمعُ من يحكمُ على مَن يُقتَلُ من حزبه أو جماعتِه بالشهادةِ، حتى ولو كان هذا القتال بين المسلمين أنفسِهم.

والنَّبيُّ ﷺ يقول: «**إِذَا التَقَى المُسلِمَانِ بِسَيفَيهِمَا، فَالقَاتِلُ وَالمَقتُولُ فِي النَّارِ**» قُلتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! هَذَا القَاتِلُ فَمَا بَالُ المَقتُولِ؟ قَالَ ﷺ: «**إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتلِ صَاحِبِهِ**»[2].

---

(١) **صحيح لغيره:** رواه البيهقي في «الشعب» (٤٦٥٦)، [«صحيح الترغيب» (٢٨٨٤)].

(٢) **متفق عليه:** رواه البخاري (٣١)، ومسلم (٢٨٨٨) واللفظ للبخاري.

فَأَمسِكْ عليك لسانَك يا عبدَ الله! ولا تتكلم، فيما لا يَعنيك ليستقيمَ لسانُكَ، فيستقيمَ قلبُك، فتستقيمَ على إيمانِكَ، فتدخلَ الجنةَ.

• فلما اهتمَّ النبيُّ ﷺ بأمرِ استقامةِ اللسانِ، كان الصحابةُ رضي الله عنهم أحرصَ الناسِ على استقامةِ ألسنتِهم.

ومن الأمثلةِ على ذلك:

• فهذا أبو بكرٍ الصديقُ رضي الله عنه دخلَ عليهِ عمرُ بنُ الخطابِ رضي الله عنه وهو يَجبِذُ -أي: يُمسكُ- لسانَه! فقال له عمرُ: (مَه! غفرَ اللهُ لك! فقال أبو بكرٍ له: إنَّ هذا أوردني المواردَ)(١).

• وهذا ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما كانَ يأخذُ بلسانِه ويقول: (ويحك! قل خيراً تغنم! أو أمسكْ عن شرٍّ تسلم! وإلا واللهِ ستندم)(٢).

• وهذا ابنُ مسعودٍ رضي الله عنه يقول: (والله الذي لا إِلَهَ إلا هو! ما على وجهِ الأرضِ شيءٌ أحوجُ إلى طولِ سجنٍ من لسانٍ)(٣).

• وارتقى ابنُ مسعودٍ يوماً على الصفا، ثم أخذَ بلسانِه وقال: يا لسانُ! قل خيراً تغنم، واسكت عن شَرٍّ تسلم، من قبل أن تندمَ؛ ثم قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**أكثرُ خطايا ابنِ آدمَ في لسانِه**»(٤).

---

(١) **صحيح**: رواه النسائي في «الكبرى» (١١٨٤١)، والبزار (٨٤)، وأبو يعلى (٥)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣٣/١)، [«صحيح الترغيب» (٢٨٧٣)].

(٢) رواه البيهقي في «الشعب» (٤٥٩٠)، وأبو نعيم في «الحلية» (١٠٧/٤).

(٣) **صحيح موقوف**: رواه الطبراني في «الكبير» (٨٧٤٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (١٣٤/١)، [«صحيح الترغيب» (٢٨٥٨)].

(٤) **إسناد جيد**: رواه الطبراني في «الكبير» (١٠٤٤٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (١٠٧/٤)، والبيهقي في «الشعب» (٤٥٨٤)، [«صحيح الترغيب» (٢٧٤١)].

• فمن استقامَ لسانُه استقامَ قلبُه، ومَن استقامَ قلبُه استقامت جوارِحُه على أمرِ اللهِ، ومن استقامت جوارِحُه على أمر الله قَطَفَ ثمارَ الاستقامةِ في الدنيا والآخرة، والتي منها:

أولاً: الثباتُ على الدين.

ويظهرُ هذا من قولِه ﷺ: «**قل ربيَ اللهُ ثم استقم**»[1] لِمن سألَه أن يُحدِّثَهُ بأمرٍ يعتصمُ به.

كيف لا؟! واللهُ سبحانه يقولُ لرسوله ﷺ: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطۡغَوۡاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ١١٢﴾ [هود].

ويقولُ سبحانه آمِراً عبادَه بالاستقامة: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ﴾ [فُصِّلَت:٦].

ولذلك مَن أمسَكَ لسانَه في زمنِ الفتنِ نجا. كيف لا؟! والنبيُّ ﷺ يقولُ: «**مَن صَمَتَ نجا**»[2].

ثانياً: الحياةُ الطيبةُ في الدنيا والآخرة.

قال تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا ١٦﴾ [الجن].

(١) **حسن صحيح**: رواه الترمذي (٢٤١٠)، وابن ماجه (٣٩٧٢)، وأحمد (٣/٤١٣)، [«صحيح الترغيب» (٢٧٦٢)].

(٢) **صحيح**: رواه الترمذي (٢٥٠١)، وأحمد (٢/١٥٩)، والدارمي (٢٧٥٥)، [«صحيح الترغيب» (٢٧٨٤)].

والطريقةُ هي طريقةُ محمدٍ ﷺ التي قال عنها: «**مَن رغِبَ عن سنتي فليسَ مني**» وسنتي أي طريقتي. وقال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [النحل].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ ﴾ -أي: استقاموا على أمرِ الله- ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [الأعراف].

ثالثاً: البُشرى الطيبةُ عند الموت.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ -أي: عند الموت- ﴿أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [فُصِّلَت].

فَأبشِر يا مَن أمسكتَ لسانَك عن الخوضِ في الباطِل، وأمسكتَ لسانَكَ عن الغيبةِ والنميمةِ، وأمسكتَ لسانكَ على القولِ على اللهِ بغيرِ علمٍ، وأمسكتَ لسانَك عن الكذبِ، وأمسكتَ لسانَك عن تكفير المسلمين، أبشر بالحياةِ الطيبةِ في الدنيا والآخرة.

رابعاً: التمكينُ في الأرض والرِّفعةُ.

قال تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ -أي: استقاموا على أمر الله- ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ

دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ﴾ -بشرطِ الاستقامةِ على التوحيدِ- ﴿يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ﴾ [النور:٥٥].

فهذا يوسفُ عليه السلام، لما استقامَ على أمرِ اللهِ منَ التوحيدِ والعملِ الصالحِ، ودعا إليهما، مَكَّنه اللهُ في الأرض.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾ [يوسف].

فلما استقامَ لسانهُ استقامَ قلبُه، ولما استقامَ قلبُه استقامت جوارحُه فمكنه الله تعالى في الأرض.

وهذا لقمانُ آتاه اللهُ الحكمةَ ورفعَه لأنه اجتهدَ على لسانِه حتى استقام.

يقول ابنُ جريرٍ رحمه الله: (كان لقمانُ عبداً أسودَ غليظَ الشفتين، مُصفحَ القدمين، فأتاه رجلٌ وهو في مجلسِ أناسٍ يحدثهم، فقال له الرجلُ: ألستَ الذي كنتَ ترعى معي الغنمَ في مكانِ كذا وكذا؟! قال: نعم!

فقال الرجلُ: فما بلغَ بكَ ما أرى؟! -أي ما الذي أوصلك إلى هذه المكانةِ العالية-

قال لقمانُ: صِدقُ الحديثِ، والصَّمتُ عما لا يَعنيني)[1].

(١) «تفسير الطبري» (١٨/٥٤٨) و«ابن كثير» (٦/٣٣٤).

خامساً: يُظِلُّهم اللهُ في ظلِّ عَرشِه يومَ لا ظِلَّ إلا ظِلُّه.

قال ﷺ: «**سَبعَةٌ يُظِلُّهُم اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَومَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ، الإِمَامُ العَادِلُ، وَشَابٌّ نَشَأَ بعِبَادَةِ الله، وَرَجُلٌ قَلبُهُ مُعَلَّقٌ فِي المَسَاجِدِ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجتَمَعَا عَلَيهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيهِ، وَرَجُلٌ دعته امرَأَةٌ ذَاتُ مَنصِبٍ وَجَمَالٍ، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخفَاهَا حَتَّى لاَ تَعلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَت عَينَاهُ**»(1).

فهؤلاء جميعاً استقامت ألسنتُهم، فاستقامَت قلوبُهم، فاستقامت جوارحُهم على أمرِ الله، فأظلهم اللهُ في ظلِّه يومَ لا ظلَّ إلا ظلُّه.

سادساً: الفوزُ بالجنةِ.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الأحقاف].

وقال رجلٌ: يا رسولَ الله! إنَّ فلانةً يُذكَرُ من قلةِ صيامِها، وصدقتِها، وصلاتِها .. ولا تؤذي جيرانَها بلسانِها -أي: استقامَ لسانُها-.

قال ﷺ: «**هي في الجنة**»(2).

فاللسانُ بمثابةِ القائدِ الأعلى لأعضاءِ الجسدِ؛ إنِ استقامَ استقامت، وإنِ استقامَت الأعضاءُ على أَمرِ اللهِ سَعِدَ الإنسانُ في الدنيا والآخرة.

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري (١٤٢٣)، ومسلم (١٠٣١).

(٢) **صحيح**: رواه أحمد (٢/ ٤٤٠)، [«صحيح الترغيب» (٢٥٦٠)].

وإن اعوَجَّ اللسانُ، اعوَجَّتِ الأعضاءُ كُلُّها، وإن اعوجَّتِ الأعضاءُ شَقِيَ العبدُ في الدنيا والآخرة.

وذلك:

أولاً: لأنَّ باللسانِ قد يَكفُرُ الإنسانُ ويخرجُ من الإسلام.

قال تعالى: ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ ﴾ [التوبة: ٧٤].

ثانياً: لأنَّ باللسانِ يكذبُ الإنسانُ، ويتحرى الكذبَ حتى يُكتبَ عندَ الله كذاباً.

قال ﷺ: «**وَإِيَّاكُم وَالكَذِبَ، فَإِنَّ الكَذِبَ يَهدِي إِلَى الفُجُورِ، وَإِنَّ الفُجُورَ يَهدِي إِلَى النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ ليَكذِبُ وَيَتَحَرَّى الكَذِبَ حَتَّى يُكتَبَ عِندَ اللَّهِ كَذَّابًا**»(١).

ثالثاً: لأنَّ باللسانِ تُسفكُ الدماءُ.

فاللسانُ مفتاحُ الدماءِ، به تقعُ العداوةُ والبغضاءُ بينَ الناس، وبه تكونُ الغيبةُ والنميمةُ، وكلُّ ذلك ينتهي بسَفْكِ الدماءِ.

عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال: خرجَ النبيُّ ﷺ من بعض حيطانِ المدينةِ فسَمِعَ صوتَ إنسانَينِ يُعَذَّبان في قُبُورِهما، فقال: «**يُعَذَّبَانِ وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرةٍ، وإنه لكبيرٌ، كَانَ أَحَدُهُمَا لَا يَستَتِرُ مِن البَولِ، وَكَانَ الآخَرُ يَمشِي بِالنَّمِيمَةِ**»(٢).

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري (٦٠٩٤)، ومسلم (٢٦٠٧).

(٢) **صحيح**: رواه البخاري (٦٠٥٥).

قال ابنُ حجرٍ في الفتح: («لطيفةٌ»: أبدى بعضُهم للجمع بين هاتين الخصلتين مناسبةً، وهي أن البرزخَ مقدِّمةُ الآخرةَ؛ وأولُ ما يُقضى فيه يومَ القيامةِ من حقوقِ اللهِ، الصلاةُ، ومن حقوقِ العبادِ، الدماءُ، ومفتاحُ الصلاةِ التطهرُ من الحدثِ والخَبَثِ، ومفتاحُ الدماءِ الغيبةُ، والسعيُ بينَ الناس بالنميمةِ يَنْشُرُ الفِتَنَ التي يُسفَكُ بسببها الدماءُ)(1).

وقال ابنُ عباس رضي الله عنه: في قوله تعالى: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾﴾ [المَسَد]:أنها كانت تمشي بالنميمةِ.

وقال ابن قتيبةَ: فَشَبَّهوا النميمة بالحطب، والعداوةَ والشحناءَ بالنارِ لأنهما يقعان بالنميمةِ كما تُلهِبُ النارُ الحطبَ.

وما يحدثُ في بلاد المسلمين اليومَ من سفكٍ للدماءِ؛ إنما هو بسببِ العداوةِ والبغضاءِ التي فَرَّقَت بينهم بالنميمة التي يقومُ بها اللسانُ، فاللسانُ مفتاحُ الدماءِ ومفتاحُ كلِّ شرٍّ.

رابعاً: لأنَّ باللسانِ يَحلُّ بالإنسانِ سخطُ الله.

قال ﷺ: «**وإِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِن سَخَطِ الله، ما كان يظنُّ أن تبلغَ ما بلغتْ، يَكتُبُ اللَّهُ له بها سَخَطَهُ إِلَى يَومِ يَلقَاهُ**»(2).

---

(1) «فتح الباري» (١٠/٤٧٢).

(2) حسن: رواه الترمذي (٢٣١٩)، وابن ماجه (٣٩٦٩)، والنسائي في«الكبرى»، وأحمد (٣/٤٦٩)، [«صحيح الترغيب» (٢٨٧٨)].

خامساً: لأنَّ باللسانِ يدخلُ الإنسانُ النار.

قال ﷺ: «**إِنَّ العَبدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مَا يَتَبَيَّنُ فِيهَا؛ يَزِلُّ بِهَا في النَّارِ أَبعَدَ مَا بَينَ المَشرِقِ وَالمَغرِبِ**»(١).

وقال ﷺ لمعاذِ بن جبل رضي الله عنه: «**ثَكِلَتك أُمُّك، وهل يَكُبُّ الناسَ في النارِ على وجوهِهم إلا حصائدُ ألسنتِهم؟!**»(٢).

يقولُ أَبُو هُرَيرَةَ رضي الله عنه: (سَمِعتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**كَانَ رَجُلاَنِ فِى بَنِي إِسرَائِيلَ مُتواخِيينِ، فكَانَ أَحدُهُمَا يُذنِبُ وَالآخَرُ مُجتَهِدٌ فِى العِبَادَةِ، فكَانَ لاَ يَزَالُ المُجتَهِدُ يَرَى الآخَرَ عَلَى الذَّنبِ فَيَقُولُ: أَقصِر، فَوَجَدَهُ يومًا عَلَى ذَنبٍ فقَالَ لَهُ: أَقصِر، فقَالَ: -أي: المذنبُ- خَلِّنِي وَرَبِّي، أَبُعِثتَ عَلَيَّ رَقِيبًا؟ فقَالَ -أي: المجتهدُ في العبادة-: وَاللَّهِ لاَ يَغفِرُ اللَّهُ لَكَ، أَو لاَ يُدخِلُكَ اللَّهُ تعالى الجَنَّةَ، فَقُبِضَ أَروَاحُهُمَا فَاجتَمَعَا عِندَ رَبِّ العَالَمِينَ.**

فَقَالَ لِهَذَا المُجتَهِدِ: أَكُنتَ بِى عَالِمًا؟ أَو كُنتَ عَلَى مَا فِي يَدِي قَادِرًا؟

وَقَالَ لِلمُذنِبِ: اذهَب فَادخُلِ الجَنَّةَ بِرَحمَتِي،

وَقَالَ لِلآخَرِ: اذهَبُوا بِهِ إِلَى النَّارِ».

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري (٦٤٧٧)، ومسلم (٢٩٨٨) واللفظ له.

(٢) **صحيح لغيره**: رواه الترمذي (٢٦١٦)، وابن ماجه (٣٩٧٣)، وأحمد (٥/٢٣٦)، [«صحيح الترغيب» (٢٨٦٦)].

قَالَ أَبُو هُرَيرَةَ: وَالَّذِي نَفسِي بِيَدِهِ لَتَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَوبَقَت دُنيَاهُ وَآخِرَتَهُ)[(١)].

فاللسانُ حجمهُ صغير، وجُرمُهُ كبيرٌ، فاحرصْ يا عبدَ الله على استقامةِ لسانِكَ ليستقيمَ قلبُكَ لتسعدَ في الدنيا والآخرة.

قال ﷺ: «**لَا يَستَقِيمُ إِيمَانُ عَبدٍ حَتَّى يَستَقِيمَ قَلبُهُ، وَلَا يَستَقِيمُ قَلبُهُ حَتَّى يَستَقِيمَ لِسَانُهُ**»[(٢)].

وإذا أردت يا عبد الله أن يستقيم لسانكَ فعليك:

أولاً: بالصمت.

لقوله ﷺ: «**مَن كَانَ يُؤمِنُ بِاللَّهِ وَاليَومِ الآخِرِ فَليَقُل خَيرًا أَو لِيَصمُت**»[(٣)].

ثانياً: بإمساك اللسان عن الخوض في الباطل.

لقوله ﷺ للرجل الذي سأل عن النجاة: «**أَمْلِكْ عليك لسانَك**»[(٤)].

ثالثاً: بترطيب اللسان بذكر الله تعالى.

جاء رجلٌ إلى رسول الله ﷺ يقول: (يا رسولَ الله! إن شرائِعَ الإسلامِ قد كَثُرت عليَّ، فأخبرني بشيءٍ أتشبَّثُ به -أي: أتمسكُ به- قال ﷺ: «**لا يزالُ لسانُكَ رَطباً من ذِكر الله**»)[(٥)].

---

(١) **صحيح**: رواه أبو داود (٤٩٠١)، وأحمد (٢/٣٢٣)، [«صحيح الجامع» (٤٤٥٥)].

(٢) **صحيح**: رواه أحمد (٣/١٩٨)، والبيهقي في «الشعب» (٨)، [«صحيح الترغيب» (٢٨٦٥)].

(٣) **متفق عليه**: رواه البخاري(٦١٣٥)، ومسلم(٤٨).

(٤) **حسن لغيره**: رواه الترمذي (٢٤٠٦)، وأحمد (٥/٢٥٩)، [«السلسلة الصحيحة» (٨٩٠)].

(٥) **صحيح**: رواه الترمذي (٣٣٧٥)، وابن ماجه (٣٧٩٣)، وأحمد (٤/١٨٨) [«صحيح الترغيب» (١٤٩١)].

رابعاً: بقول المعروف وفعل المعروف.

قال تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (١١٤)﴾ [النساء].

ولقوله ﷺ للرجل الذي طلب منه وصيةً: «**ولا تقُلْ بلسانِكَ إلا معروفاً**»[١].

خامساً: بالدعاء.

لقوله ﷺ: «**إن الدعاء ينفعُ مما نزل، ومما لم ينزل، فعليكم عباد الله بالدعاء**»[٢].

فادعُ الله يا عبد الله أن يُصلحَ لسانكَ لِيصْلُحَ قلبُكَ.

(١) **صحيح**: رواه ابن أبي الدنيا في «الورع» (١١٢)، والطبراني في «الكبير» (٨١٨)، [«صحيح الترغيب» (٢٨٦٧)].

(٢) **حسن لغيره**: رواه الترمذي (٣٥٤٨)، والحاكم (١٨١٥)، [«صحيح الترغيب» (١٦٣٤)].

الوسيلة الثامنة لإصلاح القلوب

اجتنابُ الفتن

يقولُ اللهُ عز وجل في كتابه: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الزُّمَر].

ويقولُ ﷺ: «**إنَّ للهِ آنيةً من أهلِ الأرضِ، وآنيةُ ربكُم قلوبُ عبادِهِ الصالحين، وأَحبُّها إليه ألينُها وأرَقُّها**»(١).

• أدلةٌ من الكتاب والسنة أنَّ صاحبَ القلبِ السليمِ الليِّن الرقيق يُحبُّهُ اللهُ، ومَن أحبَّهُ اللهُ سَعِدَ في الدنيا والآخرةِ، ولذلك فالعاقِلُ هو الذي يعملُ ليلاً ونهاراً لإصلاحِ قلبِه، ومن وسائلِ إصلاحِ القلوبِ: اجتنابُ الفتن.

• اجتنابُ الفتنِ، وعدمُ المشاركةِ فيها، والابتعادُ عنها من أعظمِ وسائل إصلاحِ القلوب.

يقولُ ﷺ: «**تُعرَضُ الفِتَنُ عَلَى القُلُوبِ كَالحَصِيرِ عُودًا عُودًا، فَأَيُّ قَلبٍ أُشرِبَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكتَةٌ سَودَاءُ، وَأَيُّ قَلبٍ أَنكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكتَةٌ بَيضَاءُ، حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلبَينِ: عَلَى أَبيَضَ مِثلِ الصَّفَا، فَلاَ تَضُرُّهُ فِتنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرضُ، وَالآخَرُ أَسوَدُ مُربَادًّا، كَالكُوزِ مُجَخِّيًا، لاَ يَعرِفُ مَعرُوفًا، وَلاَ يُنكِرُ مُنكَرًا، إِلاَّ مَا أُشرِبَ مِن هَوَاهُ**»(٢).

---

(١) صحيح: رواه الطبراني في «الشاميين» (٨٤٠)، [«السلسلة الصحيحة» (١٦٩١)].

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٤٤).

يُبينُ لنا رسولُ اللهِ ﷺ في هذا الحديثِ أنَّ سلامةَ القلبِ وصلاحَهُ وبياضَهُ لا يكونُ أبداً إلا باجتنابِ الفتنِ، وعدمِ المشاركةِ فيها، وأنَّ فسادَ القلبِ وموتَهُ يكونُ في المشاركةِ في الفتنِ، وحُبِّها والتعلُّقِ بها.

يقول ﷺ في وصفِ القلبِ السليمِ الأبيضِ الذي لم يشاركْ في الفتنةِ: «**فلا تَضُرُّهُ فتنةٌ ما دامتِ السمواتُ والأرضُ**».

ويقولُ ﷺ في وصف القلبِ الأسودِ الميتِ الذي شاركَ في الفتنةِ وأحبَّها: «**لا يعرفُ معروفاً ولا يُنكرُ منكراً، إلا ما أُشرِبَ مِن هوَاهُ**»(١).

ولذلك جاءَ التحذيرُ في الكتابِ والسنةِ من الفتنِ.

قال تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ﴾ [الأنفال:٢٥].

وقال تعالى: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ﴾ [البقرة:١٩١].

وقال تعالى: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ﴾ [البقرة:٢١٧].

وقال ﷺ: «**إنَّ السعيدَ لمَن جُنِّبَ الفِتَنَ، إنَّ السعيدَ لمَن جُنِّبَ الفِتَنَ، إنَّ السعيدَ لمَن جُنِّبَ الفِتَنَ**»(٢).

«**إنَّ السعيدَ لمَن جُنِّبَ الفِتَنَ**»، يعني بَعُدَ عنها، وَوُفِّقَ لِلُزومِ بيتِه، وكَرَّرَ النبيُّ ﷺ ذلك ثلاثاً مبالغةً في تأكُّدِ المباعدةِ عنها.

---

(١) **صحيح**: رواه مسلم (١٤٤).

(٢) **صحيح**: رواه أبو داود (٤٢٦٣)، والبزار (٢١١٢)، والطبراني في «الكبير» (٥٩٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/١٧٥)، [«صحيح الترغيب» (٢٧٤٣)].

فاحذَرْ يا عبدَ اللهِ دُعاةَ الاستعجالِ الذين أَوقَعوا الأمةَ في الفتنةِ، وتذكرْ قولَهُ تعالى لرسولِه ﷺ: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡۚ﴾ [الأحقاف:٣٥].

وتذكَّرْ قولَ النبيِّ ﷺ لِخَبَّابِ بن الأَرَتِّ رضي الله عنه مُعَلِّماً ومُربياً: «**واللهِ لَيُتِمَّنَّ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ هَذَا الأَمرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِن صنعاءَ إِلَى حَضرَمَوتَ لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ تَعَالَى وَالذِّئبَ عَلَى غَنَمِهِ وَلَكِنَّكُم تَستَعجِلُونَ**»(١).

• وقد حَذَّرَ النبيُّ ﷺ أمتَهُ من المشاركةِ في الفتنِ وَأَمَرَهم أن يجتنبوها.

فقال ﷺ: «**إِنَّهُ لَم يَكُن نَبِيٌّ قَبلِي إِلَّا كَانَ حَقًّا عَلَيهِ أَن يَدُلَّ أُمَّتَهُ عَلَى خَيرِ مَا يَعلَمُهُ لَهُم، وَيُنذِرَهُم شَرَّ مَا يَعلَمُهُ لَهُم، وَإِنَّ أُمَّتَكُم هَذِهِ جُعِلَ عَافِيَتُهَا فِي أَوَّلِهَا. وَسَيُصِيبُ آخِرَهَا بَلَاءٌ وَأُمُورٌ تُنكِرُونَهَا. وَتَجِيءُ فِتنَةٌ فَيُرَقِّقُ بَعضُهَا بَعضًا. وَتَجِيءُ الفِتنَةُ فَيَقُولُ المُؤمِنُ: هَذِهِ مُهلِكَتِي. ثُمَّ تَنكَشِفُ وَتَجِيءُ الفِتنَةُ فَيَقُولُ المُؤمِنُ هَذِهِ هَذِهِ. فَمَن أَحَبَّ أَن يُزَحزَحَ عَنِ النَّارِ، وَيَدخُلَ الجَنَّةَ، فَلْتَأتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤمِنُ بِاللَّهِ وَاليَومِ الآخِرِ**»(٢).

وقال ﷺ: «**سَتَكُونُ فِتَنٌ، القَاعِدُ فِيهَا خَيرٌ مِنَ القَائِمِ**» -وهذا بيانٌ لِعِظَم خطرِها، وَحَثٌّ على تجنُّبِها والهربِ منها- «**وَالقَائِمُ فِيهَا خَيرٌ مِنَ المَاشِي، وَالمَاشِي فِيهَا خَيرٌ مِنَ السَّاعِي، مَن تَشَرَّفَ لَهَا تَستَشرِفُهُ**» -أي: من تَطَلَّع إليها وانتصَبَ لها

(١) صحيح: رواه البخاري (٦٩٤٣)، واللفظ لأحمد (١١١/٥).

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٨٤٤).

وشـارِكَ فيهـا وأحَبَّهـا، تقلِبُهُ وتـصرَعُهُ وتُهلِكُـهُ- «**وَمَـن وَجَـدَ فِيهَـا مَلجَـأً**» -أي: موضعاً يعتزِلُ فيه- «**فَلْيَعُذ بِهِ**»(١) -أي: فليعتزل فيه-.

وقال ﷺ: «**إِنَّهَا سَتكُونُ فِتَنٌ. أَلاَ ثُمَّ تَكُونُ فِتنَةٌ، القَاعِدُ فِيهَا خَيرٌ مِنَ المَاشِي فِيهَا. وَالمَاشِي فِيهَا خَيرٌ مِنَ السَّاعِي إِلَيهَا. أَلاَ، فَإِذَا نَزَلَت أَو وَقَعَت، فَمَن كَانَ لَهُ إِبلٌ فَليَلحَقْ بِإِبِلِهِ، وَمَن كَانَت لَهُ غَنَمٌ فَليَلحَقْ بِغَنَمِهِ، وَمَن كَانَت لَهُ أَرضٌ فَليَلحَقْ بِأَرضِهِ**». قَالَ فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَرَأَيتَ مَن لَم يَكُن لَهُ إِبلٌ وَلاَ غَنَمٌ وَلاَ أَرضٌ؟ قَالَ: «**يَعمِدُ إِلَى سَيفِهِ فَيَدُقُّ عَلَى حَدِّهِ بِحَجَرٍ. ثُمَّ لِيَنجُ إِنِ استَطَاعَ النَّجَاءَ. اللَّهُمَّ هَل بَلَّغتُ؟ اللَّهُمَّ هَل بَلَّغتُ؟ اللَّهُمَّ هَل بَلَّغتُ؟**». قَالَ فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَرَأَيـتَ إِن أُكرِهـتُ حَتَّـى يُنطَلَـقَ بِي إِلَى أَحَـدِ الـصَّفَّينِ، أَو إِحـدَى الفِئَتَـينِ فَضَرَبَنِي رَجُلٌ بِسَيفِهِ أَو يَجِيءُ سَهمٌ فَيَقتُلُنِي؟ قَالَ: «**يَبُوءُ بِإِثمِهِ وَإِثمِكَ وَيَكُونُ مِن أَصحَابِ النَّارِ**»(٢).

ولقد كَثُرَتِ الفتنُ في هذا الزمانِ كما أخبرَ النبيُّ ﷺ، وسقطَ فيها من سَقَطَ مِن ضِعافِ الإيمانِ، ومرضى القلوب، والجهلةِ، والمنافقين.

قـال تعـالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ١١﴾ [الحج].

---

(١) **صحيح**: رواه مسلم (٢٨٨٦).

(٢) **صحيح**: رواه مسلم (٢٨٨٧).

وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت:١٠].

وقال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ ۚ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ (٤٩)﴾ [التوبة].

وليسَ هذا فحسبُ بل إنَّ الفتنَ تشتدُّ يوماً بعدَ يوم، مما يدلُّ على أنه قد أزفتِ الآزفةُ، واقتربَ الوعدُ الحقُّ.

فإنَّ رسولَ اللهِ ﷺ يقول: «**إن بين يديِ الساعةِ فتناً كَقِطَعِ الليلِ المظلم**»(١).

فتنٌ تجعلُ الإنسانَ يخرجُ عن دينه، قال ﷺ: «**تكونُ بين يديِ الساعةِ فتنٌ كقطعِ الليلِ المظلم، يصبحُ الرجلُ فيها مؤمناً، ويمسي كافراً، ويمسي مؤمناً، ويصبحُ كافراً، يبيعُ أقوامٌ دينَهم بعَرَضٍ من الدنيا**»(٢).

فتنٌ تجعلُ الإنسانَ يتمنى الموتَ من شدةِ البلاءِ، قال ﷺ: «**والذي نفسي بيده! لا تذهبُ الدنيا حتى يمرَّ الرجلُ على القبرِ، فيتمرغَ عليه، ويقولُ: يا ليتني كنتُ مكانَ صاحبِ هذا القبرِ! وليسَ به الدِّينُ، إلا البلاءُ**»(٣).

---

(١) **صحيح لغيره**: رواه أبو داود (٤٢٥٩)، وابن ماجه (٣٩٦١)، وأحمد (٤/٤١٦) في «صحيح الترغيب» (٢٧٤٢).

(٢) **صحيح**: رواه الترمذي (٢١٩٧)، [«السلسلة الصحيحة» (٨١٠)].

(٣) **صحيح**: رواه مسلم (١٥٧).

والفتنُ التي انتشرت في هذا الزمانِ العجيبِ كثيرةٌ جداً منها:

أولاً: فتنةُ التكفيرِ التي أدت إلى فتنةِ الهَرجِ -أي: القتلِ-

والذين يُكَفِّرونَ المسلمين اليومَ ويقتلونهم يسمونَ أنفسَهم بالدولةِ الإسلامية.

والنبيُّ ﷺ يقولُ محذِّراً: «**أيُّما رجلٍ قال لأخيه: يا كافرُ! فقد باءَ بها أحدُهما**»(١).

وقال ﷺ: «**إن بين يدي الساعةِ الهرج**» قالوا: وما الهرجُ؟ قال: «**القتلُ؛ إنه ليس بقتلِكُم المشركينَ، ولكن قتلُ بعضِكم بعضاً، حتى يقتلَ الرجلُ جارَه، ويقتلَ أخَاه، ويقتلَ عمَّه، ويقتلَ ابنَ عمِّه**»(٢).

وقال ﷺ: «**والذي نفسي بيده؛ لَيَأتِيَنَّ على الناسِ زمانٌ لا يدري القاتلُ في أيِّ شيءٍ قَتَلَ، ولا يدري المقتولُ على أيِّ شيءٍ قُتِل**»(٣).

وهناك من جَهَلَةِ المسلمين، وممن أعمى اللهُ بصائرَهم من يفرحُ بفعلِ هؤلاءِ الذين يُكَفِّرونَ المسلمينَ ويقتلونهم.

نقولُ لكلِّ واحدٍ منهم: يا جاهلُ! أنسيتَ أن النبيَّ ﷺ وصفَ الخوارجَ فقال: «**سَيَخرُجُ قَومٌ فِي آخِرِ الزَّمَانِ أَحدَاثُ الأَسنَانِ**» -أي: شبابٌ صغارُ السِّنِّ- «**سُفَهَاءُ الأَحلَامِ**»-أي: ضعفاءُ العقولِ- «**يَقُولُونَ مِن خَيرِ قَولِ البَرِيَّةِ**» -أي: يتكلمون

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري (٦١٠٤)، ومسلم (٦٠).

(٢) **صحيح**: رواه أحمد (٤/٣٩١)، وأبو يعلى (٧٢٣٤)، [«الصحيحة» (١٦٨٢)].

(٣) **صحيح**: رواه مسلم (٢٩٠٨).

بالقرآن وبالإسلام- «**لَا يُجَاوِزُ إِيمَانُهُم حَنَاجِرَهُم، يَمرُقُونَ مِن الدِّينِ كَمَا يَمرُقُ السَّهمُ مِن الرَّمِيَّةِ**»(١).

وقال ﷺ أيضاً في وصفهم: «**يقتلونَ أهلَ الإسلامِ، ويَدَعونَ أهلَ الأوثان**»(٢).

فاحذر يا مسلمُ! أن تَفتَتِنَ بفتنةِ هؤلاءِ؛ فإني لك ناصحٌ أمين. فأينَ هؤلاءِ الذين يَدَّعونَ الإسلامَ والدولةَ الإسلاميةَ من قتالِ اليهودِ -لعنهم الله-، الذين يسعون في الأرضِ فساداً، ويعتدون على إخواننا في أرضِ فلسطين؟!

ثانياً: فتنةُ قلبِ الحقائق وتغييرِ المفاهيمِ وقلبِ الموازين.

يقولُ ﷺ: «**سيأتي على الناس سَنواتٌ خَدَّاعاتٌ، يُصدَّقُ فيها الكاذبُ، ويُكَذَّبُ فيها الصادقُ، ويُؤتَمَنُ فيها الخائنُ، ويُخَوَّنُ فيها الأمينُ، وَينطِقُ فيها الرُّويبضةُ**».

قيل: وما الرويبضةُ؟

قال: «**الرجلُ التافهُ يتكلَّمُ في أمرِ العامة**»(٣).

ويقولُ ﷺ: «**مِن أشراطِ الساعةِ: الفُحشُ، والتفحُّشُ، وقطيعةُ الرَّحِمِ، وتخوينُ الأَمينِ، وائتمانُ الخائنِ**»(٤).

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري (٦٩٣٠)، ومسلم (١٠٦٦).

(٢) **متفق عليه**: رواه البخاري (٧٤٣٢)، ومسلم (١٠٦٤).

(٣) **حسن**: رواه ابن ماجه (٤٠٣٦)، وأحمد (٢/ ٢٩١)، والحاكم (٨٤٣٩)، [«صحيح الجامع» (٣٥٤٤)].

(٤) **حسن**: رواه البزار (٧٥١٨)، والطبراني في «الأوسط» (١٣٥٦)، [«السلسلة الصحيحة» (٢٢٣٨)].

ويقول ابنُ مسعودٍ رضي الله عنه: (كيف أنتم إذا لبسَتكُم فتنةٌ، يَربُو فيها الصَّغيرُ، ويَهرَمُ فيها الكبيرُ، إذا تُرِكَ منها شيءٌ قيل: تُرِكَتِ السُّنَّة).

قيل: ومتى ذاكَ يا أبا عبدِ الرحمن؟ قال: (إذا ذَهَبَت عُلماؤكم، وكَثُرَت جُهَّالكم، وكثرَت قُرَّاؤُكم، وقلَّت فُقهاؤكم، وكثُرت أُمراؤكم، وقلَّت أُمناؤُكم، والتُمِسَتِ الدُّنيا بعملِ الآخرةِ، وتُفقِّهَ لغير الدين)(١).

هذا الكلامُ العظيمُ صحَّ موقوفاً عن ابنِ مسعودٍ رضي الله عنه، وهو مرفوعٌ إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم حكماً.

في هذا الحديثِ يُخبرُنا ابنُ مسعودٍ عن فتنةٍ خطيرةٍ تَعمُّ المسلمِين وتَلبِسُهم، ويطولُ زمانُها، وهذه الفتنةُ هي أمورٌ تُخالفُ شرعَ اللهِ ودينَهُ، يظُنُّها أكثرُ الناسِ بجهلهم أنها من دينِ اللهِ، وليستْ من دينِ اللهِ، ولكن بسببِ قلبِ الحقائقِ، وتغييرِ المفاهيمِ، ظنوا أنَّ فيها الصلاحَ والإصلاحَ والربيعَ العربيَّ.

يقول ابنُ مسعودٍ رضي الله عنه: (كيفَ أنتم إذا لبِسَتكُم فتنةٌ يربو فيها الصغير) -أي: ينمو ويتربى فيها- (ويهرَمُ فيها الكبير) أي: يَكبُرُ سِنُّهُ، ويصبحُ شيخاً كبيراً، وهذا يدلُّ على طولِ زمنِ هذهِ الفتنة.

ويقول رضي الله عنه: (إذا تُرِكَ منها شيءٌ! قيل: تُرِكَتِ السنَّةُ) أي: تتغيَّرُ المفاهيمُ فيصبحُ الحقُّ باطلاً، والباطلُ حقاً، والسنَّةُ بدعةً، والبدعةُ سنةً، حتى إنَّهُ مَن أحيا السنةَ، وعمل بها، وتركَ البدعةَ ونهى عنها؛ أُنكِرَ عليه، وقيل: تُركَتِ السنَّةُ.

---

(١) رواه الدارمي (١٩٢)، ونعيم بن حماد في «الفتن» (٥١)، واللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (١٢٣).

قيل: ومتى ذاك يا أبا عبد الرحمن؟

قال: (إذا ذهبت علماؤُكم)، وذهابُهم بموتِهم، وعدمِ تفقُّهِ غيرهم.

قال: (وكَثَرت جُهَّالُكُم).

وهذه نتيجةٌ طبيعيةٌ لذهابِ العلماء.

فالنبيُّ ﷺ يقولُ: «**إِنَّ اللَّهَ لَا يَقبِضُ العِلمَ انتِزَاعًا يَنتَزِعُهُ مِن العِبَادِ، وَلَكِن يَقبِضُ العِلمَ بِقَبضِ العُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَم يُبقِ عَالِمًا؛ اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالًا، فَسُئِلُوا، فَأَفتَوا بِغَيرِ عِلمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا**»(١).

ويقول ﷺ: «**إنَّ من أشراطِ الساعةِ أن يُلتَمَسَ العِلمُ عند الأصاغرِ**»(٢).

والأصاغرُ: هم أهلُ البدعِ والأهواءِ ومن ليسوا له بأهلٍ.

وقال رضي الله عنه: (وكَثُرَت قُرَّاؤكم).

وهؤلاءِ القُرَّاءُ همُ الذين اتخذوا القرآنَ مزاميرَ دونَ تدبرٍ لمعانيه، وعملٍ بأحكامِه، وتحليلِ حلالِه، وتحريمِ حرامِه -أي: القُرَّاءُ الذين أرادوا بقراءتِهم الدنيا فقط-

وقال رضي الله عنه: (وقلَّت فقهاؤُكم).

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري (١٠٠)، ومسلم (٢٦٧٣).

(٢) **جيد**: رواه الطبراني في «الكبير» (٩٠٨)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (١٠٥١)، [«السلسلة الصحيحة» (٦٩٥)].

وهـمُ العلـماءُ الـذين يـستنبطونَ الأحكـامَ مـن الـدين للنـوازلِ والمـستجدَّات والمعضِلاتِ.

وقال ﷺ: (وَكثرت أمراؤكم).

وكثرةُ الأمراءِ دليلٌ على تفرقِ المسلمينَ في دُوَيلاتٍ وأحزابٍ كثيرة، وهذا ما سَعَت وتسعى إليه اليهودُ -عليهم لعنةُ الله- ليلاً ونهاراً، لأنَّ هذا التفرقَ يُضعِفُ الأمةَ، ويُذهبُ ريحَها -أي: قُوَّتَها-.

وقال ﷺ: (وقلَّت أمناؤكم).

الأمناءُ: هم الذين يحفظونَ الأنفسَ والأموالَ والأعراضَ، وكُلَّ ما استُؤمِنوا عليه، وقد بيَّنَ النبيُّ ﷺ كيف تُرفَعُ الأمانةُ من قلوبِ الرجال، وبيَّن أنَّ الأمناءَ يَقلُّونَ في الأمةِ حتى يُقالَ إنَّ في بني فلانٍ رجلاً أميناً.

فعـن حُذَيفَـةَ بـنِ الـيمان ﷺ قَـالَ: حَـدَّثَنَا رَسُـولُ اللَّهِ ﷺ حَـدِيثَينِ، رَأَيـتُ أَحَدَهُمَا، وَأَنَا أَنتَظِرُ الآخَرَ، حَدَّثَنَا أَنَّ الأَمَانَةَ نَزَلَت فِي جَذْرِ قُلُوبِ الرِّجَالِ، ثُمَّ عَلِمُوا مِن القُرآنِ، ثُـمَّ عَلِمُـوا مِـن الـسُّنَّةِ، وَحَدَّثَنَا عَـن رَفعِهَـا، قَـالَ: «**يَنَامُ الرَّجُلُ النَّومَةَ فَتُقبَضُ الأَمَانَةُ مِن قَلبِهِ، فَيَظَلُّ أَثَرُهَا مِثلَ أَثَرِ الوَكْتِ، ثُمَّ يَنَامُ النَّومَةَ فَتُقبَضُ، فَيَبقَى أَثَرُهَا مِثلَ المَجْلِ كَجَمْرٍ دَحرَجْتَهُ عَلَى رِجلِكَ، فَنَفِطَ[١]، فَتَرَاهُ مُنتَبِرًا[٢] وَلَيسَ**

(١) (فنفط) قَرِحَ.

(٢) (منتبراً) مُرتفعاً.

فِيهِ شَيءٌ، فَيُصبِحُ النَّاسُ يَتَبَايَعُونَ، فَلَا يَكَادُ أَحَدُهُم يُؤَدِّي الأَمَانَةَ، فَيُقَالُ: إِنَّ فِي بَنِي فُلَانٍ رَجُلًا أَمِينًا، وَيُقَالُ لِلرَّجُلِ: مَا أَعقَلَهُ! وَمَا أَظرَفَهُ! وَمَا أَجلَدَهُ! وَمَا فِي قَلبِهِ مِثقَالُ حَبَّةِ خَردَلٍ مِن إِيمَانٍ، وَلَقَد أَتَى عَلَيَّ زَمَانٌ وَمَا أُبَالِي أَيَّكُم بَايَعتُ، لَئِن كَانَ مُسلِمًا رَدَّهُ عَلَيَّ الإِسلَامُ، وَإِن كَانَ نَصرَانِيًّا رَدَّهُ عَلَيَّ سَاعِيهِ[1]، فَأَمَّا اليَومَ فَمَا كُنتُ أُبَايِعُ إِلَّا فُلَانًا وَفُلَانًا»[2].

وقال ﷺ: (والتُمِسَتِ الدنيا بعملِ الآخرة).

أي: يعملون عملَ الآخرةِ يريدونَ به الدنيا.

وقال ﷺ: (وتُفُقِّه لغير الدين).

أي: يتعلمونَ علومَ الدنيا ويتخصصون بها، ويتركونَ التفقهَ للدينِ فانظروا عبادَ الله! إلى الأمةِ اليومَ، عندما تغيَّرتِ المفاهيمُ، وقُلِبَتِ الحقائقُ، ونزلتِ الفتنُ، وطالت بالناسِ، وما يخرجونَ من فتنةٍ إلا نزلت بهم فتنةٌ أشدُّ منَ التي قبلَها، ولا حولَ ولا قوةَ إلا بالله! نسألُ الله أن يحفظَنا وإياكم والمسلمين من الفتنِ ما ظهرَ منها وما بطن.

وها نحنُ نعيشُ في زمن الفتن، مِن قتل بين المسلمين لا يدري القاتلُ فيما يَقتُل، ولا يدري المقتولُ فيما قُتِل وفتنةُ تغيير المفاهيم، وقلبِ الحقائقِ.

---

(١) (ساعيه) هو الوالي عليه.

(٢) **متفق عليه:** رواه البخاري (٦٤٩٧)، ومسلم (١٤٣).

فهذا مسلمٌ يقتلُ أخاهُ المسلمَ، ويسمي ذلك جِهاداً في سبيل الله!

وهذه جماعةٌ تَذبَحُ المسلمينَ كذبحِ النعاجِ، وتسمي نفسَها بالدولةِ الإسلامية!

وهذا يرفعُ شعارَ الإصلاحِ، وهو منَ المفسدين في الأرض!

وهذا حزبٌ ينادي بالاعتصامِ والاتحادِ وهو منَ المُفَرِّقين للأمةِ الإسلامية!!

وهذا يقتلُ الأَبرياءَ من المسلمين بالتفجيرِ ويسمي ذلك جهاداً في سبيل الله!

وهذا آخرُ يسمي الجهادَ في سبيل الله بشروطه وضوابطِه إرهاباً!

إِنَّ كُلَّ ما يحدثُ في بلادِ المسلمينَ من التفرقِ والقتلِ والاختلافِ من صُنع اليهود قاتلهم الله!

فهم كما وصفهمُ اللهُ في كتابه: ﴿كُلَّمَآ أَوۡقَدُواْ نَارٗا لِّلۡحَرۡبِ أَطۡفَأَهَا ٱللَّهُۚ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادٗاۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٦٤﴾ [المائدة].

فكلُّ حربٍ وفسادٍ في بلادِ المسلمين اليومَ، وقبل اليومِ، ومستقبلاً سببهُ اليهودُ، فهم أشدُّ الناسِ عداوةً للذين آمنوا، قال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ﴾ [المائدة:٨٢].

وتتمثلُ عداوةُ اليهودِ فيما يلي:

أولاً: حِرصُهم بالليلِ والنهارِ على أن يُرُدوا المسلمين عن دينهم.

قال تعالى: ﴿وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ﴾ [البقرة:١٢٠].

وقال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ﴾ [البقرة:٢١٧].

لتعلموا أن معركتنا مع اليهود معركةٌ دينيةٌ!

ثانياً: حُزنُهم إذا نزلَ بالمسلمينَ خيرٌ من ربِّهم.

قال تعالى: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾﴾ [البقرة].

وقال تعالى: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾ [آل عمران].

ثالثاً: أكلُهم أموالَ الناسِ بالباطلِ وصدُّهم عن سبيل الله.

قال تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾﴾ [النساء].

ومِن أكلِهم أموالَ الناسِ بالباطلِ: أخذُهُمُ الأراضي منَ المسلمينَ في فلسطين ليبنوا عليها المستوطنَات ظلماً وعُدواناً.

ومِن أكلهم أموالَ الناسِ بالباطل: أنهم يُشعلونَ الحروبَ في بلاد المسلمينَ ليأخذوا خيراتِها.

رابعاً: اعتداؤُهم الدائمُ على المسلمين عامةً وعلى إخواننا في أرض فلسطين خاصةً.

وللأسف الشديد، منَ المسلمين من هو مِن جلدتِنا، ويتكلمُ بألسنتِنا باعَ دينَه بعَرَضٍ من الدنيا، فأخذ يخونُ وطنه وَيتعاونُ معَ اليهود سراً، كما قال ربُّ العزة: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾ [التوبة:٤٧].

والمَخرَجُ من الفتن يا أمةَ الإسلامِ هو: الرجوعُ إلى الدين، الرجوعُ إلى الأمرِ الأول.

قال ﷺ: «**إذا تبايعتم بالعينةِ، وأخذتم أذنابَ البقر، ورضيتم بالزرعِ، وتركتم الجهادَ، سلط الله عليكم ذلًّا لا ينزِعه، حتى ترجعوا إلى دينكم**»(١).

وقال رسول الله ﷺ للصحابة يوماً: «**إنها ستكونُ فتنةٌ**» فقالوا: كيف لنا يا رسولَ الله؟ وكيف نصنعُ؟

قال: «**ترجعونَ إلى أمركُمُ الأولِ**»(٢).

فالرجوعُ إلى الأمر ا لأول، وهو الدينُ الصحيحُ الذي كانَ عليه النبيُّ ﷺ وأصحابُه؛ هو المخرج الوحيدُ للأمةِ من الفتن التي تعصفُ بها، والوسيلةُ الوحيدةُ لإصلاحِ القلوبِ.

أسألُ اللهَ العظيمَ أن يُصلحَ قلوبَنا وقلوبَ المسلمينَ، وأن يجنبَنا الفتنَ ما ظهر منها وما بطن، وأن يردَّ المسلمين إلى دينهم رداً جميلاً.

---

(١) صحيح: رواه أبو داود (٣٤٦٢)، والبزار (٥٨٨٧)، والبيهقي في «الكبرى» (٥/٥١٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (٥/٢٠٨)، [«الصحيحة» (١١)].

(٢) صحيح: رواه الطبراني في «الكبير» (٢٠/٤٣/٦٩)، والطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (١١٨٤)، [«الصحيحة» (٣١٦٥)].

الوسيلة التاسعة لإصلاح القلوب

الرحمةُ

يقولُ اللهُ عز وجل في كتابه في دعاءِ إبراهيمَ عليه السلام: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء].

ويقولُ سبحانَه عن إبراهيمَ عليه السلام أيضاً: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾﴾ [الصافات].

ويقولُ ﷺ: «**أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضغَةً إِذَا صَلَحَت صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَت فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ أَلَا وَهِيَ القَلْبُ**»(١).

وسُئِلَ ﷺ: أيُّ الناسِ أفضلُ؟

قال: «**كلُّ مخمومِ القلبِ، صدوقِ اللسانِ**».

قالوا: (صدوقُ اللسانِ) نعرفُه، فما (مخمومُ القلبِ)؟

قال: «**هو التقيُّ النقيُّ، لا إثمَ فيه، ولا بغيَ، ولا غِلَّ، ولا حَسد**»(٢).

أدلةٌ من الكتابِ والسنةِ تُبينُ أنَّ أفضلَ الناسِ عندَ اللهِ، والناجي يومَ القيامةِ هو صاحبُ القلبِ السليمِ، ولذلك ينبغي للعاقلِ أن يعملَ ليلاً ونهاراً على إصلاحِ قلبِه، ومِن وسائلِ إصلاحِ القلوبِ: الرحمة.

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري(٥٢)، ومسلم (١٥٩٩).

(٢) **صحيح**: رواه ابن ماجه (٤٢١٦)، وأبو نعيم في«الحلية» (١/١٨٣)، [«صحيح الترغيب» (٢٨٨٩)].

الرحمةُ دليلُ رِقَّةِ القلب ولينهِ؛ بل هي مِن أعمالِ القلبِ، وتَظهَرُ على الجوارحِ، وهي من أعظمِ الوسائلِ لإصلاحِ القلوب.

فصَاحِبُ القلب الرحيم يرحمُ الخلقَ فيرحمُهُ الخالق سبحانه.

والدليلُ على ذلك:

عن أسامةَ بنِ زيدٍ رضي الله عنهما قَالَ: (أَرسَلَت ابنَةُ النَّبِيِّ ﷺ إِلَيهِ: إِنَّ ابنًا لِي قُبِضَ فَأْتِنَا، فَأَرسَلَ يُقرِئُ السَّلَامَ ويَقُولُ: «**إِنَّ لِلَّهِ مَا أَخَذَ وَلَهُ مَا أَعطَى، وَكُلٌّ عِندَهُ بِأَجَلٍ مُسَمًّى، فَلتَصبِرْ وَلتَحتَسِبْ**» فَأَرسَلَت إِلَيهِ تُقسِمُ عَلَيهِ لَيَأتِيَنَّهَا، فَقَامَ وَمَعَهُ سَعدُ بنُ عُبَادَةَ، وَمَعَاذُ بنُ جَبَلٍ، وَأُبَيُّ بنُ كَعبٍ، وَزَيدُ بنُ ثَابِتٍ، وَرِجَالٌ، فَرُفِعَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الصَّبِيُّ وَنَفسُهُ تَتَقَعقَعُ، فَفَاضَت عَينَاهُ، فَقَالَ سَعدٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا هَذَا؟ فَقَالَ: «**هَذِهِ رَحمَةٌ جَعَلَهَا اللَّهُ فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ، وَإِنَّمَا يَرحَمُ اللَّهُ مِن عِبَادِهِ الرُّحَمَاءَ**»[(١)]).

وعن عائشةَ رضي الله عنها قالت: جاءَ أعرابيٌّ إلى النبيِّ ﷺ فقال: تُقَبِّلونَ الصِبيانَ فما نُقبِّلُهُم، فقال النبيُّ ﷺ: «**أَوَ أملِكُ لكَ أن نَزَعَ اللهُ مِن قَلبِكَ الرَّحمةَ**»[(٢)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قَالَ: (قَبَّلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الحَسَنَ بنَ عَلِيٍّ، وَعِندَهُ الأَقرَعُ بنُ حَابِسٍ التَّمِيمِيُّ جَالِسًا، فَقَالَ الأَقرَعُ: إِنَّ لِي عَشَرَةً مِن الوَلَدِ مَا قَبَّلتُ مِنهُم أَحَدًا، فَنَظَرَ إِلَيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ قَالَ: «**مَن لَا يَرحَمُ لَا يُرحَمُ**»[(٣)]).

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري (١٢٨٤)، ومسلم (٩٢٣).

(٢) **صحيح**: رواه البخاري (٥٩٩٨).

(٣) **متفق عليه**: رواه البخاري (٥٩٩٧)، ومسلم (٢٣١٨).

فهذه أدلةٌ تدلُّ على أنَّ الرحمةَ لها علاقةٌ قويةٌ بصلاحِ القلبِ ورِقتهِ ولينِهِ.

والذي دفعني للحديثِ عن الرحمةِ أمران اثنان:

الأمرُ الأولُ: ما نراهُ من بعضِ الفِرقِ التي تنتمي إلى الإسلام والتي نُزِعَتِ الرحمةُ من قلوبهم، يقتلونَ ويذبحون مَن خالفهم حتى ولو قال ونطقَ أمامهم بالشهادتين.

الأمرُ الثاني: ما نراهُ من أعداءِ الإسلامِ الذين يصطادون في الماءِ العَكِرِ، فيريدون أن يُشَوِّهُوا صورةَ الإسلامِ فيصفوه بأنه دينُ الإرهابِ والذبحِ والعُنفِ.

فأردتُ انطلاقاً من قولِه ﷺ: «**الدينُ النصيحة**»[1]، أن أُبينَ لهؤلاءِ الذين غَلَوا في دينِهم وأَساؤوا للإسلام والمسلمين أنَّ فِعلَهم هذا يتنافى مع دينِ الإسلامِ، وأردتُ أيضاً أَن أبينَ لأعداءِ الإسلامِ الذين: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [التوبة].

أنَّ دينَ الإسلامِ هو دينُ الرحمةِ، وهو أيضاً دينُ الجهادِ في سبيلِ اللهِ بشروطِه وضوابطِه وآدابِه الشرعية.

نقولُ لهؤلاءِ جميعاً ولكلِّ الدنيا: الإسلامُ الذي جاء به محمدٌ من عندِ ربِّهِ هو دينُ الرحمة.

---

(١) **صحيح**: رواه مسلم (٥٥).

فإلهُنا الذي نعبدُه يقولُ عن نفسِه سبحانه: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام:٥٤].

وقال أيضاً: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف:١٥٦].

وعن عمرَ بنِ الخطابِ رضي الله عنه قال: (قُدِمَ على رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم بسبيٍ، فإذا امرأةٌ منَ السبي تبتغي -أي تبحث عن شيء-، إذا وجدَت صبياً في السبي أَخَذَتْه فألصَقَتهُ ببطنِها وأرضَعَته، فقالَ لنا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «**أترون هذه المرأةَ طارحةً ولدَها في النارِ؟**» قلنا: لا واللهِ! وهي تقدرُ على أن لا تطرحَه. فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «**لَلَّهُ أرحمُ بعبادِهِ مِن هذهِ بولدِها**»[(١)]).

ورسولُنا صلى الله عليه وسلم الذي أمرَنا اللهُ عز وجل أن نتأَسَّى به هو نبيُّ الرحمة.

قال تَعالى في وصفه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء].

ويقول سبحانه أيضاً: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة].

ويقول سبحانه أيضاً: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ [آل عمران].

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري (٥٩٩٩)، ومسلم (٢٧٥٤).

ويقولُ ﷺ عن نفسه: «**يا أيها الناسُ! إنما أنا رحمةٌ مهداة**»(١).

ويقول ﷺ أيضاً: «**أنا نبيُّ الرحمة**»(٢).

ولما قيلَ لهُ يا رسولَ الله! ادعُ على المشركين، قال: «**إني لم أُبعَثْ لَعَّاناً، وإنما بُعثتُ رحمةً**»(٣).

وأصحابُ محمدٍ ﷺ كانوا رحماءَ بينهم، يرحمُ بعضُهم بعضاً، ويرحمون غيرَهم.

قال تعالى في وصفهم: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ﴾ [الفتح:٢٩].

وقال ﷺ في وصفِ المؤمنين: «**مَثَلُ المؤمنينَ في توادِّهم وتراحُمِهم وتعاطُفِهم، مثلُ الجسدِ إذا اشتكى منه عضوٌ، تداعى له سائرُ الجسدِ بالسَّهَرِ والحُمى**»(٤).

كيف لا؟

والنبيُّ ﷺ رَبَّى أصحابَهُ على الرحمةِ، وَبَيَّنَ لهم أنَّ الرحمةَ بالخلقِ سببٌ لرحمةِ الخالقِ، وأنَّ اللهَ يُعذِّبُ الذين يُعذِّبونَ عبادَه.

---

(١) **صحيح**: رواه ابن الأعرابي في «معجمه» (٢٤٥٢)، والحاكم (١٠٠)، والبيهقي في «الشعب» (١٣٣٩)، [«الصحيحة» (٤٩٠)].

(٢) **صحيح**: رواه مسلم (٢٣٥٥).

(٣) **صحيح**: رواه مسلم (٢٥٩٩).

(٤) **صحيح**: رواه مسلم (٢٥٨٦).

قال ﷺ: «**الرَّاحِمون يرحَمُهُم الرحمنُ، ارحمُوا مَن في الأرضِ يرحَمكُم من في السماءِ**»(١).

وعن أبي هريرةَ رضي الله عنه أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**بَينَا رَجُلٌ يَمشِي فَاشتَدَّ عَلَيهِ العَطَشُ، فَنَزَلَ بِئرًا فَشَرِبَ مِنهَا ثُمَّ خَرَجَ، فَإِذَا هُوَ بِكَلبٍ يَلهَثُ يَأكُلُ الثَّرَى مِن العَطَشِ، فَقَالَ: لَقَد بَلَغَ هَذَا مِثلُ الَّذِي بَلَغَ بِي، فَمَلأَ خُفَّهُ ثُمَّ أَمسَكَهُ بِفِيهِ ثُمَّ رَقِيَ، فَسَقَى الكَلبَ، فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ، فَغَفَرَ لَهُ**» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! وَإِنَّ لَنَا فِي البَهَائِمِ أَجرًا؟ قَالَ: «**فِي كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجرٌ**»(٢).

وعن هشامِ بنِ حكيمِ بنِ حزامٍ، قال: مَرَّ بالشامِ على أُناسٍ وقد أُقيموا في الشمس، وَصُبَّ على رُؤُوسِهِمُ الزيتَ، فقال: ما هذا؟ قِيلَ: يعَذَّبُون في الخَرَاج، فقال: أَمَا إني سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**إنَّ اللهَ يُعذِّبُ الذين يُعَذِّبون في الدنيا**»(٣).

وعن عبدِ الله بن عمرَ رضي الله عنهما أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «**عُذِّبَتِ امرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ حَبَسَتهَا حَتَّى مَاتَت، فَدَخَلَت فِيهَا النَّارَ لَا هيَ أَطعَمَتْهَا وَسَقَتهَا إذْ حَبَستهَا وَلَا هي تركَتها تأكلُ مِن خَشَاشِ الأَرضِ**»(٤).

---

(١) **حسن لغيره**: رواه الترمذي (١٩٢٤)، وأبو داود (٤٩٤١)، والطبراني في «الأوسط» (٩٠١٣)، وأحمد (٢/١٦٠)، [«صحيح الترغيب» (٢٢٥٦)].

(٢) **متفق عليه**: رواه البخاري (٢٣٦٣)، ومسلم (٢٢٤٤).

(٣) **صحيح**: رواه مسلم(٢٦١٣).

(٤) **متفق عليه**: رواه البخاري (٢٣٦٥)، ومسلم (٢٢٤٢).

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**مَن لا يَرحَمُ لا يُرحَمُ**»[١].

فنقولُ للذين غَلَوا في دينهم فَكَفَّروا المسلمينَ، وأخذوا يقتلونهم ويَذبحونهم ذبحَ النعاجِ حتى ولو نطقَ أحدُهم أمامَهم بـ«**لا إله إلا الله**».

ونقولُ لأعداءِ الإسلامِ الذين يتهمونَ الإسلامَ ونبيَّ الإسلامِ بالإرهابِ والعنف ظلماً وعُدواناً، نقولُ لهؤلاءِ وهؤلاءِ:

نعم! دينُنا دينُ الرحمةِ، وهو أيضاً دينُ الجهادِ في سبيلِ الله.

نعم! نبيُّنا محمدٌ ﷺ نبيُّ الرحمة، وهو أيضاً إمامُ المجاهدينَ في سبيلِ الله، فهو القويُّ في رحمتِهِ، الرحيمُ في قوتِهِ.

نعم! أصحابُ محمدٍ ﷺ هم أَئمةُ الرحمةِ في هذه الأمة، وهم أيضاً المجاهدونَ في سبيلِ الله الجهادَ الشرعيَّ بشروطِهِ وآدابِهِ الشرعية.

شروطُ الجهادِ في سبيل الله.

الشرطُ الأولُ: الإمام -وليُّ الأمر-

قال ﷺ: «**الإمامُ جُنَّةٌ**» -أي: وقايةٌ- «**يُقاتَلُ مِن وَرائِهِ**»[٢].

فالقتالُ من أمامه -أي: بالتقدم والتعدي عليه- ليس قتالاً شرعيّاً.

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري (٥٩٩٧)، ومسلم (٢٣١٨) واللفظ للبخاري.

(٢) **متفق عليه**: رواه البخاري (٢٩٥٧)، ومسلم (١٨٤١).

الشرطُ الثاني: الرايةُ الشرعيةُ الواضحةُ.

قال ﷺ: «من قُتِلَ تحتَ رايةٍ عُمِّيَّةٍ يدعو عَصَبِيَّةً، فَقِتْلَةٌ جاهليةٌ»[1].

الشرطُ الثالثُ: العُدةُ.

والعُدَّةُ تنقسمُ إلى قسمين:

القسمُ الأول: العُدَّةُ الإيمانية.

القسمُ الثاني: العُدَّةُ المادية.

والعدَّةُ الماديةُ تنقسمُ إلى قسمين:

القسمُ الأولُ: العُدَّةُ العسكرية.

قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال:٦٠].

القسمُ الثاني: العُدَّةُ البشرية.

وضابطُها أن يكونَ عددُ جيشِ المسلمينَ على النصفِ من عددِ جيشِ الكفار.

قال تعالى: ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الأنفال].

(١) صحيح: رواه مسلم (١٨٥٠).

وأما أدابُ الجهادِ في سبيل الله:

فقد أدَّبَ الله ورسولُهُ ﷺ المؤمنين بآداب الجهاد، فمنها أدابٌ قبلَ القتالِ، وأدابٌ أثناءَ القتالِ، وأدابٌ بعدَ القتال.

أدابُ الجهادِ في سبيلِ الله قبل القِتال.

من آدابِ الجهادِ في سبيلِ الله قبلَ القتال؛ دعوةُ الكافرين إلى إحدى خصالٍ ثلاث:

أولاها: الإسلام.

فإذا دخلوا في الإسلامِ فقد عصَموا دماءَهم وأموالَهم، وصاروا للمسلمين إخواناً، لهم ما لَهم، وعليهم ما عليهم، وتلك هي الغايةُ العظمى من القتال والجهادِ في الإسلام، وينبغي ألا يكون عَنْ إكراهٍ، بل عن اقتناع كاملٍ؛ لقوله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [البقرة:٢٦٥].

ثانيها: الجزية.

لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ٢٩﴾ [التوبة:٢٩].

فإن أَعطَوها قُبِلَت منهم، وحُقِنَت بها دماؤُهم، وعُصِمَت أموالُهم، وإن رفضوا الإسلامَ والجزيةَ فقد أَصرُّوا على القتال فتعيَّنَ على المسلمين قتالُهم.

ولذلك قال ﷺ: «**فإن هُم أَبَوا فاستَعِنْ بالله وقاتِلْهُم**»[1].

(١) صحيح: رواه مسلم (١٧٣١).

ومن آدابِ القتالِ في الإسلام أثناء القتال:

أولاً: إحسانُ القتلِ.

لقولِه ﷺ: «**إنَّ اللهَ كتبَ الإحسانَ على كُلِّ شيءٍ؛ فإذا قتَلتُم فأحسِنوا القِتلةَ**»[1].

ثانياً: اتقاءُ الوجه.

لقوله ﷺ: «**إذا قاتَلَ أحدُكم فليجتَنِبِ الوجهَ**»[2].

ثالثاً: أن لا يقتُلوا النساءَ والصبيان.

فعنِ ابنِ عمرَ رضي الله عنهما قال: «**وُجِدَتِ امرأةٌ مقتُولَةً في بعضِ مغازي رسولِ الله ﷺ فنهى رسولُ الله ﷺ عن قتلِ النساءِ والصبيان**»[3].

رابعاً: أن لا يحرقوا بالنار.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (بَعَثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي بَعثٍ وَقَالَ لَنَا: «**إِن لَقِيتُم فُلَانًا وَفُلَانًا لِرَجُلَينِ مِن قُرَيشٍ سَمَّاهُمَا فَحَرِّقُوهُمَا بِالنَّارِ**» ثُمَّ أَتَينَاهُ نُوَدِّعُهُ حِينَ أَرَدنَا الخُرُوجَ فَقَالَ: «**إِنِّي كُنتُ أَمَرتُكُم أَن تُحَرِّقُوا فُلَانًا وَفُلَانًا بِالنَّارِ، وَإِنَّ النَّارَ لَا يُعَذِّبُ بِهَا إِلَّا اللَّهُ، فَإِن أَخَذتُمُوهُمَا فَاقتُلُوهُمَا**»[4]).

---

(١) **صحيح**: رواه مسلم (١٩٥٥).

(٢) **متفق عليه**: رواه البخاري (٢٥٥٩)، ومسلم (٢٦١٢).

(٣) **متفق عليه**: رواه البخاري (٣٠١٤)، ومسلم (١٧٤٤).

(٤) **صحيح**: رواه البخاري (٢٩٥٤).

خامساً: أن لايقتلوا الكافرَ إذا نطقَ بالشهادتين، حتى لو فعلَ بالمسلمينَ ما فعل.

لأنَّ مَن قال: لا إله إلا الله، محمدٌ رسولُ اللهِ ﷺ، فقد عصمَ دمَه ومالَه وعِرضَه. وفي هذا دلالةٌ على حرصِه ﷺ على هدايةِ الناسِ، لا على قتالهم.

عن جُندُبَ بنِ عبدِ الله البَجَليِّ ﷺ قال: (إنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعَثَ بَعثًا مِنَ المُسلِمِينَ إِلَى قَومٍ مِنَ المُشرِكِينَ. وَإِنَّهُمُ التَقَوا، فكَانَ رَجُلٌ مِنَ المُشرِكِينَ إِذَا شَاءَ أَن يَقصِدَ إِلَى رَجُلٍ مِنَ المُسلِمِينَ قَصَدَ لَهُ فَقَتَلَهُ، وَإِنَّ رَجُلاً مِنَ المُسلِمِينَ قَصَدَ غَفلَتَهُ. قَالَ: وَكُنَّا نُحَدَّثُ أَنَّهُ أُسَامَةُ بنُ زَيدٍ. فَلَمَّا رَفَعَ عَلَيهِ السَّيفَ قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ، فَقَتَلَهُ ... فَجَاءَ البَشِيرُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَسَأَلَهُ فَأَخبَرَهُ حَتَّى أَخبَرَهُ خَبَرَ الرَّجُلِ كَيفَ صَنَعَ. فَدَعَاهُ، فَسَأَلَهُ.

فَقَالَ: «**لِمَ قَتَلتَهُ؟**» قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهَ! أَوجَعَ فِي المُسلِمِينَ.

وَقَتَلَ فُلاَنًا وَفُلاَنًا. وَسَمَّى لَهُ نَفَرًا. وَإِنِّي حَمَلتُ عَلَيهِ فَلَمَّا رَأَى السَّيفَ قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ.

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**أَقَتَلتَهُ؟**» قَالَ: نَعَم.

قَالَ: «**فَكَيفَ تَصنَعُ بِلاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ إِذَا جَاءَت يَومَ القِيَامَةِ؟**».

قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! استَغفِر لِي.

قَالَ: «**وَكَيفَ تَصنَعُ بِلاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ إِذَا جَاءَت يَومَ القِيَامَةِ؟**».

قَالَ: فَجَعَلَ لاَ يَزِيدُ عَلَى أَن يَقُولَ: «**كَيفَ تَصنَعُ بِلاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ إِذَا جَاءَت يَومَ القِيَامَةِ؟**»[(١)]).

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٩٧).

بل أَصرَحُ مِن ذلكَ: نهيُهُ ﷺ صراحةً عن قتلِ من أسلمَ، وقال: لا إلهَ إلا الله، أثناءَ المعركةِ، ولو قطعَ يَدَ المسلمِ المقاتِلِ.

عن المِقدادِ بنِ الأسود رضي الله عنه قال: يا رسولَ الله! أرأيتَ إن لقيتُ رجلاً من الكفار. فقاتلَني. فضربَ إحدى يدَيَّ بالسَّيفِ فقطعها. ثم لاذ مِني بشجرةٍ؟

فقال: أسلمتُ لله. أفأقتُلُهُ يا رسولَ الله! بعد أن قالها؟

قال رسولُ الله ﷺ: «**لا تقتلْه**».

قال فقلتُ: يا رسولَ الله! إنه قد قطعَ يدي.

ثم قال ذلك بعد أن قطعها. أفأقتُلُهُ؟

قال رسولُ الله ﷺ: «**لا تقتُلْهُ! فإن قتَلتَهُ فإنه بمنزَلتِكَ قبلَ أن تقتُلَهُ. وإنكَ بمنزلَتِهِ قبل أن يقول كلِمَتَهُ التي قال**»(١).

فلو كانَ الهدفُ من الجهادِ العدوانَ والقتلَ لما نهى ﷺ المقدادَ رضي الله عنه عن قتلِ من قطعَ يدَه، ولما لامَ أسامةَ رضي الله عنه على قتلِ مَن أعلنَ إسلامَه، مع احتمالِ كونِ القائلِ غيرَ صادق.

ومن آداب القتال في الإسلام بعد انتهاء القتال.

أولاً: النهيُ عن المُثلَةِ.

لقوله ﷺ: «**لا تَمْثُلُوا**»(٢).

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري (٤٠١٩)، ومسلم (٩٥).

(٢) **صحيح**: رواه مسلم (١٧٣١).

فلا يجوزُ أن يُمثِّلَ المسلمون بقتلى المشركين، بقطع أنفٍ أو أذنٍ أو يدٍ أو رجلٍ أو غير ذلك.

ثانياً: الأمرُ بدفنِ قتلى المشركين.

فقد كانَ ﷺ بعدَ الانتهاءِ من المعركةِ يأمرُ بدفنِ قتلى الكفار.

ثالثاً: الأمرُ بالإحسان إلى الأسرى.

ففي غزوةِ بدرٍ أمكَنَ اللهُ رسولَه من المشركينَ، فقَتَلَ منهم سبعين وأسَرَ سبعين، فلما رجعَ ﷺ إلى المدينةِ فَرَّقَ الأسرى بين الصحابةِ، ووصَّاهم بهم خيراً، فكانوا يُطعِمونَهم ويَسقونَهم، فضربوا بذلك مثلاً أعلى في حسنِ معاملةِ الأسرى حتى مدحَهُم اللهُ في كتابه.

فقال تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾﴾ [الإنسان].

رابعاً: النهيُ عن الغُلولِ.

وهو الأخذُ منَ الغنائِم قبلَ قِسمتِها، فقد أقبلَ نفرٌ من أصحاب النبيِّ ﷺ يومَ خيبر فقالوا: فلانٌ شهيدٌ، حتى مرُّوا على رجلٍ فقالوا فلانٌ شهيدٌ.

فقال رسولُ الله ﷺ: «**كلا إني رأيتُهُ في النارِ في بُردَةٍ غَلَّها أو عباءَةٍ**»(١).

---

(١) **صحيح**: رواه مسلم (١١٤).

خامساً: النهيُ عن الغدرِ.

فإذا انتهتِ الحربُ بصُلحٍ عامٍّ أو مُعاهَدةٍ، أو أجارَ أحدٌ من المسلمين مُحارِباً، أو أعطاهُ أماناً وجبَ الوفاءُ بالعهدِ والأمان، وَحَرُمَ الغدرُ والخيانةُ.

قال ﷺ: «**من قتلَ مُعاهَداً لم يُرِحْ رائحةَ الجنةِ، وإنَّ ريحَها تُوجدُ من مسيرةِ أربعين عاماً**»(١).

فنقولُ للجماعات والفِرقِ التي غَلَت في دينِها، وأخذت تُكَفِّرُ مَن خالفها ثم تقتلُه: لقد ضللتم ضلالاً مبيناً، وسلكتم سبيلاً غيرَ سبيل المؤمنين، وأسأتم إلى أنفسِكم والإسلامِ والمسلمينَ، ولن تزدادوا بفعلِكم هذا من الله إلا بُعداً، لأنه مَن لم يرحمِ الناسَ لا يُرحم. ونقولُ لأعداءِ الإسلامِ وللدنيا كُلِّها بَأعلى صوتٍ: هذا هو دينُنا؛ دينُ الرحمةِ، ودينُ الجهادِ في سبيلِ الله لإخراجِ الناسِ من الظلماتِ إلى النور.

والمؤمنون الذين آمنوا بالله ورسولِه وسلكوا سبيلَ الصحابةِ ؓ؛ هم أعلمُ الناسِ بالحقِّ، وأرحمُ الناسِ بالخلق، وذلك لأنهُ قد صَلَحَت قلوبُهم، وامتلأت بالرحمةِ، فإذا أردتَ يا عبدَ اللهِ أن تُصلحَ قلبَكَ بالرحمةِ فعليك بما يلي:

أولاً: برحمةِ الخلقِ من إنسانٍ وحيوان.

قال ﷺ: «**الرَّاحِمُونَ يَرحَمُهُمُ الرَّحمَنُ، ارحَمُوا مَن في الأَرضِ يَرحَمْكُم مَن فِي السَّماءِ**»(٢).

---

(١) **صحيح**: رواه البخاري (٣١٦٦).

(٢) **حسن لغيره**: رواه الترمذي (١٩٢٤)، وأبو داود (٤٩٤١)، وأحمد (٢/ ١٦٠) [«صحيح الترغيب» (٢٢٥٦)].

وقال ﷺ: «**لن تؤمِنوا حتى تَراحَموا**».

قالوا: يا رسولَ الله! كلُّنا رحيمٌ.

قال: «**إنه ليس برحمةِ أحدِكُم صاحِبَهُ، ولكنَّها رحمةُ العامَّةِ**»[١].

وقال ﷺ: «**ارحَموا تُرحَموا، واغفِروا يُغفَرْ لكم، ... ويلٌ للمُصِرِّينَ، الذين يُصِرُّون على ما فعلوا وهم يعلمون**»[٢].

فهذه امرأةٌ بغيٌّ من بغايا بني إسرائيل رَحِمَت كلباً فَسَقَتهُ فغفرَ اللهُ لها[٣].

وهذه امرأةٌ حبَسَت هرةً حتى ماتت فأدخلَها اللهُ النار[٤].

فمن رحمَ الخلقَ رحمه اللهُ، وغفرَ ذنبَهُ وطَهَّرَ قلبَهُ وأدخلَه الجنةَ ومن لم يرحم الناسَ لا يرحمُه اللهُ.

كيف لا؟

والنبيُّ ﷺ يقول: «**لا تُنزَعُ الرحمةُ إلا من شقيٍّ**»[٥].

(١) **حسن لغيره**: رواه النسائي في «الكبرى» (٥٩٢٨)، وأبو يعلى (٤٢٥٨)، [«صحيح الترغيب» (٢٢٥٣)].

(٢) **صحيح**: رواه أحمد (٢/١٦٥)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٣٨٠)، وعبد بن حميد (٣٢٠)، والطبراني في «الشعب» (١٤٥٧٩)، [«صحيح الترغيب» (٢٢٥٧)].

(٣) **صحيح**: رواه مسلم (٢٢٤٥).

(٤) **متفق عليه**: رواه البخاري (٢٣٦٥)، ومسلم (٢٢٤٢).

(٥) **صحيح**: رواه الترمذي (١٩٢٣)، وأبو داود (٤٩٤٢)، وأحمد (٢/٥٣٩)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٣٧٤)، [«صحيح الترغيب» (٢٢٦١)].

فهؤلاء الذين يُكَفِّرونَ مَن خالفهم، ويقطعون رأسَهُ بلا رحمة ولا شفَقة، أقولُ لهم: كيف يُمَكِّنُكمْ اللهُ في الأرضِ وقد نُزِعَتِ الرحمةُ من قلوبكم؟!

وأقولُ لهم: أما تسمعون بهذا الحديث.

يقول ﷺ: «**ما من إنسانٍ يقتلُ عصفوراً فما فوقَها بغيرِ حقِّها، إلا سألَهُ اللهُ عنها يومَ القيامة**».

قيل: يا رسولَ الله! وما حقُّها؟

قال: «**حقُّها أن يَذبَحَها فيأكُلَها، ولا يقطعَ رأسَها فيرمي به**»(١).

وقال رجلٌ يا رسول الله! إني لأرحَم الشاةَ أن أذبَحها فقال ﷺ: «**إن رَحِمتَها رحِمَكَ اللهُ**»(٢).

ثانياً: برحمةِ اليتيم والمسحِ على رأسِه.

عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: (أتىَ النبيَّ ﷺ رجلٌ يشكو قسوةَ قلبه، قال: «**أتُحِبُّ أن يَلينَ قلبُك، وتُدرِكَ حاجتَك؟ ارحمِ اليتيمَ، وامسَحْ رأسَه، وأطعمهُ من طعامِك؛ يَلِنْ قلبُك، وتُدرِكْ حاجتَك**»(٣)).

فرحمةُ الخلقِ تُصلحُ القلبَ، وصلاحُ القلبِ سببٌ لسعادةِ الدنيا والآخرة، فارحموا مَن في الأرضِ يرحمْكم مَن في السماء.

---

(١) **حسن**: رواه النسائي «الكبرى» (٤٨٤١)، والحاكم (٧٥٧٤)، [«صحيح الترغيب» (٢٢٦٦)].

(٢) **صحيح**: رواه النسائي في «الشعب» (٤٥١٩)، والحاكم (٧٥٧٤)، [«صحيح الترغيب» (٢٢٦٤)].

(٣) **حسن لغيره**: رواه معمر في جامعه (٢٠٠٢٩)، والطبراني في «الكبير» كما في «مجمع الزوائد» (٨/١٦٠)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/٢١٤)، [«صحيح الترغيب» (٢٥٤٤)].

الوسيلةُ العاشرةُ لإصلاحِ القلوبِ

الرحمة باليتيم

رحمةُ اليتيم تكون بالقربِ منه والرفقِ به، وبِرِّه، والمسحِ على رأسِه، وإطعامِه.

ورحمةُ اليتيمِ سببٌ لإصلاحِ القلبِ ورقتِه وتليينهِ.

يقولُ ﷺ: «**أَدنِ اليتيمَ مِنك**» -أي: قَرِّبه-، «**وَأَلْطِفْهُ**» -أي: ارفُق به وبِرَّه- «**وامسح برأسِه، وأطعِمهُ من طعامِك، فإن ذلك يُلينُ قلبَك، ويُدرِكُ حاجتكَ**»[1].

ويقولُ أبو الدرداءِ رضي الله عنه: أتى النبيَّ ﷺ رجلٌ يشكو قسوةَ قلبِه، فقالَ ﷺ: «**أتحبُّ أن يَلينَ قلبُكَ وتُدرِكَ حاجتَك؟ ارحمِ اليتيمَ، وامسح رأسَهُ، وأطعمهُ من طعَامك، فإنَّ ذلك يُلينُ قلبَك وتُدرِكُ حاجتك**»[2].

وَاليتيمُ شرعاً: هو الصغيرُ الذي فقدَ أباه بالموت، والصغيرُ إذا فقدَ أباهُ فقد فقدَ الحنانَ والعطفَ والرحمةَ والابتسامةَ، وأصبحَ ضعيفاً، والاعتداءُ على حقِّ هذا اليتيمِ الضعيفِ جريمةٌ نكراءُ، والاعتداءُ على ماله سَببٌ لدخول النار.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾ [النساء].

---

(١) **حسن**: رواه الخرائطي في «مكارم الأخلاق» (٦٦١)، والبيهقي في «الشعب» (١٠١٧٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢١٤)، [«صحيح الجامع» (٢٥٠)].

(٢) **حسن لغيره**: رواه الطبراني في «الكبير» كما في «مجمع الزوائد» (٨/ ١٦٠)، ومعمر (٢٠٠٢٩)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢١٤)، [«صحيح الترغيب» (٢٥٤٤)].

وقال ﷺ: «**اللَّهمَّ إني أُحرِّجُ حقَّ الضعيفين: اليتيمِ والمرأةِ**»(١).

وقال ﷺ لأبي ذرٍ رضي الله عنه عندما طلبَ أبو ذرٍّ أن يُوَلِّيهِ منصباً من المناصبِ: «**يا أبا ذرٍّ! إنك ضعيفٌ، وإنها أمانةٌ، وإنها يومَ القيامةِ خزيٌ وَندامةٌ...**»(٢).

وفي روايةٍ: قالَ: «**يا أبا ذرٍّ! إني أراكَ ضعيفاً، وإني أحبُّ لك ما أُحبُّ لنفسي، لا تَأمَّرَنَّ على اثنين، ولا تَوَلَّيَنَّ مالَ يتيمٍ**»(٣).

فرحمةُ اليتيمِ والإحسانُ إليه سببٌ لإصلاحِ القلب، وسببٌ لدخولِ الجنةِ، والاعتداءُ على اليتيمِ وإهانتُهُ سببٌ لقسوةِ القلبِ، وسببٌ لدخولِ النار.

فمن أرادَ أن يُصلحَ قلبَهُ ويدخلَ الجنة فعليه أن يرحمَ اليتيمَ، ورسولُنا ﷺ نبيُّ الرحمةِ، الذي أرسله الله رحمةً للعالمين هو أرحمُ الناسِ باليتيم، فعلى المسلمِ المحبِّ لرسولِ اللهِ ﷺ أن يتأسى به في رحمتِه لليتيمَ.

ومن مظاهرِ رحمتِه ﷺ باليتيمِ:

أولاً: أنه ﷺ حثَّ على كفالةِ اليتيمِ والإحسانِ إليه والإنفاقِ عليه.

• قال ﷺ: «**أنا وكافلُ اليتيمِ في الجنةِ هكذا**»، وأشارَ بالسَّبابةِ والوسطى وفرّج بينهما شيئاً(٤).

---

(١) **صحيح**: رواه ابن ماجه (٣٦٧٨)، والنسائي في «الكبرى» (٩١٠٤)، وأحمد (٢/٤٣٩)، [«السلسلة الصحيحة» (١٠١٥)].

(٢) **صحيح**: رواه مسلم (١٨٢٥).

(٣) **صحيح**: رواه مسلم (١٨٢٦).

(٤) **صحيح**: رواه البخاري (٦٠٠٥).

قال ابنُ بطالٍ رحمه الله في تعليقِه على هذا الحديثِ: (حقٌّ على كلِّ مؤمنٍ يسمعُ هذا الحديثَ أن يرغبَ في العملِ به، ليكونَ في الجنةِ رفيقاً للنبيِّ ﷺ، ولجماعةِ النبيينَ والمرسلينَ، صلواتُ الله عليهم أجمعين، ولا منزلةَ عند اللهِ في الآخرةِ أفضلُ من مرافقةِ الأنبياءِ)(١).

• وقال ﷺ: «**كافلُ اليتيمِ له أو لغيره، أنا وهو كهاتين في الجنة**»(٢). ومعنى قولِهِ: «**له أو لغيره**» الذي له: أن يكونَ قريباً له كجدِّه وأمِّه وجدتِه وأخيه وأختِه وعمِّه وخالِه وعمته وخالتِه، وغيرِهم من أقاربِه، والذي لغيره أن يكونَ أجنبياً.

والنفقةُ على اليتيمِ أجرُها عظيمٌ، وعلى اليتيمِ القريبِ أعظمُ أجراً.

والدليلُ على ذلك:

• لما قالَ النبيُّ ﷺ للنساءِ: «**تَصدَّقْنَ ولو مِن حُلِيِّكُنَّ**» سألتْ زينبُ امرأةُ عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ النبيَّ ﷺ بواسطةِ بلالٍ رضي الله عنه أَيُجزئُ عني أن أنفقَ على زوجي وأيتامٍ لي في حِجري من الصدقة؟ فقالَ النبيُّ ﷺ: «**نعم، ولها أجران: أجرُ القرابةِ وأجرُ الصدقةِ**»(٣).

• وقالت أمُّ سلمةَ رضي الله عنها يا رسولَ الله! ألي أجرٌ أَن أنفقَ على بَنيِّ أبي سلمةَ؟ إنما هم بَنِيَّ. فقال ﷺ: «**أنفقي عليهم، فلكِ أجرُ ما أنفقتِ عليهم**»(٤).

---

(١) شرح ابن بطال (٩/٢١٧).

(٢) **صحيح**: رواه مسلم (٢٩٨٣).

(٣) **متفق عليه**: البخاري (١٤٦٦)، ومسلم (١٠٠٠).

(٤) **متفق عليه**: البخاري (١٤٦٧)، ومسلم (١٠٠١).

وقد جاءتِ الآياتُ في كتابِ ربِّنا تحثُّ على كفالةِ اليتيمِ، قال تعالى: ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾ [آل عمران:٣٧]. وقال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [آل عمران].

وجعلَ اللهُ عز وجل الإحسانَ إلى اليتيمِ من البرِّ الذي هو عنوانُ الصدقةِ والإيمانِ والتقوى، قال تعالى: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ ﴾ إلى أن قال رب العزة: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾ [البقرة].

• ولذلكَ كانَ عبدُ الله بنُ عمرَ رضي الله عنهما لا يأكلُ طعاماً إلا وعلى خِوانِه -وهو ما يوضع عليهِ الطعامُ- يتيمٌ(١).

وقال داودُ عليه السلام: (كن لليتيمِ كالأبِ الرحيمِ، واعلم أنك كما تزرعُ تحصدُ)(٢).

(١) صحيح: رواه عبد الله بن أحمد في «زوائد الزهد» (١٨٩)، والبخاري في «الأدب المفرد» (١٣٦)، [«صحيح الأدب المفرد» (١٠٢)].

(٢) صحيح: رواه عبد الرزاق في «مصنفه» (٢٠٥٩٣)، والبخاري في «الأدب المفرد» (١٣٨)، [«صحيح الأدب المفرد» (١٠٣)].

ثانياً: ومن مظاهرِ رحمتِه ﷺ باليتيم: تحريمُه ﷺ أكلَ مالِ اليتيمِ

• قال ﷺ: «اجتنبوا السبعَ الموبقاتِ». قالوا: يا رسولَ اللهِ! وما هنّ؟ قال: «الشركُ باللهِ، والسِّحرُ، وقتلُ النفسِ التي حرم اللهُ إلا بالحقِّ، وأكلُ الربا، وأكلُ مالِ اليتيمِ، والتولي يومَ الزحفِ، وقذفُ المحصناتِ المؤمناتِ الغافلاتِ»[1].

• وقال ﷺ: «اجتنبوا الكبائرَ السبعَ: الشركُ باللهِ، وقتلُ النفسِ، وَالفِرارُ منَ الزحفِ، وأكلُ مالِ اليتيمِ..» الحديث[2].

• وقال ﷺ لأبي ذر رضي الله عنه: «يا أبا ذرٍّ! إنك ضعيفٌ، وإنها أمانةٌ، وإنها يومَ القيامةِ خزيٌّ وندامةٌ ..» الحديث[3].

وفي رواية: قال: «يا أبا ذر إني أراكَ ضعيفاً، وإني أحبُّ لكَ ما أحبُّ لنفسي، لا تأمَّرَنَّ على اثنين، ولا تَوَلَّيَنَّ مالَ يتيمٍ»[4].

وقد حَذَّرَنا اللهُ -عز وجل- في كتابه من أكلِ أموالِ اليتامى.

• قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ إلى أن قال ربُّ العزة ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ [الأنعام].

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري (٢٧٦٦)، ومسلم (٨٩).

(٢) **حسن**: رواه الطبراني في «الكبير» (٥٦٣٦)، [«السلسلة الصحيحة» (٢٢٤٤)].

(٣) **صحيح**: رواه مسلم (١٨٢٥).

(٤) **صحيح**: رواه مسلم (١٨٢٦).

• وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ ﴾ [الإسراء].

• وقال تعالى: ﴿ وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾ ﴾ [النساء].

• وقال تعالى: ﴿ وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾ ﴾ [النساء].

• وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ ﴾ [النساء].

• وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما أنزلَ اللهُ -عز وجل- ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [الإسراء]، و﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ ﴾ [النساء].

انطَلَقَ مَن كانَ عنده يتيمٌ، فعزلَ طعامَه من طعامِه، وشرابَه من شرابِهِ، فجعلَ يَفضُلُ من طعامِهِ -أي اليتيمِ- فيُحبَسُ له حتى يأكلَه أو يفسدَ، فاشتدَّ ذلكَ عليهم، فذكروا ذلك لرسولِ اللهِ ﷺ فأنزلَ اللهُ عز وجل: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ

ﭐلۡيَتَٰمَىٰۖ قُلۡ إِصۡلَاحٞ لَّهُمۡ خَيۡرٞۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ ﴾ [البقرة:٢٢٠]. فخلَطوا طعامَهم بطعامِهِ، وشرابَهم بشرابِهِ[1].

وقد حفظَ اللهُ أموالَ اليتامى، فأرسلَ الخَضِرَ وموسى -عليهم السلام- لبناءِ الجدارِ على كنزِهما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلۡجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيۡنِ يَتِيمَيۡنِ فِي ٱلۡمَدِينَةِ وَكَانَ تَحۡتَهُۥ كَنزٞ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحٗا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبۡلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسۡتَخۡرِجَا كَنزَهُمَا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ وَمَا فَعَلۡتُهُۥ عَنۡ أَمۡرِيۚ ذَٰلِكَ تَأۡوِيلُ مَا لَمۡ تَسۡطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرٗا ٨٢﴾ [الكهف].

- وقد جعلَ اللهُ لليتامى حقاً في المالِ العام وحقاً في المالِ الخاص.

فأما في المالِ العام:

قال تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الأنفال:٤١].

وقال تعالى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الحشر:٧].

أما في المالِ الخاصِّ: فقد جعلَ اللهُ لليتامى حقاً من صدقاتِ الأغنياءِ.

قال تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلۡ مَآ أَنفَقۡتُم مِّنۡ خَيۡرٖ فَلِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [البقرة:٢١٥].

---

(١) حسن: رواه أبو داود (٢٨٧١)، والبيهقي «الكبرى» (٦/٤٦٥)، والحاكم (٣٢٣٩)، [«صحيح سنن أبي داود» (٢٨٧١)].

ثالثاً: ومن مظاهرِ رحمِته ﷺ باليتيمِ: حثُّه ﷺ على اعطاءِ اليتيمِ ميراثه بخلافِ ما كانَ سائداً في الجاهلية.

عن جابرِ بنِ عبدِ الله رضي الله عنهما قال: جاءت امرأةُ سعدِ بنِ الربيعِ بابنتي سعدٍ إلى النبيِّ ﷺ فقالت: يا رسولَ اللهِ! هاتان ابنتا سعدٍ، قُتل معكَ يومَ أحدٍ. وإنَّ عَمَّهُما أخذَ جميعَ ما تركَ أبوهما، وإنَّ المرأةَ لا تُنكحُ إلا على مالِها. فسكتَ رسولُ اللهِ ﷺ حتى أُنزلَت آيةُ الميراثِ. فدعا رسولُ اللهِ ﷺ أخا سعدِ بنِ الربيعِ. فقال: «**أعط ابنتي سعدٍ ثُلثي مالِه، وأعطِ امرأتَه الثُمُنَ، وخذ أنتَ ما بقي**»(١).

فَليحذرِ الذين يَحرمونَ البناتِ من الميراثِ، ويحرمون اليتامى من الميراثِ، ويتعدَّونَ حدودَ الله، فإنَّ اللهَ عز وجل أنزلَ على رسولِه ﷺ آيةَ الميراث، وأعطى كلَّ ذي حقٍّ حقَّه. ثم قال بعدَها: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾ [النساء].

ورسولُنا ﷺ يُحذرُ من الاعتداءِ على حقِّ الضعيفين فقال ﷺ: «**اللَّهمَّ إني أُحرِّجُ حقَّ الضعيفين: اليتيمِ والمرأةِ**»(٢).

---

(١) **حسن**: رواه الترمذي (٢٠٩٢)، وابن ماجه (٢٧٢٠)، وأحمد (٣/٣٥٢)، [«صحيح سنن ابن ماجه» (٢١٩٩)].

(٢) **صحيح**: رواه ابن ماجه (٣٦٧٨)، والنسائي في «الكبرى» (٩١٠٤)، وأحمد (٢/٤٣٩)، [«السلسلة الصحيحة» (١٠١٥)].

رابعاً: ومن مظاهرِ رحمتِه ﷺ باليتيمِ: نهيه ﷺ عن إجبارِ اليتيمةِ على الزواج.

• عن أبي موسى الأشعريِّ رضي الله عنه قال: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**تُستأمَرُ اليتيمةُ في نفسِها، فإن سكتَت فقد أَذنت، وإن أَبت لم تُكرَه**»(١).

• وعن أبي هريرةَ رضي الله عنه قال: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**تُستأمرُ اليتيمةُ في نفسِها، فإن سكتت فهو إذنُها، وإن أَبَت فلا جوازَ عليها**»(٢).

خامساً: ومن مظاهرِ رحمتِه ﷺ باليتيمِ: حثُّه ﷺ على إكرامِ اليتيمِ، ونهيه عن إهانةِ اليتيمِ.

فها هو ﷺ يحثُّ على إكرامِ اليتيمِ من طعامٍ وغيرِه:

• فيقولُ ﷺ للرجلِ الذي شكا قسوةَ قلبِه: «**ارحمِ اليتيمَ، وامسح رأسَه، وأطعِمه من طعامِك؛ يلِنْ قلبُك وتُدركْ حاجتَك**»(٣).

• وقال ﷺ: «**من أنفقَ على بِنتينِ أو أُختين أو ذَواتي قرابةٍ، يحتسبُ النفقةَ عليهما حتى يُغنِيَهما من فضلِ اللهِ، أو يَكفِيَهما؛ كانتا له ستراً من النار**»(٤).

---

(١) صحيح: رواه أحمد (٤/٣٩٤)، والدارمي (٢٢٣١)، وابن حبان (٤٠٨٥)، [«التعليقات الحسان» (٤٠٧٣)].

(٢) حسن صحيح: رواه أبو داود (٢٠٩٣)، والترمذي (١١٠٩)، والنسائي (٣٢٧٠)، وأحمد (٢/٢٥٩)، [«التعليقات الحسان» (٤٠٦٧)].

(٣) حسن لغيره: رواه الطبراني في «الكبير» كما في «مجمع الزوائد» (٨/١٦٠)، ومعمر (٢٠٠٢٩)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/٢١٤)، [«صحيح الترغيب» (٢٥٤٤)].

(٤) حسن لغيره: رواه أحمد (٦/٢٩٣)، والطبراني في «الكبير» (٢٣/٣٩٢/ ٩٣٨)، [«صحيح الترغيب» (٢٥٤٧)].

كيف لا، واللهُ عز وجل في كتابه يحثُّ على إطعامِ اليتيمِ ويمدح الذين يُطعمون اليتامى، ويَعِدُهم بالنجاةِ من شرِّ يومِ القيامةِ، ويعدُهم بالجنة.

قال تعالى: ﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ ﴿١٤﴾ يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوۡ مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٖ ﴿١٦﴾﴾ [البلد]. وقال تعالى: ﴿وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوۡمًا عَبُوسٗا قَمۡطَرِيرٗا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمِ وَلَقَّىٰهُمۡ نَضۡرَةٗ وَسُرُورٗا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةٗ وَحَرِيرٗا ﴿١٢﴾﴾ [الإنسان].

وها هو ﷺ ينهى عن إهانةِ اليتيمِ والاعتداءِ عليه، فحرّمَ الاعتداءَ على مالِ اليتيم، وعَدَّهُ من الكبائرِ ومنَ الموبقاتِ، وحرَّمَ ﷺ الاعتداءَ على ميراثِ اليتيم. كيفَ لا؟ والله عز وجل ينهى في كتابه عن الاعتداءِ على اليتيمِ وإهانتهِ، فيقولُ سبحانه: ﴿فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ﴿٩﴾﴾ [الضحى].

وشدَّدَ ربُّنا -جل وعلا- في النهي عن إهانةِ اليتيم، وجعلَها من شِيَمِ الكافرين المكذبين بيومِ الدين، فقالَ تعالى: ﴿أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِي يَدُعُّ ٱلۡيَتِيمَ ﴿٢﴾﴾ [الماعون]. وقال تعالى متوعداً هؤلاء: ﴿كَلَّاۖ بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ ﴿١٧﴾﴾ [الفجر].

فعلى المسلمين أن يتأسَّوا برسولِ اللهِ ﷺ في رحمتهِ بالأيتامِ.

• فمَن رحمَ اليتيمَ رحمه الله، ومن رحم اليتيمَ وكفلَه كانَ مع رسولِ اللهِ ﷺ في الجنة، ومن رحمَ اليتيمَ نجا من عذابِ النارِ، ومن رحمَ اليتيمَ رقّ قلبُه. فالراحمونَ يرحمُهم اللهُ، ارحموا مَن في الأرض يَرحَمْكم مَن في السماء.

الوسيلة الحاديةَ عشرةَ لإصلاح القلوب

إخلاصُ العملِ لله، ومناصَحَةُ ولاةِ الأمرِ، ولزومُ الجماعةِ

يقول الله عز وجل في كتابه: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴿٣٤﴾﴾ [ق].

ويقول ﷺ: «**يدخلُ الجنةَ أقوامٌ أفئِدتُهُم**» -أي: قلوبُهم- «**مِثلُ أفئدةِ الطيرِ**»[١].

قولُه: «**مثلُ أفئدةِ الطيرِ**» -أي: في الرقةِ واللينِ، والرحمةِ والصفاءِ، والخلوِّ من الحسدِ والحقدِ، والغِلِّ والبَغضاءِ، خاليةٌ من كُلِّ ذنبٍ، سليمةٌ من كلِّ عيبٍ[٢].

أدلةٌ من الكتابِ والسنةِ تُصَرِّحُ أنَّ الجنةَ أُعِدَّت لأصحابِ القلوبِ السليمةِ اللينةِ الرقيقةِ الرحيمةِ الخاليةِ منَ الحقدِ والحسدِ والغلِّ والبغضاءِ، ولذلك ينبغي للعاقِلِ أن يعملَ ليلاً ونهاراً لإصلاحِ قلبهِ وتطهيره من هذه الأمراض، ومن وسائلِ إصلاحِ القلوبِ وتطهيرها:

إخلاصُ العملِ لله، ومناصحةُ ولاةِ الأمرِ، ولزومُ الجماعةِ.

يقولُ ﷺ: «**ثلاثُ خِصالٍ لا يَغِلُّ عليهنَّ قلبُ مُسلم أبداً: إخلاصُ العمل لله، ومناصحةُ ولاةِ الأمر، ولزومُ الجماعةِ، فإنَّ دَعوَتَهم تُحيطُ من وَرائِهم**»[٣].

(١) **صحيح**: رواه مسلم (٢٨٤٠).

(٢) «مرقاة المفاتيح» (١٠/٢٩٧).

(٣) **صحيح**: رواه أحمد (٥/١٨٣)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٩٤)، وابن حبان (٦٧)، [«السلسلة الصحيحة» (٤٠٤)].

والمعنى: أنَّ هذهِ الخصالَ الثلاثَ تُستَصلَحُ بها القلوبُ، فمن تمسَّكَ بها طَهُرَ منَ الخيانةِ والدَّخَنِ والشَّرِّ وجميعِ الأمراضِ التي تُصيبُ القلوبَ.

الخَصلةُ الأولى لإصلاحِ القلوبِ: إخلاصُ العملِ لله.

فالمخلصُ للهِ إخلاصُهُ يمنعُ غِلَّ قلبِه، ويُخرِجُهُ ويُزيلهُ جملةً؛ لأنَهُ قد انصرفَت دواعي قلبِه وإرادتِه إلى مرضاةِ رَبِّه فلم يبقَ فيه موضعٌ للغلِّ والغشِّ.

كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [يوسف].

فلما أخلصَ لربِّه صرفَ عنه دواعيَ السوءِ والفحشاءِ، فانصرفَ عنه السوءُ والفحشاءُ، ولهذا لما علِمَ إبليسُ أنه لا سبيلَ له على أهلِ الإخلاصِ استثناهم من شَرطتِهِ التي اشترطها للغِوايةِ والإهلاكِ فقال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [ص].

وقال تعالى لإبليس: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحِجر].

فالإخلاصُ هو سبيلُ الخَلاص، والإخلاصُ هو سبيلُ النجاحِ؛ والإخلاصُ هو صدقُ النيةِ معَ اللهِ تعالى، والنيةُ مَحَلُّها القلبُ، فالإخلاصُ للهِ يُصلحُ القلبَ ويُطَهِّرُهُ.

• الإخلاصُ في طلبِ العلمِ؛ قال ﷺ: «**مَن طَلَبَ العلمَ ليُجارِيَ بهِ العلماءَ، أو ليُمارِيَ بهِ السُّفَهاءَ، أو يَصرِفَ به وجُوهَ النَاسِ إليهِ أدخلَهُ اللهُ النارَ**»(١).

• الإخلاصُ في العبادة؛ قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ۝٥﴾ [البيِّنة].

• الإخلاصُ في الجهادِ في سبيلِ الله؛ عَنْ أبي موسى الأشعريِّ رضي الله عنه أن رجلاً أعرابياً أتى النبيَّ ﷺ فقال: يا رسولَ اللهِ! الرجُلُ يُقَاتِلُ لِلمَغنَمِ، والرجُلُ يُقَاتِلُ لِيُذكَرَ، والرجُلُ يُقَاتِلُ لِيُرى مكانُهُ، فمَن في سبيلِ الله؟ فقال ﷺ: «**مَن قاتل لِتكونَ كلِمةُ اللهِ أعلى فهو في سبيلِ الله**»(٢).

• الإخلاصُ في كلِّ شيءٍ لله عز وجل؛ قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ۝١٦٣﴾ [الأنعام].

وقال ﷺ: «**بَشِّر هذه الأُمَّةَ بالسناءِ والرِّفعةِ والدينِ والنصرِ والتمكينِ في الأرض**» -أي: إذا أخلصوا للهِ عز وجل في أعمالهم- «**فمن عَمِلَ منهُم عملَ الآخرةِ للدنيا**» -أي: لم يُخلصوا لله عز وجل في أعمالهم، وأرادوا بأعمالهمُ الدنيا فقط- «**لم يكُن له في الآخرةِ نصيبٌ**»(٣).

---

(١) **صحيح لغيره**: رواه الترمذي (٢٦٥٤)، وابن أبي الدنيا في «الصمت» (١٤١)، [«صحيح الترغيب» (١٠٦)].

(٢) **متفق عليه**: رواه البخاري (٢٨١٠)، ومسلم (١٩٠٤).

(٣) **صحيح**: رواه أحمد (٥/١٣٤)، والحاكم (٧٨٦٢)، والبيهقي في «الشعب» (٦٤١٤)، وأبو نعيم في«الحلية» (١/٢٥٥)، [«صحيح الترغيب» (٢٣)].

فإذا أخلصَ العبدُ للهِ عز وجل في كلِّ أعمالِه:

أولاً: صَلُحَ قلبُهُ وطَهُرَ من جميعِ الأمراضِ التي تصيبُ القلوبَ.

ثانياً: تَحَصَّلَ على كلِّ البركات من ربِّ الأرضِ والسمواتِ، ونجا من كلِّ الكُرُبات.

فأما البركاتُ: قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ﴾ -أي: أخلصوا في كلِّ أعمالهم لله- ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف:٩٦].

وأما النجاةُ منَ الكرُباتِ فيظهرُ ذلكَ جلياً من حديثِ الثلاثةِ الذين دخلوا الغار، وتوسلوا إلى الله بإخلاصهم في أعمالهم، فالأولُ توسلَ بإخلاصه في بِرِّه لوالديه، والثاني توسلَ بإخلاصِه في تركِ الزنا بعد ما قدِرَ عليه، والثالثُ تَوسَّلَ إلى اللهِ بإخلاصِه في ردِّ الحقوقِ لأَصحابها، وكلٌّ منهم قال في دعائِهِ: «**اللَّهمَّ إن كنتُ فَعَلتُ ذلك ابتغاءَ وجهكَ فَفَرِّج عنا ما نحنُ فيهِ من هذه الصخرة**» فاستجابَ اللهُ لهم وتحركتِ الصخرةُ ونجَّاهُم من الكُرُباتِ(١).

ثالثاً: ينالُ المخلصُ شفاعةَ النبيِّ ﷺ يومَ القيامةِ.

قال أبو هريرة: يا رسولَ اللهِ! مَن أسعدُ الناسِ بشفاعتك يومَ القيامة؟

فقال ﷺ: «**أسعدُ الناسِ بشفاعتي يومَ القيامة من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبِه، أو نفسِه**»(٢).

---

(١) **صحيح**: رواه البخاري (٢٢٧٢)،

(٢) **صحيح**: رواه البخاري (٩٩).

رابعاً: المخلصون يُظِلُّهُمُ اللهُ في ظِلِّه يومَ لا ظِلَّ إلا ظلُّه.

قال ﷺ: «**سَبعَةٌ يُظِلُّهُم اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَومَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ؛ إِمَامٌ عَادِلٌ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللهِ عز وجل، وَرَجُلٌ قَلبُهُ مُعَلَّقٌ بالمَسَاجِدِ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجتَمَعَا عَلَيهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيهِ، وَرَجُلٌ دَعتْهُ امرَأَةٌ ذَاتُ حُسنٍ وَجَمَالٍ، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بصدَقةٍ، فأَخفَاهاحَتَّى لَا تَعلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَت عَينَاهُ**»(1).

فكُلُّهم أخلصوا للهِ عز وجل في أعمالهم.

خامساً: المخلصون يُنجيهِمُ اللهُ من عذابِ النارِ، ويدخلُهُمُ الجنَةَ، قال تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾ [الليل].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾﴾ فكان جزاءُ هذا الإخلاصِ: ﴿وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾﴾ [الإنسان] فَنَجَا المخلصونَ من النارِ، ودخلوا الجنةَ بإخلاصِهم.

الخَصلةُ الثانيةُ لإصلاحِ القلوبِ: مناصحةُ ولاةِ الأمرِ وأئمةِ المسلمين.

وهذا أيضاً مُنافٍ لكلِّ أمراضِ القلبِ من غِلٍّ وغشٍّ وحقدٍ وحسدٍ، فإنَّ النصيحةَ لا تجتمعُ في القلبِ معَ هذه الأمراضِ، فمَن نصحَ ولاةَ الأمرِ والأمةَ فقد

---

(1) **متفق عليه:** رواه البخاري (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١).

صَلَحَ قلبُهُ وطَهُرَ، فالنصيحةُ هي: إرادةُ الخيرِ من الناصحِ للمنصوحِ له، ولذلك فهي لا تخرُجُ إلا من قلبٍ طاهرٍ امتلأ إيماناً باللهِ، وحباً لجميعِ المسلمين.

وأنصحُ الناسِ للناسِ هم الأنبياءُ والعلماءُ.

أما الأنبياءُ:

فهذا نوحٌ عليه السلام يقول لقومه: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ [الأعراف:٦٢].

وهذا هودٌ عليه السلام يقول لقومه: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾﴾ [الأعراف].

وهذا صالحٌ عليه السلام يقول لقومه بعد أن هلكوا: ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأعراف].

وهذا رسولُنا ﷺ أنصحُ الخلقِ للخلقِ، وأَرحَمُ الخلقِ بالخلقِ، كيف لا؟

واللهُ عز وجل يقول عنه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء].

ويقولُ ﷺ عن نفسه: «**إنما أنا رحمةٌ مُهداةٌ**»(١).

وها همُ الصحابةُ رضي الله عنهم في حَجَّةِ الوَداعِ يشهدونَ له بذلك.

ففي خُطبةِ حَجَّةِ الوداعِ يقولُ ﷺ لأصحابهِ: «**وأنتم مسئولون عني، فما أنتم قائِلون؟**» قالوا: نشهدُ أنكَ قد بلغتَ وأديتَ ونصحتَ(٢).

---

(١) **صحيح**: رواه الدارمي (١٥)، والحاكم (١٠٠)، والبيهقي في«الشعب» (١٣٣٧)، [«السلسلة الصحيحة» (٤٩٠)].

(٢) **صحيح**: رواه مسلم (١٢١٨).

بل جعلَ ﷺ النصيحةَ من دينِنا، بل هي الدِّينُ كُلُّهُ.

فقال ﷺ: «**الدينُ النصيحةُ**» قُلنا: لمن؟

قال: «**للهِ ولكتابِهِ ولرسولِهِ ولأئمةِ المسلمين وعامَّتِهم**»[(١)].

والنصيحةُ لله هي: توحيدُهُ في ربو بيتِه، وفي ألوهيتِه وفي أسمائِه وصفاتِه، وأن تعبدَهُ وحدَهُ ولا تُشركَ بهِ شيئاً.

والنصيحةُ لكتابهِ هي: أن تتلوَهُ حَقَّ تلاوتِه، وأن تعملَ بما فيه، وأن تُعلِّمَهُ غيرَك.

والنصيحةُ لرسولِه ﷺ هي: محبتُهُ أكثرَ من كلِّ شيءٍ، واتباعُهُ، والتمسُّكُ بسنتِه، ونشرُها في الناس.

والنصيحةُ لأئمةِ المسلمينَ وهمُ العلماءُ والأُمراءُ.

فالنصحُ للعلماءِ: أن نحبَّهم، وأن نتعلمَ منهم، ولا نُنَفِّرَ الناسَ منهم -لأنَّ ذلكَ عملُ الفُسَّاقِ- فالعلماءُ هم وَرَثَةُ الأنبياءِ، والعلماء همُ الصلةُ بينَ النبيِّ وبينَ أمتِه.

والنصحُ للأمراءِ: أن نطيعَهم في المعروفِ، وأن ندعوَ اللهَ لهم، وألا نغتابَهم، وألا نخرُجَ عليهم بالسيفِ وإنْ جاروا، وإن ظَلَموا، لأنَّ الخروجَ على الأمراءِ فسادٌ في الدينِ والدنيا، وفسادٌ في الأرضِ وهتكٌ للأعراضِ، وأن ننصحَهم إذا أخطأوا في السرِّ لا على الملإِ، كما يفعلُ مَن يدعي الإِصلاحَ.

---

(١) **صحيح**: رواه مسلم (٥٥).

قال ﷺ: «**من أرادَ أن ينصحَ لذي سلطانٍ فلا يُبدهِ علانيةً، ولكن يأخذُ بيدهِ فيخلو به، فإن قَبِلَ منه فذاك، وإلا كانَ قد أدَّى الذي عليه**»[1].

وقال رجلٌ: انظروا إلى أميرِنا يَلبَسُ ثيابَ الفُسَّاقِ!

فقال أبو بَكرَةَ: اسكُت؛ سَمِعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**من أهانَ سلطانَ اللهِ في الأرضِ أهانهُ اللهُ**»[2].

وقيل لأسامةَ بنِ زيدٍ رضي الله عنهما: ألا تدخلُ على عثمانَ فتُكَلِّمَهُ؟

فقال: أترَونَ أني لا أُكَلِّمُهُ إلا أُسمِعُكُم؟ -أي: أتظنون أني لا أكلِّمه إلا وأنتم تسمعون- واللهِ! لقد كَلَّمتُهُ فيما بيني وبينَهُ، ما دونَ أن أفتتحَ أمراً لا أُحِبُّ أن أكونَ أولَ من فتحَهُ -أي: المجاهرةَ بالإنكارِ على الأمراءِ وولاةِ الأمرِ في الملأ كما جرى لِقَتَلَةِ عثمانَ رضي الله عنه[3].

ولهذا قال سهلُ بنُ عبدِ الله التَّستُريُّ رحمه الله: (لا يزالُ الناسُ بخير ما عظَّموا السلطانَ والعلماءَ، فإذا عظَّموا هذينِ أصلحَ اللهُ دُنياهُم وأُخراهُم، وإذا استخَفُّوا بهذينِ أفسدَ دُنياهُم وأُخرَاهم)[4].

---

(١) **صحيح**: رواه ابن أبي عاصم في «السنة» (١٠٩٦)، والطبراني في «الشاميين» (٩٧٧)، [«ظلال الجنة» (١٠٩٦)].

(٢) **حسن**: رواه الترمذي (٢٢٢٤)، وأحمد (٤٨/٥)، والبزار (٣٦٧٠)،[«صحيح الجامع» (٦١١١)].

(٣) **صحيح**: رواه مسلم (٢٩٨٩).

(٤) «تفسير القرطبي» (٥٦٢/٥).

ولذلك جاءتِ الأَدلةُ في الكتابِ والسنة تأمرُ بطاعةِ ولاةِ الأمرِ، وتنهى عن الخروجِ عليهم ومنها:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ [النساء:٥٩].

وأولوا الأمرِ:

هم العلماءُ والأمراءُ، وقد جاءتِ الأَدلةُ في السنة الصحيحةِ تُبينُ أنَّ طاعتَهم لازمةٌ، وهي فريضةٌ في المعروف، والطاعةُ لولاةِ الأمر تستلزمُ عدمَ الخروجِ عليهم، ومن هذه الأدلة:

الدليلُ الأولُ: قال أبو ذر ﵁: (إنَّ خليلي أوصاني أن أسمعَ وأُطيعَ -أي: لولي الأمر- وإن كان عبداً مُجَدَّعَ الأطرافِ)(١).

والدليلُ الثاني: قال رسولُ الله ﷺ: «**على المرءِ المسلمِ السمعُ والطاعةُ فيما أحبَّ وكَرِهَ**» -أي: لوليِّ الأمر- «**إلا أن يُؤمَرَ بمعصيةٍ فإن أُمِرَ بمعصيةٍ، فلا سمعَ ولا طاعة**»(٢).

الدليلُ الثالثُ: قالَ ﷺ: «**خِيَارُ أَئِمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُحِبُّونَهُم وَيُحِبُّونَكُم، وَتُصَلُّونَ عَلَيهِم وَيُصَلُّونَ عَلَيكُم**» -أي تدعون لهم ويدعون لكم-، «**وَشِرَارُ أَئِمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُبغِضُونَهُم وَيُبغِضُونَكُم، وَتَلعَنُونَهُم وَيَلعَنُونَكُم**». قَالُوا: قُلنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَفَلاَ

---

(١) **صحيح**: رواه مسلم(٦٤٨).

(٢) **متفق عليه**: رواه البخاري (٧١٤٤)، ومسلم (١٨٣٩).

نُنَابِذُهُم بالسيفِ عِندَ ذَلِكَ؟ قَالَ: «**لاَ، مَا أَقَامُوا فِيكُمُ الصَّلاَةَ، أَلاَ مَن وَلِيَ عَلَيهِ وَالٍ، فَرَآهُ يَأتِي شَيئًا مِن مَعصِيَةِ اللَّهِ، فَليَكرَه مَا يَأتِي مِن مَعصِيَةِ اللَّهِ، وَلاَ يَنزِعَنَّ يَدًا مِن طَاعَةٍ**»(١).

الدليلُ الرابعُ: قال ﷺ: «**إِنَّهَا سَتكُونُ بَعدِي أَثَرَةٌ وَأُمُورٌ تُنكِرُونَهَا**»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! كَيفَ تَأمُرُ مَن أَدرَكَ مِنَّا ذَلِكَ؟ قَالَ: «**تُؤَدُّونَ الحَقَّ الَّذِي عَلَيكُم، وَتَسأَلُونَ اللَّهَ الَّذِي لَكُم**»(٢).

وفي روايةٍ للبخاريِّ: «**أَدُّوا إليهم حَقَّهم، وسَلوا اللهَ حَقَّكم**»(٣).

فأينَ موضع المظاهراتِ والإضراباتِ والاعتصاماتِ والربيعِ العربيِّ -زعموا- من هذه الأدلةِ؟!

أما آنَ الأوانُ لمُدمِني المظاهراتِ والإضراباتِ أن يستيقظوا من غفلتهم، ويرجعوا إلى كتابِ رَبِّهم، وسنةِ نبيِّهم، ومنهجِ سلفهم الصالحِ قبلَ فواتِ الأوانِ، وقبل أن يندموا في وقتٍ لا ينفَعُ فيهِ الندمُ!

الخَصلةُ الثالثة لإصلاحِ القلوبِ: لزومُ الجماعةَ.

وهذا أيضاً مما يُطَهِّرُ القلبَ من الغِلِّ والغِشِّ؛ فإنَّ صاحبَهُ للزومه جماعةَ المسلمينَ يحبُّ لهم ما يحبُّ لنفسِه، ويكرهُ لهم ما يكرهُ لها، ويسوؤُهُ، ما يَسوؤُهم، ويَسُرُّهُ ما يَسُرُّهم.

---

(١) **صحيح:** رواه مسلم (١٨٥٥).

(٢) **متفق عليه:** رواه البخاري (٣٦٠٣)، ومسلم (١٨٤٣).

(٣) **صحيح:** رواه البخاري (٧٠٥٢).

وهذا بخلافِ مِنِ انحازَ عنهم، واشتغلَ بالطعنِ عليهم، والعيبِ والذمِّ لهم، كفعلِ الرافضةِ والخوارجِ والمعتزلةِ وغيرهم؛ فإنَّ قلوبَهم ممتلئةٌ غِلاً وغِشاً، ولهذا تجدُ الرافضةَ أبعدَ الناسِ عن الإخلاصِ، وأغَشَّهم للأئمةِ والأمةِ، وأشَدَّهم بُعداً عن جماعةِ المسلمينَ.

فهؤلاء أشدُّ غلاًّ وغشّاً بشهادةِ الرسولِ والأمةِ عليهم، وشهادتِهم على أنفسِهم بذلك، فإنهم لا يكونون قطُّ إلا أعواناً وظَهراً على أهلِ الإسلامِ؛ فأيُّ عَدُوٍّ قام للمسلمين كانوا أعوانَ ذلكَ العدوِّ وبطانتَه.

وهذا أمرٌ قد شاهَدَتهُ الأمةُ منهم: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ [المائدة:١٣].

فالجماعةُ رحمةٌ لأنها تُصلحُ القلوب، الفُرقةُ عذابٌ لأنها مُمرِضَةٌ للقلوبِ، ولذلك جاءتِ الأدلةُ في الكتابِ والسنةِ تأمرُ بالجماعةِ، وتحذِّرُ منَ الفُرقة؛ ومنها:

الدليلُ الأول: قولُه تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عمران:١٠٣].

فهذا دليلٌ ظاهرٌ ونصٌّ قاطعٌ على وجوبِ الاعتصامِ بحبلِ اللهِ، ولزومِ جماعةِ المسلمينَ، ونهيٌ صريحٌ واضحٌ عنِ الاختلافِ والنزاعِ والشقاقِ والتناحرِ.

ولقيَ رجلٌ ابنَ عباسٍ رضي الله عنهما بالمدينةِ فقال له: ما تقولُ في سلاطينَ علينا، يظلموننا، ويشتموننا، ويعتدون علينا في صَدَقاتِنا، ألا نمنعُهم؟

قال ابن عباس: (لا؛ أَعطِهم).

ثم قال له ابن عباس: (الجماعةَ الجماعةَ) -أي: إلزمِ الجماعةَ ولا تخرج عليهم- (إنما هَلَكَتِ الأممُ الخاليةُ بتفرقِها) أما سمعتَ اللهَ عز وجل يقول: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾ [آل عمران:١٠٣][1].

وقال ابنُ مسعودٍ رضي الله عنه في خطبته: (عليكم جميعاً بالطاعةِ والجماعة، فإنها حبلُ اللهِ الذي أَمَرَ به)[2].

الدليلُ الثاني: قولُه تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ١١٥﴾ [النساء].

فهذه الآية تدلُّ على أن السبيلَ الذي تسيرُ عليه جماعةُ المسلمين، وتتخذُه منهجاً لها هوَ السبيلُ الذي يجبُ أن يُسارَ عليه ويُتَّبعَ، وأنَّ أيَّ سبيلٍ غَيرِه فهو سبيلٌ مُهلِكٌ، يؤدي إلى الشرِّ والفتنةِ، ومصيرُ صاحبِه إلى النارِ، فيجبُ علينا الأخذُ بسبيلِ المؤمنينَ، والحذرُ من غيرِه.

الدليلُ الثالثُ: قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍۚ﴾ [الأنعام:١٥٩].

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره (٣٩٢٠).

(٢) رواه ابن بطة في «الإبانة الكبرى» (١٧٣)، وأبو نعيم في «الحلية» (٩/٢٤٩).

في هذه الآيةِ تبرِئةٌ واضحةٌ منَ اللهِ لرسولِه ﷺ مِن أن يكونَ مِثلَ الذين فرَّقوا دينَهم، وكانوا أحزاباً وشيعاً مختلفةً ومتفرقةً، وما بُرِّئَ منهُ الرسولُ ﷺ فإنَّ الواجبَ علينا أن نتبرأَ منه.

الدليلُ الرابع: قولُه ﷺ: «**إنَّ أهلَ الكتابِ قبلكم تَفَرَّقَوا عَلَى اثنتين وَسَبعِينَ فِرقَةً في الأهواءِ، وَإِنَّ أُمَّتِي سَتَفتَرِقُ عَلَى ثلاثٍ وَسَبعِينَ فِرقَةً في الأهواء؛ كُلُّها في النارِ إلا واحدةً وهي الجَمَاعَةُ**»(١).

وفي روايةٍ: قالوا: يا رسولَ الله! من هي؟ قال: «مَن كانَ على مثلِ ما أنا عليه وأصحابي»(٢).

الدليل الخامس: قولُه ﷺ لحذيفةَ رضي الله عنه: «**تَلزمُ جماعةَ المسلمين وإمامَهم**»(٣).

والمرادُ بالجماعةِ: الجماعةُ الذين يَنْتَظِمُهم إمامٌ ظاهرٌ، له شوكةٌ وقدرةٌ على سياسةِ الناسِ.

الدليل السادس: قولُه ﷺ: «**مَن خرجَ من الطاعةِ وفارقَ الجماعةَ، فمات، مات مِيتةً جاهليةً**»(٤).

---

(١) **صحيح**: رواه أحمد (٤/١٠٢)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٢)، والطبراني في «الكبير» (١٩/٣٧٧/٨٨٥)، [«السلسلة الصحيحة» (٢٠٣)].

(٢) **حسن**: رواه الترمذي (٢٦٤١)، والطبراني في «الكبير» (٦٢)، [«السلسلة الصحيحة» (٢٠٤)].

(٣) **متفق عليه**: رواه البخاري (٣٦٠٦)، ومسلم (١٨٤٧)

(٤) **صحيح**: رواه مسلم (١٨٤٨).

فهذه أدلةٌ من الكتابِ والسنةِ تأمرُ بالطاعةِ والجماعةِ، وتنهى عن الخروجِ على وليِّ الأمرِ والفرقةِ، فأينَ موضعُ المظاهراتِ والإضراباتِ والاعتصاماتِ من هذه الأدلة؟!

وها أنا أضعُ أمامكم المفاسدَ التي تترتبُ على الخروجِ على جماعةِ المسلمين وإمامِهم؛ ليهلِكَ من هلكَ عن بينة، ويحيى من حي عن بينة.

المفسدةُ الأولى: وقوعُ الفتنةِ العامةِ في جميعِ طبقاتِ المجتمع، وسفكُ الدماءِ، واستباحةُ الأموالِ، وانتهاكُ الأعراضِ، وانقطاعُ السبلِ.

سألَ رجلٌ الإمامَ أحمدَ فقال: ما تقولُ في الخروجِ مع هؤلاءِ الذين يريدونَ الخروجَ على وليِّ الأمر؟ فأنكرَ الإمامُ أحمدُ ذلك عليهم، وجعلَ يقول: سبحانَ اللهِ! الدماءَ الدماءَ! لا أرى ذلكَ، ولا آمرُ به، الصبرُ على ما نحن فيه خيرٌ من الفتنةِ؛ يُسفَكُ فيها الدماءُ، ويُستباح فيها الأموالُ، وينتهكُ فيها المحارمُ ... فإذا وقعَ السيفُ عمَّتِ الفتنةُ، وانقطعتِ السبلُ، الصبرُ على هذا، ويسلَمُ لك دينُك خيرٌ لك(١).

المفسدةُ الثانية: حصولُ فسادٍ أعظمُ من الفسادِ الحاصلِ من ظلمِ الأئمةِ؛ وهذا واضحٌ في البلادِ التي خَرَجَت على ولاةِ أمرِها.

المفسدةُ الثالثة: نقصُ الدين وغُربتُهُ، وعدمُ القيامِ بشرائِعِه، وهذا أيضاً واضحٌ في البلادِ التي خرج أهلُها على ولاةِ أمرها ... والعاقلُ من اتعظَ بغيره، والشقيُّ من شقي في بطنِ أُمِّه.

---

(١) أخرجه الخلال في «السنة» (١/ ١٣٢-١٣٣).

المفسدةُ الرابعة: تَفَرُّقُ المسلمين فِرقَاً وأحزاباً، وتسلطُ الأعداءِ عليهم.

وهذا واضحٌ في هذا الزمانِ، فقد تفرقتِ الأمةُ إلى فِرقٍ وأحزابٍ، يُكَفِّرُ بعضُها بعضاً، ويقتلُ بعضُها بعضاً، فَضَعُفَت، فتسلَّطَ الأعداءُ عليها.

المفسدةُ الخامسة: استبدالٌ للأمن بالخوف، واستبدالٌ للشَّبَعِ بالجوع، وانتشارٌ لكلِّ أنواعِ الفساد.

هذا كُلُّه بسببِ مفارقةِ الجماعةِ، والخروجِ على ولي الأمرِ.

والدواءُ والمَخرَجُ للأمةِ مما هي فيه اليومَ لا يكون أبداً بالمظاهراتِ ولا الإضراباتِ ولا الاعتصاماتِ، وإنما يكونُ باتباعِ وصيةِ رسولِ اللهِ ﷺ التي قالَ فيها: «**ثلاثُ خِصالٍ لا يَغِلُّ عليهن قلبُ مُسلمٍ أبداً: إخلاصُ العملِ لله، ومناصحةُ ولاةِ الأمر، ولزومُ الجماعة**»(١).

وفي قوله ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ يَرضَى لَكُم ثَلَاثًا: أَن تَعبُدُوهُ وَلَا تُشرِكُوا بِهِ شَيئًا، وَأَن تَعتَصِمُوا بِحَبلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا، وَأَن تُنَاصِحُوا مَن وَلَّاهُ اللَّهُ أَمرَكُم**»(٢).

قال شيخُ الإسلام ابنُ تيمية: (جمع ﷺ في هذين الحديثين بينَ الخصالِ الثلاثِ: إخلاصُ العمل لله، ومناصحةُ ولاةِ الأمرِ، ولزومُ جماعةِ المسلمين،

---

(١) **صحيح:** رواه أحمد (٥/١٨٣)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٩٤)، وابن حبان (٦٧)، [«السلسلة الصحيحة» (٤٠٤)].

(٢) **صحيح:** رواه أحمد (٢/٣٦٧)، ومالك (٢٠)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٤٤٢)، [«صحيح الجامع» (١٨٩٥)].

وهذه الخصالُ الثلاثُ تجمعُ أصولَ الدينِ وقواعدَه، وتجمعُ الحقوقَ التي للهِ ولعبادِهِ، وتنتظمُ بها مصالحُ الدنيا والآخرة)[1].

أي: في هذه الخصالِ الثلاثِ صلاحُ القلوبِ التي بها صلاحُ الأجسادِ، وصلاحُ الأحوالِ وسعادةُ الدنيا والآخرة.

فيا أمة الإسلام! أنأخُذُ بالعلاج النبويِّ أم نأخذُ بالتقليد الأعمى للكفارِ في المظاهراتِ والإضراباتِ والاعتصاماتِ؟!

يقول الحسنُ البصريُّ رحمه الله: (اعلم -عافاكَ اللهُ- أنَّ جَورَ السلطانِ نقمةٌ من نِقَمِ اللهِ تعالى، ونِقَمُ اللهِ لا تُلاقى بالسيوف -أي: بالخروجِ على وليِّ الأمرِ بالكلمةِ أو بالسيفِ- وإنما تُتقى وتُستدفَعُ بالدعاءِ والتوبةِ والإنابةِ والإقلاعِ عنِ الذنوب)[2].

نسأل الله العظيم ربَّ العرشِ العظيم أن يُصلحَ قلوبنا، وأن يَرزقَنا توبةً نصوحاً قبلَ الموت، وأن يُنَجِّينا من الفتنِ ما ظهر منها وما بطن.

---

(١) مجموع الفتاوى (١/١٨).

(٢) «آداب الحسن البصري» لابن الجوزي (ص١١٩).

الوسيلةُ الثانيةَ عشرةَ لإصلاحِ القلوبِ
الخوفُ والرجاءُ

يقولُ اللهُ عز وجل في كتابه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ [المؤمنون].

وقال ﷺ: «**سَبعَةٌ يُظِلُّهُم اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَومَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ**» .. وذكر منهم: «**وَرَجُلٌ دعتهُ امرَأَةٌ ذَاتُ مَنصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَت عَينَاهُ**»(١).

أدلةٌ من الكتاب والسنة تُصَرِّحُ بأن صاحبَ القلبِ السليمِ يسارعُ دائماً إلى الأعمالِ الصالحةِ، ويبتعدُ عن المعاصي، ولذلكَ ينبغي للعاقلِ أن يعملَ ليلاً ونهاراً لإصلاح قلبه، ومن أعظمِ وسائلِ إصلاحِ القلوبِ: الخوفُ والرجاء.

والخوفُ هو: الخوفُ من عذابِ اللهِ وعقابِهِ.

والرجاءُ هو: أن يرجوَ العبدُ رحمةَ اللهِ ومغفرتَهُ وجنتهُ.

عن أنسٍ رضي الله عنه قال: دخل رسولُ اللهِ ﷺ على شابٍ وهو في الموتِ، فقال: «**كيف تجدُك؟**».

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري (٦٦٠)، مسلم (١٠٣١).

قال: أَرجو اللهَ يا رسولَ الله، وأخافُ ذنوبي.

فقال رسولُ الله ﷺ: «**لا يجتمعان** (يعني الخوفَ والرجاءَ) **في قلبِ عبدٍ في مثلِ هذا الموطِنِ** (يعني الاحتضار) **إلا أعطاهُ اللهُ الذي يرجو، وأمَّنهُ منَ الذي يخافُ**»[(١)].

فالإيمانُ الصادقُ الذي يُنجي صاحبَهُ من عذابِ الله، ويُدخلُه الجنةَ لا يتمُّ إلا بالخوفِ من عذابِ اللهِ، والرجاءِ لمغفرتِه وثوابِه.

فالخوفُ والرجاءُ للمؤمن كجناحَيِ الطائرِ، إذا استويا استوى الطائِرُ وتمَّ طيرانُه، وإذا نقصَ أحدُهما وقع فيه النقصُ، وإذا ذهبا صارَ الطائرُ في حدِّ الموت.

والخوفُ والرجاءُ قرينان، إذا انفكَّ أحدُهما عن الآخرِ هلكَ الإنسانُ، فإذا انفردَ العبدُ بالخوفِ وحدَهُ كان ذلك قُنوطاً من رحمةِ الله، وإذا انفرد بالرجاءِ وحدَهُ كان ذلكَ أمناً من مكرِ الله، وكلاهما مذمومٌ، والمحمودُ: الجمعُ بينَ الرجاءِ والخوفِ، فيعملُ المؤمنُ بطاعةِ اللهِ وهو يرجو رحمةَ الله، ويتركُ معصيةَ اللهِ خوفاً من عقابِ الله[(٢)].

قال شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ رحمه الله: (قال بعضهم: مَن عَبَدَ اللهَ بالحبِّ وحدَهُ فهو زنديقٌ، ومن عَبَدَ اللهَ بالخوفِ وحدَهُ فهو حَروريٌّ -أي: خارجيٌّ-،

(١) حسن: رواه ابن ماجه (٤٢٦١)، والنسائي في «الكبرى» (١٠٨٣٤)، [«السلسلة الصحيحة» (١٠٥١)].

(٢) «إعلام ذوي الأفئدة» (ص١٤٨) للشيخ عبد العظيم بدوي حفظه الله.

ومن عَبَدَ اللهَ بالرجاءِ وحدَهُ فهو مُرجئٌ، ومَن عَبَدَ الله بالحبِّ والخوفِ والرجاءِ فهو مؤمنٌ)(١).

وقد مدحَ اللهُ أهلَ الخوفِ والرجاء -أي: الذين صلُحت قلوبُهم بالخوفِ والرجاء-.

فقال تعالى: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ ﴾ -وهذا هو الخوف- ﴿وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ ﴾ -وهذا هو الرجاء- ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾﴾ [الزُّمَر].

وقال تعالى: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا ﴾ -وهذا هو الخوف- ﴿وَطَمَعًا ﴾ -وهذا هو الرجاء- ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ [السجدة].

فالرجاءُ يستلزمُ الخوفَ، ولولا ذلك لكان أمناً، والخوفُ يستلزم الرجاءَ، ولولا ذلك لكان قنوطاً ويأساً(٢).

ولذلك جمع اللهُ عز وجلَّ في أكثَرِ مِن آيةٍ من كتابِهِ العزيزِ بين الترغيبِ والترهيب اللَّذَينِ يورثانِ الخوفَ والرجاءَ في قلب المؤمن.

كقوله تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ -هذا ترغيب- ﴿ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾ -هذا ترهيب- [الحِجر].

---

(١) «التحفة العراقية» (ص٧٥).

(٢) «شرح العقيدة الطحاوية» (٣٧١-٣٧٢).

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ -هذا ترغيب- ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٦﴾﴾ -هذا ترهيب- [الرعد].

وقوله تعالى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾ -هذا ترغيب- ﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ -هذا ترهيب- [غافر:٣].

فالترغيبُ يُورثُ العبدَ الرجاءَ الذي يدفعهُ إلى المسارعةِ إلى فعلِ الخيرات، والترهيبُ يُورثُ العبدَ الخوفَ الذي يمنعُه من فعلِ المعاصي.

وأخبرَ اللهُ عز وجل عبادَهُ في كتابهِ أن الخوفَ والرجاءَ مِن أهمِّ صفاتِ الملائكةِ المقربين، والنبيين المرسلين، وعبادِ اللهِ الصالحين؛ ليدفعَهم ذلكَ إلى الاستقامةِ على أمرِ اللهِ قال تعالى في وصف الملائكة المقربين: ﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ﴾ -هذا هو الرجاء- ﴿وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ -هذا هو الخوف- [الإسراء:٥٧].

وقال تعالى في وصف النبيين: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا﴾ -وهذا هو الرجاء- ﴿وَرَهَبًا﴾ -وهذا هو الخوف-.

وقال تعالى في وصف عباده الصالحين: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا﴾ -وهذا هو الخوف- ﴿وَطَمَعًا﴾ -وهذا هو الرجاء-.

والناظرُ إلى كثيرٍ منَ الناسِ اليومَ يرى مِنهم مَن أَمِنَ مكرَ اللهِ؛ فدفعه ذلكَ إلى معصيةِ اللهِ، ومنهم من قَنَطَ من رحمةِ اللهِ من كثرةِ معاصيه؛ فدفعهُ الشيطانُ إلى الاستمرارِ في معصية الله.

والقليلُ منهم مَن جَمَعَ بينَ الخوفِ والرجاء.

واللهُ عز وجل يقول في الحديث القدسي: «**وَعِزَّتي لا أجمعُ على عبدي خَوفَينِ وأَمنَينِ، إذا خَافَني في الدُّنيا أَمَّنتُهُ يومَ القيامةِ، وإذا أَمِنَنِي في الدنيا أَخفتُهُ يومَ القيامةِ**»(١).

فإلى الآمِنينَ من مكرِ اللهِ المتَجَرِّئينَ على معصيتِهِ أقولُ لهم:

كيف تأمنون مَكرَ الله؟!

والله عز وجل يقول: ﴿**أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ (٩٧) أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٩٨) أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ (٩٩)**﴾ [الأعراف].

ويقول سبحانه: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ (١) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ (٢)**﴾ [الحج].

ويقول سبحانه: ﴿**فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ (١٣) وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً (١٤) فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ (١٥) وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ (١٦) وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ**

---

(١) **حسن صحيح**: رواه ابن حبان (٦٤٠)، والبيهقي في «الشعب» (٧٥٩)، [«صحيح الترغيب» (٣٣٧٦)].

أَرْجَآئِهَآ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾﴾ [الحاقة].

ويقول سبحانه: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الصافات].

ويقـــول ســـبحانه: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الحِجر].

ويقول سبحانه: ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾﴾ [الأحزاب].

فيا من أَمِنتَ مكرَ الله! إذا سأل اللهُ الصادقين عن صدقهم، فكيف يكونُ حالُ الكاذبين والعصاةِ والمجرمين؟

ويقـــول ســـبحانه: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء].

ويقول سبحانه: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الأعراف].

ويقـــول ســـبحانه: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾﴾ [الزُّمَر].

كيف تأمنون مكرَ الله؟!

والنبيُّ ﷺ يقول: «**إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَونَ، وَأَسمَعُ مَا لَا تَسمَعُونَ، أَطَّتِ السَّمَاءُ وَحُقَّ لَهَا أَن تَئِطَّ مَا فِيهَا مَوضِعُ أَربَعِ أَصَابِعَ إِلَّا ومَلَكٌ واضِعٌ جبهَتَهُ سَاجِداً لله، واللهِ لو تعلمون مَا أَعلَمُ لَضَحِكتُم قَلِيلًا وَلَبَكَيتُم كَثِيرًا، وَما تَلَذَّذتُم بِالنِّسَاءِ عَلَى الفُرُشِ، وَلَخَرَجتُم إِلَى الصُّعُدَاتِ تَجأَرُونَ إِلَى اللَّهِ**»[1].

ويقول ﷺ: «**كَيفَ أَنعَمُ وَصَاحِبُ الصُّورِ قد التَقَمَ الصُّورَ، وَحَنَى جَبهَتَهُ وأصغَى سَمعَهُ ينتظِرُ مَتَى يُؤمَرُ**»[2] -أي: فينفخ-.

ويقول ﷺ: «**مَررتُ لَيلَةَ أُسرِيَ بِي بالملإِ الأعلى، وجبرِيلُ كالحِلسِ البالي مِن خشيةِ الله عز وجل**»[3].

ويقول ﷺ: «**يَقُولُ اللهُ عز وجل: يَا آدَمُ! فَيَقُولُ: لَبَّيكَ! وَسَعدَيكَ! وَالخَيرُ فِي يَدَيكَ! قال: يَقُولُ: أَخرِج بَعثَ النَّارِ. قَالَ: وَمَا بَعثُ النَّارِ؟ قَالَ: مِن كُلِّ أَلفٍ تِسعَمِائَةٍ وَتِسعَةً وَتِسعِينَ. قال: فذاك حين يَشِيبُ الصَّغِيرُ** ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ۝٢﴾ [الحج]»[4].

(١) **حسن**: رواه الترمذي (٢٣١٢)، وأحمد (١٧٣/٥)، والحاكم (٣٨٨٣) [«صحيح الترغيب» (٣٣٨٠)].

(٢) **حسن لغيره**: رواه أحمد (٧٣/٣)، وأبو يعلى (١٠٨٤)، وابن حبان (٨٢٣)، [«السلسلة الصحيحة» (١٠٧٩)].

(٣) **حسن**: رواه الطبراني في «الأوسط» (٤٦٧٩)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٦٢١) [«صحيح الجامع» (٥٨٦٤)].

(٤) **متفق عليه**: رواه البخاري (٦٥٣٠)، ومسلم (٢٢٢).

وعن عائشةَ قالت: سَمِعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**يُحشَرُ الناسُ يومَ القيامةِ حُفاةً عُراةً غُرلاً**» قلتُ: يا رسولَ الله! النساءُ والرِّجالُ جميعاً ينظرُ بعضُهم إلى بعض؟

قال ﷺ: «**يا عائشةُ، الأمرُ أَشَدُّ مِن أن يَنظُرَ بَعضُهُم إلى بعضٍ**»(١).

وكيف ينظرُ بعضُهُم إلى بعض؟

والله عز وجل يقول في وصف هذا اليوم: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾ [عبس].

فهذه أدلةٌ من الكتاب والسنة تخلعُ قلوبَ الآمنين من مكرِ اللهِ ليستيقظوا من غفلتهم قبل فواتِ الأوان.

وإلى القانطين من رحمةِ اللهِ لكثرةِ معاصيهم، الظانينَ أنَّ اللهَ لا يغفرُ لهم، أقولُ لهم:

كيف تقنطون من رحمةِ اللهِ؟

واللهُ عز وجل يقولُ: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزُّمَر].

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري (٦٥٢٧)، ومسلم (٢٨٥٩)

ويقول سبحانه: ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الحِجر].

ويقـــول ســـبحانه: ﴿وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [يوسف].

ويقول سبحانه: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ﴾ [الأعراف:١٥٦].

وقال ﷺ: «**لَمَّا خَلَقَ اللهُ الخلقَ كتبَ في كتابِه، فهو عِندَهُ فوق العرشِ: إن رحمتي تَغلِبُ غضبي**»(١).

وفي رواية: «**إن رحمتي سبقت غضبي**»(٢).

وقال ﷺ: «**إِنَّ لِلَّهِ مِائَةَ رَحمَةٍ أَنزَلَ مِنهَا رَحمَةً وَاحِدَةً بَينَ الجِنِّ وَالإِنسِ وَالبَهَائِمِ وَالهَوَامِّ فَبِهَا يَتَعَاطَفُونَ وَبِهَا يَتَرَاحَمُونَ، وَبِهَا تَعطِفُ الوَحشُ عَلَى وَلَدِهَا، وَأَخَّرَ اللَّهُ تِسعًا وَتِسعِينَ رَحمَةً يَرحَمُ بِهَا عِبَادَهُ يومَ القِيَامَةِ**»(٣).

أيها القانطُ من رحمة الله! كيف تقنطُ من رحمة الله؟ والله يغفرُ الذنوبَ جميعاً لمن تابَ إليه.

قال تعالى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾ [غافر:٣].

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري (٧٤٠٤)، ومسلم (٢٧٥١).

(٢) **صحيح**: رواه البخاري (٧٤٢٢).

(٣) **صحيح**: رواه مسلم (٢٧٥٢).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٥٣﴾ [الزُّمَر].

وعن ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما: (أنَّ ناساً من أهلِ الشِّرك كانوا قد قتلوا وأكثروا وزَنَوا وأكثَروا، فأَتَوا محمداً ﷺ فقالوا: إن الذي تقولُ وتدعُو إليه لَحَسَنٌ، لو تُخبِرُنا أن لِما عملنا كفارةً فنزل: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامًا ٦٨ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ٦٩ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ٧٠﴾ [الفرقان].

ونــزل: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٥٣﴾ [الزُّمَر]).

فهـا هـمُ الكفـارُ الـذين كفـروا بـاللهِ وبرسـولهِ لـو تـابوا مـن كفـرهم لتـاب اللهُ علـيهم، قــال تعــالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾ [الأنفال:٣٨].

وها همُ اليهودُ الذين قالوا: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ﴾ [المائدة:٦٤] أو قالوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٞ وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُۘ﴾ [آل عمران:١٨١]، وها هم النصارى الذين قالوا ﴿ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ﴾ [يـونس:٦٨] لــو تــابوا لتــاب الله علــيهم، قــال تعــالى: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسۡتَغۡفِرُونَهُۥۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٧٤﴾ [المائدة].

وها هو الرجلُ الذي قَتَلَ مائةَ نفسٍ ولم يسجدْ للهِ سجدةً تابَ قبلَ الموتِ فتابَ الله عليه.

فهذه أدلةٌ من الكتاب والسنة تُفرِحُ قلوبَ القانطين من رحمة الله ليستيقظوا من غفلتهم، فيتوبوا قبل فوات الأوان.

فإذا تعلقَ العبدُ بأدلةِ الرجاءِ فقط أَمِنَ مكرَ الله ففسَدَ قلبُهُ، وضل ضلالاً مبيناً، وإذا تعلق العبدُ بأدلةِ الخوف فقط قَنَطَ من رحمةِ الله ففسدَ قلبُهُ وضلَّ ضلالاً مبيناً، وإذا تعلقَ العبدُ بأدلةِ الخوفِ والرجاءِ معاً صلُحَ قلبُهُ واستقامَ على أمر اللهِ، إلا أنَّ العلماءَ استحبوا للعبدِ في حال الصحةِ أن يُقَوِّيَ جانبَ الخوفِ على جانبِ الرجاءِ؛ ليدفعَهُ ذلك إلى المسارعةِ إلى فعل الخيرات واجتناب المعاصي ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾﴾ إلى أن قال ربُّ العزة: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ [المؤمنون].

واستحبوا -أي العلماءُ- له -أي: للعبدِ- في حال المرضِ ولا سيما مرضِ الموتِ أن يُقوِّيَ جانبَ الرجاءِ على جانبِ الخوفِ عملاً بوصية رسولِ الله ﷺ حيث قال: «**لا يَموتَنَّ أحدُكُم إلا وهو يُحسِنُ الظنَّ باللهِ عز وجل**»(١).

كيف لا؟

واللهُ عز وجل يقول في الحديث القدسيِّ: «**أنا عِندَ ظَنِّ عبدِي بِي**»(٢).

---

(١) **صحيح**: رواه مسلم (٢٨٧٧).

(٢) **متفق عليه**: رواه البخاري (٧٥٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥).

ولذلك لما دخلَ رسولُ الله ﷺ على شابٍّ وهو في سَكراتِ الموت، فقال له: «**كيف تجِدُكَ؟**»[1].

قال: أرجو اللهَ يا رسولَ اللهِ، وأخافُ ذنوبي فَقَدَّمَ الشابُّ الرجاءَ على الخوفِ.

وهذا رجلٌ من السلفِ لما حَضَرَتهُ الوفاةُ قال لمن عِندَهُ: ذكِّروني بأحاديثِ الرجاءِ، لعلِّي أُحسنُ الظنَّ باللهِ عز وجل.

فالمسلمُ يسيرُ إلى رَبِّه، ويُصلحُ قلبَهُ بالمحبةِ والخوفِ والرجاءِ كالطائرِ: رأسُه المحبَّةُ وجناحاهُ الرجاءُ والخوفُ، فإذا انقطعَ الرأسُ مات الطائرُ وسقطَ، وإذا كُسِرَ جناحٌ أو الاثنانِ وقَعَ أيضاً، والإنسانُ إذا تركَ المحبَّةَ أو الخوفَ أو الرجاءَ هلك.

وإلى ذلك أرشدَنا اللهُ سبحانه وتعالى في الفاتحةِ، التي نكررِّها في كلِّ ركعةٍ من رَكعاتِ صلاتِنا، ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ ولا يُحمَدُ إلا المحبوبُ، ولا يَدفَعُ إلى المدحِ والثناءِ إلى الحبُّ، فهذه الجملةُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾، دليلُ المحبةِ ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾ رجاءٌ ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ خوفٌ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ بهذه الثلاثة المتقدمة بالمحبَّة والرجاءِ والخوفِ، نعبدُك بالمحبةِ، نُحِبُّك حباً أشدَّ من حبِّنا لكلِّ شيء، وأكثرَ من حبِّنا لكلِّ شيءٍ، ونرجوكَ لأنَّك الرحمنُ الرحيمُ ونخافُ منك؛ لأنَّك مالكُ يوم الدين وبالحبِّ والرجاءِ

(١) **حسن صحيح**: رواه الترمذي (٩٨٣)، وابن ماجه (٤٢٦١)، [«صحيح الترغيب» (٣٣٨٣)].

والخوفِ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ فاللهم بأسمائِك الحسنى، وصفاتِك العلى ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ۝٧﴾ [الفاتحة].

فمن أرادَ أن يُصلحَ قلبَهُ فعَليه بمحبة الله، فالله عز وجل يقول: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة:١٦٥]، وعليه بالخوفِ من الله، فاللهُ عز وجل يقول: ﴿فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ۝٥١﴾ [النحل] وعليه بالرجاءِ، فاللهُ عز وجل يقول: ﴿أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٢١٨﴾ [البقرة].

سائلين المولى في علاه أن يُصلحَ قلوبَنا، إنه ولي ذلك والقادرُ عليه.

الوسيلةُ الثالثةَ عشرةَ لإصلاحِ القلوبِ

حُبُّ المساجدِ

يقولُ اللهُ عز وجل: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤﴾ [الأنفال].

وقال ﷺ: «**إنَّ للهِ آنيةً مِن أهلِ الأرضِ، وآنيةُ ربكُم قلوبُ عبادِه الصَالحينَ، وأحبُّها إليه ألينُها وأرَقُّها**»(١).

أدلةٌ من الكتابِ والسنةِ تُصَرِّحُ بأنَّ سعادةَ العبدِ في الدنيا والآخرة لا تكونُ أبداً إلا بصلاحِ قلبِه، ولذلك يجبُ على العاقلِ أن يعملَ ليلاً ونهاراً لإصلاح قلبِه، ومِن أعظمِ وسائلِ إصلاحِ القلوبِ: حُبُّ المساجِدِ.

قال ﷺ: «**سبعةٌ يُظلُّهُمُ اللهُ في ظِلِّهِ يومَ لا ظِلَّ إلا ظلُّهُ**»، وذكر منهم: «**ورجلٌ قلبُهُ مُعَلَّقٌ في المساجِدِ**»(٢).

والمعنى: ورجلٌ أحبَّ المساجِدَ فصَلُحَ قلبُهُ، فلما صَلُحَ قلبُهُ حافَظَ على الجماعةِ والجمعةِ ودروسِ العلمِ في المسجدِ، فكانَ كأنما تعلَّقَ قلبُهُ في داخل المسجدِ؛ إذا خرجَ منه أحبَّ أن يَرجِعَ إليه.

---

(١) **إسناده قوي**: رواه الطبراني في «مسند الشاميين» (٨٤٠)، [«السلسلة الصحيحة» (١٦٩١)].

(٢) **متفق عليه**: رواه البخاري (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١).

كيف لا؟

والنبيُّ ﷺ يقول: «**مَن توضأ في بيتِهِ فأحسنَ الوضوءَ، ثم أتى المسجدَ، فهو زَائِرُ اللهِ، وحَقٌّ على المَزُورِ أن يُكرِمَ الزائِرَ**»(١).

ويقولُ ﷺ: «**ما تَوَطَّنَ رجلٌ المساجدَ للصلاةِ والذكرِ إلا تَبَشْبَشَ اللهُ تعالى إليه كما يَتَبَشْبَشُ أهلُ الغائبِ بغائِبِهم إذا قَدِمَ عليهم**»(٢).

ويقولُ ﷺ: «إنَّ للمساجدِ أوتاداً» -يعني: روادَّها- «**الملائكةُ جلساؤُهم، إن غابوا يفتقدونهم، وإن مرضوا عادُوهم، وإن كانوا في حاجةٍ أعانوهم**»(٣).

ويصفُ اللهُ عز وجل هؤلاءِ في كتابه فيقول: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾﴾ [النور].

فالقلوبُ الطاهرةُ السليمةُ مِن مرض الشهواتِ والشُّبُهاتِ تتعلقُ بالمساجِدِ لا بالدنيا الفانية. أتدرون لِمَ يا عبادَ الله؟

---

(١) **حسن**: رواه الطبراني في «الكبير» (٦١٣٩)، [«صحيح الترغيب» (٣٢٢)].

(٢) **صحيح**: رواه ابن ماجه (٨٠٠)، وأحمد (٢/٣٠٧)، وابن خزيمة (٣٥٩)، وابن حبان (١٦٠٧)، [«صحيح الترغيب» (٣٢٧)].

(٣) **حسن صحيح**: رواه أحمد (٢/٤١٨)، [«صحيح الترغيب» (٣٢٩)].

أولاً: لأنَّ المساجدَ بيوتُ اللهِ.

قال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ [الجن:١٨].

وقال ﷺ: «**ما اجتمعَ قومٌ في بيتٍ من بيوتِ اللهِ يتلونَ كتابَ اللهِ ويتدارسونَهُ بينهم**»(١) وبيوتُ الله هي المساجدُ.

ثانياً: لأنَّ المساجِدَ أَحبُّ بقاعِ الأرضِ إلى اللهِ.

قال رجلٌ: يا رسولَ اللهِ! أيُّ البُلدانِ أحبُّ إلى اللهِ، وأيُّ البُلدانِ أبغضُ إلى اللهِ؟

قال ﷺ: «**لا أدري، حتى أسألَ جبريلَ** عليه السلام» فأتاهُ جبريل، فأخبرهُ: «**أن أَحَبَّ البقاعِ إلى اللهِ المساجدُ، وأبغضَ البقاعِ إلى اللهِ الأسواقُ**»(٢).

وقال ﷺ: «**أحبُّ البلادِ إلى الله مسَاجِدُها، وأبغضُ البلادِ إلى الله أسواقُها**»(٣).

ثالثاً: لأنَّ المساجِدَ هي بيوتُ المؤمنينَ المتقين.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾ [التوبة].

---

(١) **صحيح**: رواه مسلم (٢٦٩٩).

(٢) **حسن صحيح**: رواه أحمد (٤/٨١)، والبزار (٣٤٣٠)، [«صحيح الترغيب» (٣٢٥)].

(٣) **صحيح**: رواه مسلم (٦٧١).

وقال ﷺ: «**المسجدُ بيتُ كُلِّ مؤمنٍ**»(١).

وقال ﷺ: «**المسجدُ بيتُ كُلِّ تقيٍّ**»(٢).

رابعاً: تعلقت قلوبُهم بالمساجدِ لأنَّ خيرَ الدنيا والآخرةِ في المساجدِ.

قال ﷺ: «**من غدا إلى المسجد أو راح؛ أعدَّ اللهُ له في الجنةِ نُزُلاً كلما غدا أو راح**»(٣).

وقال ﷺ: «**ألا أدلكم على ما يمحو اللهُ به الخطايا، ويرفعُ به الدرجات؟**».

قالوا: بلى يا رسولَ الله!

قال: «**إسباغُ الوضوءِ على المكارهِ، وكثرةُ الخُطا إلى المساجد، وانتظارُ الصلاةِ بعد الصلاةِ، فذلِكمُ الرباطُ، فذلِكمُ الرباطُ، فذلِكم الرباطُ**»(٤).

وقال ﷺ: «**إسباغُ الوضوءِ في المكارِهِ، وإعمالُ الأقدامِ إلى المساجد، وانتظارُ الصلاةِ بعدَ الصلاةِ؛ تغسِلُ الخطايا غسلاً**»(٥).

---

(١) **حسن**: رواه أبو نعيم في «الحلية» (٦/١٧٦)، [«صحيح الجامع» (٦٧٠٢)].

(٢) **حسن لغيره**: رواه البزار (٢٥٤٦)، والطبراني في «الكبير» (٦١٤٣)، والبيهقي في «الشعب» (٢٦٨٩)، [«صحيح الترغيب» (٣٣٠)].

(٣) **متفق عليه**: رواه البخاري (٦٦٢)، ومسلم (٦٦٩)

(٤) **صحيح**: رواه مسلم (٢٥١).

(٥) **صحيح**: رواه أبو يعلى (٤٨٨)، والبزار (٥٢٨) وعبد بن حميد (٩١)، والبيهقي في «الشعب» (٢٤٨٤)، [«صحيح الترغيب» (٣١٣)].

وقال ﷺ: «**بَشِّرِ المشائين في الظُّلَم إلى المساجد بالنورِ التامِّ يومَ القيامة**»(١).

وقال ﷺ: «**مَن توضأَ فأسبَغَ الوضوءَ، ثم مشى إلى صلاةٍ مكتُوبَةٍ فصَلاها مع الإمامِ؛ غُفِرَ له ذنبُهُ**»(٢).

وقال ﷺ: «**من راحَ إلى مسجدِ الجماعةِ؛ فخطوةٌ تمحُو سيئةً، وخطوةٌ تكتبُ له حسنةً ذاهِباً ورَاجِعاً**»(٣).

ومن أمثلةِ هؤلاءِ الذين طَهُرَت قلوبُهم، وتعلقت بالمساجِدِ والحريصين على الخير.

١- يقولُ ابنُ مسعودٍ رضي الله عنه: (ولقد كانَ الرجلُ يُؤتى به يُهادَى بين الرجلين حتى يُقامَ في الصفِّ)(٤).

٢- عن أُبيِّ بنِ كعبٍ رضي الله عنه قال: (كان رجلٌ من الأنصارِ لا أعلمُ أحداً أبعدَ من المسجدِ منه، كانت لا تُخطِئُهُ صلاةٌ، فقيل له: لو اشتريتَ حماراً تركبُه في الظلماءِ، وفي الرَّمضاءِ، فقال: ما يسُرُّني أنَّ منزلي إلى جنبِ المسجدِ، إني أريد أن يُكتبَ لي ممشايَ إلى المسجدِ، ورجوعي إذا رجعتُ إلى أهلي.

---

(١) **صحيح لغيره**: رواه الترمذي (٢٢٣)، وأبو داود (٥٦١)، والبزار (٤٤٤٨)، والطبراني في «الأوسط» (٤٢٠٧)، [«صحيح الترغيب» (٣١٥)].

(٢) **صحيح**: رواه أحمد (١/٦٧)، والبزار (٤٣٧)، وابن خزيمة (١٤٨٩)، [«صحيح الترغيب» (٣٠٠)].

(٣) **حسن**: رواه أحمد (٢/١٧٢)، وابن حبان (٢٠٣٩)، والطبراني في «الكبير» (٩٩)، [«صحيح الترغيب» (٢٩٩)].

(٤) **صحيح**: رواه مسلم (٦٥٤).

فقال ﷺ: «**قد جمعَ اللهُ لكَ ذلكَ كُلَّه**»(١).

كيف لا؟

والنبيُّ ﷺ يقول: «**صَلَاةُ الرَّجُلِ فِي الجَمَاعَةِ تُضَعَّفُ عَلَى صَلَاتِهِ فِي بَيتِهِ وَفِي سُوقِهِ خَمسًا وَعِشرِينَ درجةً، وَذَلِكَ أَنَّهُ إِذَا تَوَضَّأَ فَأَحسَنَ الوُضُوءَ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَى المَسجِدِ لَا يُخرِجُهُ إِلَّا الصَّلَاةُ، لَم يَخطُ خَطوَةً إِلَّا رُفِعَت لَهُ بِهَا دَرَجَةٌ، وَحُطَّ عَنهُ بِهَا خَطِيئَةٌ، فَإِذَا صَلَّى لَم تَزَل المَلَائِكَةُ تُصَلِّي عَلَيهِ، مَا دَامَ فِي مُصَلَّاهُ، اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَيهِ، اللَّهُمَّ ارحَمهُ، وَلَا يَزَالُ أَحَدُكُم فِي صَلَاةٍ مَا انتَظَرَ الصَّلَاةَ**».

وفي رواية: «**اللَّهمَّ اغفر له، اللَّهم تُبْ عليه؛ ما لم يُؤذِ فيه، ما لم يُحدِثْ فيه**»(٢).

فالخير كُلُّهُ، والنورُ كُلُّهُ، وسعادةُ الدنيا والآخرةِ في حبِّ المساجدِ والتعلقِ بها.

فحبُّ المساجدِ من أعظمِ وسائلِ إصلاحِ القلوبِ، فمن صَلُحَ قلبُهُ بحبِّ المساجدِ:

أولاً: سارعَ إلى بنائِها ابتغاءَ وجهِ الله.

لقولِه ﷺ: «**من بنى لله مسجداً لا يُريدُ به رياءً ولا سُمعةً؛ بنى اللهُ له بيتاً في الجنة**»(٣).

---

(١) **صحيح**: رواه مسلم(٦٦٣).

(٢) **متفق عليه**: رواه البخاري (٦٤٧)، ومسلم (٦٥٠).

(٣) **حسن لغيره**: رواه الطبراني في «الأوسط» (٧٠٠٥)، [«صحيح الترغيب» (٢٧٤)].

ثانياً: سارعَ إلى المحافظةِ على صلاةِ الجماعةِ فيها.

لقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ٤٣﴾ [البقرة].

ولقوله ﷺ للرجلِ الأعمى: «**هل تسمعُ النداءَ بالصلاةِ**»؟ فقال: نعم! قال: «**فأجب**»[1].

ولقوله ﷺ: «**من سَمِعَ النداءَ فلم يُجِب، فلا صلاةَ لَهُ، إلا مِن عُذرٍ**»[2].

ولقوله ﷺ: «**ما من ثلاثةٍ في قريةٍ ولا بدوٍ، لا تُقامُ فيهم الصلاةُ إلا قد استحوذَ عليهمُ الشيطانُ، فعليكم بالجماعةِ، فإنما يأكُلُ الذئبُ من الغنمِ القاصية**»[3].

وهذا ابنُ مسعودٍ رضي الله عنه يبينُ لنا حالَ الصحابةِ رضي الله عنهم -الذين صَلُحَت قلوبُهم بحبِّ المساجدِ- مع صلاةِ الجماعةِ في المسجد وحالَ الذين فَسَدَت قلوبُهم -بالنفاقِ- معَ صلاةِ الجماعةِ.

فيقولُ رضي الله عنه: (من سَرَّهُ أن يلقى اللهَ غداً مسلماً، فَليحافِظْ على هؤلاءِ الصلواتِ حيثُ يُنادى بهنَّ، فإنَّ اللهَ شَرَعَ لنبيِّكم سننَ الهدى؛ وإنهنَّ من سُنَنِ الهدى، ولو أنكم صلَّيتُم في بُيوتِكمُ كما يُصلِّي هذا المتخلِّفُ في بيتهِ لتركتُم سنَّةَ نبيِّكُم، ولو

(١) **صحيح**: رواه مسلم (٦٥٣).

(٢) **صحيح**: رواه ابن ماجه (٧٩٣)، وابن حبان (٢٠٦٤)، والطبراني في «الأوسط» (٤٣٠٣)، والحاكم (٨٩٣)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٣/ ٨٠)، [«صحيح الترغيب» (٤٢٦)].

(٣) **حسن صحيح**: رواه أبو داود (٥٤٧)، والنسائي (٨٤٧)، وابن حبان (٢١٠١)، [«صحيح الترغيب» (٤٢٧)].

تركتم سُنَّةَ نبيِّكُم لَضَلَلتم، ولقد رأيتُنا وما يَتَخلَّفُ عنها إلا منافِقٌ معلومُ النفاقِ، ولقد كانَ الرجُلُ يُؤتى به يُهادَى بين الرجُلَينِ حتى يُقامَ في الصفِّ)(١).

ثالثاً: سارعْ إلى مجالسِ العلمِ في المساجدِ.

لقوله ﷺ: «**وَمَا اجتَمَعَ قَومٌ فِي بَيتٍ مِن بُيُوتِ اللَّهِ يَتلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَينَهُم، إِلَّا نَزَلَت عَلَيهِمُ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتهُمُ الرَّحمَةُ، وَحَفَّتهُمُ المَلائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَن عِندَهُ**»(٢).

ولقوله ﷺ: «**من دخلَ مسجدَنا هذا لِيتعلَّمَ خيراً أو يُعلِّمَهُ؛ كانَ كالمجاهدِ في سبيلِ الله**»(٣).

فالذين صَلُحَت قلوبُهم بحبِّ المساجدِ حافظوا على مجالسِ العلم فيها لأنها روضةٌ من رياضِ الجنة.

كيف لا؟

والنبيُّ ﷺ يقول: «**إذا مررتم برياضِ الجنةِ فَارتعوا**»، قيل: وما رياضُ الجنة؟ قال: «**حِلَقُ الذكرِ**»(٤).

---

(١) **صحيح**: رواه مسلم (٦٥٤).

(٢) **صحيح**: رواه مسلم (٢٦٩٩).

(٣) **حسن**: رواه أحمد (٢/ ٣٥٠)، وابن حبان (٨٧)، والحاكم (٣١٠)، [«التعليقات الحسان» (٨٧)].

(٤) **حسن لغيره**: رواه الترمذي (٣٥١٠)، وأحمد (٣/ ١٥٠)، والبزار (٦٩٠٧)، وأبو يعلى (٣٤٣٢)، [«صحيح الترغيب» (١٥١١)].

قال عطاءٌ: (مجالسُ الذِّكرِ هي مجالسُ الحلالِ والحرام، كيف تشتري وتبيعُ، وتصلي وتصومُ، وتَنكِحُ وتُطلِّقُ، وتحجُّ، وأشباهُ هذا)(١).

فَاحرِص يا مسلم! على مجالسِ العلم في المساجدِ، ولا تُعرض عنها، لأنَّ من أعرضَ عنها أعرضَ اللهُ عنه.

عَن أَبِي وَاقِدٍ اللَّيثِيِّ ﵁ قال: بينما رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَالِسٌ فِي المَسجِدِ وَالنَّاسُ مَعَهُ، إذ أَقبَلَ نَفَرٌ ثَلاثَةٌ، فَأَقبَلَ اثنَانِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَذَهَبَ وَاحِدٌ، قَالَ: فَوَقَفَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَمَّا أَحَدُهُمَا فَرَأَى فُرجَةً فِي الحَلقَةِ فَجَلَسَ فِيهَا، وَأَمَّا الآخَرُ فَجَلَسَ خَلفَهُم، وَأَمَّا الثَّالِثُ فَأَدبَرَ ذَاهِبًا فَلَمَّا فَرَغَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**أَلاَ أُخبِرُكُم عَنِ النَّفَرِ الثَّلاَثَةِ؟ أَمَّا أَحَدُهُم فَأَوَى إِلَى اللَّهِ، فَآوَاهُ اللَّهُ، وَأَمَّا الآخَرُ فَاستَحيَا، فَاستَحيَا اللَّهُ مِنهُ، وَأَمَّا الآخَرُ فَأَعرَضَ، فَأَعرَضَ اللَّهُ عَنهُ**»(٢).

رابعاً: من صَلُحَ قَلبُهُ بحبِّ المساجدِ حافظَ على طهارتِها من كُلِّ مظاهرِ الشركِ والبدعِ، وحافظ على نظافتِها من الأقذارِ والنجاساتِ.

لقولِهِ ﷺ في مرضِه الذي ماتَ فيه: «**لَعَنَ اللهُ اليهودَ والنصارى اتخذوا قبورَ أنبيائِهم مساجد**»(٣).

قالت عائشة ﵂: (فلولا ذاكَ أُبرِزَ قبرُهُ غَيرَ أنهُ خُشِيَ أن يُتَّخَذَ مسجداً)(٤).

(١) «المجموع شرح المهذب» (١/٢١).

(٢) **متفق عليه**: رواه البخاري (٦٦)، ومسلم (٢١٧٦).

(٣) **متفق عليه**: رواه البخاري (١٣٣٠)، ومسلم (٥٢٩).

(٤) **متفق عليه**: رواه البخاري (١٣٩٠)، ومسلم (٥٢٩).

وتقولُ عائشةُ وابنُ عباسٍ ﭭ: (لما نَزَلَت برسولِ اللهِ الوفاةُ جعلَ يُلقي على وجهِهِ طَرَفَ خَمِيصَةٍ لهُ، فإذا اغتمَّ كشفَها عن وجهِهِ، وهو يقول: «**لعنةُ اللهِ على اليهودِ والنصارى اتخذوا قبورَ أنبيائِهم مساجد**»، تقول عائشة: يُحَذِّرُ مِثلَ ما صنعوا)[(١)].

ولقوله ﷺ محذراً من البدع: «**من أحدَثَ في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد**»[(٢)].

ولقول ابن عمر ﭭ: (كُلُّ بدعةٍ ضلالةٌ وإن رآها الناسُ حسنة)[(٣)].

فصاحبُ القلبِ السليمِ الذي صَلُحَ قلبُه بحبِّ المساجدِ لا يقبلُ أن يرى بدعةً في المسجدِ أبداً.

يقول أبو إدريسَ الخولاني: (لأن أرى في المسجدِ ناراً لا أستطيعُ إطفاءَها أحبُّ إليَّ من أن أرى فيه بدعةً لا أستطيعُ تغييرَها)[(٤)].

وأمَرَ ﷺ بنظافةِ المسجد.

تقولُ عائشةُ ﭭ: (أمرَنا رسولُ اللهِ ﷺ ببناءِ المساجدِ في الدورِ، وأن تُنَظَّفَ وتُطَيَّبَ)[(٥)].

وقال ﷺ للرجل الذي بالَ في المسجد: «**إنَّ هذه المساجدَ لا تصلُحُ لشيءٍ مِن هذا البولِ ولا القَذَرِ، إنما هي لذكرِ اللهِ تعالى، والصلاةِ وقراءةِ القرآنِ**»[(٦)].

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري (٤٣٦)، ومسلم (٥٣١)

(٢) **متفق عليه**: رواه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨).

(٣) رواه المروزي في السنة (٨٢).

(٤) رواه المروزي في السنة (٩٩).

(٥) **صحيح**: رواه الترمذي (٥٩٤)، وأبو داود (٤٥٥)، وأحمد (٦/٢٧٩)، [«صحيح الترغيب» (٢٧٩)].

(٦) **صحيح**: رواه مسلم (٢٨٥).

خامساً: من صَلُحَ قلبُهُ بحبِّ المساجدِ لا يَنشُدُ ضآلةً فيها، ولا يدعو لفكرٍ ولا لحزبٍ فيها أبداً.

لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ١٨﴾ [الجن].

ولقوله ﷺ: «**من سَمِعَ رجلاً ينشُد ضالة**» -أي: يطلبها- «**في المسجدِ فَليقُل: لا رَدَّها اللهُ عليكَ، فإن المساجِدَ لم تُبنَ لهذا**»[1].

وجاء أعرابيٌّ بعدما صلى النبيُّ ﷺ صلاةَ الفجرِ فأدخلَ رأسَه من بابِ المسجد فقال: من دعا إلى الجملِ الأحمَرِ -أي من وجدَ الجملَ الأحمرَ؟ فقال النبيُّ ﷺ: «**لا وَجَدْتَ، إنما بُنِيَتِ المساجدُ لما بُنيت لهُ**»[2].

فلا يجوزُ لمسلمٍ أبداً أن يستخدمَ المسجدَ لغيرِ ما بُني له، كاستخدامِ بعضِ الناسِ المساجدَ للخروجِ على ولاةِ الأمرِ والمظاهراتِ وغيرِها مما نراهُ اليوم!

سادساً: من صَلُحَ قلبُهُ بحبِّ المساجدِ لا يبيعُ ولا يشتري فيها أبداً.

لقوله ﷺ: «**إذا رأيتُم من يبيعُ أو يَبتَاعُ في المسجد فقولوا: لا أربَحَ اللهُ تجارَتَكَ**»[3].

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٥٦٨).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٥٦٩).

(٣) صحيح: رواه الترمذي (١٣٢١)، والنسائي في «الكبرى» (٩٩٣٣)، والدارمي (١٤٤١)، وابن خزيمة (١٣٠٥)، [«صحيح الترغيب» (٢٩١)].

وعن عمرو بنِ شعيبٍ عن أبيه عن جَدِّهِ: (أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ نهى عن الشراءِ والبيعِ في المسجدِ)[1].

نسألُ الله أن يُصلحَ قلوبَنا وأن يجعلَنا وإياكم من أهلِ المساجدِ المحبين لها، إنه وليٌّ ذلك والقادرُ عليه.

(١) **حسن**: رواه أبو داود (١٠٧٩)، والنسائي (٧١٤)، وأحمد (١٧٩/٢)، [«صحيح الجامع» (٦٨٨٥)].

الوسيلةُ الرابعةَ عشرةَ لإصلاحِ القلوبِ

ذكرُ اللهِ تعالى

يقولُ اللهُ عز وجل في كتابِه: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [الحِجر].

وعَن أَبِي هُرَيرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «**أَوَّلُ زُمرَةٍ تَلِجُ الجَنَّةَ صُورَتُهُم عَلَى صُورَةِ القَمَرِ لَيلَةَ البَدرِ، لَا يَبصُقُونَ فِيهَا وَلَا يَمتَخِطُونَ وَلَا يَتَغَوَّطُونَ، آنِيَتُهُم فِيهَا الذَّهَبُ، أَمشَاطُهُم مِن الذَّهَبِ وَالفِضَّةِ، وَمَجَامِرُهُم الأَلُوَّةُ، وَرَشحُهُم المِسكُ، وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنهُم زَوجَتَانِ، يُرَى مُخُّ سُوقِهِمَا مِن وَرَاءِ اللَّحمِ مِن الحُسنِ، لَا اختِلَافَ بَينَهُم وَلَا تَبَاغُضَ، قُلُوبُهُم قَلبٌ وَاحِدٌ، يُسَبِّحُونَ اللَّهَ بُكرَةً وَعَشِيًّا**»(١).

وفي رواية: «**قُلُوبُهُم عَلَى قَلبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، لَا تَبَاغُضَ بَينَهُم وَلَا تَحَاسُدَ**»(٢).

أدلةٌ من الكتاب والسنة تُصرِّحُ بأنَّ الجنةَ أُعِدَّت لأصحابِ القلوبِ السليمةِ الطاهرةِ منَ الغِلِّ والحسدِ ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ [الأعراف:٤٣]، فالعاقلُ هو الذي يعملُ ليلاً ونهاراً لإصلاحِ قلبِه، ومن أعظمِ وسائلِ إصلاحِ القلوبِ: ذكرُ اللهِ تعالى.

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري (٣٢٤٥)، ومسلم (٢٨٣٤).

(٢) **متفق عليه**: رواه البخاري (٣٢٥٤)، ومسلم (٢٨٣٤)واللفظ للبخاري.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ٢٨﴾ [الرعد].

فذكرُ اللهِ عز وجل يُصلحُ القلوبَ ويُطمئِنُها، والغفلةُ عن ذكرِ اللهِ تُقسي القلوبَ وتُمرِضُها.

قال تعالى: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٢٢﴾ [الزُّمَر].

وذكرُ اللهِ تعالى ضربان: ذكرٌ بالقلبِ، وهو الذِّكرُ الخفي، وذكرٌ باللسان.

وذكرُ القلبِ نوعان:

أحدُهما: وهو أرفعُ الأذكارِ وأَجَلُّها: الفكرُ في عظمةِ اللهِ تعالى وجلالِه، وجبروتِهِ وملكوتِه، وآياتِهِ في سمواتِهِ وأرضِه.

والثاني: ذكرُهُ بالقلبِ عندَ الأمرِ والنهي، فيمتثلُ ما أُمِرَ به، ويتركُ ما نُهِيَ عنه، ويقفُ عمّا أُشكِلَ عليه.

وأما ذكرُ اللسانِ مجرداً فهو أضعَفُ الأذكارِ، ولكن فيه فضلٌ عظيم.

واختلفَ السلفُ في ذكرِ القلبِ واللسان أيُّهما أفضلُ؟ قال الإمامُ النوويُّ رحمه الله: (والصحيحُ أَنَّ ذكرَ اللسانِ مع حضورِ القلبِ أفضلُ منَ القلبِ وحدَهُ، واللهُ أعلم)(١).

(١) «إكمال المعلم» (٨/١٨٩)، وشرح مسلم للنووي.

والـذكرُ عبوديـةُ القلـبِ واللِّسانِ، وهـو -أي: الـذكرُ- مـن أَنْفَـعِ الوسـائلِ لإصلاحِ القلبِ واللسانِ، وهو -أي: الذكرُ- عبادةٌ غيرُ مؤقتةٍ بوقتٍ.

يقولُ ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما: (إنَّ اللهَ تعالى لم يَفرض على عبادِهِ فريضةً إلا جعلَ لها حدّاً معلوماً، ثُمَّ عذرَ أهلها في حالِ العذرِ، غيرَ الذِّكرِ، فإنَّ اللهَ تعالى لم يجعلْ له حدّاً ينتهي إليه، ولم يَعذرْ أحداً في تركِهِ إلا مغلوباً على تركِهِ، فقال تعالى: ﴿ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ۝٤١﴾ [الأحزاب]، قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم، بالليلِ والنهارِ، في البرِّ والبحر، وفي السَّفرِ والحَضرِ، والغنى والفقرِ، والسَّقمِ والصحةِ، والسِّرِّ والعلانيةِ، وعلى كلِّ حال)[1].

ولذلك لم يُذكَرِ الذكرُ في القرآنِ إلا موصوفاً بالكثرة.

كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ۝٤١﴾ [الأحزاب].

وقولـهِ تعـالى: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ۝٢١﴾ [الأحزاب].

وقولِـه تعـالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝١٠﴾ [الجمعة].

وقولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝٤٥﴾ [الأنفال].

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٤٩٥).

وقوله تعالى: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾ [الأحزاب].

وقد أمرَ اللهُ عبادَهُ أن يجعلوا ذكرَ اللهِ أقصى غايتهم.

فقال تعالى: ﴿فَٱعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ ﴿١٤﴾﴾ [طه].

وقال تعالى: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [العنكبوت]. -أي: وَلَذِكرُ العبدِ للهِ تعالى أكبرُ من سائرِ أعماله-(١).

ولذلك أمرَ اللهُ تعالى بالعبادةِ لِيُذكَرَ فيها، وأمرَ بذكرهِ بعدَ الفراغِ منها.

فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الجمعة].

وقال تعالى: ﴿حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ۖ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾﴾ [البقرة].

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾﴾ [النساء].

---

(١) الألوسي في تفسيره «روح المعاني» (١٦٥/٢٠).

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ [البقرة:٢٠٠].

فذِكرُ الله هو (روحُ الأعمالِ الصالحةِ، فإذا خلا العملُ من الذكرِ كان كالجسدِ الذي لا روحَ فيه)[1].

كما قالَ النبيُّ ﷺ: «**مَثَلُ الَّذِي يَذكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لاَ يَذكُرُ مَثَلُ الحَيِّ وَالمَيِّتِ**»[2].

وقد أمرَ اللهُ عبادَهُ بالذكرِ، ونهاهم عن الغفلةِ والنسيانِ، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ [الأحزاب].

وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾ [الأعراف].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الحشر].

وجعلَ اللهُ الذكرَ عنوانَ الإيمانِ، والنسيانَ والغفلةَ عنوانَ النفاقِ والكُفرانِ والخسرانِ.

---

(١) «تهذيب مدارج السالكين» (٤٦٤).

(٢) **صحيح**: رواه البخاري (٦٤٠٧)، ومسلم (٧٧٩).

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمۡ وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ ﴿٢٩﴾﴾ [الرعد].

وقال تعالى: ﴿ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ بَعۡضُهُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمُنكَرِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَقۡبِضُونَ أَيۡدِيَهُمۡۚ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡۚ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [التوبة].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿١٤٢﴾﴾ [النساء].

وقال تعالى: ﴿ٱسۡتَحۡوَذَ عَلَيۡهِمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمۡ ذِكۡرَ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱلشَّيۡطَٰنِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾ [المجادلة].

• مَنِ استجابَ لأمرِ اللهِ، وذكرَ اللهَ كثيراً كما علَّمه النبيُّ ﷺ أصلحَ قلبه، وقطفَ الثمارَ اليانعةَ في الدنيا والآخرة ومنها:

أولاً: يُحفَظُ من كيدِ الشياطين ويكونُ دائماً في حصنٍ حصينٍ.

قال ﷺ: «**إنَّ اللهَ أَمَرَني بِخَمسِ كلماتٍ أن أعمَلَ بِهِنَّ وآمُرَكُم أن تعمَلوا بهنَّ**» وذكرَ منها: «**وآمُرُكُم بِذِكرِ اللهِ عز وجلَّ كثيراً، وإنَّ مَثَلَ ذلك كَمثلِ رجُلٍ طَلَبَهُ العدوُّ في أَثَرِهِ، فأتى حصناً حصيناً فأحرَزَ نفسَهُ فتحصَّنَ فيه، وإنَّ العبدَ أَحصَنُ ما يكونُ من الشيطانِ إذا كان في ذكر الله عز وجل**»(١).

---

(١) صحيح: رواه الترمذي (٢٨٦٣)، وأبو يعلى (١٥٧١)، والطبراني في «الكبير» (٣٤٣٠)، [«صحيح الترغيب» (٥٥٢)].

وَقال ﷺ: «مَن قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلكُ وَلَهُ الحَمدُ، وَهوَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ، فِي يَومٍ مِئَةَ مَرَّةٍ كَانَت لَهُ عَدلَ عَشرِ رِقَابٍ، وَكُتِبَ لَهُ مِائَةُ حَسَنَةٍ، وَمُحِيَت عَنهُ مِائَةُ سَيِّئَةٍ، وَكَانَت لَهُ حِرزًا مِنَ الشَّيطَانِ يَومَهُ ذَلِكَ حَتَّى يُمسِيَ، وَلَم يَأتِ أَحَدٌ بِأَفضَلَ مِمَّا جَاءَ بِهِ، إِلَّا رَجُلٌ عَمِلَ أَكثَرَ مِنهُ»[(١)].

وقال ﷺ: «إِذَا دَخَلَ الرَّجُلُ بَيتَهُ فَذَكَرَ اللهَ عِندَ دُخُولِهِ؛ وَعِندَ طَعَامِهِ؛ قَالَ الشَّيطَانُ: لاَ مَبِيتَ لَكُم وَلاَ عَشَاءَ، وَإِذَا دَخَلَ فَلَم يَذكُرِ اللهَ عِندَ دُخُولِهِ؛ قَالَ الشَّيطَانُ: أَدرَكتُمُ المَبِيتَ، وَإِذَا لَم يَذكُرِ اللهَ عِندَ طَعَامِهِ؛ قَالَ: أَدرَكتُمُ المَبِيتَ وَالعَشَاءَ»[(٢)].

ثانياً: الفلاحُ والمغفرةُ والأجرُ العظيم.

قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الجمعة].

وقال تعالى: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾ [الأحزاب].

ثالثاً: يُذْكَرُ الذاكرُ للهِ تعالى في الملأ الأعلى، ويتحصَّلُ على معيةِ الله.

قال تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة:١٥٢].

وقال ﷺ: «يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: أَنَا عِندَ ظَنِّ عَبدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِن ذَكَرَنِي فِي نَفسِهِ ذَكَرتُهُ فِي نَفسِي، وَإِن ذَكَرَنِي فِي مَلأٍ ذَكَرتُهُ فِي مَلأٍ خَيرٍ مِنهُم»[(٣)].

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري (٦٤٠٣)، ومسلم (٢٦٩١).

(٢) **صحيح**: رواه مسلم (٢٠١٨).

(٣) **متفق عليه**: رواه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥).

فالذاكِرُ قريبٌ من مَذكُورِه، ومَذكُورُه معَهُ، وهذه المعيَّةُ معيَّةٌ خاصةٌ غيرَ معيَّةِ العلمِ والإحاطةِ العامة، فهي معيَّةٌ بالقربِ والولايةِ والمحبةِ والنصرَةِ والتوفيقِ، ولو لم يكن في الذكر من فضلٍ وشرفٍ إلا هذه وحدَها لكفى بها فضلاً وشرفاً، فكيفَ وفضائِلُ الذكرِ لا تنحصرُ(١).

رابعاً: الذاكرُ للهِ تعالى يُصلي اللهُ عليه وملائكتُهُ، وتنزلُ عليه الملائكةُ والسكينةُ، ويُخرجُهُ اللهُ من الظلماتِ إلى النور.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾ [الأحزاب].

وقال ﷺ: «**لاَ يَقعُدُ قَومٌ يَذكُرُونَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ إلَّا حَفَّتهُمُ المَلاَئِكَةُ، وَغَشِيَتهُمُ الرَّحمَةُ، وَنَزَلَت عَلَيهِمُ السَّكِينَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَن عِندَهُ**»(٢).

خامساً: أهلُ الذكرِ يُباهي اللهُ بهمُ ملائكتَه.

إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ خَرَجَ عَلَى حَلقَةٍ مِن أَصحَابِهِ فَقَالَ: «**مَا أَجلَسَكُم؟**» قَالُوا: جَلَسنَا نَذكُرُ اللهَ وَنَحمَدُهُ عَلَى مَا هَدَانَا لِلإِسلاَمِ، وَمَنَّ بِهِ عَلَينَا، قَالَ: «**آللهِ! مَا أَجلَسَكُم إلَّا ذَاكَ؟**» قَالُوا: وَاللهِ! مَا أَجلَسَنَا إلَّا ذَاكَ. قَالَ: «**أَمَا إِنِّي لَم**

(١) «نضرة النعيم» (٥/٢٠١٢).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٧٠٠).

أَستَحلِفْكُم تُهمَةً لَكُم، وَلَكِنَّهُ أَتَانِي جِبرِيلُ فَأَخبَرَنِي أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يُبَاهِي بِكُمُ المَلاَئِكَةَ»(١).

سادساً: أهلُ الذكرِ يقومونَ بأفضلِ الأعمالِ وأجلِّها وأيسرها.

قال ﷺ: «**أَلاَ أُنَبِّئُكُم بِخَيرِ أَعمَالِكُم، وَأَزكَاهَا عِندَ مَلِيكِكُم، وَأَرفَعِهَا فِي دَرَجَاتِكُم، وَخَيرٌ لَكُم مِن إِنفَاقِ الذَّهَبِ وَالوَرِقِ، وَخَيرٌ لَكُم مِن أَن تَلقَوا عَدُوَّكُم، فَتَضرِبُوا أَعنَاقَهُم، وَيَضرِبُوا أَعنَاقَكُم؟ قَالُوا: بَلَى، قَالَ: ذِكرُ اللهِ تَعَالَى**»(٢).

وقال ﷺ: «**كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي المِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحمَنِ؛ سُبحَانَ اللهِ العَظِيمِ، سُبحَانَ اللهِ وَبِحَمدِهِ**»(٣).

وقال ﷺ: «**الطُّهُورُ شَطرُ الإِيمَانِ، وَالحَمدُ لِلَّهِ تَملأُ المِيزَانَ، وَسُبحَانَ اللهِ وَالحَمدُ لِلَّهِ تَملآنِ أَو تَملأُ مَا بَينَ السَّمَوَاتِ وَالأَرضِ، وَالصَّلاَةُ نُورٌ**»(٤).

ولذلك لما جاء رجلٌ إلى رسولِ الله ﷺ يقول: يا رسول الله! إن شرائعَ الإسلام قد كثُرت عليَّ فأخبِرني بشيءٍ أتشبثُ به، فقال ﷺ: «**لاَ يَزَالُ لِسَانُكَ رَطبًا مِن ذِكرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ**»(٥).

(١) **صحيح**: رواه مسلم (٢٧٠١).

(٢) **صحيح**: رواه الترمذي (٣٣٧٧)، وابن ماجه (٣٧٩٠)، وأحمد (٥/١٩٥)، [«صحيح الترغيب» (١٤٩٣)].

(٣) **متفق عليه**: رواه البخاري (٦٤٠٦)، ومسلم (٢٦٩٤).

(٤) **صحيح**: رواه مسلم (٢٢٣).

(٥) **صحيح**: رواه الترمذي (٣٣٧٥)، وابن ماجه (٣٧٩٣)، وأحمد (٤/١٨٨)، [«صحيح الترغيب» (١٤٩١)].

كيف لا؟

وذكرُ اللهِ يُطَمئِنُ القلوبَ، ويشرحُ الصدورَ.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ٢٨﴾ [الرعد].

سابعاً: ذكرُ اللهِ مع البكاءِ في الخلوةِ سببٌ لإظلالِ اللهِ تعالى العبدَ يوم الحرِّ الأكبرِ في ظل عرشه.

قال ﷺ: «**سَبعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ يَومَ لاَ ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ**» وعدَّ منهم: «**وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِيًا فَفَاضَت عَينَاهُ**»(1).

ثامناً: ذكرُ اللهِ غراسُ الجنة.

قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**لَقِيتُ إِبرَاهِيمَ لَيلَةَ أُسرِيَ بِي، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ! أَقرِئ أُمَّتَكَ مِنِّي السَّلاَمَ، وَأَخبِرهُم أَنَّ الجَنَّةَ طَيِّبَةُ التُّربَةِ، عَذبَةُ المَاءِ، وَأَنَّهَا قِيعَانٌ، وَأَنَّ غِرَاسَهَا سُبحَانَ اللهِ، وَالحَمدُ للهِ، وَلاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكبَرُ**»(2).

وقال ﷺ: «**مَن قَالَ: سُبحَانَ اللهِ العَظِيمِ وَبِحَمدِهِ، غُرِسَت لَهُ نَخلَةٌ فِي الجَنَّةِ**»(3).

---

(1) **متفق عليه**: رواه البخاري (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١).

(2) **حسن**: رواه الترمذي (٣٤٦٢)، [«صحيح الجامع» (٥١٥٢)].

(3) **صحيح لغيره**: رواه الترمذي (٣٤٦٤)، وأبو يعلى (٢٢٣٣)، [«صحيح الترغيب» (١٥٤٠)].

لذلك كُلِّهِ سبقَ الذاكرون يومَ القيامة؛ قال ﷺ: «**سَبَقَ الْمُفَرِّدُونَ**»، قَالُوا: وَمَا الْمُفَرِّدُونَ يَا رَسُولَ اللهِ؟! قَالَ: «**الذَّاكِرُونَ اللهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتُ**»(١).

• يُعتبرُ ذكرُ اللهِ من أعظمِ الوسائل لإصلاحِ القلوبِ، ومن أعظمِ الأسلحةِ على الإطلاقِ في مواجهةِ عدوِّ اللهِ (الشيطان)، وردِّ كيدِه، فما حاربَ الإنسانُ عَدُوَّهُ الشيطانَ بمثل ذكرِ اللهِ تعالى، حيثُ يتصاغرُ عدوُّ اللهِ ويخنُسُ، ويندَحرُ ذليلاً أمامَ الذكرِ على اختلافِ أنواعِه، وفي بيانِ هذه الحقيقة يقولُ الله تعالى: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلۡوَسۡوَاسِ ٱلۡخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِي يُوَسۡوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾ [سورة الناس].

يقول ابن عباس رضي الله عنهما: (مَا مِن مَولُودٍ إِلَّا عَلَى قَلبِهِ الوَسوَاسُ، فَإِن ذَكَرَ اللهَ خَنَسَ، وَإِن غَفَلَ وَسوَسَ، وَهُوَ قَولُهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿ٱلۡوَسۡوَاسِ ٱلۡخَنَّاسِ﴾)(٢).

وقال مجاهدٌ: (الشَّيطَانُ يَكُونُ عَلَى قَلبِ الإِنسَانِ، فَإِذَا ذَكَرَ اللهَ خَنَسَ)(٣).

فذكرُ اللهِ عز وجل يُصلحُ القلبَ واللسان وحصنٌ حصين يتحصنُ به المسلمُ من كيد الشياطين، ولذلك جاءت أذكارٌ كثيرةٌ في السنةِ خاصةً تطردُ الشياطينَ ومنها على سبيل المثال:

---

(١) **صحيح**: رواه مسلم (٢٦٧٦).

(٢) رواه الحاكم (٣٩٩١)، والبيهقي في «الشعب» (٦٦٦).

(٣) الطبري في «جامع البيان» (٢٤/٧١٠).

١. ذكرُ اللهِ عند النوم (آية الكرسي).

قـال الـشيطانُ لأبي هريـرةَ ﵁: (إِذَا أَوَيـتَ إِلَى فِرَاشِـكَ فَـاقرَأ آيَـةَ الكُـرسِيِّ ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ حتى تختم الآية وَقَالَ لِي: لَن يَزَالَ عَلَيكَ مِنَ اللهِ حَافِظٌ، وَلاَ يَقرَبَنَّكَ شَيطَانٌ حَتَّى تُصبِحَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَمَا إِنَّهُ قَد صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ**»)[١].

٢. ذكرُ اللهِ بعدَ الاستيقاظِ من النوم.

قال ﷺ: «**يَعقِدُ الشَّيطَانُ عَلَى قَافِيَةِ رَأسِ أَحَدِكُم إِذَا هُوَ نَامَ ثَلاَثَ عُقَدٍ، يَضرِبُ على مكانِ كُلِّ عُقدَةٍ: عَلَيكَ لَيلٌ طَوِيلٌ فَارقُد، فَإِنِ استَيقَظَ فَذَكَرَ اللهَ انحَلَّت عُقدَةٌ، فَإِن تَوَضَّأَ انحَلَّت عُقدَةٌ، فَإِن صَلَّى انحَلَّت عُقدَةٌ فَأَصبَحَ نَشِيطًا طَيِّبَ النَّفسِ، وَإِلَّا أَصبَحَ خَبِيثَ النَّفسِ كَسلاَنَ**»[٢].

فذكرَ أنَّ الذي يطردُ الشيطانَ بعد النومِ ذكرُ اللهِ، ثم الوضوءُ الذي هو شرطٌ من شروطِ الصلاةِ، ثم الصلاةُ التي شُرِعَت لإقامةِ ذكرِ الله تعالى.

٣. ذكرُ اللهِ عندَ الأكلِ.

عَن حُذَيفَةَ قَالَ: (كُنَّا إِذَا حَضَرنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ طَعَامًا لَم نَضَعْ أَيدِيَنَا حَتَّى يَبدَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَيَضَعُ يَدَهُ، وَإِنَّا حَضَرنَا مَعَهُ مَرَّةً طَعَامًا، فَجَاءَت جَارِيَةٌ كَأَنَّهَا تُدفَعُ،

---

(١) **صحيح**: رواه البخاري (٢٣١١).

(٢) **متفق عليه**: رواه البخاري (١١٤٢)، ومسلم (٧٧٦) واللفظ للبخاري.

فَذَهَبَت لِتَضَعَ يَدَهَا فِي الطَّعَامِ فَأَخَذَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِيَدِهَا، ثُمَّ جَاءَ أَعرَابِيٌّ كَأَنَّمَا يُدفَعُ فَأَخَذَ بِيَدِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ الشَّيطَانَ يَستَحِلُّ الطَّعَامَ أَن لاَ يُذكَرَ اسمُ اللهِ عَلَيهِ، وَإِنَّهُ جَاءَ بِهَذِهِ الجَارِيَةِ لِيَستَحِلَّ بِهَا فَأَخَذتُ بِيَدِهَا، فَجَاءَ بِهَذَا الأَعرَابِيِّ لِيَستَحِلَّ بِهِ فَأَخَذتُ بِيَدِهِ، وَالَّذِي نَفسِي بِيَدِهِ! إِنَّ يَدَهُ فِي يَدِي مَعَ يَدِهَا**»(١).

٤. ذكرُ اللهِ عند دخولِ البيتِ.

يقول ﷺ: «**إِذَا دَخَلَ الرَّجُلُ بَيتَهُ فَذَكَرَ اللهَ عِندَ دُخُولِهِ وَعِندَ طَعَامِهِ قَالَ الشَّيطَانُ: لاَ مَبِيتَ لَكُم وَلاَ عَشَاءَ، وَإِذَا دَخَلَ فَلَم يَذكُرِ اللهَ عِندَ دُخُولِهِ قَالَ الشَّيطَانُ: أَدرَكتُمُ المَبِيتَ، وَإِذَا لَم يَذكُرِ اللهَ عِندَ طَعَامِهِ قَالَ: أَدرَكتُمُ المَبِيتَ وَالعَشَاءَ**»(٢).

٥. ذكرُ اللهِ عندَ الخروج من البيت.

قال ﷺ: «**إِذَا خَرَجَ الرَّجُلُ مِن بَيتِهِ فَقَالَ: بِسمِ اللهِ تَوَكَّلتُ عَلَى اللهِ، لاَ حَولَ وَلاَ قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، يُقَالُ له حِينَئِذٍ: هُدِيتَ وَكُفِيتَ وَوُقِيتَ، فَتَتَنَحَّى لَهُ الشَّيَاطِينُ فَيَقُولُ لَهُ شَيطَانٌ آخَرُ: كَيفَ لَكَ بِرَجُلٍ قَد هُدِيَ وَكُفِيَ وَوُقِيَ**»(٣).

٦. ذكرُ اللهِ عند دخولِ الخلاءِ.

قال ﷺ: «**سِترُ مَا بَينَ الجِنِّ وَعَورَاتِ بَنِي آدَمَ إِذَا دَخَلَ الكَنِيفَ أَن يَقُولَ: بِسمِ اللهِ**»(٤).

---

(١) **صحيح**: رواه مسلم (٢٠١٧).

(٢) **صحيح**: رواه مسلم (٢٠١٨).

(٣) **صحيح**: رواه أبو داود (٥٠٩٥)، [«صحيح الترغيب» (١٦٠٥)].

(٤) **صحيح**: رواه الترمذي (٦٠٦) وابن ماجه (٢٩٧) واللفظ له، [«الإرواء» (٥٠)].

٧. الأذانُ والإقامةُ يطردان الشيطانُ.

قال ﷺ: «**إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاَةِ أَدبَرَ الشَّيطَانُ لَهُ ضُرَاطٌ حَتَّى لاَ يَسمَعَ التَّأذِينَ، فَإِذَا قُضِيَ التَّأذِينُ أَقبَلَ، حَتَّى إِذَا ثُوِّبَ بِالصَّلاَةِ أَدبَرَ، حَتَّى إِذَا قُضِيَ التَّثوِيبُ أَقبَلَ، حَتَّى يَخطِرَ**[1] **بَينَ المَرءِ وَنَفسِهِ يَقُولُ لَهُ: اذكُر كَذَا، وَاذكُر كَذَا، لِمَا لَم يَكُن يَذكُرُ مِن قَبلُ، حَتَّى يَظَلَّ الرَّجُلُ مَا يَدرِي كَم صَلَّى**»[2].

(١) يخطُر: فيها لغتان: بضم الطاء وكسرها.

(٢) **متفق عليه**: رواه البخاري (١٢٢٢)، ومسلم (٣٨٩) واللفظ له.

الوسيلةُ الخامسةَ عشرةَ لإصلاحِ القلوبِ

القرآنُ الكريم

يقول اللهُ عز وجل في كتابه: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ٢٣﴾ [الزُّمَر].

ويقول ﷺ: «**إِنَّ للهِ آنيةً مِن أهلِ الأَرضِ، وآنيةُ رَبِّكُم قلوبُ عبادهِ الصالحينَ، وأحَبُّها إليه أَلينُهَا وَأَرَقُّها**»(١).

أدلةٌ منَ الكتابِ والسنةِ تُصَرِّحُ بأنَّ أصحابَ القلوبِ السليمةِ الصحيحة اللينةِ هم أحبابُ الله، ولذلك ينبغي للعاقلِ أن يعملَ ليلاً ونهاراً لإصلاحِ قلبِه، ومن أعظمِ وسائلِ إصلاحِ القلوبِ: القرآنُ الكريم.

يقولُ اللهُ عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ -وهو القرآنُ الكريمُ- ﴿وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ -أي: شفاءٌ للقلوبِ التي في الصدور- ﴿وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٧﴾ [يونس].

ويقولُ سبحانه: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا ٨٢﴾ [الإسراء].

(١) **إسناد قوي**: رواه الطبراني في «الشاميين» (٨٤٠)، [«السلسلة الصحيحة» (١٦٩١)].

ويقولُ سبحانه: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾﴾ [فُصِّلَت].

ويقول سبحانه: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الحديد].

فالقرآنُ الكريمُ كلامُ الله، واللهُ عز وجل كما أنهُ يُحيي الأرضَ بعد موتِها، كذلك يحيي القلوبَ بعد موتِها.

والقلبُ يَعتَريهِ مرضانِ خطيرانِ، إذا استحكما فيه كان هلاكُهُ وموتُهُ، وهما: مرضُ الشهواتِ، ومرضُ الشُّبهات، وهذانِ أصلُ كُلِّ داءٍ.

أما مرضُ الشُّبهاتِ:

وهو أصعبُها وأقتلُها للقلبِ.

ففي قوله تعالى في حقِّ المنافقين: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ﴾ [البقرة:١٠].

وقولِه تعالى: ﴿وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ﴾ [المدَّثر:٣١].

وقولـه تعـالى: ﴿لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡۗ﴾ [الحج:٥٣].

فالمرادُ بالمرضِ في هذه الآياتِ مرضُ الشبهة.

وأما مرضُ الشهوة:

وهو مرضٌ فتاكٌ مُثَبِّطٌ مُقعِدٌ عن الطاعاتِ والعباداتِ، وهو مُنَكِّسٌ للقلبِ، إذا استحكمَ في القلبِ صارَ العبدُ أسيراً لشهوتِه ولذّته؛ أينما تمكنَ من تحصيلِها حَصَّلها.

وفي هـذا يقـول اللهُ تعـالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِۚ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلۡبِهِۦ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب:٣٢].

فمرضُ القلبِ لا يخرجُ عن شهوةٍ أو شُبهةٍ، أو مُركَّبٍ منهما، وهذه الأمراضُ كُلُّها متولدةٌ عن الجهل؛ ودواؤُها العلمُ، وأفضلُ العلومِ هو القرآنُ الكريم، ولذَلك سمى اللهُ تعالى كتابَهُ شفاءً لأمراضِ الصدورِ.

فقـال تعـالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحۡمَةٌ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [يونس].

واعلموا عبادَ اللهِ أن أمراضَ القلوبِ أَخطرُ من أمراضِ الأَبدانِ، لأنَّ غايةَ مرضِ البدنِ أن يُفضي بصاحِبِهِ إلى الموت، وأما مرضُ القلبِ فيفضي بصاحبه إلى

الـشَقاءِ الأبـدي، ولا شـفاءَ لهـذا المـرضِ إلا بـالعلمِ، وأفـضلُ العلـومِ وأشرفُهـا وأصلُها هو القرآنُ الكريم.

فالقرآنُ الكريمُ أعظمُ وسيلةٍ لإصلاحِ القلوبِ وعلاجِها من كلِّ الأمراضِ .. أتدرون لِمَ يا عبادَ الله؟

أولاً: لأنَّ القرآنَ يزيدُ الإيمانَ في القلبِ.

قـال تعـالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾ [الأنفال].

وقـال تعـالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ [التوبة].

والإيمانُ هو زينةُ القلبِ، ولذلك كان النبيُّ ﷺ يقولُ في دعائِه: «**اللَّهم حبِّب إلينا الإيمانَ وزينهُ في قُلوبِنا**».

وهـذا الـدعاءُ مـأخوذٌ مـن قَولِـه تعـالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحُجُرات:٧]. والقلبُ الـذي امتلأَ إيماناً وتزيَّنَ به، قلـبٌ طـاهرٌ سليمٌ من أمراضِ الشهواتِ والشُّبهات.

ثـانياً: لأنَّ القرآنَ يهدي صاحبَهُ إلى أقومِ الطرقِ في كلِّ شيءٍ.

قـال تعـالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾﴾ [الإسراء].

ومن اهتدى بِهُدى القرآنِ والسنةِ شُفِيَ قلبُه من مرض الشبهات والشهوات، ومن لم يهتدِ بالقرآنِ والسنةِ، كالأعمى يتقلبُ في ظلماتِ الجهلِ والشبهات والشهوات، ولذلك قال تعالى في وصفِ القرآنِ الكريم: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾﴾ [فُصِّلَت].

ثالثاً: لأنَّ من تمسكَ بالقرآن، وعمل بمقتضاه لا يَضِلُّ في الدنيا أبداً، ولا يشقى في الآخرةِ، ومن تركه وأعرضَ عنه عاشَ في الدنيا عيشةً ضنكا، وحُشرَ يومَ القيامةِ أعمى.

قال تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾ [طه].

وقال ﷺ: «**تركتُ فيكم شيئين لن تضلوا بعدَهما: كتابَ اللهِ، وسنتي، ولن يتفرقا حتى يَرِدا عليَّ الحوضَ**»(١).

رابعاً: لأنَّ القرآنَ نورٌ أنزله اللهُ على البشريةِ ليُخرجَهم من الظلماتِ إلى النور.

قال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ

(١) **صحيح**: رواه البزار (٨٩٩٣)، والحاكم (٣١٩)، والدارقطني (٤٦٠٦)، [«صحيح الجامع» (٢٩٣٧)].

نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة].

وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ [الشورى].

وقال تعالى: ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾﴾ [إبراهيم].

فاللهُ عز وجل أنزلَ القرآنَ الكريمَ على رسولِهِ محمدٍ ﷺ الأمينِ بواسطة جبريلَ عليه السلام الأمينِ ليخرجَ الناسَ من الظلمات إلى النور، من ظلماتِ الكفرِ إلى نورِ الإيمان.

ومن ظلماتِ الشركِ إلى نورِ التوحيدِ.

ومن ظلماتِ الجهلِ إلى نورِ العلم.

ومن ظلماتِ البدعةِ إلى نورِ السنة.

فبَلَّغَ ﷺ الرسالةَ، وأدى الأمانَةَ، ونصحَ الأمةَ، وكشفَ الغمةَ، وجاهدَ في سبيلِ دينِه حتى أتاهُ اليقينُ، وتركَ أُمَّتَهُ على البيضاءِ؛ ليلُها كنهارِها لا يَزيغُ عنها إلا هالكٌ، أو ضالٌ، أو مبتدعٌ، أو جاهلٌ.

خامساً: لأنَّ القرآنَ فيه قَصَصُ الأنبياء.

وقصصُ الأنبياءِ هي أحسنُ القَصصِ.

قال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ [يوسف:٣].

وقَصَصُ الأَنبياءِ عبرةٌ وعظةٌ لأولي الألباب.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ [يوسف].

وقَصَصُ الأنبياءِ من أعظمِ الوسائلِ لإصلاحِ القلوب وتثبيتها على الإيمان لما فيها من الموعظةِ والذكرى والحقِّ المبين.

قال تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ﴾ -أي: قلبك- ﴿وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [هود].

سادساً: لأنَّ القرآنَ هو خيرُ العلومِ وأفضلُها وأجَلُّها، وأعظمُها مكانةً في القلبِ.

قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ -أي: القرآن- ﴿لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء].

وقال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ﴾ -أي: القرآنُ الكريمُ- ﴿ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ﴾ [العنكبوت:٤٩].

والقرآنُ إذا استقرَّ في القلبِ أصلحَ القلبَ، ونفع صاحبَهُ ودفعَهُ إلى كلِّ خير، قال تعالى: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ ﴾ [الزُّمَر].

سابعاً: لأنَّ القرآنَ فيه كُلُّ شيءٍ يحتاجُهُ المسلمُ لِيَسعَدَ في الدنيا والآخرة.

قال تعالى في وصفِ كتابه: ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ﴾ [الأنعام:٣٨].

وقال تعالى أيضاً: ﴿ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ ﴾ [هود].

فالقرآنُ الكريمُ فيه نبأُ مَن قبلَنا، وخبرُ مَن بعدَنا، وحُكمُ ما بينَنا، هو الفصلُ ليسَ بالهزلِ، مَن تركَهُ من جبارٍ قصمَهُ اللهُ، ومَن ابتغى الهدى في غيره أضَلَّهُ الله، هو حبلُ اللهِ المتينُ، ونورهُ المبينُ، وهو الذكرُ الحكيمُ، والصراطُ المستقيمُ، مَن قالَ بالقرآنِ صدق، ومن حكمَ به عدَل، ومَن عمل به أُجِرَ، ومن دعا إليه هُدِيَ إلى صراطٍ مستقيمٍ.

فمن أرادَ أن يحفظَ قلبَهُ من مرضِ الشُّبهات:

فَليقرأ في القرآنِ في توحيدِ الألوهيةِ قَولَهُ تعالى: ﴿ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ ﴾ [طه].

وفي توحيدِ الربوبيةِ فليقرأ قولَهُ تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [يونس].

وفي توحيدِ الأسماءِ والصفاتِ فليقرأ قولَهُ تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ٥﴾ [طه].

وقولَهُ تعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١١﴾ [الشورى].

وفي معرفةِ السبيلِ الذي يوصلُ إلى رضا اللهِ والجنةِ فَليقرأ قولَهُ تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٥٣﴾ [الأنعام].

وقولَهُ تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١٠٠﴾ [التوبة].

وقولَـهُ تعـالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ١١٥﴾ [النساء].

وفي معرفـةِ العـدوِّ المبـين للإنـسان فليقـرأ قولَـهُ تعـالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ٦﴾ [فاطر].

ومن أرادَ أن يحفظَ قلبَه من مرضِ الشهوات:

إن خافَ على نفسِهِ فتنةَ الدنيا فليقرأ في كتابِ الله؛ قولَه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾ [فاطر:٥].

وقولَهُ تعالى: ﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ٢٠ ﴾ [الحديد].

وإن خافَ على نفسِه فتنةَ المناصبِ والعلوِّ في الأرضِ فليقرأ قولَهُ تعالى: ﴿ تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ٨٣ ﴾ [القصص].

وإن خافَ على نفسِهِ المعاصيَ والذنوبَ فَليقرأ، قوله تعالى: ﴿ فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ وَمِنۡهُم مَّنۡ خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ وَمِنۡهُم مَّنۡ أَغۡرَقۡنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٤٠ ﴾ [العنكبوت].

وليقرأ قولَهُ تعالى: ﴿ وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا ٤٩ ﴾ [الكهف].

فالقرآنُ الكريمُ فيه الشفاءُ لأمراضِ الشبهاتِ والشهواتِ التي تصيبُ القلوب.

قال تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الإسراء:٨٢].

والناظرُ إلى كثيرٍ من المسلمين اليومَ -إلا من رحم ربي- يرى أنهم هجروا القرآنَ فمرضت قلوبُهم، وانطبَقَ عليهم قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ٣٠﴾ [الفرقان].

فيا أمةَ الإسلام! ارجعوا إلى القرآن ففيه سعادةُ الدنيا والآخرةِ، وهو تجارةٌ رابحةٌ في الدنيا والآخرة.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ ٢٩ لِيُوَفِّيَهُمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ غَفُورٞ شَكُورٞ ٣٠﴾ [فاطر].

ومن أرباح التجارةِ بالقرآنِ معَ اللهِ عز وجل:

أولاً: صلاحُ وشفاءُ القلوبِ التي في الصدور.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [يونس:٥٧].

ثانياً: كسبُ الحسنات.

قال ﷺ: «**من قرأ حرفاً من كتابِ اللهِ فله به حسنةٌ، والحسنةُ بعشرِ أمثالِها، لا أقول ﴿الٓمٓ ١﴾ حرفٌ، ولكن ألِفٌ حرفٌ، ولامٌ حرفٌ، وميمٌ حرفٌ**»(١).

(١) **صحيح**: رواه الترمذي (٢٩١٠)، والبيهقي في «الشعب» (١٨٣٠)، وأبو نعيم في «الحلية» (٦/٢٦٣)، [«صحيح الترغيب» (١٤١٦)].

ثالثاً: الرفعةُ في الدنيا والآخرة.

ففي الدنيا:

قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [المجادلة].

والقرآنُ أفضلُ العلوم.

وقال ﷺ: «**إن اللهَ يرفعُ بهذا الكتاب أقواماً ويضعُ به آخرين**»(١).

وقال ﷺ: «**يَؤُمُّ القومَ أقرؤُهم لكتابِ الله**»(٢).

أما في الآخرة:

قال ﷺ: «**يُقالُ لصاحبِ القرآنِ: اقرأ وارتَقِ، ورتِل كما كنت ترتلُ في الدنيا، فإن منزلَتَكَ عندَ آخر آيةٍ تقرؤُها**»(٣).

رابعاً: يشفعُ القرآنُ لصاحبه يومَ القيامة.

قال ﷺ: «**اقرءوا القرآنَ، فإنه يأتي يومَ القيامة شفيعاً لأصحابه**»(٤).

---

(١) **صحيح**: رواه مسلم (٨١٧).

(٢) **صحيح**: رواه مسلم (٦٧٣).

(٣) **حسن صحيح**: رواه الترمذي (٢٩١٤)، وأبو داود (١٤٦٤)، والنسائي في «الكبرى» (٨٠٠٢)، [«صحيح الترغيب» (١٤٢٦)].

(٤) **صحيح**: رواه مسلم (٨٠٤).

وقال ﷺ: «**الصيامُ والقرآنُ يشفعانِ للعبدِ، يقولُ الصيامُ: ربِّ! إني منعتُهُ الطعامَ والشرابَ بالنهارِ فشفِّعني فيه، ويقولُ القرآنُ: ربِّ! منعتُهُ النومَ بالليلِ، فَشَفِّعني فيه، فَيُشَفَّعان**»(١).

خامساً: يُحلَّى بتاجِ الكرامةِ يومَ القيامةِ ويَرضى اللهُ عنه.

قال ﷺ: «**يجيءُ القرآنُ يومَ القيامةِ فيقولُ: يا ربِّ حَلِّهِ! فيُلبَسُ تاجَ الكرامةِ، ثم يقولُ: يا ربِّ زِدهُ، فيُلبَسُ حُلةَ الكرامةِ، ثم يقولُ: يا رب ارضَ عنه فيرضى عنه، فيقالُ لهُ، اقرأ وارقَ، وتُزادُ بكلِّ آيةٍ حسنةً**»(٢).

ولذلك قال ﷺ لأبي ذَرٍ ﷺ عندما طلبَ فيه أن يوصِيَهُ: «**عليك بتقوى الله؛ فإنه رأسُ الأمرِ كُلِّه**» قلتُ: يا رسولَ الله! زدني، قال: «**عليكَ بتلاوةِ القرآنِ، فإنه نورٌ لك في الأرض، وذخرٌ لك في السماءِ**»(٣).

سادساً: ومن أرباحِ التجارةِ بالقرآنِ معَ اللهِ، أنك تُصبحُ من أهلِ اللهِ وخاصتِه.

قال ﷺ: «**إنَّ للهِ أهلينَ من الناسِ**». قالوا: يا رسولَ الله! مَن هم؟

قال: «**هُم أهلُ القرآنِ، أهلُ اللهِ وخاصَّتُهُ**»(٤).

---

(١) **صحيح**: رواه أحمد (٢/١٧٤)، والطبراني في «الكبير» (٨٨)، والحاكم (٢٠٣٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (٨/١٦١)، [«صحيح الترغيب» (١٤٢٩)].

(٢) **حسن**: رواه الترمذي (٢٩١٥)، والبزار (٩٠٣٥)، والبيهقي في «الشعب» (١٨٤٢)، [«صحيح الترغيب» (١٤٢٥)].

(٣) **حسن لغيره**: رواه ابن حبان (٣٦١)، [«صحيح الترغيب» (١٤٢٢)].

(٤) **صحيح**: رواه ابن ماجه (٢١٥)، والنسائي في «الكبرى» (٧٩٧٧)، وأحمد (٣/١٢٧)، والدارمي (٣٣٦٩)، [«صحيح الترغيب» (١٤٣٢)].

سابعاً: ومن أرباح التجارة بالقرآنِ مع الله أنك تصبحُ من خيرِ الناسِ.

قال ﷺ: «**خيرُكم من تعلمَ القرآنَ وعلَّمهُ**»[1].

اللّٰهم انفعنا بالقرآن، واجعلنا من أهله العاملين به، إنك وليُّ ذلك والقادر عليه.

---

(١) **صحيح**: رواه البخاري (٥٠٢٧).

الوسيلةُ السادسةَ عشرةَ لإصلاح القلوب

معرفةُ أقسام القلوب

يستطيعُ المسلمُ أن يُصلح قلبَهُ إذا كان على علمٍ بأقسام القلوب.

يقول ابن القيم رحمه الله: (لـمَّا كانَ القلبُ يوصَفُ بالحياةِ وضدِّها؛ انقسمَ بحَسَبِ ذلك إلى أحوالٍ ثلاثةٍ:

أولاً: القلبُ الصَّحيحُ:

وهو القلبُ السليمُ الذى لا ينجو يومَ القيامةِ إلَّا مَن أَتى اللهَ بهِ؛ كما قالَ تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء].

والسليمُ هو السالمُ، وجاءَ على هذا المثالِ؛ لأنَّهُ للصفاتِ؛ كالطويلِ، والقصيرِ، والظَّريفِ.

فالسَّليمُ القلبِ: الذى قد صارَتِ السَّلامةُ صفةً ثابتةً لهُ؛ كالعليمِ والقديرِ، وأَيضاً؛ فإِنَّهُ ضدُّ المريضِ، والسقيمِ، والعليلِ.

وقد اختلفت عباراتُ النَّاسِ فى معنى القلبِ السَّليمِ:

والأمرُ الجامعُ لذلك أَنه الذى قد سَلِمَ من كُلِّ شهوةٍ تُخالفُ أَمرَ اللهِ ونهيَهُ، ومِن كُلِّ شُبهةٍ تُعارِضُ خبرَهُ، فسَلِمَ مِن عبوديَّةِ ما سواهُ، وسَلِمَ مِن تحكيمِ غيرِ رسولِهِ، فَسَلِمَ فى محبَّةِ اللهِ مع تحكيمِهِ لرسولِهِ في خوفِه ورجائِه والتوكُّلِ عليهِ،

والإنابةِ إليهِ، والذُّلِّ لهُ، وإيثارِ مرضاتِه في كلِّ حالٍ، والتَّباعُدِ مِن سَخَطِهِ بكلِّ طريقٍ، وهذا هو حقيقةُ العُبوديَّةِ التي لا تصلُحُ إلا للهِ وحدَه.

فالقلبُ السَّليمُ: هو الذي سَلِمَ مِن أَن يَكونَ لغيرِ اللهِ فيهِ شِركٌ بوجهٍ ما، بل قد خَلَصَت عبوديتُه للهِ تعالى: إرادةً ومحبَّةً، وتوكُّلاً، وإنابةً، وإخباتاً، وخشيةً، ورجاءً، وخَلُصَ عملُه للهِ، فإنْ أَحبَّ أَحَبَّ في اللهِ، وإنْ أَبغضَ أَبغضَ في اللهِ، وإن أَعطى أعطى للهِ، وإن مَنَعَ منعَ للهِ(١).

ولا يكفيهِ هذا حتى يَسلَمَ مِن الانقيادِ والتَّحكيمِ لكُلِّ مَا عدا رسولِه ﷺ، فيعقدُ قلبَه معهُ عَقداً مُحكَماً على الائتمامِ والاقتداءِ بهِ وحدَه، دونَ كلِّ أَحدٍ في الأقوالِ والأعمالِ، مِن أَقوالِ القلبِ -وهي العقائدُ-، وأَقوالِ اللسانِ -وهيَ الخبرُ عمَّا في القلبِ-، وأَعمالِ القلبِ -وهي الإرادةُ والمحبَّةُ والكراهةُ وتوابِعُها-، وأَعمالُ الجوارح.

فيكون الحاكمُ عليهِ في ذلك كُلِّه؛ دِقِّهِ وجِلِّه، هو ما جاءَ بهِ الرسولُ ﷺ، فلا يتقدَّمُ بينَ يديهِ بعقيدةٍ ولا قولٍ ولا عَمَلٍ؛ كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ﴾ [الحُجُرات:١]؛ أي: لا تقولوا حتى يقولَ، ولا تفعلوا حتى يأمُرَ ﷺ.

---

(١) كما ورد ذلك من حديث أبي أمامة أن النبي ﷺ قال: «من أحب لله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله فقد استكمل الإيمان» وهذا الحديث حسن صحيح: رواه أبو داود (٤٦٨١)، والطبراني في «الكبير» (٧٦١٣)، [«صحيح الترغيب» (٣٠٢٩)].

قالَ بعضُ السَّلَفِ: ما مِن فِعلَةٍ -وإِن صَغُرت- إِلَّا يُنشَرُ لها ديوانانِ: لِمَ؟ وكيف؟

أي: لِمَ فعلتَ؟ وكيفَ فعلتَ؟

فالأَوَّلُ: سؤالٌ عن علَّةِ الفعلِ، وباعثِهِ، وداعيهِ: هل هو حظٌّ عاجلٌ مِن حُظوظِ العاملِ، وغرضٌ مِن أَغراضِ الدُّنيا في محبَّةِ المدحِ مِن الناسِ، أو خوفِ ذَمِّهم، أَو استجلابِ محبوبٍ عاجلٍ، أو دفعِ مكروهٍ عاجلٍ، أَم الباعثُ على الفعلِ القيامُ بحقِّ العبوديَّةِ، وطلبُ التودُّدِ والتقرُّبِ إِلى الرَّبِّ سبحانَه وتعالى، وابتغاءُ الوسيلةِ إِليهِ.

ومحلُّ هذا السؤالِ أَنَّهُ: هل كانَ عليكَ أَن تفعَلَ هذا الفعلَ لمولاكَ، أَم فعَلتَهُ لحظِّكَ وهواكَ؟

والثاني: سؤالٌ عن متابعةِ الرَّسولِ عليهِ الصلاةُ والسلامُ في ذلك التعبُّدِ؛ أي: هل كانَ ذلك العملُ ممَّا شَرَعتُهُ لك على لسانِ رسولي، أَم كانَ عملاً لم أَشرَعْهُ ولم أَرضَهُ؟

فالأَوَّلُ: سؤالٌ عن الإِخلاصِ، والثاني: عن المُتابَعَةِ؛ فإِنَّ اللهَ لا يقبلُ عملاً إِلَّا بِهِما[1].

(١) قال ابنُ كثير في «تفسيره» (١/٢٣١): (...فإن للعَمَل المتقبَّل شرطين: أحدهما: أن يكون خالصاً لله وحده، والآخر: أن يكون صواباً موافقاً للشريعة. فمتى كان خالصاً ولم يكن صواباً؛ لم يُتَقَبَّل).

فطريقُ التخلُّصِ مِن السؤالِ الأوَّلِ: بتجريدِ الإخلاصِ.

وطريقُ التخلُّصِ مِن السؤالِ الثَّاني بتحقيقِ المُتابعةِ، وسلامةِ القلبِ مِن إرادَةٍ تُعارِضُ الإخلاصَ، وهوىً يُعارِضُ الاتِّباعَ.

فهذا حقيقةُ سلامةِ القلبِ الذي ضُمِنَت لهُ النجاةُ والسعادةُ.

ثانياً: القلبُ الميِّتُ:

هو الذي لا حياةَ بهِ، فهو لا يعرِفُ ربَّهُ، ولا يعبُدُه بأَمرِهِ وبما يحبُّهُ ويرضاهُ، بل هو واقفٌ مع شهواتِه ولذاتِه، ولو كانَ فيها سَخَطُ ربِّهِ وغضبُهُ، فهو لا يُبالي إذا فاز بشهوتِه وحظِّهِ، رضيَ ربُّهُ أَم سَخِطَ، فهو متعبِّدٌ لغيرِ اللهِ؛ حُبّاً، وخوفاً، ورجاءً، ورِضىً، وسخطاً، وتعظيماً، وذُلَّا، إن أَحبَّ أَحبَّ لهواه، وإِن أَبغَضَ أَبغضَ لهواهُ، وإِن أَعطى أَعطى لهواهُ، وإِن مَنَعَ منعَ لهواهُ، فهواهُ آثرُ عندَه وأَحبُّ إليهِ مِن رضى مولاهُ، فالهوى إمامُهُ، والشهوةُ قائدُهُ، والجهلُ سائقُهُ، والغفلةُ مركَبُهُ.

فهُو بالفكرِ فى تحصيلِ أَغراضِهِ الدُّنيويَّةِ مغمورٌ، وبسكرةِ الهوى وحُبِّ العاجلةِ مخمورٌ، يُنادى إلى اللهِ وإلى الدَّارِ الآخرةِ مِن مكانٍ بعيدٍ، فلا يستجيبُ للنَّاصحِ، ويتَّبعُ كلَّ شيطانٍ مَريدٍ، الدُّنيا تُسخِطُهُ وتُرضيهِ، والهوى يُصِمُّهُ عمَّا سوى الباطلِ ويُعميهِ، فهو فى الدُّنيا كما قيلَ فى ليلى:

عَدُوٌّ لِمَن عَادَت وَسِلمٌ لأهلِهَا ... وَمَن قَرَّبَت لَيلَى أَحَبَّ وَقَرَّبا

فمخالَطَةُ صاحبِ هذا القلبِ سَقَمٌ، ومعاشرتُهُ سُمٌّ، ومجالستُه هلاكٌ.

ثـالثـاً : القلبُ المريضُ :

قلبٌ لهُ حياةٌ وبهِ عِلَّةٌ؛ فله مادَّتانِ، تمدُّهُ هذه مرةً، وهذه أُخرى، وهو لِما غلبَ عليهِ منهُما.

ففيهِ مِن محبَّةِ اللهِ تعالى والإيمانِ بهِ والإخلاصِ لهُ، والتوكُّلِ عليهِ ما هُو مادَّةُ حياتِه.

وفيهِ مِن محبَّةِ الشَّهواتِ وإيثارِها والحرصِ على تحصيلِها، والحسدِ، والكِبْرِ والعُجبِ؛ وحُبِّ العُلُوِّ، والفسادِ فى الأرضِ بالرياسةِ ما هُو مادةُ هلاكِهِ وعَطَبِهِ.

وهو مُمتَحَنٌ بينَ داعيينِ: داعٍ يدعوهُ إلى اللهِ ورسولِهِ والدَّارِ الآخرةِ، وداعٍ يدعوهُ إلى العاجلةِ.

وهو إنَّما يُجيبُ أَقرَبَهُما منهُ باباً، وأدناهُما إليهِ جِواراً.

فالقلبُ **الأوَّلُ** حيٌّ مُخبِتٌ لَيِّنٌ واعٍ.

والثاني: يابسٌ مَيِّتٌ.

والثالثُ: مريضٌ، فإمَّا إلى السَّلامةِ أَدنى، وإمَّا إلى العَطَبِ أَدنى.

وقد جمعَ اللهُ سبحانَه بينَ هذه القلوبِ الثلاثةِ فى قولِه: ﴿**وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٥٢ لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةٗ**

لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾
وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ
وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾ [الحج].

فجَعَلَ اللهُ سُبحانَه وتعالى القلوبَ في هذه الآياتِ ثلاثةً: قلبينِ مفتونينِ، وقلباً ناجياً:

فالمفتونانِ: القلبُ الذي فيهِ مرضٌ، والقلبُ القاسي.

والنَّاجي: القلبُ المؤمنُ المُخبِتُ إلى ربِّهِ، وهو المطمئنُّ إليهِ، الخاضعُ، المستسلمُ المُنقادُ لهُ.

وذلك أَنَّ القلبَ وغيرَه مِن الأعضاءِ يُرادُ منهُ أَن يكونَ صحيحاً سليماً لا آفةَ بهِ، يتأَتَّى منهُ ما هُيِّئَ لهُ، وخُلِقَ لأجلِهِ.

وخروجُهُ عن الاستقامةِ: إِمَّا ليُبسِهِ وقساوتِه، وعدمِ التأَتِّي لما يُرادُ منهُ؛ كاللسانِ الأخرسِ، والعينِ التي لا تُبصِرُ شيئاً، وإِمَّا بمرضٍ وآفةٍ فيهِ تمنَعُهُ مِن كمالِ هذه الأفعالِ، ووقوعِها على السَّدادِ.

فلذلكَ انقسمتِ القلوبُ إِلى هذه الأقسامِ الثلاثةِ:

فالقلبُ الصَّحيحُ السليمُ: ليس بينَه وبينَ قَبولِ الحقِّ ومحبَّتِهِ وإِيثارِهِ سوى إِدراكِهِ، فهو صحيحُ الإِدراكِ للحقِّ، تامُّ الانقيادِ والقَبولِ لهُ.

والقلبُ الميِّتُ القاسي: لا يقبَلُهُ ولا يَنقادُ لهُ.

والقلبُ المريضُ: إن غَلَبَ عليهِ مرضُهُ التَحَقَ بالميِّتِ القاسي، وإن غلبت عليهِ صحَّتُه التَحَقَ بالسَّليمِ.

فما يُلقيهِ الشيطانُ في الأسماعِ مِن الألفاظِ، وفي القُلوبِ مِن الشُّبَهِ والشُّكوكِ: فتنةٌ لهذينِ القلبينِ، وقوةٌ للقلبِ الحيِّ السليمِ؛ لأنَّهُ يَرُدُّ ذلك ويكرهُهُ ويُبغِضُهُ، ويعلمُ أَنَّ الحقَّ في خلافهِ، فيُخبِتُ للحقِّ ويطمئنُّ وينقادُ، ويعلمُ بُطلانَ ما أَلقاهُ الشيطانُ، فيزدادُ إيماناً بالحقِّ، ومحبَّةً لهُ، وكفراً بالباطلِ، وكراهةً لهُ، فلا يزالُ القلبُ المفتونُ في مِريةٍ من إلقاءِ الشَّيطانِ.

وأَمَّا القلبُ الصَّحيحُ السليمُ؛ فلا يضرُّهُ ما يُلقيهِ الشَّيطانُ أَبداً.

قال حُذيفةُ بنُ اليمانِ ﵁: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**تُعرَضُ الفِتَنُ عَلَى القُلُوبِ كَعَرضِ الحَصِيرِ عُودًا عُودًا، فَأَيُّ قَلبٍ أُشرِبَهَا نُكِتَت فِيه نُكتَةٌ سَودَاءُ، وَأَيُّ قَلبٍ أَنكَرَهَا نُكِتَت فِيهِ نُكتَةٌ بَيضاءُ، حَتَّى تَعُودَ القُلُوبُ عَلَى قَلبَينِ: قَلبٍ أَسوَدَ مُرْبَادّاً كالكُوزِ مُجَخِّياً، لا يَعرِفُ مَعروفاً وَلا يُنكِرُ مُنكَراً؛ إِلَّا مَا أُشرِبَ مِن هَوَاهُ، وَقَلبٍ أَبيَضَ، لا تَضُرُّهُ فِتنَةٌ مَا دَامَتِ السَّماواتُ وَالأَرضُ**»(١).

فشبَّهَ عرضَ الفِتَنِ على القُلوبِ شيئاً فشيئاً؛ كعَرضِ عيدانِ الحصيرِ -وهي طاقاتُه- شيئاً فشيئاً.

وقسَّمَ القلوبَ عندَ عرضِها عليها إلى قسمين:

---

(١) **صحيح**: رواه مسلم (١٤٤).

قلبٌ إذا عُرِضَت عليهِ فتنةٌ أُشرِبَها؛ كما يُشرَبُ السِّفَنجُ الماءَ، فتُنكَتُ فيه نكتةٌ سوداءُ، فلا يزالُ يُشرَبُ كلَّ فتنةٍ تُعرَضُ عليهِ حتى يَسوَدَّ وينتكسَ، وهو معنى قولِه: «**كالكوزِ مُجَخِّياً**» أي: مكبوباً منكوساً، فإذا اسودَّ وانتكسَ عرضَ لهُ مِن هاتينِ الآفتينِ مرضانِ خطيرانِ متراميانِ بهِ إلى الهلاكِ:

أَحدُهُما: اشتباهُ المعروفِ عليهِ بالمنكرِ، فلا يعرِفُ معروفاً، ولا يُنكِرُ منكراً، وربَّما استحكَمَ عليهِ هذا المرضُ حتى يعتقِدَ المعروفَ منكراً، والمنكرَ معروفاً، والسُّنَّةَ بِدعةً، والبدعةَ سُنَّةً، والحقَّ باطلاً، والباطلَ حقّاً.

الثَّاني: تحكيمُهُ هواهُ على ما جاءَ بِهِ الرَّسولُ ﷺ، وانقيادُهُ للهوى واتِّباعُه لهُ.

وقلبٌ أبيضُ قد أَشرقَ فيهِ نورُ الإيمانِ، وأَزهَرَ فيهِ مِصباحُهُ، فإذا عُرضت عليهِ الفتنةُ أَنكَرَها وردَّها، فازدادَ نورُه وإشراقُه وقوَّتُه.

والفِتَنُ التي تُعرَضُ على القلوبِ هي أسبابُ مرضِها، وهي فِتَنُ الشَّهواتِ وفِتَنُ الشُّبُهاتِ[1]، فِتَنُ الغيِّ والضَّلالِ، فتنُ المعاصي والبِدَعِ، فتنُ الظُّلمِ والجهلِ.

فالأولى توجِبُ فسادَ القصدِ والإرادةِ.

والثانيةُ توجِبُ فسادَ العلمِ والاعتقادِ.

وقد قسَّمَ الصحابةُ رضيَ اللهُ تعالى عنهُم القُلوبَ إلى أربعةٍ؛ كما صحَّ[2] عن حُذيفةَ بنِ اليمانِ رضي الله عنه: (القُلُوبُ أَربَعَةٌ: قَلبٌ أَجرَدُ فِيهِ سِرَاجٌ يُزهِرُ، فَذَلِكَ قَلبُ

---

(١) وهما أساسُ كلِّ شرٍّ.

(٢) **سنده صحيحٌ موقوفاً**: وقد رُوي مرفوعاً، ولا يصحُّ. رواه أحمد (٣/١٧)، [«السلسلة الضعيفة» (٥١٥٨)].

المُؤمِنِ، وَقَلبٌ أَغلفُ، فَذلِكَ قَلبُ الكَافِرِ، وَقَلبٌ مَنكُوسٌ، فَذلِكَ قَلبُ المُنافِقِ، عَرَفَ ثمَّ أَنكَرَ، وَأبصَرَ ثُمَّ عَمِيَ، وَقَلبٌ تَمُدُّهُ مَادَّتَانِ: مَادَّةُ إِيمَانٍ، وَمَادَّةُ نِفَاقٍ، وَهُوَ لِما غَلَبَ عَلَيهِ مِنهُمَا).

فقولُهُ: «قَلبٌ أَجردُ»؛ أي: متجرِّدٌ ممَّا سوى اللهِ ورسولِه، فقد تجرَّدَ وسَلِمَ ممَّا سوى الحقِّ.

و«فيهِ سراجٌ يُزهِرُ» وهو مِصباحُ الإيمانِ، فأَشارَ بتجرُّدِه إلى سلامتِه مِن شُبُهاتِ الباطلِ وشَهَواتِ الغيِّ، وبحصولِ السِّراجِ فيهِ إلى إشراقِهِ واستنارتِه بنورِ العلمِ والإيمانِ.

وأَشارَ بـ «القلبِ الأغلفِ» إلى قلبِ الكافرِ؛ لأنَّهُ داخلٌ فى غلافِهِ وغشائِه، فلا يَصِلُ إليهِ نورُ العلمِ والإيمانِ؛ كما قال تعالى حاكياً عن اليهودِ: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾ [البقرة:٨٨]، وهو جمعُ (أَغلف)، وهو الدَّاخلُ فى غلافِه.

وهذه الغِشاوةُ هى الأكِنَّةُ التي ضرَبَها اللهُ على قلوبِهم، عقوبةً لهُم على ردِّ الحقِّ، والتكبُّرِ عن قَبولِه، فهي أَكِنَّةٌ على القُلوبِ، ووقرٌ فى الأسماعِ، وعمىً في الأبصارِ، وهي الحجابُ المستورُ عن العيونِ في قولِه تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الإسراء:٤٥-٤٦].

فإذا ذُكِرَ لهذه القلوبِ تجريدُ التَّوحيدِ، وتجريدُ المتابعةِ؛ ولَّى أَصحابُها على أَدبارِهم نُفوراً.

وأَشارَ بـ «القلبِ المَنكوسِ» -وهو المكبوبُ- إلى قلبِ المنافقِ؛ كما قالَ تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا﴾ [النساء:٨٨]؛ أَي: نكَّسَهُم وردَّهُم في الباطلِ الذي كانُوا فيهِ، بسَبَبِ كسبِهِم وأَعمالِهِم الباطلةِ.

وهذا شرُّ القُلوبِ وأَخبَثُها؛ فإِنَّهُ يعتقدُ الباطلَ حقّاً ويُوالي أَصحابَهُ، والحقَّ باطلاً ويُعادي أَهلَهُ، فاللهُ المستعانُ.

وأَشارَ بـ«القلبِ الذي لهُ مادَّتانِ» إِلى القلبِ الذي لم يتمكَّنْ فيهِ الإِيمانُ، ولم يُزهِرْ فيهِ سراجُهُ، حيث لم يتجرَّدْ للحقِّ المَحضِ الذي بَعَثَ اللهُ بهِ رسولَهُ، بل فيهِ مادَّةٌ منهُ، ومادَّةٌ من خِلافِه، فتارةً يكونُ للكُفرِ أَقربَ منهُ للإِيمانِ، وتارةً يكونُ للإِيمانِ أَقربَ منهُ للكُفرِ، والحُكمُ للغالِبِ وإِليهِ يَرجِعُ) انتهى.

الوسيلةُ السابعةَ عشرةَ لإصلاحِ القلوبِ
معرفة أمراض القلوبِ وعلاجها

المسلمُ يستطيع أن يُصلح قلبَهُ بمعرفةِ أمراضِ القلوب وعلاجِها، ويكون ذلك بثلاثةِ أمورٍ:

الأمرُ الأول: معرفةُ حقيقةِ مرضِ القلبِ.

الأمرُ الثاني: معرفةُ أقسامِ أدويةِ أمراضِ القلبِ.

الأمرُ الثالثُ: معرفةُ الداءِ والدواءِ.

الأمر الأول
معرفةُ حقيقةِ مرضِ القلبِ

يقول ابنُ القيمِ رحمه الله: (قالَ اللهُ تعالى عن المُنافقينَ: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة:١٠].

وقالَ تعالى: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [الحج:٥٣].

وقالَ تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب:٣٢]؛ أَمرَهُنَّ أَن لا يَلِنَّ في كلامِهنَّ؛ كما تلينُ

المرأَةُ في منطِقِها، فيطمَعَ الذي في قلبِهِ مرضُ الشهوةِ، ومع ذلك فلا يَخشَنَّ في القولِ بحيثُ يلتحقُ بالفُحشِ، بل يقُلنَ قولاً معروفاً[1].

وقالَ تعالى: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦٠].

وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَـٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَـٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَـٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَـٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا ۚ﴾ [المدَّثر: ٣١].

فأَخبرَ اللهُ سُبحانَه عن الحِكمةِ التي جَعَلَ لأجلِها عِدَّةَ الملائكةِ الموَكَّلينَ بالنَّارِ تسعةَ عشرَ[2]، فذَكَرَ سُبحانَه خمسَ حِكَمٍ:

أ- فِتنَةُ الكافِرينَ: فيكونُ ذلك زِيادةً في كُفرِهم وضلالِهم.

ب- وقُوَّةُ يقينِ أهلِ الكتابِ: فيقوى يقينُهُم بموافقةِ الخَبَرِ بذلك لما عندَهُم عن أَنبيائِهِم مِن غيرِ تَلَقٍّ مِن رسولِ الله ﷺ عنهُم، فتقومُ الحُجَّةُ على مُعانِدِهم، وينقادُ للإيمانِ من يُرِدِ اللهُ أَن يهدِيَهُ.

ج- وزيادةُ إِيمانِ الَّذينَ آمَنوا: بكمالِ تصديقِهِم بذلكَ والإِقرارِ بهِ.

---

(١) أي وَسَطاً بين هذين.

(٢) وتمويهاتُ البهائيِّين وبعض جَهَلة المسلمين في الرقم (١٩) مما لا ينبغي الالتفات إليه، والاغترار به، إن هي إلا زخارف باطلة، ومقالات عاطلة.

د- وانتفاءُ الرَّيبِ عن أهلِ الكتابِ: لجزمِهم بذلك، وعن المؤمنينَ لكمالِ تصديقِهم بهِ.

فهذه أَربعةُ حكَمٍ: فتنةُ الكُفَّارِ، ويقينُ أَهلِ الكتابِ، وزيادةُ إِيمانِ المؤمنينَ، وانتفاءُ الرَّيبِ عن المؤمنينَ وأَهلِ الكتابِ.

والخامسةُ: حَيرَةُ الكافِرِ ومَن في قَلبِهِ مرضٌ، وعَمِيَ قلبُهُ عن المرادِ بذلك، فيقولُ: ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗا﴾ [البقرة:٢٦].

وهذا حالُ القلوبِ عندَ وُرودِ الحقِّ المُنَزَّلِ عليها:

قلبٌ يَفتَتِنُ بهِ كُفراً وجُحوداً.

وقلبٌ يزدادُ بهِ إِيماناً وتصديقاً.

وقلبٌ يتيقَّنُهُ فتقومُ عليهِ بهِ الحجَّةُ.

وقلبٌ يوجِبُ له حيرةً وعمىً، فلا يَدري ما يُرادُ بهِ!

واليقينُ وعدمُ الرَّيبِ في هذا الموضعِ إن رَجَعا إِلى شيءٍ واحدٍ؛ كانَ ذِكرُ عدمِ الرَّيبِ مقرِّراً لليقينِ، ومؤكِّداً لهُ، ونافياً عنهُ ما يضادُّهُ بوجهٍ مِن الوجوهِ، وإِن رَجعا إِلى شيئينِ، بأَن يكونَ اليقينُ راجعاً إِلى الخَبَرِ المذكورِ عن عدَّةِ الملائكةِ، وعدَمُ الرَّيبِ عائداً إِلى عُمومِ ما أَخبرَ الرسولُ بهِ؛ لدلالةِ هذا الخبرِ الذي لا يُعلَمُ إِلَّا مِن جهةِ الرُّسُلِ على صدقِهِ، فلا يَرتابُ مَن قد عَرَفَ صحَّةَ هذا الخبرِ بعدَ صدقِ الرسولِ ﷺ، ظهرت فائدةُ ذكرِهِ.

والمقصودُ: ذِكرُ مَرَضِ القلبِ وحقيقتِه.

وقــال تعــالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٧﴾ [يونس]، فهو شفاءٌ لما في الصُّدورِ مِن مرضِ الجَهلِ والغَيِّ؛ فإنَّ الجهلَ مرضٌ شفاؤهُ العلمُ والهُدى، والغَيُّ مرضٌ شِفاؤهُ الرُّشدُ.

وقد نزَّهَ اللهُ سبحانَه نبيَّهُ عن هذينِ الداءينِ، فقالَ: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ٢﴾ [النجم].

ووصَفَ رسولُهُ ﷺ خُلفاءَهُ بضدِّهِما، فقال: «**عليكُم بسنَّتي وسُنَّةِ الخلفاءِ الرَّاشدينَ المهديِّينَ مِن بعدي**»(١).

وجَعَلَ كلامَه سُبحانَه موعظةً للنَّاسِ عامَّةً، وهُدىً ورحمةً لمَن آمَنَ بهِ خاصَّةً، وشفاءً تامّاً لما في الصُّدورِ، فمَن استشفى بهِ صحَّ وبرِئَ مِن مرضِهِ، ومَن لم يستَشفِ بهِ؛ فهو كما قيل:

إذا بَلَّ(٢) مِن داءٍ بهِ ظَنَّ أنَّهُ ... نَجَا وبِهِ الدَّاءُ الَّذي هُو قَاتِلُه

وقالَ تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا ٨٢﴾ [الإسراء]، والأظهرُ أنَّ (مِن) ههُنا لبيانِ الجنسِ، فالقرآنُ جميعُه شفاءٌ ورحمةٌ للمؤمنينَ.

---

(١) صحيح: رواه الترمذي (٢٦٧٦)، وأبو داود (٤٦٠٧)، وابن ماجه (٤٢)، وأحمد (٤/١٢٦)، [«السلسلة الصحيحة» (٢٧٣٥)].

وانظر: «جامع العلوم والحكم» (ص٢٤٣-٢٥٤) لابن رَجَب.

(٢) بلَّ: تعافى وبرئ من المرض.

أَسبابُ ومُشَخِّصاتُ مرضِ البدنِ والقَلبِ:

ولـمَّا كانَ مَرَضُ البدنِ خلافَ صحَّتِهِ وصلاحِه، وهو خروجُهُ عن اعتدالِهِ الطبيعيِّ؛ لفسادٍ يَعرِضُ لهُ، يُفسِدُ بهِ إدراكَهُ وحَرَكَتَهُ الطَّبيعيَّةَ.

فإمَّا أَن يُذهِبَ إدراكَهُ بالكُلِّيَّةِ كالعَمى والصَّمِمِ والشَّلَلِ.

وإمَّا أَن يُنقِصَ إداركَهُ لضعفٍ في آلاتِ الإدراكِ مع استقامةِ إدراكِهِ.

وإما أَن يُدرِكَ الأشياءَ على خِلافِ ما هِيَ عليهِ؛ كما يُدرِكُ الحلوَ مرّاً، والخبيثَ طيِّباً، والطَّيِّب خبيثاً.

ومدارُ الصَّحَّةِ على حفظِ القوَّةِ، والحِميَةِ عن المؤذي، واستفراغِ الموادِّ الفاسدةِ.

ونَظَرُ الطَّبيبِ دائرٌ على هذه الأصولِ الثلاثةِ، وقد تضمَّنَها الكتابُ العزيزُ، وأَرشدَ إليها مَن أَنزَلَهُ شفاءً ورحمةً:

فأَمَّا حِفظُ القوَّةِ؛ فإنَّهُ سبحانَه أَمَرَ المسافرَ والمريضَ أَن يُفطِرا في رمضانَ، ويَقضي المسافرُ إذا قَدِمَ، والمريضُ إذا برِىءَ[1]، حِفظاً لقوَّتِها عليهما، فإنَّ الصومَ يزيدُ المريضَ ضَعفاً، والمسافرُ يحتاجُ إلى توفيرِ قوَّتِه عليهِ لمشقَّةِ السَّفَرِ، والصَّومُ يُضعِفُها.

وأَمَّا الحِميَةُ عن المُؤذي؛ فإنَّهُ سبحانَه حمى المريضَ عن استعمالِ الماءِ الباردِ في الوضوءِ والغُسلِ إذا كانَ يضرُّهُ، وأَمرهُ بالعُدولِ إلى التيمُّمِ[2]؛ حِميةً لهُ عن وُرودِ المؤذي عليهِ من ظاهرِ بدَنِه، فكيف بالمؤذي لهُ في باطنِهِ؟!

---

(١) كما هو نصُّ آيات الصيام في سورة البقرة (١٨٢-١٨٥).

(٢) كما في الآية (٦٥) من سورة المائدة.

وأَمَّا استفراغُ المادَّةِ الفاسدَةِ؛ فإِنَّهُ سبحانَه أَباحَ للمُحرِمِ الذي بهِ أَذىً مِن رأسِهِ أَن يَحلِقَهُ(١)، فيستَفرِغُ بالحَلقِ الأبخرةَ المؤذيةَ لهُ، وهذا من أَسهلِ أَنواعِ الاستفراغِ وأَخفِّها، فنبَّهَ بهِ على ما هو أَحوجُ إِليهِ منهُ.

وإِذا عُرِفَ هذا؛ فالقلبُ مُحتاجٌ إِلى:

ما يحفظُ عليهِ قوَّتَه، وهو الإِيمانُ وأَورادُ الطَّاعاتِ.

وإِلى حِميَةٍ عن المؤذي الضَّارِّ، وذلك باجتنابِ الآثامِ والمعاصي، وأَنواعِ المُخالَفاتِ.

وإِلى استفراغِهِ مِن كلِّ مادةٍ فاسدةٍ تَعرِضُ لهُ، وذلك بالتوبةِ النَّصوحِ، واستغفارِ غافرِ الخطيئاتِ.

ومرضُهُ هو نوعُ فسادٍ يحصُلُ لهُ، يفسُدُ بهِ تصوُّرُهُ للحقِّ وإِرادتُهُ لهُ، فلا يرى الحقَّ حقّاً، أَو يراهُ على خِلافِ ما هو عليهِ، أَو ينقُصُ إِدراكُهُ لهُ، وتفسدُ بهِ إِرادتُهُ لهُ، فيُبغِضُ الحقَّ النَّافِعَ، أَو يُحِبُّ الباطلَ الضَّارَّ، أَو يجتَمِعانِ لهُ -وهو الغالبُ-.

ولهذا يُفَسَّرُ المرضُ الذي يَعرِضُ لهُ، تارةً بالشَّكِّ والرَّيبِ؛ كما قالَ مجاهدٌ وقتادةُ(٢) في قولِه تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [البقرة:١٠]؛ أَي: شكٌّ. وتارةً بشهوةِ الزِّنا؛ كما فُسِّرَ بهِ(٣) قولُهُ تعالى: ﴿فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب:٣٢].

(١) كما في الآية (١٩٦) من سورة البقرة.

(٢) أخرجه عَبد بن حُمَيد وابن جرير؛ كما في «الدُّرِّ المنثور» (١/٧٦).

(٣) انظر: «معالم التنزيل» (١/٤٣) للإمام البغوي.

فالأوَّلُ: مرضُ الشُّبهةِ.

والثَّاني: مرضُ الشَّهوةِ.

والصِّحَّةُ تُحفَظُ بالمِثلِ والشَّبَهِ، والمرضُ يُدفَعُ بالضِّدِّ والخلافِ، وهو يقوى بمثلِ سببِه، ويزولُ بضدِّهِ، والصِّحَّةُ تُحفظُ بمثلِ سببِها، وتضعُفُ أَو تزولُ بضدِّهِ.

ولـمَّا كانَ البدنُ المريضُ يؤذيهِ ما لا يؤذي الصَّحيحَ؛ مِن يسيرِ الحَرِّ، والبَردِ، والحركةِ، ونحوِ ذلك، فكذلكَ القلبُ إِذا كانَ فيهِ مَرَضٌ آذاهُ أَدنى شيءٍ مِن الشُّبهةِ أَو الشَّهوةِ، حيثُ لا يَقوى على دَفعِهما إِذا وَرَدَا عليهِ، والقلبُ الصَّحيحُ القويُّ يطرُقُهُ أَضعافُ ذلك، وهو يدفَعُهُ بقوَّتِه وصحَّتِه[1].

وبالجملةِ؛ فإِذا حصلَ للمريضِ مثلُ سببِ مرضِه؛ زاد مرضُهُ، وضَعُفَتْ قوَّتُه، وترامى إِلى التَّلَفِ، ما لم يتدارَكْ ذلك بأن يَحْصُلَ لهُ ما يُقوِّي قوَّتَه، ويُزيلُ مرضَه. انتهى.

(١) فالواجب على المسلم أن يقوِّي عقيدته، ويفهَمَ توحيد ربه جلَّ وعلا، حتى تكون قاعدته متينة قوية، لا يؤثِّر فيها ما يَعرِض لها من ابتلاءات، ولا تزلزِلُها المصائب والفتن.

الأمر الثاني

معرفةُ أقسام أدوية أمراض القلب

تنقسمُ أدويةُ أمراضِ القلبِ إلى قسمين: طبيعيةٍ وشرعيةٍ:

يقولُ ابن القيم رحمه الله: (مرضُ القلبِ نوعانِ:

نوعٌ لا يتأَلَّمُ بهِ صاحبُهُ في الحالِ، وهو النوعُ المتقدِّمُ؛ كمرضِ الجهلِ، ومرضِ الشُّبُهاتِ والشُّكوكِ، ومرضِ الشَّهواتِ.

وهذا النَّوعُ هو أَعظمُ النوعينِ أَلَماً، ولكن لفسادِ القلبِ لا يُحِسُّ بالألمِ، ولأنَّ سَكرَةَ الجهلِ والهوى تَحولُ بينَه وبينَ إدراكِ الألَمِ، وإِلَّا فأَلمُهُ حاضرٌ فيهِ حاصلٌ لهُ، وهو مُتوارٍ عنهُ باشتغالِهِ بضدِّهِ، وهذا أَخطرُ المرضينَ وأَصعَبُهُما.

وعلاجُهُ إِلى الرُّسُلِ وأتبَاعِهِم، فهُم أَطبَّاءُ هذا المرضِ.

والنَّوعُ الثَّاني: مرضٌ مؤلِمٌ لهُ في الحالِ، كالهمِّ والغمِّ والحَزَنِ والغيظِ.

وهذا المرضُ قد يزولُ بأَدويةٍ طبيعيَّةٍ؛ كإِزالةِ أَسبابِه، أو بالمداواةِ بما يُضَادُّ تلكَ الأسبابَ، ومَا يَدفعُ مُوجِبَها مَع قيامِها، وهذا كما أَنَّ القلبَ قد يتأَلَّمُ بما يتأَلَّمُ بِهِ البَدَنُ، ويَشقى بما يَشقى بِهِ البَدَنُ، فكذلك البَدَنُ يتأَلَّمُ كثيراً بما يتأَلَّمُ بهِ القلبُ، ويُشقيهِ ما يُشقيهِ.

فأمراضُ القلبِ التي تزولُ بالأدويةِ الطبيعيَّةِ مِن جنسِ أَمراضِ البدنِ، وهذه قد لا تُوجِبُ وحدَها شقاءَهُ وعذابَهُ بعدَ الموتِ، وأَمَّا أَمراضُهُ التي لا تزولُ إِلَّا

بالأدويةِ الإيمانيَّةِ النبويَّةِ، فهي التي توجِبُ لهُ الشَّقاءَ والعذابَ الدَّائمَ، إن لم يتدارَكْها بأَدويتِها المضادَّةِ لها، فإذا استعملَ تلكَ الأدويةَ حَصَلَ لهُ الشِّفاءُ، ولهذا يُقالُ: «شفَى غَيظَهُ»، فإذا استولى عليه عدوُّهُ آلمَه ذلك، فإذا انتَصَفَ منهُ اشتَفى قلبُهُ، قال تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ١٤ وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ﴾ [التوبة:١٤-١٥]، فأَمَرَ بقتالِ عدوِّهِم، وأَعلَمَهُم أَنَّ فيه ستَّ فوائدَ(١).

فالغيظُ يؤلِمُ القلبَ، ودواؤهُ في شِفاءِ غيظِهِ، فإن شَفاهُ بحقٍّ اشتفى، وإن شفاهُ بظُلمٍ فإنَّ ذلك يَزيدُ مرضَهُ، ويوجِبُ لهُ أَمراضاً أُخَرَ أَصعبَ مِن مرضِ العشقِ.

وكذلكَ الغَمُّ والهَمُّ والحَزَنُ أَمراضٌ للقلبِ، وشفاؤها بأَضدادِها مِن الفَرَحِ والسُّرورِ، فإن كانَ ذلك بحقٍّ اشتفى القلبُ وصحَّ وبَرِئَ مِن مرضِهِ، وإن كانَ بباطلٍ تَوارى ذلك واستتَر، ولم يزُل، وأَعقَبَ أَمراضاً هي أَصعبُ وأَخطرُ.

وكذلكَ الجهلُ مرضٌ يُؤلِمُ القلبَ، فمِنَ النَّاسِ مَن يُداويهِ بعلومٍ لا تنفعُ(٢)، ويعتقدُ أَنَّهُ قد صحَّ مِن مرضهِ بتلكَ العلومِ، وهي في الحقيقةِ إنَّما تزيدُهُ مَرضاً إلى مرضِهِ، لكنِ اشتغلَ القلبُ بها عن إدراكِ الألَمِ الكامِنِ فيهِ، بسببِ جَهلِهِ بالعلومِ النَّافعةِ، التي هي شَرطٌ في صحَّتِهِ وبُرئِه، قال النبيُّ ﷺ في الَّذينَ أَفتَوا بالجهلِ،

(١) وهي المذكورةُ في الآية نفسِها.

(٢) كعلوم المنطق، والكلام، والفلسفةِ، والتصوُّفِ، وغيرها.

فهَلَكَ المستفتي بفتواهُم: «**قَتَلوهُ قَتَلَهُمُ اللهُ، أَلا سَأَلُوا إِذ لَم يَعلَموا؟ فإِنَّما شِفاءُ العِيِّ السُّؤالُ**»[1].

فجعلَ الجهلَ مرضاً، وشِفاؤهُ سؤال أَهلِ العلمِ.

وكذلكَ الشَّاكُّ في الشيءِ المُرتابُ فيهِ، يتأَلَّمُ قلبُهُ حتى يحصُلَ لهُ العلمُ واليقينُ، ولـمَّا كانَ ذلك يوجِبُ لهُ حرارةً؛ قيلَ لمَن حَصَلَ لهُ اليقينُ: ثَلَجَ صدرُهُ، وحَصَلَ لهُ بَردُ اليقينِ، وهو كذلكَ يَضيقُ بالجهلِ والضَّلالِ عن طَريقِ رُشدِهِ، وينشرحُ بالهُدى والعلمِ، قال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ﴾ [الأنعام:١٢٥].

والمقصودُ أَنَّ مِن أَمراضِ القلوبِ ما يزولُ بالأدويةِ الطَّبيعيَّةِ، ومنها ما لا يزولُ إِلَّا بالأدويَةِ الشَّرعيَّةِ الإِيمانيَّةِ، والقلبُ لهُ حياةٌ وموتٌ، ومرضٌ وشفاءٌ، وذلك أَعظمُ ممَّا للبَدَنِ). انتهى

(١) **صحيح**: رواه ابن ماجه (٥٧٢)، وأحمد (١/ ٣٣٠)، والدارمي (٧٧٩)، [«صحيح الجامع» (٤٣٦٣)].

الأمر الثالث

معرفةُ الداءِ والدواءِ

الداءُ الأول الذي يُصيبُ القلوب: الشرك.

دواؤه: التوحيدُ لله عز وجل، والمتابعةُ لرسول الله ﷺ

يبعثُ اللهُ الناسَ يومَ القيامةِ من قبورهم حفاةً عراةً غُرلاً: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾﴾ [النجم].

قال تعالى: ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف].

في هذا اليوم تُنصبُ موازين الحساب.

قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء].

وقال تعالى: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الأعراف].

في هذا اليوم يُحاسبُ اللهُ العبادَ على أعمالهم فلا تُظلم نفسٌ شيئاً.

قال تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۚ لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ١٧﴾ [غافر].

وقال ﷺ: «**مَا مِنكُم أَحَدٌ إِلَّا سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ لَيسَ بَينَهُ وَبَينَهُ تُرجُمَانٌ، فَيَنظُرُ أَيمَنَ مِنهُ فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ، وَيَنظُرُ أَشأَمَ مِنهُ فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ، وَيَنظُرُ بَينَ يَدَيهِ فَلَا يَرَى إِلَّا النَّارَ تِلقَاءَ وَجهِهِ، فَاتَّقُوا النَّارَ وَلَو بِشِقِّ تَمرَةٍ، وَلَو بِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ**»(١).

في هذا اليومِ تبيضُّ وجوهٌ، وتسودُّ وجوهٌ، وينقسمُ الناسُ إلى فريقين: فريقٌ في الجنةِ، وفريقٌ في السعير.

ولا ينجو العبدُ يومَ القيامةِ من عذابِ اللهِ، ولا يفوزُ بالجنة إلا من أتى اللهَ بقلبٍ سليم.

قال تعالى: ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ٨٨ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ٨٩﴾ [الشعراء].

فالعاقلُ الذي يريدُ أن يلقى اللهَ على أحسنِ حال، ويفوزَ بجنةٍ عرضُها السمواتُ والأرضُ هو الذي يعملُ ليلاً ونهاراً لإصلاحِ قلبه، ومن أعظمِ وسائلِ إصلاحِ القلوبِ:

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري (٧٥١٢)، ومسلم (١٠١٦).

معرفةُ الداءِ والدواءِ

الداءُ: هو المرضُ الذي يُصيبُ القلبَ فيميتُه.

والدواءُ: هو العلاجُ الذي يُعالَجُ بِهِ القلبُ فيُحييه.

وتشخيصُ الداءِ الذي يُصيبُ القلبَ، ومعرفةُ الدواءِ من خلال الكتابِ والسنة يقومُ به العلماءُ، كما يقومُ الأطباءُ بتشخيصِ الداءِ والدواءِ للبدن، ولذلك فالعلماء، الربانيون هم أطباءُ القلوب.

وَقد حثَّ اللهُ عز وجل عبادَهُ في كتابِه بالتداوي، والأخذِ بالأسبابِ، وأخبرهم أنه سبحانهُ كما يُحيي الأرضَ بعد موتِها، يحيي القلوبَ الميتةَ بعد موتها.

فقال تعالى: ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ١٦ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ١٧﴾ [الحديد].

وقد أمرَ رسولُ اللهِ ﷺ أمتهُ بالتداوي.

فقال ﷺ: **«تداوَوا عبادَ الله، فإن اللهَ تعالى لم يَضَع داءً إلا وضعَ لهُ دواءً؛ غيرَ داءٍ واحدٍ، الهرمِ»**(١).

---

(١) **صحيح**: رواه أبو داود (٣٨٥٥)،وأحمد (٤/٢٧٨)، والطبراني في «الصغير» (٥٥٩)، [«صحيح الجامع» (٢٩٣٠)].

وقال ﷺ: «**ما أنزلَ اللهُ داءً إلا أنزلَ له شفاءً**»(١).

وقال ﷺ: «**لكلِّ داءٍ دواءٌ، فإذا أُصيبَ دواءُ الداءِ بَرَأَ بإذنِ الله عز وجل**»(٢).

وقال ﷺ: «**إن الله لم يُنزِل داءً إلا أنزلَ لهُ شفاءً، عَلِمَهُ مَن عَلمَهُ، وجهِلَهُ من جَهِلَهُ**»(٣)، وهذا يَعُمُّ أدواءَ القلبِ والروحِ والبدنِ وأدويتَها.

ومن الأمثلةِ على ذلك من سنةِ رسولِ اللهِ ﷺ:

المثالُ الأول: دواءُ العِيِّ -أي: الجهلِ- السؤالُ.

عن جابرٍ رضي الله عنه؛ قال: (خَرَجنَا فِي سَفَرٍ، فَأَصَابَ رَجُلاً مِنَّا حَجَرٌ، فَشَجَّهُ فِي رَأسِهِ، ثُمَّ احتَلَمَ، فَسَأَلَ أَصحَابَهُ فَقَالَ: هَل تَجِدُونَ لِي رُخصَةً فِي التَّيَمُّمِ؟ قَالُوا: مَا نَجِدُ لَكَ رُخصَةً، وَأَنتَ تَقدِرُ عَلَى المَاءِ، فَاغتَسَلَ فَمَاتَ، فَلَمَّا قَدِمنَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ أُخبِرَ بِذَلِكَ، فَقَالَ: «**قَتَلُوهُ؛ قَتَلَهُمُ اللَّهُ! أَلَا سَأَلُوا إِذ لَم يَعلَمُوا؟ فَإِنَّمَا شِفَاءُ العِيِّ السُّؤَالُ**»(٤)).

فأخبرَ ﷺ أن الجهلَ داءٌ، وأنَّ شِفاءَهُ سؤالُ أهلِ العلم، فالسؤالُ مفتاحُ العلم.

المثال الثاني: القرآنُ دواءٌ نافعٌ لكلِّ أمراضِ القلبِ والبدنِ.

(١) **صحيح**: رواه البخاري (٥٦٧٨).

(٢) **صحيح**: رواه مسلم (٢٢٠٤).

(٣) **حسن لغيره**: رواه الترمذي (٣٥٤٨)، والحاكم (١٨١٥)، [«صحيح الترغيب» (١٦٣٤)].

(٤) **صحيح**: رواه أبو داود (٣٣٦)، والدارقطني (٧٢٩)، [«صحيح الجامع» (٤٣٦٢)].

قال تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الإسراء:٨٢].

فالقرآنُ شفاءٌ للقلوبِ من داءِ الجهلِ والشكِّ والرَّيبِ، فلم يُنزلِ اللهُ سبحانه وتعالى من السماءِ شفاءً قطُّ أعمَّ ولا أنفعَ ولا أعظمَ ولا أنجعَ في إزالةِ الداءِ من القرآنِ.

فعن أبي سعيدٍ الخدريِّ ﵁ قال: (انطَلَقَ نَفَرٌ مِن أَصحَابِ النَّبِيِّ ﷺ فِي سَفْرَةٍ سَافَرُوهَا، حَتَّى نَزَلُوا عَلَى حَيٍّ مِن أَحيَاءِ العَرَبِ فَاستَضَافُوهُم؛ فَأَبَوا أَن يُضَيِّفُوهُم. فَلُدِغَ سَيِّدُ ذَلِكَ الحَيِّ، فَسَعَوا لَهُ بِكُلِّ شَيءٍ؛ فلم يَنفَعْهُ شَيءٌ، فَقَالَ بَعضُهُم لبعضٍ: لَو أَتَيتُم هَؤُلَاءِ الرَّهطَ الَّذِينَ نَزَلُوا، لَعَلَّهُ أَن يَكُونَ عِندَ بَعضِهِم شَيءٌ، فَأَتَوهُم، فَقَالُوا: يَا أَيُّهَا الرَّهطُ! إِنَّ سَيِّدَنَا لُدِغَ، وَسَعَينَا لَهُ بِكُلِّ شَيءٍ؛ لَا يَنفَعُهُ شيءٌ! فَهَل عِندَ أَحَدٍ مِنكُم مِن شَيءٍ؟ فَقَالَ بَعضُهُم: نَعَم! وَاللَّهِ إِنِّي لَأَرقِي، وَلَكِن وَاللَّهِ لَقَد استَضَفنَاكُم فَلَم تُضَيِّفُونَا، فَمَا أَنَا بِرَاقٍ حَتَّى تَجعَلُوا لَنَا جُعْلًا، فَصَالَحُوهُم عَلَى قَطِيعٍ مِن الغَنَمِ، فَانطَلَقَ يَتفِلُ عَلَيهِ وَيَقرَأُ: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ﴾ [الفاتحة]؛ فَكَأَنَّمَا نُشِطَ مِن عِقَالٍ، فَانطَلَقَ يَمشِي، وَمَا بِهِ قَلَبَةٌ[1]. فَأَوفَوهُم جُعْلَهُم الَّذِي صَالَحُوهُم عَلَيهِ. فَقَالَ بَعضُهُم: اقتسِمُوا، فَقَالَ الَّذِي رَقَى: لَا نفعَلُ حَتَّى نَأتِيَ النَّبِيَّ ﷺ فَنَذكُرَ لَهُ الَّذِي كَانَ، فَنَنظُرَ مَا يَأمُرُنَا. فَقَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَذَكَرُوا لَهُ ذلك، فَقَالَ: «**وَمَا يُدرِيكَ أَنَّهَا رُقيَةٌ؟**».

(١) القَلَبَةُ: الألم والعِلَّة.

ثُمَّ قَالَ: «**قَد أَصَبتُم، اقسِمُوا وَاضرِبُوا لِي مَعَكُم سَهمًا**»[(1)].

فقد أثَّر هذا الدواءُ في هذا الداءِ وأزالَه حتى كأن لم يكُن؛ وهو أسهلُ دواءٍ وأيسرُهُ، ولو أحسنَ العبدُ التداويَ بالفاتحةِ لرأى لها تأثيراً عجيباً في الشفاء.

وموعدُنا في هذا اليومِ إن شاءَ اللهُ تعالى مع الداءِ الأولِ، مع المرضِ الأولِ الذي يُصيبُ القلوبَ ألا وهو: الشركُ بالله.

والشركُ باللهِ أعظمُ الذنوبِ كما عَرَّفَهُ النبيُّ ﷺ يقولُ ابنُ مسعودٍ رضي الله عنه: (سألتُ النبيَّ ﷺ: أيُّ الذنبِ أعظمُ عندَ الله؟

قال ﷺ: «**أن تجعلَ لله نِداً وهو خلقك**»[(2)]).

والشركُ من أخطرِ أمراضِ القلوبِ بل هو أخطرُها على الإطلاقِ وذلك:

أولاً: لأنَّ المريضَ بمرضِ الشركِ من شرِّ الناسِ.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ ٦﴾ [البيِّنة].

ثانياً: لأنَّ المريضَ بمرضِ الشركِ من أنجَسِ الناسِ.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ﴾ [التوبة:٢٨].

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري (٢٢٧٦)، ومسلم (٢٢٠١).

(٢) **متفق عليه**: رواه البخاري (٦٠٠١)، ومسلم (٨٦).

ثالثاً: لأنَّ المريضَ بمرضِ الشركِ من أظلمِ الظَّلَمة.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان].

رابعاً: لأن المصابَ بالشركِ محرومٌ من المغفرة إن مات مشركاً.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾ [النساء].

خامساً: لأن المصابَ بالشركِ محرومٌ من الجنة، مُخَلَّدٌ في النار إن مات مشركاً.

قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾ [المائدة].

سادساً: لأنَّ المصابَ بالشركِ محرومٌ من شفاعةِ النبيِّ ﷺ إن مات مشركاً.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سألتُ رسولَ اللهِ ﷺ! مَن أسعدُ الناسِ بشفاعتك يومَ القيامة؟

قال ﷺ: «**أسعدُ الناسِ بشفاعتي يومَ القيامة من قال: لا إلهَ إلا اللهُ خالصاً من قلبِه أو نفسِه**»(١).

سابعاً: لأنَّ الشركَ يُحبطُ الأعمالَ، فالمريضُ بالشركِ لا يجدُ ثواباً لعمله يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنعام].

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٩٩).

وقال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [الزُّمَر].

وقال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان].

ثامناً: لأن الشركَ يَنزلُ بصاحبهِ إلى أسفلِ درجاتِ الذلِّ والهوان.

قال تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾ [الحج].

ولذلك جاءَ التحذيرُ من الشركِ في الكتاب والسنةِ:

ففي كتابِ الله:

يقول الله عز وجل: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء:٣٦].

ويقول سبحانه: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾﴾ [النساء].

ويقول سبحانه: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾﴾ [الإسراء].

ويقول سبحانه: ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿٥١﴾﴾ [النحل].

وفي سنة رسول الله ﷺ:

يقول أبو الدرداء رضي الله عنه: (أوصاني خليلي أن لا تشركَ باللهِ شيئاً وإن قُطِّعتَ أو حُرِّقتَ)(١).

(١) **حسن لغيره**: رواه ابن ماجه (٤٠٣٤)، والبخاري في «الأدب المفرد» (١٨)، والبيهقي في «الشعب» (٥٢٠٠)، [«صحيح الترغيب» (٥٦٧)].

وقال ﷺ: «**من لقيَ اللهَ**» -أي: يومَ القيامةِ- «**لا يشركُ به شيئاً دخلَ الجنة، ومن لقيهُ يشركُ به شيئاً دَخَلَ النارَ**»(١).

والشركُ نوعان: شركٌ أكبر، وشركٌ أصغر:

فأما الشركُ الأكبر:

فهو مُميتٌ للقلبِ، وصاحبُهُ مُخَلَّدٌ في النارِ لا يخرجُ منها أبداً إن ماتَ على ذلك، كالذي يدعو غيرَ الله، فالدعاءُ عبادةٌ بل هو من أعظمِ العباداتِ، فمن صرفها لغير الله فقد أشركَ شركاً أكبر.

واللهُ عز وجل يقول: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾ [فاطر].

ويقولُ الله عز وجل لرسوله ﷺ: ﴿وَلَا تَدۡعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَۖ فَإِن فَعَلۡتَ فَإِنَّكَ إِذٗا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ -أي: من المشركين- ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾ [يونس].

وانظر إلى المصابين بهذا المرض وهو الشركُ الأكبرُ تراهم عاكفين على قبورِ الأولياءِ والصالحين، يدعونَهم من دون الله، ولا حولَ ولا قوةَ إلا بالله.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٩٣).

وأما الشركُ الأصغر:

فهو مُمرِضٌ للقلب، وصاحبُهُ لا يَخرُجُ من الملةِ، ولكنهُ على خطرٍ عظيم، ومن أمثلةِ هذا الشركِ: يسيرُ الرياءِ، والحَلفُ بغير الله.

والنبيُّ ﷺ يقول: «**من حلفَ بغير اللهِ فقد كفرَ أو أشرك**»[1].

والكفرُ هنا والشركُ: كفرٌ أصغرُ وشركٌ أصغر.

• أمراضُ القلوبِ أخطرُ على الإنسانِ من أمراضِ الأبدان، وذلك لأن مرضَ البدنِ غايتُه أن يُفضيَ بالإنسانِ إلى الموت، أما مرضُ القلبِ فيفضي بصاحبِهِ إلى الشقاءِ الأبديِّ، وأخطرُ مرضٍ يُصيبُ القلبَ هو: الشرك.

ودواؤُهُ وعلاجُهُ هو: التوحيدُ لله عز وجل، والمتابعةُ لرسولِ اللهِ ﷺ.

وقد جمعَ اللهُ بينهما في قولِه تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ١١٠﴾ [الكهف:١١٠].

وجمعَ رسولُ الله ﷺ بينهما في قوله: «**إن الله لا ينظرُ إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظرُ إلى قلوبكم وأعمالكم**»[2].

فالقلوبُ السليمةُ من الشركِ والتي صَلَحت بالإخلاص والتوحيدِ، والأعمالُ التي وافقت السنة صاحبُها هو الناجي يومَ القيامة.

---

(١) **صحيح**: رواه الترمذي (١٥٣٥)، وأبو داود (٣٢٥١)، وأحمد (٢/١٢٥)، [«صحيح الترغيب» (٢٩٥٢)].

(٢) **صحيح**: رواه مسلم(٢٥٦٤).

والتوحيدُ الذي هو شفاءٌ للقلوبِ من الشركِ ينقسمُ إلى ثلاثةِ أقسام:

القسم الأول: توحيدُ الربوبية:

وهو: إفرادُ اللهِ عز وجل في الخَلقِ والملكِ والتدبير، وقد جاءت به الفطرة، وأيدته الأدلةُ في الكتابِ والسنةِ.

القسم الثاني: توحيدُ الألوهية:

وهو: إفرادُ اللهِ عز وجل بالعبادة، أي لا معبودَ بحقٍّ إلا الله، وقد جاءتِ الأدلةُ في الكتابِ والسنة تدلُّ على ذلك.

القسم الثالث: توحيدُ الأسماء والصفات:

وهو: إفرادُ الله عز وجل بما لَهُ من الأسماءِ والصفاتِ وهذا يتضمنُ شيئين:

الأول: الإثباتُ، وذلك بأن تُثبتَ لله عز وجل جميعَ أسمائِه وصفاتِه التي أثبتها لنفسه في كتابه، أو سنةِ نبيه ﷺ.

الثاني: نفيُ المماثَلة، وذلك بأن لا تجعلَ لله مثيلاً في أسمائِه وصفاته؛ كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى].

فدلت هذه الآيةُ على أن جميعَ صفاتِه لا يماثلُه فيها أحدٌ من المخلوقين؛ فهي وإن اشتركت في أصل المعنى، لكن تختلفُ في حقيقة الحالِ، فمن لم يُثبتْ ما أثبته اللهُ لنفسه؛ فهو معطِّلٌ، وتعطيلُه هذا يشبهُ تعطيلَ فرعون، ومَن أثبتها مع التشبيهِ صارَ مشابهاً للمشركين الذين عبدوا مع اللهِ غيرَه، ومن أثبتها بدونِ مماثلةٍ صار من الموحدين.

• ومَن طَهَّرَ قلبَهُ من الشركِ، وأصلَحَهُ بالتوحيد لله قطفَ الثمارَ الطيبةَ في الدنيا والآخرة ومنها:

الثمرةُ الأولى: الحياةُ الطيبةُ والأمنُ والأمانُ في الدنيا والآخرة.

قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل].

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ -أي: الموحدون أهل «لا إله إلا الله»- ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام].

الثمرةُ الثانية: النصرُ والتمكينُ في الأرض.

قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النور].

الثمرة الثالثة: تثقيلُ الميزانِ يومَ القيامة.

قال تعالى: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾﴾ -هم الموحدون أهلُ «لا إله إلا الله»- ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الأعراف].

ويقول ﷺ في حقِّ الموحِّدِ الذي قال: «لا إله إلا الله» وعلمَ معناها وعمل بمقتضاها، وجاء بشروطها: «**والذي نفسي بيده إنهما** -أي ساقَي ابنِ مسعود رضي الله عنه- **في الميزان أثقلُ من أُحُدٍ**»(١).

أما الذي كفر بـ«لا إله إلا الله» فلا وزنَ له يومَ القيامة.

يقول ﷺ: «**إنه ليأتي الرجلُ العظيمُ السمينُ يومَ القيامة لا يزنُ عند اللهِ جناحَ بعوضةٍ، اقرءوا:** ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ۝١٠٥﴾ [الكهف]»(٢).

الثمرة الرابعة: الفوزُ بالجنةِ والنجاةُ من النار.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ۝١٠٧ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ۝١٠٨﴾ [الكهف].

وقال ﷺ: «**أتاني جبريلُ عليه السلامُ فَبَشَّرَني أنه مَن مات مِن أمتك لا يُشركُ بالله شيئاً دَخل الجنة، قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: وإن زنى وإن سرق**»(٣).

وقال ﷺ: «**من مات وهو يعلمُ أن لا إله إلا الله، دخل الجنة**»(٤).

---

(١) **صحيح**: رواه أحمد (١/ ٤٢٠)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٢٣٧)، [«السلسلة الصحيحة» (٣١٩٢)].

(٢) **حسن**: رواه أحمد (١/ ٤٢٠)، والطيالسي (٣٥٣)، والبزار (١٨٢٧)، والطبراني في «الكبير» (٨٤٥٢)، [«الصحيحة» (٢٧٥٠)].

(٣) **متفق عليه**: رواه البخاري (٦٢٦٨)، ومسلم (٩٤) واللفظ له.

(٤) **صحيح**: رواه مسلم (٢٦).

الداءُ الثاني الذي يصيبُ القلوبَ: الرياءُ

ودواؤُهُ: الإخلاصُ لله عز وجل.

يقول اللهُ عز وجل في كتابه: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام:١٢٢].

أي: أَوَمن كان كافراً مَيِّتَ القلبِ، مغموراً في ظلمةِ الجهلِ، فهديناه لرشدِه، ووفقناه للإيمانِ، وجعلنا قلبَه حياً بعد موتِه، مُشرِقاً مستنيراً بعد ظُلمته.

ويقول ﷺ: «**تَدَاوَوا عِبَادَ اللهِ، فَإِنَّ اللَّهَ تعالى لَمْ يضعْ دَاءً إِلَّا وَضَعَ لَهُ دواءً؛ غَيرَ دَاءٍ وَاحِدٍ، الهَرَمُ**»(١).

والقلوبُ تمرضُ حتى تموتَ، كما يمرضُ البدنُ حتى يموتَ صاحبُه، ومرضُ القلبِ أخطرُ على الإنسانِ من مرضِ البدنِ، وذلك لأنَّ مرضَ البدنِ غايتُهُ أنهُ يُفضي بصاحبِهِ إلى الموت، أما مرضُ القلبِ فيُفضي بصاحِبِه إلى الشقاءِ الأبديِّ، ولذلك ينبغي على العاقلِ أن يهتمَّ بعلاجِ قلبِهِ من أمراضِ القلوبِ أكثرَ منَ اهتمامِهِ بعلاجِ بدنِه من أمراضِ الأَبدان.

وكلامنا الآتي سيكون عن المرضِ الثاني الذي يُصيبُ القلوبَ ألا وهو: الرياءُ.

---

(١) **صحيح**: رواه أبو داود (٣٨٥٥)، وأحمد (٢٧٨/٤)، والطبراني في «الصغير» (٥٥٩)، [«صحيح الجامع» (٢٩٣٠)].

والرياءُ هو: العملُ طلباً لرؤيةِ الناسِ، وقد يكونُ العاملُ على خلافِ ما أظهرَهُ، فكلُّ عملٍ عُمِلَ ليراهُ الناسُ فهو: رياءٌ، كما قال القائلُ في وصفِ المرائين:

هم في الظواهرِ زُهَّادٌ أولو ورعٍ ... وفي البواطنِ إخوانُ الشياطين
يُحرِّمونَ الذي حَلَّ الإلهُ لهم ... ويستبيحونَ أموالَ المساكين
يا بئسَ ما فعلوا يا بئس ما تركوا ... وهم يُعَدُّون فينا بالملايين

والمرائي هو: الذي يبتغي بعمله الدنيا الفانيةَ.

وقيلَ هو الذي يبتغي بعمله وجهَ الناسِ، والدليلُ على ذلك:

يقول أبو هريرةَ رضي الله عنه: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول: «**إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقضَى يَومَ القِيَامَةِ عَلَيهِ رَجُلٌ استُشهِدَ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلتُ فِيكَ حَتَّى استُشهِدتُ، قَالَ: كَذَبتَ وَلَكِنَّكَ قَاتَلتَ؛ لأَن يُقَالَ جَرِيءٌ، فَقَد قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجهِهِ حَتَّى أُلقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ العِلمَ وَعَلَّمَهُ، وَقَرَأَ القُرآنَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا.**

قَالَ: فَمَا عَمِلتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمتُ العِلمَ وَعَلَّمتُهُ، وَقَرَأتُ فِيكَ القُرآنَ، قَالَ: كَذَبتَ؛ وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمتَ العِلمَ لِيُقَالَ عَالِمٌ، وَقَرَأتَ القُرآنَ لِيُقَالَ هُوَ قَارِئٌ، فَقَد قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجهِهِ حَتَّى أُلقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيهِ، وَأَعطَاهُ مِن أَصنَافِ المَالِ كُلِّهِ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكتُ مِن سَبِيلٍ تُحِبُّ أَن يُنفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنفَقتُ فِيهَا لَكَ، قَالَ: كَذَبتَ، وَلَكِنَّكَ فَعَلتَ لِيُقَالَ هُوَ جَوَادٌ، فَقَد قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجهِهِ ثُمَّ أُلقِيَ فِي النَّارِ»(١).

(١) صحيح: رواه مسلم(١٩٠٥).

فالأولُ وهو الشهيدُ فبسببِ إصابتِه بمرضِ الرياءِ، قَدَّمَ روحَهُ ليُقالَ: جريءٌ، بطلٌ ... أي أرَادَ بشهادتِهِ وجهَ الناسِ والدنيا الفانية، وقد سُئِلَ ﷺ عن الرجلِ يُقاتلُ شجاعةً، ويقاتلُ حَمِيَّةً، ويقاتِلُ رياءً، أيُّ ذلك في سبيل الله؟

فقال رسولُ الله ﷺ: «**مَن قاتلَ لتكونَ كلمةُ اللهِ هي العليا فهو في سبيل الله**»(١).

والثاني وهو العالمُ فبسبب إصابتِهِ بمرضِ الرياءِ طلبَ العلمَ وعَلَّمَ ليُقالَ: عالمٌ ... أي أرادَ بعلمِه وتعليمِه وجهَ الناسِ والدنيا الفانية.

واللهُ عز وجل يقولُ في وصفِ العالم الذي أرادَ بعلمه الدنيا الفانيةَ: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ١٧٥ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ﴾ [الأعراف:١٧٦-١٧٧].

والثالثُ وهو الكريمُ فبسبب إصابتِهِ بمرضِ الرياءِ أنفقَ مالَه ليُقالَ: كريم ... أي أرادَ بإنفاقِه وجهَ الناسِ والدنيا الفانية.

واللهُ عز وجل يقول في وصف الذي يُنفقُ ماله رياءً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ﴾ [البقرة:٢٦٤].

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري (٢٨١٠)، ومسلم (١٩٠٤).

وقــال تعــالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾﴾ [النساء].

فهؤلاءِ الثلاثةُ بسببِ إصابتهم بمرض الرياءِ الذي جعلهم يطلبونَ بأعمالِهِمُ الدنيا الفانيةَ وما عندَ الناسِ؛ أولُ مَن تُسَعَّرُ بهم جهنمُ يومَ القيامة.

قال ﷺ: «**يا أبا هريرةَ! أولئكَ الثلاثةُ** (الشهيدُ، والعالمُ، والكريمُ)، **أولُ خلقِ اللهِ تُسَعَّرُ بهمُ النارُ يومَ القيامةَ**»(1).

ولذلكَ لما حدَّثَ رجلٌ معاويةَ رضي الله عنه بهذا الحديثِ قال: (قد فُعِلَ بهؤلاءِ هذا، فكيفَ بمن بقِيَ من الناسِ؟ ثم بكى رضي الله عنه بكاءً شديداً حتى قالَ مَن عندهُ أنه هالكٌ -أي: ميتٌ من شدةِ البكاء- ثم أفاقَ رضي الله عنه، ومسحَ عن وجهه، وقال صدقَ اللهُ ورسولُه ثم تلى قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [هود])(2).

فالرياءُ أخطرُ مرضٍ على قلبِ الإنسانِ وذلك.

(1) **صحيح**: رواه الترمذي (٢٣٨٢)، والنسائي في «الكبرى» (١١٨٢٤)، وابن حبان (٤٠٨)، [«صحيح الترغيب» (٢٢)].

(2) **صحيح**: رواه الترمذي (٢٣٨٢)، والنسائي في «الكبرى» (١١٨٢٤)، [«صحيح الترغيب» (٢٢)].

أولاً: لأنَّ الرياءَ لا يُرى بالعينِ، ولا يُمَسُّ بالأناملِ، ولا يُسمعُ بالآذانِ، إنما يكمُنُ في القلبِ، ويخفى حتى على صاحبهِ

يقولُ ﷺ: «**إنَّ أخوفَ ما أخافُ عليكمُ الشركَ الأصغرَ**» قالوا: وما الشركُ الأصغرُ يا رسولَ الله؟ قال: «**الرياءُ، يقولُ اللهُ عز وجل إذا جزى الناسَ بأعمالِهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا، فانظروا هل تجدونَ عندهم جزاءً**»(١).

ويقول ﷺ: «**يا أيها الناسُ! إياكم وشركَ السرائرِ**» قالوا: يا رسولَ اللهِ! وما شركُ السرائرِ؟ قال: «**يقومُ الرجلُ فيصلي، فيزينُ صلاتَه جاهداً لما يرى من نظرِ الناسِ إليه، فذلك شرك السرائرِ**»(٢).

ويقولُ ﷺ: «**يا أيها الناسُ! اتقوا هذا الشرك**» -وهو الرياءُ- «**فإنه أخفى من دبيبِ النملِ**»(٣).

ثانياً: لأنَّ المصابَ بالرياءِ يزدادُ ضلالاً على ضلالِه، ويدفعُه الرياءُ إلى كُلِّ شر.

عَن جَابِرِ بنِ سَمُرَةَ قَالَ: (شَكَا أَهلُ الكُوفَةِ سَعدًا إِلَى عُمَرَ رضي الله عنه فَعَزَلَهُ، وَاستَعمَلَ عَلَيهِم عَمَّارًا، فَشَكَوا حَتَّى ذَكَرُوا أَنَّهُ لَا يُحسِنُ يُصَلِّي، فَأَرسَلَ إِلَيهِ فَقَالَ: يَا أَبَا إِسحَاقَ! إِنَّ هَؤُلَاءِ يَزعُمُونَ أَنَّكَ لَا تُحسِنُ تُصَلِّي، قَالَ أَبُو إِسحَاقَ: أَمَّا أَنَا

---

(١) **صحيح**: رواه أحمد (٥/٤٢٨)، والطبراني في «الكبير» (٤٣٠١)، والبيهقي في «الشعب» (٦٤١٢)، [«صحيح الترغيب» (٣٢)].

(٢) **حسن**: رواه ابن خزيمة (٩٣٧)، والبيهقي في «الشعب» (٢٨٧٢)، [«صحيح الترغيب» (٣١)].

(٣) **حسن لغيره**: رواه أحمد (٤/٤٠٣)، والطبراني في «الأوسط» (٣٤٧٩)، [«صحيح الترغيب» (٣٦)].

وَاللَّهِ فَإِنِّي كُنتُ أُصَلِّي بِهِم صَلَاةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا أَخرِمُ[1] عَنهَا، أُصَلِّي صَلَاةَ العِشَاءِ فَأَركُدُ[2] فِي الأُولَيَينِ وَأُخِفُّ فِي الأُخرَيَينِ، قَالَ: ذَاكَ الظَّنُّ بِكَ يَا أَبَا إِسحَاقَ! فَأَرسَلَ مَعَهُ رَجُلًا -أَو رِجَالًا- إِلَى الكُوفَةِ، فَسَأَلَ عَنهُ أَهلَ الكُوفَةِ، وَلَم يَدَعْ مَسجِدًا إِلَّا سَأَلَ عَنهُ، وَيُثنُونَ مَعرُوفًا، حَتَّى دَخَلَ مَسجِدًا لِبَنِي عَبسٍ، فَقَامَ رَجُلٌ مِنهُم يُقَالُ لَهُ أُسَامَةُ بنُ قَتَادَةَ يُكنَى أَبَا سَعدَةَ قَالَ: أَمَّا إِذ نَشَدتَنَا فَإِنَّ سَعدًا لَا يَسِيرُ بِالسَّرِيَّةِ، وَلَا يَقسِمُ بِالسَّوِيَّةِ، وَلَا يَعدِلُ فِي القَضِيَّةِ، قَالَ سَعدٌ: أَمَا وَاللَّهِ لَأَدعُوَنَّ بِثَلَاثٍ: اللَّهُمَّ إِن كَانَ عَبدُكَ هَذَا كَاذِبًا قَامَ رِيَاءً وَسُمعَةً فَأَطِل عُمُرَهُ، وَأَطِل فَقرَهُ، وَعَرِّضْهُ بِالفِتَنِ. وَكَانَ بَعدُ إِذَا سُئِلَ يَقُولُ: شَيخٌ كَبِيرٌ مَفتُونٌ، أَصَابَتنِي دَعوَةُ سَعدٍ.

قَالَ عَبدُ المَلِكِ: فَأَنَا رَأَيتُهُ بَعدُ قَد سَقَطَ حَاجِبَاهُ عَلَى عَينَيهِ مِن الكِبَرِ، وَإِنَّهُ لَيَتَعَرَّضُ لِلجَوَارِي فِي الطُّرُقِ يَغمِزُهُنَّ)[3].

ثالثاً: لأنَّ المصابَ بمرضِ الرياءِ يُبغضهُ اللهُ، ويُبغضهُ أهلُ السماءِ والأرضِ.

فاللهُ عز وجل يحبُّ المخلصين، ويُبغضُ المرائينَ والعصاةَ والمجرمينَ، يقولُ ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ تعالى إِذَا أَحَبَّ عَبدًا دَعَا جِبرِيلَ فَقَالَ: إِنِّي أُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبَّهُ، فَيُحِبُّهُ جِبرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي فِي السَّمَاءِ فَيَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهلُ السَّمَاءِ.**

(١) ما أخرم: أي: لا أنقص منها.

(٢) فأركد: أي: أطوّلهما.

(٣) **متفق عليه:** رواه البخاري (٧٥٥)، ومسلم (٤٥٣) واللفظ للبخاري.

قَالَ: ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ القَبُولُ فِي الأَرضِ، وَإِذَا أَبغَضَ عَبدًا دَعَا جِبرِيلَ فَيَقُولُ: إِنِّي أُبغِضُ فُلاَنًا فَأَبغِضهُ، قَالَ: فَيُبغِضُهُ جِبرِيلُ ثُمَّ يُنَادِي فِي أَهلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللَّهَ يُبغِضُ فُلاَنًا فَأَبغِضُوهُ، قَالَ: فَيُبغِضُونَهُ، ثُمَّ تُوضَعُ لَهُ البَغضَاءُ فِي الأَرضِ»[1].

رابعاً: لأنَّ المصابَ بمرضِ الرياء يفضحهُ اللهُ يومَ القيامةِ على رؤوسِ الخلائقِ إن مات مرائياً.

قال ﷺ: «ما من عبدٍ يقومُ في الدنيا مقامَ سُمعةٍ ورياءٍ، إلا سمَّعَ اللهُ به على رؤوسِ الخلائقِ يومَ القيامة»[2].

وقال ﷺ: «من سمَّعَ الناسَ بعملِهِ؛ سمَّعَ اللهُ به مسامِعَ خلقِهِ» -أي: يومَ القيامة- «وصغَّرَهُ وحقَّرَهُ»[3].

خامساً: لأنَّ المصابَ بمرضِ الرياءِ يُعذَّبُ في الآخرةِ في النارإن مات مرائياً.

قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝٧﴾ [الماعون].

هذه ويلاتُ الرياءِ وأضرارُهُ على صاحبِهِ في الدنيا والآخرةِ، ولذلك جاءَ التحذيرُ منَ الرياءِ في القرآنِ والسنةِ.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣٢٠٩)، ومسلم (٢٦٣٧) واللفظ له.

(٢) صحيح لغيره: رواه الطبراني في «الكبير» (٢٣٧)، والبزار (٢٦٥٧)، [«صحيح الترغيب» (٢٨)].

(٣) صحيح: رواه أحمد (٢/١٦٢)، والطبراني في «الكبير» (١٤٤١٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/١٢٣)، والبيهقي في «الشعب» (٦٤٠٢)، [«صحيح الترغيب» (٢٥)].

ففي كتابِ الله عز وجل:

يخبرُ ربُّنا جَلَّ وعلا عبادَهُ أنَّ الرياءَ من شِيَمِ الكافرين، قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنفال].

ويخبرُهم أيضاً أنَّ الرياءَ من شيم المنافقين، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَـٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾ [النساء].

ويخبرُ اللهُ عز وجل عبادَهُ أيضاً أنَّ الرياءَ إذا تمكنَ من القلبِ فإنه يُحبطُ العملَ.

قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

وفي سنةِ رسولِ اللهِ ﷺ:

يقولُ ﷺ محذِّراً منَ الرياء: «**ألا أخبرُكم بما هو أخوفُ عليكم عندي من المسيحِ الدجالِ؟**».

فقلنا: بلى يا رسولَ الله!

فقال: «**الشركُ الخفيُّ، أن يقومَ الرجلُ فيصلي، فيزينُ صلاتَه لما يرى من نظرِ رجلٍ**»(١).

---

(١) **حسن**: رواه ابن ماجه (٤٢٠٤)، [«صحيح الترغيب» (٣٠)].

الرياءُ مرضٌ خطيرٌ جداً يُصيبُ القلوبَ، أخفى من دبيبِ النمل، يخفى حَتى على صاحبهِ، فكونوا من الرياءِ على حذر.

والرياءُ شركٌ أصغرُ إن كان يسيراً، أما إن كانَ غيرَ يسيرٍ فهو شركٌ أكبرُ.

قال الشيخُ حافظُ الحَكَمِيُّ ﷺ: (والفرقُ بينَ هذا الرياءِ الذي هو النفاقُ الأكبرُ وبينَ الرياءِ الذي سماه النبيُّ ﷺ شركاً أصغر خفياً هو حديثُ: «إنما الأعمالُ بالنيات».. فالنيةُ هي الفرقُ في العملِ .. فإن كانَ الباعثُ على العملِ هو إرادةَ اللهِ والدارِ الآخرةِ، وسَلِمَ من الرياءِ في فعلِه وكان موافقاً للشرع، فذلك العملُ الصالحُ المَقبولُ، وإن كانَ الباعثُ على العملِ هو إرادةَ غيرِ اللهِ عز وجل، فذلك النفاقُ الأكبرُ..

وإن كانَ الباعثُ على العملِ هو إرادةَ اللهِ عز وجل والدارِ الآخرة ولكن دخلَ عليه الرياءُ في تزيينهِ وتحسينِه، فذلكَ هو الذي سماه النبيُّ ﷺ الشركَ الأصغرَ، وفَسَّره بالرياء العملي ... وهذا لا يخرجُ من الملةِ، ولكنه يُنقِصُ منَ العملِ بقَدرِهِ، وقد يَغلبُ على العملِ فيحبطُه كُلَّهُ والعِياذُ باللهِ...)[1].

فاحذر يا عبدَ اللهِ! من الرياءِ اليسيرِ أن يأخذَ بكَ إلى الشركِ الأكبرِ فلا تجدُ ثواباً لعملك يومَ القيامة.

قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان].

(١) «معارج القبول» (٢/٤٩٣-٤٩٤).

وقال تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الزُّمَر].

وقال ﷺ: «**إذا جمعَ اللهُ الأوَّلين والآخِرين ليومِ القيامة، ليومٍ لا ريبَ فيه نادى منادٍ: من كان أشركَ في عمله للهِ أحداً فليطلُبْ ثَوابَه من عنده، فإنَّ الله أغنى الشركاءِ عن الشرك**»(١).

والدواءُ النافعُ لهذا الداءِ الخطيرِ وهو الرياءُ: الإخلاصُ.

فإذا أرادَ المسلمُ أن يعالجَ نفسَهُ من داءِ الرياءِ فعليه بما يلي:

أولاً: أن يعلمَ بأنَّ اللهَ هو الذي خلقَهُ، ويعلمُ سرَّهُ ونجواه.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ [ق:١٦].

وقال تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤﴾﴾ [التغابن].

فعلى المسلمِ أن يعلمَ أنَّ اللهَ خلقَهُ لعبادتِه، وأمرهُ أن يُخلصَ فيها له، وحذَّرَهُ منَ الشركِ والرياءِ.

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البيِّنة:٥].

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام].

(١) حسن: رواه الترمذي (٣١٥٤)، وابن ماجه (٤٢٠٣)، أحمد (٣/٤٦٦)، [«صحيح الترغيب» (٢٥٢١)].

وقال تعالى: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾ [النساء:٣٦].

ثانياً: أن يُذَكِّرَ نفسَهُ بما أعَدَّهُ اللهُ للمخلصينَ من النعيمِ المقيمِ في جناتِ النعيم.

وقد جاءت أدلةٌ كثيرةٌ في الكتابِ والسنةِ تدلُّ على أنَّ الجنةَ ما أعدَّت إلا للمخلصين.

ثالثاً: أن يُذَكِّرَ نفسَهُ بما أعدَّهُ اللهُ للمرائين من العذابِ الأليمِ في دارِ الجحيم.

ويكفيه في ذلك أن يعلمَ أنَّ أولَ مَن تُسَعَّرُ بهم جهنمُ المراؤون.

رابعاً: أن يعلمَ بأنَّ الله يراهُ ويسمعُهُ.

قال تعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١١﴾ [الشورى].

وقال تعالى: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ١٤﴾ [العلق].

خامساً: أن يُذكرَ نفسَهُ بالموتِ والقبرِ والبعثِ والحسابِ والجنةِ والنار.

قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡمَوۡتَ ٱلَّذِي تَفِرُّونَ مِنۡهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمۡۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٨﴾ [الجمعة].

وقال تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ وَكُلٌّ أَتَوۡهُ دَٰخِرِينَ ٨٧﴾ [النمل].

وقال تعالى: ﴿وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ ٢١﴾ [ق].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ (١٠٣) وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ (١٠٤) يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ (١٠٥)﴾ [هود].

سادساً: أن يلجأ إلى الله سبحانه بالدعاء بأن يُجَنِّبَهُ الرياءَ.

فالدعاءُ يَنْفَعُ مما نزل ومما لم ينزل.

ولذلك لما قال رسولُ الله ﷺ: «**أيها الناس اتقوا هذا الشرك فإنه أخفى من دبيبِ النمل**» فقال له من شاءَ الله أن يقول: وكيف نتقيه، وهو أخفى من دبيبِ النملِ يا رسولَ الله؟ قال: «**قولوا: اللَّهمَ إنا نعوذ بك من أن نشركَ بك شيئاً نعلمُه، ونستغفرُك لما لا نعلم**»(١).

سابعاً: أن يعلمَ المسلمُ أنَّ الناسَ لا يغنونَ عنه منَ اللهِ شيئاً:

قال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۚ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۖ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ (١٩)﴾ [الجاثية].

فالناسُ لا ينفعونكَ عند الموت، ولا في القبرِ، ولا يومَ القيامة فكيف تُرائي لهم وتحبُّ ما عندَهم، وما عندَ الله خيرٌ وأبقى، نسألُ اللهَ العظيمَ أن يحفظَنا منَ الرياء وأن يرزقنا الإخلاصَ في القولِ والعملِ والسرِّ والعلن.

---

(١) حسن لغيره: رواه أحمد (٤٠٣/٤)، والطبراني في «الأوسط» (٣٤٧٩)، [«صحيح الترغيب» (٣٦)].

الداءُ الثالثُ الذي يَصيبُ القلوبَ: النفاق

ودواؤهُ: الإيمانُ الصادقُ.

يقولُ اللهُ عز وجل: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الحديد].

ويقولُ ﷺ: «**ما أنزلَ اللهُ داءً إلا أنزلَ له شِفاءً**»(١).

وهذا يَعمُّ أدواءَ (أمراضَ) القلبِ والروحِ والبدنِ وأدويتَها (علاجَها).

فالقلوبُ تمرضُ كما تمرضُ الأبدان، واللهُ عز وجل القادرُ على إحياءِ الأرضِ بعد موتِها قادرٌ على إحياءِ القلوبِ بعد موتِها كذلك.

وموعدُنا في هذا اليومِ إن شاءَ اللهُ تعالى مع الداءِ الثالثِ الذي يُصيبُ القلوبَ ألا وهو: النفاق.

والنفاقُ في الشرع معناهُ: إظهارُ الإسلامِ والخير، وإبطانُ الكفرِ والشرِّ؛ سُمِيَ بذلكَ لأن المنافقَ يدخلُ في الشرعِ من بابٍ، ويخرجُ من بابٍ آخر.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا ﴿١٣٧﴾ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾﴾ [النساء].

(١) **صحيح**: رواه البخاري (٥٦٧٨).

والنفاقُ نوعان: النفاقُ الاعتقاديُّ (القلبيُّ)، والنفاقُ العمليُّ:

النوعُ الأولُ: الاعتقادي (النفاق القلبي):

وهو النفاقُ الأكثرُ الذي يُظهرُ صاحبُهُ الإسلامَ، ويُبطنُ الكفرَ، وهذا النوعُ مُخرِجٌ من الدين بالكلية، وصاحبُهُ في الدَّركِ الأسفلِ من النارِ إن مات على ذلك، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء:١٤٥].

النوعُ الثاني: النفاقُ العمليُّ (النفاقُ الأصغر):

وهو عملُ شيءٍ من أعمالِ المنافقين؛ معَ بقاءِ الإيمانِ في القلبِ، وهذا لا يُخرجُ من الملة؛ ولكنه وسيلةٌ إلى ذلك، وصاحبُهُ يكونُ فيه إيمانٌ ونفاقٌ، وإذا زاد النفاقُ صارَ بسببه منافقاً خالصاً.

قال ﷺ: «**أَربَعٌ مَن كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَن كَانَت فِيهِ خَصلَةٌ مِنهُنَّ كَانَت فِيهِ خَصلَةٌ مِن النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا: إِذَا اؤتُمِنَ خَانَ: وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ: وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ: وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ**»(١) .

فمن اجتمعت فيه هذهِ الخصالُ الأربعُ، فقد اجتمعَ فيه الشر، وَخَلُصَت فيه نعوتُ المنافقين، ومَن كانت فيه واحدةٌ منها صار فيه خَصلَةٌ منَ النفاقِ، فإنه قد يجتمعُ في العبدِ خِصالُ خيرٍ، وخصالُ شَرٍّ، وخصالُ إيمانٍ، وخصالُ كفرٍ ونفاقٍ، ويَستحقُّ منَ الثوابِ والعقابِ بِحَسَبِ ما قامَ به من موجباتِ ذلك.

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري (٣٤)، ومسلم (٥٨) واللفظ للبخاري.

لذلك كان السلفُ من الصحابة ومَن بعدهم يَخشَونَ النفاقَ على أنفسهم، لعلمهم بِدِقّةِ وجلِّهِ، ساءَت ظنونُهم بأنفِسهم حتى خَشوا أن يكونوا من جملةِ المنافقين.

ومن الأمثلة على ذلك:

- قال عمرُ بنُ الخطابِ لحذيفةَ رضي الله عنهما: يا حذيفة! نشدتُكَ بالله، هل سماني لك رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم منهم قال: لا، ولا أُزكي بعدَك أحداً.
- وقال ابنُ أبي مُليكة: (أدركتُ ثلاثينَ من أصحابِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم كُلُّهم يخافُ النفاقَ على نفسِهِ، ما منهم أحدٌ يقول: إنَّ إيمانَه كإيمانِ جبريلَ وميكائيلَ)[1].
- وَرُوِيَ عن معاويةَ بنِ قُرّة قولُه: (أن لا يكونَ فيَّ نفاقٌ أحبُّ إليَّ من الدنيا وما فيها. كان عمرُ رضي الله عنه يخشاه، وآمنُه أنا؟)[2].
- ورُوي عن الحسنِ أنه حلفَ: (ما مضى مؤمنٌ قطُّ ولا بقي إلا وهو من النفاقِ غيرُ آمِنٍ، وما مضى منافقٌ قطُّ ولا بقي إلا وهو من النفاقِ آمِنٌ. وكان يقولُ: من لم يَخفِ النفاقَ فهو منافقٌ)[3].

ورُوي عنِ الأوزاعيِّ قال: سمعتُ بلالَ بنَ سعدٍ يقول: (لا تكن ولياً لله في العلانيةِ، وعدوَّه في السِّر)[4].

---

(١) ذكره البخاري في صحيحه معلقاً (باب خوف المؤمن أن يحبط عمله وهو لا يشعر).

(٢) «صفة النفاق» (٨٦).

(٣) رواه الفريابي في «صفة النفاق» (٨٧).

(٤) رواه أبو نعيم في «الحلية» (٢٢٨/٥).

وعن حنظلةَ الأسديِّ أنه مر به أبو بكرٍ رضي الله عنه وهو يبكي، فقال: (كيف أنت يا حنظلةُ؟ قلتُ: نافقَ حنظلةُ، قال: سُبحانَ اللهِ! ما تقولُ؟ قلتُ: نكونُ عِندَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم يُذَكِّرُنا بالنارِ والجنةِ كأنَّا رأيَ عينٍ، فإذا خرجنا من عِنِد رسولِ الله صلى الله عليه وسلم عَافَسْنا الأزواجَ والأولاد والضَّيعاتِ فنَسينا كثيراً، قال أبو بكرٍ: فواللهِ إنَّا لنلقَى مِثلَ هذا، فانطلقتُ أنا وأبو بكرٍ حتى دخلنا على رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم قلتُ: نافقَ حنظلةُ يا رسولَ الله!

فقال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: «**وما ذاك؟**» قلتُ: يا رسولَ اللهِ! نكونُ عِندَكَ تُذكِّرُنا بالنارِ والجنةِ حتى كأنا رأيَ عينٍ، فإذا خَرَجنا من عندِكَ عافَسنا الأزواجَ والأولادَ والضيعاتِ نسينا كثيراً. فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «**والذي نفسي بيده إن لو تدُومُون على ما تكونون عندي وفي الذِّكرِ؛ لصافَحَتكُمُ الملائكةُ على فُرُشِكُم، وفي طُرُقِكُم، ولكِن يا حنظلةُ ساعةً وساعةً**»(١).

وهذا مما يدلُّ على شدةِ خوفِهم من النفاقِ رضي الله عنهم إلى درجةِ أن ظنوا أنَّ الاسترسالَ في أمورِ دنياهم من النفاقِ.

وكيف لا يخافُ المؤمنُ منَ النفاقِ وقد أخبرَ اللهُ عز وجل في مواضعَ كثيرةٍ من كتابه عن المنافقين الذين ماتَت قلوبُهم بالنفاقِ ماذا فُعِلَ بهم؟

قالَ تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾﴾ [البقرة].

---

(١) **صحيح**: رواه مسلم (٢٧٥٠).

وقــال تعــالى: ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [التوبة].

وقــال تعــالى: ﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا ۚ صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم ﴾ [التوبة:١٢٧].

وقــال تعــالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [المنافقون].

فالنفاقُ مرضٌ خطيرٌ يُصيبُ القلوبَ فيميتُها، وهو خطرٌ على الفردِ وعلى الأمةِ وذلك:

أولاً: لأنَّ المصابينَ بهذا المرضِ وهمُ المنافقونَ أفسقُ الناس.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [التوبة]. والأمةُ إذا انتشرَ فيها الفَسَقَةُ هلكت!

ثانياً: لأن المصابين بهذا المرضِ وهمُ المنافقونَ أكذبُ الناس.

قــال تعــالى: ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾ ﴾ [المنافقون].

والأمةُ إذا انتشرَ فيها الكاذبون هَلَكت:

ثالثاً: لأن المصابين بالنفاقِ تنقلبُ عندهُمُ المفاهيمُ والموازينُ.

فهم يظنون أنهم من المصلحين؛ وهم من المفسدين قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾﴾ [البقرة].

فالمصلحُ يأمرُ بالمعروفِ وينهى عن المنكر، أما المفسدُ فيأمرُ بالمنكرِ، وينهى عن المعروف، وهذا ما يفعلُه المنافقونَ، قال تعالى: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾ [التوبة:٦٧].

رابعاً: لأنَّ المصابينَ بمرضِ النفاقِ مذبذبينَ بينَ الكفرِ والإيمان.

قال تعالى في وصفِ المنافقين: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾﴾ [النساء].

أي: مذبذبين بين الكفر والإيمان، قال تعالى في وصفِ المنافقينَ يومَ أُحد: ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾﴾ [آل عمران].

والنبيُّ ﷺ يصفُ المنافقينَ فيقولُ: «**مَثَلُ المنافِقِ كمثلِ الشاةِ العائِرَةِ بين الغنَمينِ؛ تَعِيرُ إلى هذه مرةً، وإلى هذه مرَّةً**»[1].

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٧٨٤).

خامساً: لأن المصابين بمرض النفاق يتحولون إلى معاولَ هدمٍ للإسلامِ والمسلمين.

قال تعالى لرسوله ﷺ محذراً من المنافقين: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾﴾ [المنافقون].

ولخطرِ المصابينَ بمرضِ النفاقِ وهمُ المنافقون على الإسلامِ والمسلمين، فقد فضحهمُ اللهُ في سورةِ البقرةِ وفي سورةِ آل عمرانَ وفي سورةِ النساءِ وفي سورةِ التوبةِ، وأنزلَ سورةً كاملةً في وصفهم وهي (سورة المنافقون) حتى كادَ القرآنُ كُلُّهُ أن يَنزلَ في وصفِهم وفَضحِهم والتحذيرِ منهم، ولا تتعجَّب من ذلك.

- فَمَن الذين حزَّبوا الأحزابَ في غزوةِ الخندقِ، وأرادوا أن يضربوا المسلمينَ من الداخلِ: ﴿يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾﴾ [الحشر].؟ .. إنهم المنافقون!!

- ومَنِ الذين قالوا في غزوةِ الأحزابِ: ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُواْ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ

يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ [الأحزاب]؟.. إنهم المنافقون!

• ومَنِ الذين قالوا في غزوة بني المصطَلِق: ﴿لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا ۗ وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ [المنافقون]؟..إنهم المنافقون!!

• ومَنِ الذين جاءوا بالإفكِ وتكلَّموا في أمِّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها حِبِّ رسولِ الله ﷺ الطاهرةِ المطهرةِ التي بَرَّأها اللهُ مِن فوقِ سبعِ سمواتٍ؟.. إنهم المنافقون!!

وعلى رأسهم زعيمُهم عبدُ اللهِ بنُ أُبيٍّ بنِ سلولٍ.

• ومَنِ الذين استهزءوا باللهِ وآياتِه ورسولِه وقالوا: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [التوبة]؟..إنهم المنافقون!

• ومَنِ الذين اتخذوا مسجداً ضراراً ليحاربوا الإسلام والمسلمين من خلاله، ويحلفونَ باللهِ كذباً وزوراً إن أردنا إلا الحسنى كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ

وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ [التوبة]؟ ... إنهم المنافقون!

• ومَن الذين لم يخرجوا مع رسولِ اللهِ ﷺ في غزوة تبوك وقالوا: لا تنفروا في الحرِّ كما قال تعالى: ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [التوبة]؟.. إنهم المنافقون.

فالمصابون بمرضِ النفاقِ في قلوبِهم أخطرُ على الإسلامِ والمسلمينَ من الكفارِ واليهودِ والنصارى، ولذلك أعلمَ اللهُ رسولَهُ محمداً ﷺ بأسمائِهم وقالَ له: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [التوبة].

وقال له أيضاً: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [التوبة].

وقال له أيضاً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٩﴾﴾ [التحريم].

فعلى المسلمين حكاماً ومحكومين أن يأخذوا حِذْرَهم من المصابين بمرضِ النفاقِ في قلوبهم وهم المنافقون.

أولاً: لأنهم هم العدُوُّ، كما قال تعالى: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ﴾ [المنافقون:٤٠].

ثانياً: لأنهم رجسٌ، قال تعالى: ﴿فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾ [التوبة:٩٥].

ثالثاً: لأنهم خَوَنَةٌ قال ﷺ: «**آيةُ المنافق ثلاث**» وذكر منها: «**وإذا اؤتمن خان**»(١).

رابعاً: لأن اللهَ عز وجل أمرَ نبيَّه ﷺ بمنعِ مشاركةِ المنافقينَ في الجيش المسلم.

فقال تعالى: ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِىَ عَدُوًّا ﴾ [التوبة:٨٣].

وبيَّنَ ربُّنا جل وعلا لرسوله ﷺ العلةَ من ذلك فقال تعالى: ﴿ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [التوبة].

خامساً: لأنهم بطانةُ شرٍّ يأمرونَ بالمنكرِ ويَنهَون عن المعروف ولا يحبون الخيرَ للمؤمنين.

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ

(١) **متفق عليه:** رواه البخاري (٣٣٤)، ومسلم (٥٩).

﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾ [آل عمران].

وبعدَ أن حَذَّرَ اللهُ عز وجل رسولَهُ والمؤمنين من خطر المنافقين، وبعد أن فضحَ اللهُ المنافقينَ وكَشَفَ أسرارَهم، وأخبر أنهم إن ماتوا منافقين فهم في الدَّركِ الأسفلِ من النار؛ فتحَ أمامهم أبوابَ التوبة على مِصراعيها ليتوبوا من النفاق القلبي، -وهو إبطانُ الكفرِ وإظهارُ الإسلامِ- إلى الإيمانِ الصادق -وهو الإيمانُ ظاهراً وباطناً- فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾﴾ [النساء].

فالدواءُ النافعُ للمصابين بالنفاقِ القلبيِّ هو: الإيمانُ الصادقُ.

اللّٰهمَّ طهِّر قلوبنا من النفاق، وارزقنا الإخلاصَ في القول والعمل.

الداءُ الرابعُ الذي يصيبُ القلوبَ: الجهلُ ودواؤُهُ: العلمُ الشرعي

يقولُ اللهُ عز وجل: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة:١٠].

ويقول سبحانه: ﴿فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب:٣٢].

ويقول ﷺ: «**إن اللهَ لم يُنزل داءً إلا أنزلَ له شفاءً، عَلِمَهُ من علمهُ، وجهلهُ من جهلهُ**»(١).

وهذا يَعمُّ القلوبَ والأبدان.

فالقلوبُ تمرضُ حتى تموتَ، كما يمرضُ البدنُ حتى يموتَ صاحبُه، ومرضُ القلبِ أخطرُ على الإنسانِ من مرضِ البدنِ، وذلك لأنَّ مرضَ البدنِ غايتُهُ أنهُ يُفضي بصاحبِهِ إلى الموتِ، أما مرضُ القلبِ فيُفضي بصاحبِه إلى الشقاءِ الأبديِّ، ولذلك ينبغي على العاقلِ أن يهتمَّ بعلاجِ قلبِه من أمراضِ القلوبِ أكثرَ منَ اهتمامِهِ بعلاجِ بدنِه من أمراضِ الأبدان.

وَالمرضُ الرابعُ الذي يصيبُ القلوبَ هو: الجهلُ.

يقولُ جابرٌ رضي الله عنه: (خَرَجنَا فِي سَفَرٍ، فَأَصَابَ رَجُلاً مِنَّا حَجَرٌ، فَشَجَّهُ فِي رَأسِهِ، ثُمَّ احتَلَمَ، فَسَأَلَ أَصحَابَهُ فَقَالَ: هَل تَجِدُونَ لِي رُخصَةً فِي التَّيَمُّمِ؟ فَقَالُوا: مَا نَجِدُ

(١) **صحيح**: رواه أحمد (١/٤٤٣)، وأبو يعلى (٥١٨٣)، وابن حبان (٦٠٦٢)، والطبراني في «الأوسط» (٧٠٣٦)، [«السلسلة الصحيحة» (١٦٥٠)].

لَكَ رُخصَةً، وَأَنتَ تَقدِرُ عَلَى المَاءِ، فَاغتَسَلَ فَمَاتَ، فَلَمَّا قَدِمنَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ أُخبِرَ بِذَلِكَ، فَقَالَ: «**قَتَلُوهُ؛ قَتَلَهُمُ اللَّهُ، أَلَا سَأَلُوا إِذ لَم يَعلَمُوا؟ فَإِنَّمَا شِفَاءُ العِيِّ السُّؤَالُ**»[(١)].

فَأَخبرَ ﷺ في هذا الحديث أنَّ الجهلَ داءٌ، وأنَّ شفاءَه سؤالُ أهلِ العلم، والسؤالُ مفتاحُ العلم.

والقلوبُ تمرضُ بمرضين اثنين: مرضُ الشهواتِ ومرضُ الشُّبهات، وسَببُهُما الجهلُ؛ فالجهلُ مرضٌ خطيرٌ جداً يُصيبُ القلوبَ فيُمرِضُها ويُميتُها، لذلك حذَّرَ اللهُ عز وجل أنبياءَهُ ورسُلَه وعبادَهُ من هذا المرض، فقال تعالى لنوحٍ عليه السلام: ﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٤٦﴾ [هود:٤٦].

وقال تعالى لرسولِنا ﷺ: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمۡ عَلَى ٱلۡهُدَىٰۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٣٥﴾ [الأنعام].

وأمرَ اللهُ رسولَه أن يُعرضَ عن الجاهلين. فقال تعالى: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ١٩٩﴾ [الأعراف].

أتدرون لماذا حَذَّرَ اللهُ من الجهل؟

---

(١) **صحيح**: رواه أبو داود (٣٣٦)، والدارقطني (٧٢٩)، [«صحيح الجامع» (٤٣٦٢)].

أولاً: لأن المصابَ بمرضِ الجهلِ يكونُ هدفاً سهلاً للشيطان.

فالجهلُ مدخلٌ عظيمٌ من مداخلِ الشيطانِ، ولا نبالغُ إذا قلنا بأنَّ كلَّ مداخلِ الشيطانِ منه تبدأُ، وعليه تعتمدُ، وبه تقوى؛ لأن الجاهلَ لا يعرفُ مداخلَ الشيطانِ فيَسُدَّها، ولا مكائِدَهُ فيُبطِلَها، ولا شِباكَهُ فيتجنبَهَا، فيجتَذبُه الشيطانُ بسهولةٍ، ويتغلبُ عليه بأدنى حيلةٍ.

كما أن الجاهلَ لا يعرفُ الخيرَ منَ الشرِّ، ولا السنةَ من البدعةِ، فربما أوقعَهُ في الشرِّ وهو يحسَبُ أنه خيرٌ، وربما أَوقَعَهُ في البدعةِ وهو يظنُّها سنةً، وبهذا يكونُ من الخاسرين، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الكهف].

وقال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأعراف].

والجهلُ يطمسُ القلبَ ويُعمي البصيرة، وَمِن هنا يكونُ الجاهلُ للشيطان هدفاً فيوجِّهُ إليه سهامَ الشُّبُهات، وسمومَ الشهواتِ، فيُردِيه قتيلَ الهوى، أسيرَ الشهوةِ، فإذا وصلَ إلى تلك الغاية اتخذه الشيطانُ جندياً ينشرُ بهِ الفسادَ في الأرض، ويصدُّ به الناسَ عن الحقِّ، وبهذا يصيرُ من حزبِ الشيطان الخاسرِ.

قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾ [المجادلة].

ومن أمثلةِ هؤلاءِ الذين أُصيبوا بمرضِ الجهلِ فضلوا وأضلوا:

١- الخوارجُ، فرقةٌ ضالةٌ، عندهم شدَّةٌ وغِلظةٌ وجهلٌ، فدخلَ عليهمُ الشيطانُ من مدخلِ الجهلِ فجعلهم:

- ينطلقون إلى آياتٍ من كتاب الله نزلت في الكفارِ، فيجعلونها في المؤمنين، فيكفِّرونهم ويستحِلون دماءَهم.
- وجَعَلهم يقتلون أهلَ الإسلامِ، ويَدَعُونَ أهلَ الأوثانِ.
- وجعلهم يخرجونَ على أميرِ المؤمنينَ عليِّ بنِ أبي طالبٍ ﵁ ويقتلونَهُ.

كيف لا؟

والنبيُّ ﷺ يصفُهم بالجهلِ فيقولُ: «**قومٌ يَقرَؤُونَ القُرآنَ لاَ يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُم، يمرُقون مِنَ الدين مُرُوقَ السَّهمِ مِنَ الرَّمِيَّةِ، يَقتُلُونَ أَهلَ الإِسلاَمِ، وَيَدَعُونَ أَهلَ الأَوثَانِ، لَئِن أَدرَكتُهُم لأَقتُلَنَّهُم قَتلَ عَادٍ**»(١).

وشيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ -رحمه اللهُ- يصفهم فيقولُ: (فهم جُهَّالٌ، فارقوا السنةَ والجماعةَ عن جهلٍ)(٢).

وابنُ حجرٍ رحمه الله يصفهم فيقول: (إنَّ الخوارجَ لما حكموا بكفر مَن خالفهم؛ استباحوا دماءَهم، وتركوا أهلَ الذمةِ، فقالوا: نفي لهم بعهدِهم، وتركوا

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري (٧٤٣٢)، ومسلم (١٠٦٤).

(٢) «منهاج السنة» (٣/٦٤٦)

قتالَ المشركينَ، واشتغلوا بقتالِ المسلمين، وهذا كُلُّه من آثارِ عبادةِ الجُهالِ؛ الذين لم تنشرحْ صدورُهم بنورِ العلم، ولم يتمسكوا بحبلٍ وثيقٍ منه، وكفاهم جهلاً أنَّ رأسَهم ردَّ على رسولِ اللهِ ﷺ أمرَه، ونسبَهُ إلى الجورِ، نسأل اللهَ السلامة)[1].

وبهذا يتبينُ أنَّ الجهلَ كان منَ الصفاتِ البارزةِ في تلك الطائفةِ؛ التي هي إحدى الطوائفِ المنتسبةِ إلى الإسلامِ، فالجهلُ مرضٌ عُضالٌ يُهلِكُ صاحبَه من حيثُ لا يشعرُ، بل قد يريدُ الخيرَ فيقعُ في ضدِّه[2].

٢- الشيعةُ، أجهلُ الناسِ بالكتابِ والسنةِ، دخلَ عليهم الشيطانُ من بابِ الجهلِ فجعلهم يعتقدون أنَّ مَن أحبَّ علياً رضي الله عنه وآلَ البيت دخلَ الجنة بدونِ حساب ولا عذابٍ، ولو كان معهُ من المعاصي ما معه.

ونبيُّنا ﷺ يقول: «**يَا بَنِي هَاشِمٍ! أَنقِذُوا أَنفُسَكُم مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي عَبدِ المُطَّلِبِ! أَنقِذُوا أَنفُسَكُم مِنَ النَّارِ، يَا فَاطِمَةُ! أَنقِذِى نَفسَكِ مِنَ النَّارِ، فَإِنِّي لاَ أَملِكُ لَكُم مِنَ اللَّهِ شَيئًا**»[3].

ودفعُهمُ الجهلُ إلى الغُلوِّ في قضية الإمامةِ فقالوا: (لم نجتمع معهم -أي: أهلِ السنةِ- على إلهٍ ولا نبيٍّ ولا على إمامٍ، وذلك أنهم يقولون: إن ربَّهُم هو الذي كان محمدٌ ﷺ نبيَّه، وخليفتَه بعدَه أبو بكر، ونحن لا نقولُ بهذا الربِّ

(١) «فتح الباري» (١٢/٣٠١).
(٢) «نوادر الأصول» للحكيم الترمذي (ص٥٤).
(٣) **صحيح**: رواه مسلم (٢٠٤).

ولا بذلك النبيِّ، بل نقول: إن الربَّ الذي خليفةُ نبيِّه أبو بكرٍ ليسَ رَبَّنا، ولا ذلك النبيُّ نبيَّنا)[1].

دفعهُمُ الجهلُ إلى الغلوِّ في عليٍّ رضي الله عنه حتى كذَبوا عليه وقالوا: إن علياً قال: (والله لقد كنتُ معَ إبراهيمَ في النارِ، وأنا الذي جعلتُها برداً وسلاماً، وكنتُ مع نوح في السفينةِ وأنجيتُهُ من الغرقِ، وكنتُ مع موسى فَعَلَّمتُهُ التوراة، وكنتُ مع عيسى فأنطقتُهُ في المهد وعلمتُهُ الإنجيل وكنتُ مع يوسفَ في الجُبِّ فأنجيتُهُ من كيدِ إخوتهِ، وكنتُ مع سليمانَ على البساطِ، وسخَّرتُ له الريح)[2].

٣- الصوفيةُ، مِن أجهلِ الناسِ بالشريعةِ الإسلاميةِ، فمن جهلِهم يقولُ بعضُهم: حدَّثَني قلبي عن ربي، ومن جهلِهم أيضاً يقولُ بعضُهم: أنا اللهُ، واللهُ أنا، وليس تحت الجبةِ إلا اللهُ. -تعالى الله عما يقولون- ومن جهلِهم أيضاً أنهم يتقربونَ إلى اللهِ بالطبلِ والرقصِ والغناءِ، وإذا أنكرتَ عليهم قالوا: نذكرُ اللهَ قياماً وقعوداً وعلى جنوبِنا، ويستدلون على هذا الجهلِ بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء:١٠٣]، وهذا من أجهلِ الجهلِ؛ لأنه لم يقل بهِ أحدٌ من أهلِ العلمِ، ولكن هكذا يفعلُ الجهلُ بأهلِه.

---

(١) «الأنوار النعمانية» للجزائري (٢/٢٨٧).

(٢) «الأنوار النعمانية» للجزائري (ص٣١).

ثانياً: لأنَّ المصابَ بمرضِ الجهلِ ينزلُ به هذا المرضُ إلى أخبثِ المنازل.

يقولُ ﷺ: «إنما الدنيا لأربعةِ نفرٍ» ومنهم: «وعبدٍ رزقه اللهُ مالاً ولم يرزقهُ علماً - الغنيُّ الجاهلُ - يخبطُ في مالِه بغيرِ علم، لا يتقي فيه ربَّهُ، ولا يصلُ فيه رَحِمَهُ، ولا يعلمُ للهِ فيه حقاً فهذا بأخبث المنازل، وعبدٍ لم يرزقهُ اللهُ مالاً ولا علماً فهو يقولُ: لو أن لي مالاً لعملتُ فيه بعمل فلانٍ، فهو بنيتِه، فَوِزرُهما سواءٌ»(1).

ثالثاً: لأن المصابَ بمرضِ الجهلِ يقعُ في الشركِ وكبائرِ الذنوبِ، ويظنُّ أنه يُحسنُ صنعاً.

أما بالنسبةِ للشركِ باللهِ.

• فهاهم قومُ موسى قالوا لموسى عليه السلام اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهةٌ، دفعهم إلى ذلك الجهل.

قال تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَآءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ [الأعراف].

• وهاهم كفارُ مكةَ بجهلهم يطلبونَ من رسولِ اللهِ ﷺ أن يعبُدَ آلهتَهم يوماً ويعبدوا إلهه يوماً.

(1) **صحيح لغيره**: رواه الترمذي (٢٣٢٥)، وأحمد (٤/٢٣١)، [«صحيح الترغيب» (١٦)].

قال تعالى: ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [الزُّمَر].

كم من مسلمٍ يقولُ لا إله إلا الله، محمدٌ رسولُ الله، وبسبب الجهل وقعَ في الشركِ الأكبر والأصغر، فمنهم من يدعو غيرَ اللهِ، ومنهم من يطوفُ بالقبورِ، ومنهم من يذبحُ لغيرِ اللهِ، ومنهم من يحلفُ بغيرِ اللهِ، إلى غيرِ ذلكَ من مظاهرِ الشركِ.

أما الفواحشُ كالتبرجِ والزنا واللواط.

• فالتبرجُ فاحشةٌ تقعُ فيها المرأة المصابةُ بمرضِ الجهلِ.

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الأعراف].

والفاحشةُ في الآية هي التبرجُ والعُريُ، فكان الناسُ في الجاهليةِ رجالاً ونساءً يطوفون بالبيت عُراةً، والذي زين لهم ذلك هو الشيطانُ بسببِ جهلِهم، ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ﴾ [الأحزاب:٣٣].

• والزنا فاحشةٌ يقعُ فيها الإنسانُ بسببِ الإصابةِ بمرضِ الجهلِ، والذي زَين له ذلك هو الشيطان.

ولذلك قالَ يوسفُ عليه السلام عندما راوَدَته امرأةُ العزيز والنسوةُ: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [يوسف].

• واللواطُ فاحشةٌ لا يقعُ فيها إلا جاهلٌ.

قال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النمل].

رابعاً: لأنَّ المصابَ بمرض الجهلِ يدفَعُهُ هذا المرضُ إلى الدعوةِ إلى العنصريةِ المنتنة.

قال تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ [الفتح:٢٦].

وقال ﷺ: «**ما بالُ دعوى الجاهلية؟ .. دعوها فإنها منتنة**»(١).

وبسبب الجهلِ انتشرَ في الأمة الإسلاميةِ اليومَ مرضُ التعصبِ المذهبي، والتعصبِ الحزبيِّ، والتعصبِ العنصري، وكلُّ ذلك مِن فعلِ الشيطان، بل سمّى لهم ذلكَ: «الربيعَ العربيَّ» والديمقراطيةَ، والمجتمعاتِ المتحضرةَ وغيرَ ذلك من المسَمَّياتِ التي حذَّر منها الشرعُ، ورسولُنا ﷺ يقول: «**وأنا آمُركمُ بخمسٍ اللهُ أمرني بهن: السمعُ والطاعةُ، والجهادُ والهجرةُ، والجماعةُ، فإنه مَن فارق الجماعةَ قيدَ**

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري (٤٩٠٥)، ومسلم (٢٥٨٤).

شبرٍ فقد خلعَ رِبْقَةَ الإسلامِ من عنقِهِ إلا أن يرجعَ، ومَنِ ادعى دعوى الجاهليةِ فإنه من جُثا جهنم».

فقال رجلٌ يا رسولَ الله! وإن صلى وصام؟

قال: «**وإن صلى وصام، فادْعوا بدعوى اللهِ الذي سماكم المسلمين المؤمنين عبادَ الله**»(١).

وقال ﷺ: «**من قاتل تحتَ رايةٍ عُمِّيَّةٍ يغضبُ لِعَصَبةٍ، أو يدعو إلى عصبةٍ، أو ينصرُ عصبةً فقُتِلَ فقِتلةٌ جاهليةٌ**»(٢).

فالمصابُ بمرضِ الجهلِ تراهُ دائماً يُسارعُ إلى فعلِ الشرِّ، ويُجالسُ الأشرارَ، ولا يميزُ بينَ الحلالِ والحرامِ، ولا بين التوحيدِ والشركِ، ولا بينَ السنةِ والبدعةِ، ولا بين الطيبِ والخبيثِ، وإذا اشتدَّ به المرضُ تراهُ يرى الحقَّ باطلاً، والباطلَ حقاً، وتراهُ يأمرُ بالمنكرِ، وينهى عن المعروف كالمنافقين الذين ماتت قلوبُهم.

قال تعالى في وصفهم: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْۚ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [التوبة].

---

(١) **صحيح**: رواه الترمذي (٢٨٦٣)، وأحمد (٤/ ١٣٠)، [«صحيح الترغيب» (٥)].

(٢) **صحيح**: رواه مسلم (١٨٤٨).

والقلبُ المريضُ بالجهلِ لا شفاءَ لهُ إلا بالعلمِ الشرعيِّ ومجالسةِ العلماء، وذلكَ لسببين:

السببُ الأولُ: أنَّ القلبَ هو محلُّ النياتِ، والنياتُ لا تصلحُ أبداً إلا بالعلمِ الشرعيِّ، ومصاحبةِ العلماء.

السببُ الثاني: أن القلب يمرضُ بمرضين هما: مرضُ الشَّهواتِ، ومرضُ الشبهات ولا علاجَ لهذين المرضين إلا بالعلمِ الشرعي، ومصاحبةِ العلماء.

قال ﷺ: «**ألا سألوا إذ لم يعلموا؟ فإنما شفاءُ العِيِّ**» -أي: الجهلِ- «**السؤالُ**» -أي: العلمُ- ولا يوجدُ هذا الدواءُ -وهو العلمُ الشرعيُّ- إلا في دينِ الإسلام، لأنَّ الإسلامَ هو دينُ العلم، وحسبُكَ دليلاً على ذلك:

أولاً: أن أولَ ما نزلَ من القرآنِ الكريمِ على رسولِ الله ﷺ هو الأمرُ بالعلم.

قال تعالى لرسولِهِ ﷺ: ﴿ٱقۡرَأۡ﴾، وهو أمرٌ بالقراءةِ التي هي وسيلةُ تعلمِ الدين من الوحي، ثم قال له بعد ذلكَ ﴿بَلِّغۡ﴾، وقال: ﴿قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢﴾ فأَمَرُه بالتَّعلُّمِ قبلَ أمره بالإنذارِ والتبليغِ والدعوةِ، فدلَّ ذلك على أن العلمَ مرتبةٌ أولى قبل الدعوةِ والإنذارِ والتبليغِ.

ثانياً: أنَّ اللهَ عز وجل قال لرسوله ﷺ: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ ۝١٩﴾ [محمد].

فدلَّ على أنَّ العلمَ أولاً قبلَ القولِ والعملِ.

ثالثاً: أنَّ اللهَ عز وجل لم يأمرْ رسولَهُ ﷺ أن يَطلُبَ مزيداً من أيِّ شيءٍ إلا منَ العلمِ الشرعي.

قال تعالى لرسولِه ﷺ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا ١١٤﴾ [طه]، ولذلك كان ﷺ إذا صلى الصبحَ وسلمَ يقول: «**اللّٰهم إني أسألُك علماً نافعاً ورزقاً طيباً وعملاً مُتَقَبَّلاً**»[1].

بل أمرَ ﷺ أمتَهُ بذلك فقال: «**سلوا اللهَ علماً نافعاً، وتعوَّذوا باللهِ من علمٍ لا ينفعُ**»[2].

رابعاً: أنَّ الإسلامَ دينٌ يأمرُ بالعلمِ والتفقهِ في الدين.

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةٗۚ فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَحۡذَرُونَ ١٢٢﴾ [التوبة].

وقال ﷺ: «**طلبُ العلمِ فريضةٌ على كلِّ مسلمٍ**»[3].

---

(١) **صحيح**: رواه ابن ماجه (٩٢٥)، والنسائي في «الكبرى» (٩٨٥٠)، وأحمد (٦/٢٩٤)، وعبد بن حميد (١٥٣٣)، [«صحيح ابن ماجه» (٧٥٣)].

(٢) **حسن**: رواه ابن ماجه (٣٨٤٣)، والنسائي في «الكبرى» (٧٨١٨)، وأبو يعلى (١٩٢٧)، وابن حبان (٨٢)، [«السلسلة الصحيحة» (١٥١١)].

(٣) **صحيح**: رواه ابن ماجه (٢٢٤)، والبزار (٩٤)، وأبو يعلى (٢٨٣٧)، والطبراني في «الأوسط» (٩)، [«صحيح الترغيب» (٧٢)].

أما نتائجُ هذا العلاجِ (وهو العلمُ الشرعيُّ) على المسلمِ.

أولاً: يُورثُه الخشيةَ منَ اللهِ في السرِّ والعلنِ.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر:٢٨].

ومن صَلُحت قلوبُهم بالخشيةِ تراهم يسارعون إلى فعلِ الخيراتِ، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ [المؤمنون].

ثانياً: يُحْيي قلبَهُ ويُنيرُ له الطريق.

قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا﴾ -أي: بالجهل- ﴿فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ -أي: بالعلم الشرعي- ﴿وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام:١٢٢].

ثالثاً: يرفعهُ في الدنيا والآخرة.

قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة:١١].

رابعاً: يُثَبِّتُه عند الفتن.

فالفتنةُ إذا عمَّت وماجت، عرفها العالمُ، أما الجاهلُ فلا يعرفُها إلا إذا أدبرت، فعندما افتُتِنَ الناسُ بفتنةِ المالِ عندما خرج عليهم قارونُ في زينتِه قال الذين

أوتـوا العلـم لهـم: ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [القصص].

ونتائجُ هذا العلاجِ (وهو العلم الشرعي) كثيرةٌ وكثيرةٌ جداً. فاحرِص يا عبدَ اللهِ! على العلم الشرعيِّ ومجالسةِ العلماء، ففيها حياةُ القلوبِ، قال لقمانُ لابنِه وهو يَعظُهُ: (يا بُني جالسِ العلماءَ، وزاحِمهُم برُكبَتَيكَ، فإنَّ اللهَ يحيي القلوبَ بنورِ الحكمةِ، كما يحيي اللهُ الأرضَ المَيتَةَ بوابِلِ السماءِ)[1].

(١) رواه ابن المبارك في «الزهد» (١٣٨٧).

الداء الخامسُ الذي يُصيبُ القلوبَ: الكِبرُ
ودواؤهُ: التواضعُ

يقولُ اللهُ عز وجل في كتابه: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (١٦) اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٧)﴾ [الحديد].

ويقول ﷺ: «**تَداوَوا عبادَ الله! فإنَّ الله تعالى لم يضعْ داءً إلا وضعَ له دواءً؛ غيرَ داءٍ واحدٍ، الهرمُ**»(١).

وهذا يَعُمُّ أدواءَ القلبِ والبدنِ وأدويتَها.

فالقلوبُ تمرضُ كما تمرضُ الأبدانُ، ولكنَّ مرضَ القلبِ أخطرُ على الإنسان من مرضِ البدنِ، لأنَّ مرضَ البدنِ يؤدي بصاحِبِه إلى الموت، أما مرضُ القلبِ فيؤدي بصاحِبِه إلى الشقاءِ الأبديِّ، وذلك لأنهُ لا ينجو يومَ القيامةِ من عذابِ اللهِ إلا صاحبُ القلبِ السليم.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩)﴾ [الشعراء].

---

(١) **صحيح**: رواه أبو داود (٣٨٥٥)،وأحمد (٤/٢٧٨)، والطبراني في «الصغير» (٥٥٩)، [«صحيح الجامع» (٢٩٣٠)].

ولذلك ينبغي على العاقلِ أن يهتمَّ بعلاجِ قلبهِ من أمراضِ القلوبِ أكثرَ منَ اهتمامِهِ بعلاج بدنِه من أمراضِ الأبدان.

والداءُ الخامسُ الذي يُصيبُ القلوبَ هو: الكِبْرُ.

الكبرُ مرضٌ خطيرٌ جداً يُميتُ القلبَ فيحرمُ صاحبَه الجنة.

يقولُ ﷺ: «**لا يدخلُ الجنةَ من كان في قلبِهِ مثقالُ ذرةٍ من كِبرٍ**»، قال رجلٌ: إن الرجلَ يُحبُّ أن يكونَ ثوبُهُ حَسَناً، ونعلُهُ حسنةً، قال ﷺ: «**إنَّ اللهَ جميلٌ يُحبُّ الجمالَ، الكبرُ: بَطَرُ الحقِّ، وغمطُ الناسِ**»(١).

فمن هذا الحديث يتبينُ أنَّ الكبرَ داءٌ خطيرٌ يُصيبُ القلبَ فَيُهلِكُ صاحبَهُ، ويحرمُهُ سعادةَ الدنيا والآخرةِ وذلك:

أولاً: لأن الكبرَ يمنعُ صاحبَهُ من قُبولِ الحقِّ.

قال ﷺ في تعريف الكبر: «**الكبرُ: بَطَرُ الحقِّ**».

وبَطَرُ الحقِّ هو: ردُّهُ ودَفعُهُ.

• فالكبرُ هو الذي منعَ إبليسَ من الاستجابةِ لأمر الله.

قال تعالى: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [ص].

(١) صحيح: رواه مسلم (٩١).

• والكبرُ هو الذي منعَ كثيراً من الناسِ أن يستجيبوا لرسلِ اللهِ.

قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةًۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًاۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [الأعراف].

وقال تعالى: ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [العنكبوت].

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [الصافات].

• والكبرُ هو الذي منع كثيراً من الناسِ أن ينتفعوا بآيات الله.

قال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ [الأعراف].

ثانياً: لأنَّ الكبرَ يجعلُ صاحبَهُ يتكبرُ على الخلق.

قال ﷺ في تعريفِ الكبرِ: «**الكبرُ: بَطَرُ الحقِّ، وَغمطِ الناس**»، وغمطُ الناسِ: احتقارُهم والتكبرُ عليهم، وهذا ما وقع فيه إبليسُ عندما أمرهُ اللهُ أن يسجدَ لآدم، فقال عن آدمَ محتقِراً له: ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ۝٦١﴾ [الإسراء]، وقال: ﴿لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝٣٣﴾ [الحِجر]، وقال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ۝٧٦﴾ [ص].

فكانت نتيجةُ تكبُّرِهِ واحتقارِهِ لآدمَ أنْ صغَّرهُ اللهُ ولعنهُ وطَرَدَهُ من جنتِه ورحمتِه.

قال تعالى: ﴿فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ۝١٣﴾ [الأعراف].

وقال له أيضاً: ﴿ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ﴾ [الأعراف:١٨].

وقال له أيضاً: ﴿فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ۝٧٧ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٧٨﴾ [ص].

فالكبرُ مرضٌ خطيرٌ جداً يُصيبُ القلوبَ: فيحرمُ صاحبَهُ سعادةَ الدنيا والآخرة، وانطلاقاً من قوله ﷺ: «**الدينُ النصيحةُ**»(١).

فها أنا أضعُ بينَ أيديكم نتائجَ الإصابةِ بمرضِ الكبرِ على المصاب به في الدنيا والآخرة.

---

(١) **صحيح**: رواه مسلم (٥٥).

أولاً: المتكبرُ (وهو المصابُ بمرضِ الكبرِ) يُطبعُ على قلبه فلا يفقه شيئاً.

قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ۝٣٥﴾ [غافر]، وإذا طُبِعَ على قلبِ الإنسانِ لا يفقهُ شيئاً.

قال تعالى: ﴿فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ۝٣﴾ [المنافقون].

وقال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۝١٦﴾ [محمد].

ثانياً: المتكبرُ الذي مات قلبُهُ بمرض الكبر لا يحبُّهُ الله.

قال تعالى: ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ۝٢٢ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ۝٢٣﴾ [النحل].

ومن لم يحُبَّهُ اللهُ لا يفلحُ أبداً.

ثالثاً: المتكبرُ المصابُ بمرضِ الكبرِ يُعاقبُهُ اللهُ في الدنيا بالعذابِ الأليم.

فبعدَ أن ذكرَ اللهُ المتكبرين في كتابه قال: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝٤٠﴾ [العنكبوت].

وقال ﷺ: «**بينما رجُلٌ يتبخترُ يمشي في بُردَيهِ قد أعجَبَتهُ نفسُهُ فخسَفَ اللهُ به الأرضَ، فهو يَتَجَلجَلُ فيها إلى يومِ القيامة**»(١).

وأَكَلَ رجلٌ بشماله عند رسول الله ﷺ، فقال له: «**كل بيمينك**» قال الرجل: لا أستطيع، فقال ﷺ: «**لا استطعت**» ما منعه إلا الكبر، قال: فما رفعها -يعني يده- إلى فيه(٢).

رابعاً: المتكبرُ المصابُ بمرضِ الكبرِ يُذلُّهُ اللهُ يومَ القيامةِ في أرضِ المحشر.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [السجدة:١٢].

والمتكبر مجرمٌ، قال تعالى: ﴿فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [الأعراف].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّـٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَـٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ۗ﴾ [الشورى:٤٤-٤٥].

والمتكبرُ ظالمٌ، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤١﴾﴾ [الأعراف].

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٠٨٨).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٠٢١).

وقال ﷺ: «**يُحشَرُ المتكبرون يومَ القيامة أمثالَ الذَّرِّ، في صورِ الرجالِ، يَغشاهُمُ الذلُّ من كلِّ مكان**»(١).

خامساً: المتكبرُ والمصابُ بمرض الكبرِ يحرمُهُ اللهُ الجنةَ ويُدخلُه النارَ.

قال تعالى: ﴿قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ٧٢﴾ [الزُّمَر].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ٦٠﴾ [غافر].

وقال ﷺ: «**لا يدخلُ النارَ أحدٌ في قلبِهِ مثقالُ حبةِ خردلٍ من إيمانٍ، ولا يدخلُ الجنةَ أَحدٌ في قلبِهِ مِثقالُ حبَّةِ خردلٍ من كبرياءَ**»(٢).

فانظر كيف جعلَ النبيُّ ﷺ الكبرَ ضِدَّ الإيمانِ، فَذَرَّةٌ من إيمانٍ لا تجتمعُ مع ذرةٍ من كبر.

وقال ﷺ: «**ألا أُخبرُكُم بأهلِ النارِ؟ كُلُّ عُتُلٍّ جوَّاظٍ متكبرٍ**»(٣).

وقال ﷺ: «**تَحَاجَّتِ الجَنَّةُ وَالنَّارُ فَقَالَتِ النَّارُ: أُوثِرتُ بِالمُتَكَبِّرِينَ وَالمُتَجَبِّرِينَ. وَقَالَتِ الجَنَّةُ: فَمَا لِي لاَ يَدخُلُنِي إِلاَّ ضُعَفَاءُ النَّاسِ وَسَقَطُهُم وعَجَزُهُم. قَالَ اللَّهُ**

---

(١) **حسن**: رواه الترمذي (٢٤٩٢)، والنسائي في «الكبرى» (١١٨٢٧)، وأحمد (١٧٩/٢)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٥٥٧)، [«صحيح الترغيب» (٢٩١١)].

(٢) **صحيح**: رواه مسلم (٩١).

(٣) **متفق عليه**: رواه البخاري (٦٠٧١)، ومسلم (٢٨٥٣).

لِلجَنَّةِ: إِنَّمَا أَنتِ رَحمَتِي أَرحَمُ بِكِ مَن أَشَاءُ مِن عِبَادِي. وَقَالَ لِلنَّارِ: إِنَّمَا أَنتِ عَذَابِي أُعَذِّبُ بِكِ مَن أَشَاءُ مِن عِبَادِي. وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنكُمَا مِلؤُها»[1].

وهاهم المتكبرون ومَن تبعهم من الضعفاءِ يندمون في النارِ عندما يرَونَ العذاب.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [سبأ].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾﴾ [غافر].

ولخطورة مرضِ الكبرِ على الإنسان، فهذه رسالةٌ فيها تذكيرٌ وتحذيرٌ؛ أوجِّهُها إلى المصابين بمرضِ الكبرِ، ليهلِكَ من هلك عن بينة، ويحيى من حي عن بينة.

---

(١) **متفق عليه:** رواه البخاري (٤٨٥٠)، ومسلم (٢٨٤٦).

أولاً: أيها المتكبر! اعلم أنَّ الكبرياءَ صفةٌ من صفاتِ الله تعالى وحدَه فمن نازعَهُ فيها عذبَهُ في جهنم.

قال تعالى يصفُ نفسَه: ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ [الجاثية].

وقال تعالى أيضاً: ﴿ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الحشر].

وقال ﷺ: «**قال الله عز وجل: الكبرياءُ ردائِي والعظمةُ إِزَاري فمن نازعني واحداً منهما قذفتُهُ في النار**».

وفي مسلم: «**العِزُّ إزَارُهُ، والكبرياءُ رِدَاؤُهُ، فمن يُنازِعُني عذَّبتُهُ**»(١).

ثانياً: أيها المتكبر! اعرف قَدْرَكَ ولا تتجاوَزْهُ.

أنسيتَ أنك خُلِقتَ من طين!

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [المؤمنون].

أنسيتَ أنك جئتَ من ماءٍ مهين!

قال تعالى: ﴿ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾﴾ [السجدة].

أنسيتَ أنك خرجتَ من مجرى البولِ مرتين! مرةً من جهة أبيك، ومرةً من جهةِ أمِّك.

---

(١) **صحيح**: رواه مسلم (٢٦٢٠).

قال الأحنفُ بن قيس: (عجباً لابن آدم! يتكبرُ وقد خرجَ من مجرَى البول مرتين)(١).

فكيف يا ابنَ آدمَ تتكبرُ وَأَوَّلُكَ نطفةٌ مَذِرَةٌ، وآخرُك جيفةٌ قذِرَةٌ، وأنت بينَ ذلكَ تمشي في بطنكَ العَذَرَةُ، وما أحسنَ قولَ اللهِ تعالى فيك: ﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾﴾ [عبس].

فكيف تتكبرُ يا ابن آدم!

والله عز وجل يقول لك: ﴿وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ وَلَن تَبۡلُغَ ٱلۡجِبَالَ طُولٗا ﴿٣٧﴾﴾ [الإسراء].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ ﴿١٨﴾﴾ [لقمان].

ثالثاً: أيها المتكبر! اعرف عَدُوَّكَ الذي نفخَ فيك الكبرَ.

أنسيتَ أن عدوَّك هو الشيطان!، وقد أمرك اللهُ أن تتخذَهُ عدواً.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾ [فاطر].

(١) رواه ابن أبي الدنيا في «التواضع والخمول» (٢٠٠).

وهو يجري منك مجرى الدمِ، فينفخُ فيك الكبرَ لتهلِكَ، ولذلك أَمَرَنا النبيُّ ﷺ أن نستعيذَ باللهِ، مِن نفخِ الشيطان، قال ﷺ: «**أعوذ بالله السميعِ العليم من الشيطان الرجيم من همزِه ونفخِه ونفثِه**»(١) والنفخُ هو الكبرُ.

الكبرُ مرضٌ خطيرٌ جداً يُصيبُ القلوبَ، وعلاجهُ: التواضع.

وقد فسَّرَ النبيُّ ﷺ الكبرَ (وهو الداء) والتواضعَ (وهو الدواء) تفسيراً عاماً شاملاً واضحاً، يزيلُ كلَّ إشكالٍ، ولا يحتاجُ إلى مقالٍ، فقال حينَ سئل عن الكبر: «**الكبرُ: بَطرُ الحقِّ وغمطُ الناسِ**»(٢).

ومفهومُهُ أنَّ التواضعَ ضدُّهُ، وهو قَبولُ الحقِّ والانقيادُ له، وعدمُ احتقارِ الناسِ، فمَن قَبِلَ الحقَّ وانقادَ له ولم يحتقرْ أحداً، وتواضعَ لعبادِ الله، فهذا هو المتواضعُ للحقِّ وللخلقِ، وهو القائمُ بحقوقِ اللهِ، وحقوقِ الخلق، ومَن بَطِرَ الحقَّ فردَّه ولم ينقدْ له، وغَمَطَ الناسَ فاحتقرَهم وازدراهم بقلبِهِ وقولِه وفعلِهِ، فهذا هو المتكبر(٣).

فاسأل نفسَك يا ابنَ آدم! هل أنتَ ممن يقبلُ الحقَّ وينقادُ له ويتواضعُ لعباد اللهِ؟

---

(١) **صحيح**: رواه الترمذي (٢٤٢)، وأبو داود (٧٧٥)، وأحمد (٣/ ٥٠)، وابن خزيمة (٤٦٧)، [«المشكاة» (٧)].

(٢) **صحيح**: رواه مسلم(٩١).

(٣) «الرياض الناضرة» (١٠٦).

إن كنتَ كذلك فأَبشِر بأنَّ قلبَك طاهرٌ من مرضِ الكبرِ، وإن كنت تردُّ الحقَّ ولا تقبلُه ولا تنقادُ له، وتحتقرُ عباد الله فاعلم أنك مصابٌ بمرضِ الكبرِ، وعليك أن تأخذَ العلاجَ فوراً، وهو التواضع.

فإنَّ اللهَ تعالى أمرَ في كتابه بالتواضعِ، فقال لرسوله ﷺ: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾﴾ [الشعراء].

وامتنَّ على رسولِه ﷺ بنعمة التواضع، فقال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ [آل عمران].

وقد ضربَ رسولُ الله ﷺ لأمته أروعَ الأمثلةِ في التواضع يقول ﷺ: «**إنما أنا عبدٌ، آكُلُ كما يأكلُ العبدُ، وأَجلِسُ كما يجلِسُ العبدُ**»(١).

ويقولُ أنسٌ رضي الله عنه: (كانت الأمَةُ من إماءِ أهلِ المدينةِ لَتأخُذُ بيدِ رسولِ اللهِ ﷺ، فتنطلِقُ به حيثُ شاءت)(٢).

وسُئلت عائشة رضي الله عنها: (ما كان النبيُّ ﷺ يصنعُ في بيتِهِ؟ قالت: كان يكونُ في مهنةِ أهلِهِ -تعني خدمةِ أهلِهِ- فإذا حضرتِ الصلاةُ خرجَ إلى الصلاة)(٣).

---

(١) **صحيح**: رواه أحمد في «الزهد» (١٩) عن عطاء بن أبي رباح، والبيهقي في «الشعب» (٥٥٧٢) عن يحيى ابن أبي كثير، [«السلسلة الصحيحة» (٥٤٤)].

(٢) **صحيح**: رواه البخاري (٦٠٧٢).

(٣) **صحيح**: رواه البخاري (٦٧٦).

ويقول ﷺ: «**ما بَعَثَ الله نبياً إلا رعى الغنم**».

فقال أصحابُهُ: وأنت؟

فقال: «**نعم كنتُ أرعاها على قراريطَ لأهل مكةَ**»(١).

وكان ﷺ يأمرُ بالتواضعِ في خُطَبِهِ ومجالِسِهِ.

يقول ﷺ: «**إن اللهَ أوحى إليَّ أن تواضعوا، حتى لا يفخرَ أحدٌ على أحدٍ ولا يَبغيَ أحدٌ على أحدٍ**»(٢).

ويقول ﷺ: «**ما نقصت صدقةٌ من مالٍ، وما زادَ اللهُ عبداً بعفوٍ إلا عِزاً، وما تواضعَ أحدٌ لله إلا رفعهُ اللهُ**»(٣).

فيا أيها المريضُ بالكبر! تَأَسَّ برسولِ اللهِ ﷺ في تواضعِهِ، واستجب لأمرِهِ، فإنها جرعةٌ كافيةٌ لشفائِك من الكبر بإذن الله.

وهذه جرعةٌ أخرى تشفيك من الكبر بإذنِ اللهِ ألا وهي:

علمُكَ أنَّ الجنةَ أُعِدَّت للمتواضعين الذين طَهُرت قلوبُهم من الكبرِ، قال تعالى: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ ﴾ [الفرقان].

---

(١) **صحيح**: رواه البخاري (٢٢٦٢).

(٢) **صحيح**: رواه مسلم (٢٨٦٥).

(٣) **صحيح**: رواه مسلم (٢٥٨٨).

إلى قولـه تعـالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا ٧٥ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ٧٦﴾ [الفرقان].

ويقول ﷺ: «**لا يدخلُ الجنةَ من كان في قلبه مثقالُ ذرةٍ من كبر**»[1].

فاحرِص أيها المريضُ بالكبرِ على العلاج قبلَ أن تندمَ في وَقتٍ لا ينفعُ فيه الندمُ، فإني واللهِ لكَ لناصحٌ أمينٌ.

أسألُ اللهَ العظيمَ ربَّ العرش العظيم أن يرزقَنا التواضعَ وأَنْ يُعِيذَنا من الكبر.

---

(١) **صحيح**: رواه مسلم (٩١).

الداءُ السادسُ الذي يُصيبُ القلوبَ: الحسدُ ودواؤُه: العقيدةُ الصحيحةُ

القلبُ في الجسدِ كالراعي في رعيتِه، إذا صَلَحَ القلب صَلَحَ الجسدُ كُلُّهُ، وإذا فسدَ، فسدَ الجسدُ كلُّهُ.

قال ﷺ: «**ألا وإنَّ في الجسدِ مضغةً إذا صَلَحَتِ صَلَحَ الجسدُ كلُّهُ وإذا فسدت فسدَ الجسدُ كلُّهُ ألا وهي القلب**»[1].

والقلوبُ في القرآنِ الكريمِ ثلاثةُ أنواع:

الأول: القلبُ السليم:

قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء].

الثاني: القلبُ الميت:

قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزُّمَر:٢٢].

والقلبُ القاسي هو القلبُ الميتُ.

الثالث: القلبُ المريض.

- قال تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة:١٠].

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩).

وهذا هو مرضُ الشُّبهة وهو أخطرُها على القلبِ.

• وقال تعالى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب:٣٢].

وهذا هو مرضُ الشهوةِ.

ولا ينجو يومَ القيامةِ إلا النوعُ الأولُ، وهو صاحبُ القلبِ السليم.

واللهُ عز وجل من رحمتِهِ بعبادِهِ أخبرَهم في كتابِهِ أنه سبحانه كما يحيي الأرضَ بعد موتِها؛ قادرٌ على أن يحييَ القلوبَ بعد موتِها.

قال تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الحديد].

وقال ﷺ: «**ما أنزلَ اللهُ داءً إلا أنزلَ له شفاءً**»(١).

وهذا يَعُمُّ أدواءَ القلبِ والبدنِ وأدويتَها.

وأمراضُ القلوبِ أخطرُ على الإنسانِ من أمراضِ البدنِ، لأنَّ أمراضَ البدنِ غايتُها أنها تُفضي بصاحِبِها إلى الموتِ فقط، أما أمراضُ القلوبِ فإنها تُفضي بصاحبها إلى الشقاءِ الأبدي.

ولذلك ينبغي على العاقِلِ أن يهتمَّ بعلاج قلبِه من أمراضِ القلوبِ أكثرَ منَ اهتمامِهِ بعلاجِ بدنِهِ من أَمراضِ الأبدانِ.

---

(١) **صحيح**: رواه البخاري (٥٦٧٨).

والداءُ السادسُ الذي يصيبُ القلوبَ هو: الحسدُ.

الحسدُ مرضٌ خطيرٌ يُصيبُ القلوبَ فيُفسدُها.

ولذلك قالَ ﷺ: «**لا يجتمعانِ في قلبِ عبدٍ الإيمانُ والحسدُ**»(١).

ولما سُئِلَ ﷺ: أيُّ الناسِ أفضلُ؟

قال: «**كلُّ مخمومِ القلبِ، صدُوقِ اللسانِ**» قالوا: صدوقُ اللسانِ نعرفهُ. فما مخمومُ القلب؟ قال: «**هو التقيُّ النقيُّ. لا إثمَ فيه ولا بغيَ ولا غِلَّ ولا حسدَ**»(٢).

والحسدُ نوعان: حسدٌ محمود، وحسدٌ مذموم.

فالحسدُ المحمودُ: هو حسدُ الغبطةِ، وهو أن يتمنى الإنسانُ أن يكونَ عندَه مثلُ النعمة التي عندَ أخيه، من غيرِ أن يتمنى زوالَ النعمةِ عن أخيه، وهذا لا بأس به، ولا يعابُ صاحبُه وهو قريبٌ من المنافسة.

واللهُ عز وجل يقول: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ (٢٦)﴾ [المطفِّفين].

والتنافسُ يكونُ في أمورِ الآخرةِ وأعمالِ البرِّ يقول ﷺ: «**لا حسدَ إلا في اثنتين: رجلٌ آتاهُ اللهُ القرآنَ فهو يقومُ به آناءَ الليل، وآناءَ النهار، ورجلٌ آتاهُ اللهُ مالاً فهو ينفقُه آناءَ الليلِ، وآناءَ النهارِ**»(٣).

---

(١) **حسن**: رواه النسائي (٣١٠٩)، وابن حبان (٤٦٠٦)، والبيهقي في «الشعب» (٦١٨٥)، [«صحيح الترغيب» (٢٨٨٦)].

(٢) **صحيح**: رواه ابن ماجه (٤٢١٦)، والبيهقي في «الشعب» (٦١٨٠)، [«صحيح الترغيب» (٢٨٨٩)].

(٣) **متفق عليه**: رواه البخاري (٧٥٢٩)، ومسلم (٨١٥).

أما التنافسُ في أمورِ الدنيا فلا خيرَ فيه لأنهُ يؤدي إلى التباغضِ والتحاسدِ والبغي.

يقولُ ﷺ لأصحابه يوماً: «**إذا فُتِحَت عليكُم فارِسُ والرومُ، أيُّ قومٍ أنتم؟**»[1].

قال عبدُ الرحمنِ بنُ عوفٍ رضي الله عنه: نقولُ كما أَمَرَنا اللهُ -أي: نَحمَدُهُ ونشكُرهُ- قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**أوَغيرُ ذلك؟ تتنافسونَ، ثم تتحاسدونَ، ثم تتدابرونَ، ثم تتباغضونَ**»[2].

وهذا كُلُّهُ يؤدي إلى الهلاك.

قال ﷺ لأصحابِهِ يوماً: «**فواللهِ! ما الفقرَ أخشى عليكم، ولكنِّي أخشى عليكم أن تُبسَطَ الدنيا عليكمُ كما بُسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، وتُهلِكَكُم كما أهلَكتهُم**»[3].

ولذلك قالَ بعضُ السلفِ: (مَن نافسني في أمورِ الآخرةِ نافستُهُ، ومن نافسني في أمورِ الدنيا ألقيتُها له).

أما الحسدُ المذمومُ: فهو أن يتمنى الحاسدُ زوالَ النعمةِ من عندِ أخيهِ؛ سواءٌ انتقلَت إليه أم لا وهذا من شرِّ الناسِ، ولذلك أمرَنا اللهُ في كتابه أن نستعيذَ به سبحانه من شرِّ هذا الإنسانِ المريضِ بالحسدِ.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٩٦٢).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٩٦٢).

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٩٦١).

فقال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾ [الفلَق].

وقد رقى جبريلُ عليه السلام رسولَ اللهِ ﷺ من شرِّ هذا النوعِ منِ البشرِ المريضِ بالحسدِ، فقال ﷺ: «**بسمِ اللهِ أَرقيكَ، من كلِّ شيء يؤذيكَ، من شر كل نفسٍ أو عينِ حاسدٍ اللهُ يشفيك، باسمِ اللهِ أرقيك**»(١).

والحسدُ مرضٌ خطيرٌ، وداءٌ عضالٌ أصابَ الأممَ قَبلَنا، وأخبرَنا النبيُّ ﷺ أنهُ سيُصيبُ هذهِ الأمةَ، وأخبرَنا ﷺ أيضاً أن هذا الداءَ وهو الحسدُ سببٌ لكلِّ شر.

قال ﷺ: «**سيُصيبُ أمتي داءُ الأمم**»، فقالوا: يا رسولَ الله! وما داءُ الأممِ، قال ﷺ: «**الأَشَرُ والبَطَرُ والتكاثرُ، والتناجشُ في الدنيا، والتباغضُ والتحاسدُ حتى يكونَ البغيُ**»(٢).

فبعدَ الحسدِ يأتي البغيُ، فالحاسدُ يبغي على المحسودِ، ثم الهرجُ وهو القتلُ.

وقال ﷺ: «**دَبَّ إِلَيكُم دَاءُ الأُمَمِ قَبْلَكُم؛ البَغضَاءُ وَالحَسَدُ، وَالبَغضَاءُ هِيَ الحَالِقَةُ، ليس حَالِقَةُ الشَّعَرِ، وَلكن حالقةُ الدِّينِ، وَالَّذِي نَفسي بِيَدِهِ! لَا تدخلوا الجنةَ حتى تُؤمِنُوا، ولا تؤمنوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَلَا أُنَبِّئُكُم بما يُثَبِّتُ لكم ذلك؟ أَفشُوا السَّلَامَ بَينَكُم**»(٣).

---

(١) **صحيح**: رواه مسلم (٢١٨٦).

(٢) **حسن**: رواه الطبراني في «الأوسط» (٩٠١٦)، والحاكم (٧٣١١)، [«السلسلة الصحيحة» (٦٨٠)].

(٣) **حسن لغيره**: رواه الترمذي (٢٥١٠)، وأحمد (١٦٧/١)، وعبد بن حميد (٩٧)، والطيالسي (١٩٠)، والبزار (٢٢٣٢)، [«صحيح الترغيب» (٢٦٩٥)].

ولما كان الحسدُ سبباً لكلِّ شَرٍّ جاءَ التحذيرُ من هذا المرض، فقال ﷺ: «**إِيَّاكُم وَالظَّنَّ، فَإِنَّ الظَّنَّ أَكذَبُ الحَدِيثِ، وَلاَ تَحَسَّسُوا وَلاَ تَجَسَّسُوا، وَلاَ تَنَافَسُوا وَلاَ تَحَاسَدُوا، وَلاَ تَبَاغَضُوا، وَلاَ تَدَابَرُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخوَانًا**»(١).

وقال ﷺ: «**لاَ تَحَاسَدُوا، وَلاَ تَنَاجَشُوا، وَلاَ تَبَاغَضُوا وَلاَ تَدَابَرُوا، وَلاَ يَبِعْ بَعضُكُم عَلَى بَيعِ بَعضٍ، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخوَانًا، المُسلِمُ أَخُو المُسلِمِ، لاَ يَظلِمُهُ، وَلاَ يَخذُلُهُ، وَلاَ يَحقِرُهُ، التَّقوَى هَا هُنَا**». وَيُشِيرُ إِلَى صَدرِهِ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ «**بِحَسْبِ امرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَن يَحقِرَ أَخَاهُ المُسلِمَ، كُلُّ المُسلِمِ عَلَى المُسلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرضُهُ**»(٢).

وقال ﷺ: «**لا يزالُ الناسُ بخيرٍ مالم يتحاسدوا**»(٣).

فالخيرُ كلُّهُ في تركِ الحسدِ، والشرُّ كُلُّهُ في وجودِ الحسدِ، وما يحدثُ في بلاد المسلمين اليومَ من تباغضٍ وتقاطعٍ وتدابرٍ واختلافٍ واقتتالٍ؛ كلُّهُ بسببِ انتشارِ مرضِ الحسدِ بينهم، ولذلك فهذه نصائحُ أُوَجِّهُها إلى المصابين بمرضِ الحسدِ؛ فيها تذكيرٌ وتحذيرٌ وشفاءٌ بإذنِ اللهِ، ليهلكَ من هلكَ عن بينةٍ، ويحيى مَن حيَّ عن بينة.

أولاً: أيها الحاسدُ المريضُ بمرضِ الحسدِ! اعلم أنك تشبَّهتَ وتخلَّقتَ بأخلاقِ اليهودِ والكفار.

قال تعالى: ﴿ أَمۡ يَحۡسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۖ ﴾ [النساء:٥٤].

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري (٦٠٦٦)، ومسلم (٢٥٦٣).

(٢) **صحيح**: رواه مسلم (٢٥٦٤).

(٣) **حسن**: رواه الطبراني في «الكبير» (٨١٥٧)، [«صحيح الترغيب» (٢٨٨٧)].

وهذا ذمٌ لليهود.

وقال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا﴾ -لم يا ربنا؟- ﴿حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ [البقرة:١٠٩].

وقال تعالى: ﴿وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾﴾ [القلم].

أي: يحسدونك بأعينهم.

ثانياً: أيها الحاسدُ المصابُ بمرضِ الحسدِ! اعلم أنَّ الحسدَ أولُ ذنبٍ عُصِيَ اللهُ به في السماءِ وفي الأرض.

أما في السماءِ؛ فهو حسدُ إبليسَ لآدمَ عندما خلقَهُ اللهُ بيده، ونفخَ فيه من روحِه، وأسجَدَ لهُ ملائكتَه، وأسكنه الجنةَ، فدفعَ الحسدُ إبليسَ إلى أنه لم يستجبْ لأمرِ ربِّه، فكانتِ النتيجةُ أنْ لعنهُ اللهُ، وطردهُ من رحمتِهِ، ومن جنتهِ.

أما في الأرضِ فهو حسدُ قابيلَ لأخيه هابيل.

قال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [المائدة].

فدفعَ الحسدُ صاحبَه إلى جريمةِ القتلِ.

ثالثاً: أيها الحاسدُ المصابُ بمرضِ الحسدِ! أترضى ذلكَ الحسدَ -وهو زوالُ النعمةِ عن أخيك- لنفسِك ولأولادِك؟

أظنُّ أنَّ الجوابَ: لَا، فإذا لم ترضَهُ لنفسِك. فالنبيُّ ﷺ يقولُ: «**لا يؤمنُ أحدُكم حتى يحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسِه**»(١).

رابعاً: أيها الحاسدُ المصابُ بمرضِ الحسدِ! ارضَ بما قسمَ الله لك!

فاللهُ عز وجل هو سبحانه الذي قَدَّرَ كُلَّ شيءٍ، وبيده كلُّ شيء؛ يعطي هذا، ويمنعُ ذاكَ، يُغني هذا، ويُفقرُ ذاك، يرفعُ هذا، ويضعُ ذاك.

قال تعالى: ﴿ **قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ** ﴿٢٦﴾ ﴾ [آل عمران].

وقال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [هود].

وقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ ﴾ [العنكبوت].

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري (١٣)، ومسلم (٤٥).

وقال ﷺ: «اتَّقِ المَحَارِمَ تَكُن أَعبَدَ النَّاسِ، وَارضَ بِمَا قَسَمَ اللَّهُ لَكَ تَكُن أَغنَى النَّاسِ، وَأَحسِن إِلَى جَارِكَ تَكُن مُؤمِنًا، وَأَحِبَّ لِلنَّاسِ مَا تُحِبُّ لِنَفسِكَ تَكُن مُسلِمًا، وَلَا تُكثِرِ الضَّحِكَ فَإِنَّ كَثرَةَ الضَّحِكِ تُمِيتُ القَلبَ»(١).

فأنت أيها الحاسدُ عندما تحسدُ الناس، وتتمنى زوال النعمة عنهم، كأنك تَعترضُ على تقدير الله لعبادِه، وهذا من سوءِ الأدبِ مع اللهِ.

كما قال الشاعر:

يا حاسداً لي على نعمتي ... أتدري على من أسَأتَ الأدب؟
أسَأتَ على اللهِ في حُكمِهِ ... لأنكَ لم ترضَ لي ما وهب
فأخزَاكَ ربي بأن زادَني ... وسَدَّ عليكَ وُجُوهَ الطلَب

خامساً: أيها الحاسدُ المصابُ بمرضِ الحسدِ! أرِح صدرَك، وفكر معي قليلاً!

إذا كانَ المحسودُ الذي تحسدُه وتتمنى أن تزولَ النعمُ من بين يديه إنساناً من أهلِ الجنةِ، فلمَ تحسدُه على أمورِ الدنيا الزائلةِ وهو سائرٌ إلى جنةٍ عرضُها السمواتُ والأرضُ؟

وإذا كان مَن تحسُدُه إنساناً من أهلِ النارِ، فكيفَ تحسدُه على نعيمِ الدنيا الزائلِ وهو يصيرُ إلى عذابٍ أليم؟!

---

(١) **حسن لغيره**: رواه الترمذي (٢٣٠٥)، وابن ماجه (٤٢١٧)، وأحمد (٢/٣١٠)، [«صحيح الترغيب» (٢٥٦٧)].

فيا أيها الحاسدُ! بالعقيدةِ الصحيحةِ والإيمانِ الصادقِ عامةً والإيمانِ بالقضاءِ والقدر خاصةً، تُشفى بإذن الله من مرضِ الحسدِ، وأنصحُكَ بتذكرِ الموتِ والقبرِ والقيامةِ، فإنَّ هذا يزيلُ الحسدَ من قلبك.

قال أبو الدرداء ﷺ: (ما أكثرَ عبدٌ ذِكرَ الموتِ إلا قلَّ فرحُهُ، وقلَّ حسدُهُ)[1].

وقال بعضُ الحكماءِ: (مَن رَضِيَ بقضاءِ اللهِ تعالى لم يُسخِطْهُ أحدٌ، ومَن قَنَعَ بِعَطَائِهِ لم يَدخُلهُ حسدٌ)[2].

الحسدُ مرضٌ خطيرٌ أصابَ الأممَ قبلَنا فأهلكَهم، أخبرنا النبيُّ ﷺ أنهُ سيُصيبُ هذه الأمة، وحَذَّرهم منه وأخبرهم أيضاً أن هذا المرَض يبقى في الأمةِ إلى لحظةِ نزولِ عيسى ابن مريمَ عليه السلام في آخرِ الزمانِ قُبيلَ قيامِ الساعة، فقال ﷺ: «**والله! لينزِلَنَّ ابنُ مريمَ حَكَماً عادِلاً، فليَكسِرَنَّ الصليبَ. وليقتُلَنَّ الخِنزيرَ، وليَضَعَنَّ الجزية**» إلى أن قال ﷺ: «**ولَتَذهَبَنَّ الشحناءُ والتباغضُ والتحاسُدُ**»[3].

فإذا تبينَ لنا أنَّ الحسدَ داءٌ يُصيبُ القلوبَ، وهو موجودٌ في الأمةِ إلى قيامِ الساعةِ.

---

(١) «نضرة النعيم» (١٠/٤٤٢٦).

(٢) «آداب الدنيا والدين» (ص١٧٦).

(٣) **صحيح**: رواه مسلم (١٥٥).

فكيفَ يحمي المسلمُ نفسَهُ من حسدِ الحاسدين؟

أولاً: بالتعوذِ باللهِ عز وجل من شرِّ الحاسد.

قال تعالى: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلۡعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾﴾ [الفَلَق].

ورقى جبريلُ عليه السلام رسولَ اللهِ ﷺ فقال: «**بسمِ اللهِ أَرقيكَ، من كلِّ شيءٍ يؤذيكَ، من شرِّ كلِّ نفسٍ أو عينِ حاسدٍ اللهُ يشفيك، باسمِ اللهِ أرقيك**»(١).

ثانياً: بالعقيدةِ الصحيحةِ والتوحيدِ الخالص.

قال ﷺ لابن عباسٍ رضي الله عنهما: «**يَا غُلَامُ! إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ: احفَظِ اللَّهَ يَحفَظْكَ، احفَظِ اللَّهَ تَجِدهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلتَ فَاسأَل اللَّهَ، وَإِذَا استَعَنتَ فَاستَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَو اجتَمَعَت عَلَى أَن يَنفَعُوكَ بِشَيءٍ لَم يَنفَعُوكَ إِلَّا بِشَيءٍ قَد كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَو اجتَمَعُوا عَلَى أَن يَضُرُّوكَ بِشَيءٍ لَم يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيءٍ قَد كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيكَ، رُفِعَت الأَقلَامُ، وَجَفَّت الصُّحُفُ**»(٢).

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢١٨٦).

(٢) صحيح: رواه الترمذي (٢٥١٦)، وأحمد (١/٢٩٣)، وأبو يعلى (٢٥٥٦)، والطبراني في «الأوسط» (٥٤١٧)، [«صحيح الجامع» (٧٩٥٧)].

ثالثاً: بالتوكل على اللهِ وحدَهُ:

فمن توكلَ على اللهِ فهو حسبُه وهو كافيه.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ٣﴾ [الطلاق].

أي: كافيه وحافظُه.

وقال تعالى: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ٣٦ وَمَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّۗ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٖ ذِي ٱنتِقَامٖ ٣٧ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلۡ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلۡ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوۡ أَرَادَنِي بِرَحۡمَةٍ هَلۡ هُنَّ مُمۡسِكَٰتُ رَحۡمَتِهِۦۚ قُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُۖ عَلَيۡهِ يَتَوَكَّلُ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ٣٨﴾ [الزُّمر].

رابعاً: بالتوبةِ النَّصوحِ من كلِّ المعاصي والذنوب.

فالمعاصي هي سببٌ لكلِّ مصيبة.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ [الشورى: ٣٠].

وقال عليٌّ رضي الله عنه: (ما نزل بلاءٌ إلا بذنب، ولا يُرفعُ إ لا بتوبة).

فإذا حسدَك حاسدٌ فاعلمْ أنَّ هذا بذنبٍ ارتكَبتَه فَتُبْ إلى الله تعالى.

خامساً: بالإحسان إلى الحاسد.

وهذا من أصعبِ الأسبابِ على النفسِ وأَشقِّها عليها، ولا يُوفَّقُ له إلا مَن عَظُمَ حَظُّهُ منَ اللهِ، فكلما ازدادَ الحاسدُ لك أذىً وشراً وبغياً وحسداً، ازددت إليه إحساناً، وله نصحاً، وعليه شفقةً.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾ [فُصِّلَت].

سادساً: كِتمانُ النعم:

لقوله ﷺ: «**استعينوا على إنجاح الحوائج بالكتمان، فإنَّ كلَّ ذي نعمةٍ محسودٌ**»(١).

اللَّهم احفَظنا بحفظِكَ من كيدِ الكائدين، وحسدِ الحاسدِينَ، فأنتَ وليُّ ذلكَ والقادرُ عليه.

---

(١) **صحيح**: رواه الطبراني في «الأوسط»(٢٤٥٥)، والروياني (١٤٤٩)، والبيهقي في «الشعب» (٦٢٢٨)، [«صحيح الجامع» (٩٤٣)].

الداءُ السابعُ الذي يُصيبُ القلوبَ: القسوةُ ودواؤُهُ: اللِّين

يقولُ اللهُ عز وجل: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ
مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ
رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ
يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا
عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ
عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ
﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ
إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ
وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ
حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ
﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا
فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى
ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ [ق].

في هذه الآياتِ يُخبرُكَ اللهُ يا ابنَ آدم أنه خلقك لعبادتِهِ، ووضَعك تحتَ رقابةٍ شديدةٍ، وأخبركَ أنهُ مهما طالَ بك العمرُ فإنك ميت، وبعدَ الموتِ قبرٌ وبعثٌ

ونشورٌ وحسابٌ، ثم بعدَ الحسابِ إما إلى الجنةِ وإما إلى النارِ، وأَخبرَك أن الفائزَ السعيدَ يومَ القيامة مَن لَقِيَ اللهَ بقلبٍ منيبٍ سليمٍ طاهرٍ من كلِّ الأمراض.

فعلى العاقلِ أن يعملَ ليلاً ونهاراً لطهارةِ قلبهِ من أمراض القلوب، فإن القلوبَ تمرضُ حتى تموتَ، ومرضُ القلبِ يفضي بصاحِبِه إلى الشقاءِ الأبدي.

وانطلاقاً من قولِهِ ﷺ: «**الدينُ النصيحةُ**»(١).

ومن قولِه ﷺ: «**ما أنزل اللهُ داءً إلا أنزل له شفاءً**»(٢).

فمعَ الداءِ السابعِ الذي يُصيبُ القلوبَ هو: القسوة.

والدواءُ النافعُ لهذا الداءِ هو: اللِّين.

وقد جمعَ اللهُ عز وجل بينَ هذا الداءِ (القسوة) والدواءِ (اللِّين) في قولِه تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الزُّمَر:٢٢-٢٣].

والقسوةُ: غِلَظُ القلبِ وشدتُهُ، وأصلُ ذلكَ من الحجرِ القاسي، قال تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ أي: من بعد ما أراهم من إحياء الموتى: ﴿فَهِىَ

(١) **صحيح**: رواه مسلم (٥٥).

(٢) **صحيح**: رواه البخاري (٥٦٧٨).

كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ ثم عَذَرَ اللهُ الحجارةَ فقال: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٧٤].

فالقلبُ القاسي أقسى من الحجر.

والقسوةُ في القلبِ ذهابُ اللِّين والرحمةِ والخشوعِ منه.

والقسوةُ تزيلُ النِّعم، وتُحِلُّ النِّقَم.

وصاحبُ القلبِ القاسي الغليظِ بعيدٌ من اللهِ، بعيدٌ من الناسِ، سُرعانَ ما يَنفَضُّ الناسُ من حولهِ، ولذلك بَرَّأَ ربُّنا جل وعلا رسولَهُ محمداً ﷺ من هذا المرض.

فقال تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ [آل عمران].

يقولُ مالك بنُ دينارٍ رحمه الله: (ما ضُرِبَ عبدٌ بعقوبةٍ أعظمَ من قسوةِ قلبٍ، وما غَضِبَ اللهُ على قومٍ إلا نزعَ الرحمةَ من قلوبهم)(١).

كيف لا؟

(١) «تفسير القرطبي» (١/١٦١).

واللهُ عز وجل توعَّدَ أصحابَ القلوبِ القاسيةِ بالعذابِ والويل في نار جهنم.

قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزُّمَر:٢٢]، وأصحابُ القلوبِ القاسيةِ أسرعُ الناسِ إلى الفتنِ، قال تعالى: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج:٥٣].

ولقسوةِ القلوبِ أسبابٌ منها:

السببُ الأولُ: طولُ الأمد:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحديد:١٦].

وذَكرَ العلماءُ وجوهاً في تفسير طول الأمد:

منها: طالتِ المدةُ بينهم وبين أنبيائِهم فقست قلوبهم.

ومنها: مالوا إلى الدنيا وأعرضوا عن مواعظِ الله.

ومنها: طالت أعمارُهم في الغفلة فحصلت القسوةُ في قلوبِهم بذلك السبب.

ومنها: طال عليهم الأمدُ بطولِ الأملِ، أي: طالت آمالُهم، فقست قلوبُهم.

واللهُ عز وجل في هذه الآيةِ ينهى المؤمنينَ أن يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبلُ في انشغالهم في الدنيا، وإِعراضِهم عن المواعظِ فتقسو قلوبُهم.

السبب الثاني: نقضُ العهدِ والميثاق:

قال تعالى عن بني إسرائيل: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾ [المائدة:١٣].

السبب الثالث: الغفلةُ عن ذكرِ الله:

قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الزُّمَر].

السبب الرابع: المعاصي والذنوب:

قال ﷺ: «**إن العبدَ إذا أخطأ**» -أي: أذنب- «**نُكِتت في قلبه نكتةٌ سوداءُ، فإن هو نزع واستغفر وتاب؛ صُقِلَ قلبُه، وإن عاد زِيدَ فيها، حتى تعلُوَ على قلبه، وهو الران الذي ذكر الله تعالى:** ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطفِّفين]»(١).

السبب الخامس: كثرةُ الضحك:

قال ﷺ: «**لا تكثرِ الضحكَ، فإن كثرةَ الضحكِ تميتُ القلبَ**»(٢).

---

(١) **حسن**: رواه الترمذي (٣٣٣٤)، وابن ماجه (٤٢٤٤)، وأحمد (٢/٢٩٧)، [«صحيح الجامع» (١٦٧٠)].

(٢) **حسن لغيره**: رواه الترمذي (٢٣٠٥)، وابن ماجه (٤٢١٧)، وأحمد (٨٠٨١)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٢٥٢)، [«صحيح الترغيب» (٢٣٤٩)].

فكيف تُلِيِّنُ قَلبَكَ القاسي؟

أولاً: بذكرِ اللهِ عامةً وبتلاوةِ القرآنِ خاصةً:

قال تعالى: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزُّمَر:٢٣].

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد].

وقال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء].

فبذكرِ اللهِ وقراءةِ القرآنِ يَحيَى القلبُ، فيحيى صاحبُهُ، وبالغفلةِ عن ذكر الله يقسو القلبُ، فيموتُ صاحبُه.

قال ﷺ: «**مثلُ الذي يذكرُ ربَّه، والذي لا يذكرُ ربَّه، مَثَلُ الحيِّ والميت**»(١).

ثانياً: بإطعامِ المسكينِ، ومسحِ رأسِ اليتيم:

عن أبي هريرةَ رضي الله عنه أن رجلاً شكا إلى رسولِ الله ﷺ قسوةَ قلبِه، فقال له: «**إن أردتَ تَليينَ قلبِكَ فأطعمِ المسكينَ، وامسَحْ رأسَ اليتيم**»(٢).

وقال ﷺ: «**ارحمِ اليتيمَ، وامسحْ على رأسِه، وأَطعمْه من طعَامِك، يَلِنْ قلبُك، وتدركْ حاجتَك**»(٣).

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري(٦)، ومسلم(٧٧٩).

(٢) حسن: رواه أحمد (٢/٢٦٣)، والبيهقي في «الشعب» (١٠٥٢٣)، «السلسلة الصحيحة»(٨٥٤)].

(٣) حسن لغيره: رواه الطبراني في «الكبير» كما في «مجمع الزوائد» (٨/١٦٠)، ومعمر (٢٠٠٢٩)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/٢١٤)، [«صحيح الترغيب» (٢٥٤٤)].

وقال داودُ عليه السلام: «**كن لليتيم كالأبِ الرحيم، واعلمْ أنك كما تزرَعُ كذلك تحصدُ**»(١).

ثالثاً: بالإكثار من ذكرِ الموتِ والقبرِ والقيامة:

قال ﷺ: «**أكثِروا من ذِكرِ هاذمِ اللذاتِ: الموت**»(٢).

وقال ﷺ: «**أيها الناس! اذكروا اللهَ! اذكروا اللهَ! جاءتِ الراجفةُ تتبعُها الرادفةُ، جاء الموتُ بما فيه، جاءَ الموتُ بما فيه**»(٣).

ويقول جبريلُ عليه السلام لرسولِنا ﷺ: «**يا محمد! عش ما شئتَ فإنك ميتٌ، وأحبِب من شئتَ فإنك مفارقُه، واعملْ ما شئتَ فإنك مَجزيٌّ به**»(٤).

فَمَنْ أكثرَ من ذكرِ الموتِ لانَ قلبُهُ.

أما القبرُ؛ فيقولُ ﷺ: «**كنتُ نهيتُكم عن زيارةِ القبورِ ألا فزوروها؛ فإنها ترقِّقُ القلبَ، وتُدْمعُ العينَ، وتُذَكِّرُ الآخرةَ**»(٥).

---

(١) **صحيح**: رواه البخاري في «الأدب المفرد»(١٣٨)، والبيهقي في «الشعب» (١٠٥٢٨)، [«صحيح الأدب المفرد»]

(٢) **حسن صحيح**: رواه الترمذي (٢٣٠٧)، وابن ماجه (٤٢٥٨)، والنسائي (١٨٢٤)، وأحمد (٢/٢٩٢)، [«صحيح الترغيب» (٣٣٣٣)].

(٣) **حسن صحيح**: رواه الترمذي (٢٤٥٧)، وأحمد (٥/١٣٦)، وعبد بن حميد (١٧٠)، [«صحيح الترغيب» (١٦٧٠)].

(٤) **حسن لغيره**: رواه الطبراني في «الأوسط» (٤٢٧٨)، والحاكم (٧٩٢١)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣/٢٥٣)، [«صحيح الترغيب» (٦٢٧)].

(٥) **صحيح**: رواه أحمد (٣/٢٣٧)، وأبو يعلى (٣٧٠٧)، والحاكم (١٣٩٣)، [«صحيح الجامع» (٤٥٨٤)].

أما القيامة؛ يقول الله عز وجل في وصفِ الذين يذكرون القيامةَ، ويستعدون للقاءِ ربِّهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ [المؤمنون].

فمن أكثرَ منْ ذكرِ الموتِ والقبرِ والقيامةِ لان قلبُهُ، وسارعَ إلى الخيرات، ومَن نسيَ الموتَ والقبرَ والقيامةَ قَسى قلبُهُ، وسارعَ إلى المنكراتِ، وهذا هو حالُ الكثيرِ من الناسِ إلا من رحم ربي.

قال تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّن رَّبِّهِم مُّحۡدَثٍ إِلَّا ٱسۡتَمَعُوهُ وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةٗ قُلُوبُهُمۡۗ﴾ [الأنبياء:١-٣].

وكما قال القائل:

أمـــا والله لـــو علـــم الأنـــامُ ... لِمـــا خُلقـــوا لمـــا هجعـــوا ونـــاموا
لقـــد خُلقـــوا لأمـــرٍ لـــو رَأَتْـــهُ ... عيـــونُ قلـــوبهم تـــاهوا وهـــاموا
ممـــاتٌ ثـــم قـــبرٌ ثـــم حـــشرٌ ... وتـــوبيخٌ وأهـــوالٌ عظـــامُ
ليـــومِ الحـــشرِ قـــد عملـــت رجـــالٌ ... فَـــصَلُّوا مـــن مخافتـــه وصـــاموا
ونحـــنُ إذا أُمِرْنـــا أو نُهينـــا ... كأهـــلِ الكهـــفِ أيقـــاظٌ نيـــامُ

رابعاً: بالعلم الشرعي:

إذا أردت أن يلينَ قلبُك؛ فعليك بالعلمِ الشرعيِّ؛ علمِ الكتابِ والسنةِ بفهمِ سلفِ الأمة.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر:٢٨].

وقال تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُواْ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾ [الحج].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾﴾ [الإسراء].

ولذلك لم يأمرْ ربُّنا جلَّ وعلا رسولَهُ أن يسألَه المزيدَ إلا منَ العلمِ، فقال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ [طه].

ولذلك كان ﷺ يُكثرُ من دعاءِ: «**اللَّهم إني أسألُك علماً نافعاً ورزقاً طيباً وعملاً مُتقَبَّلاً**»(١).

القسوةُ مرضٌ خطيرٌ يُصيبُ القلوبَ ودواؤهُ اللِّين.

واللينُ هو: سُهُولةُ الانقيادِ للحقِّ، والتلطفُ في معاملةِ الخلقِ، وعند التحدثِ إليهم.

يقول ﷺ: «**ألا أُخبِرُكمُ بمن يَحرُمُ على النارِ، أو بمن تَحرُمُ عليه النارُ؟ على كلِّ قريبٍ هينٍ سِهلٍ**»(١).

---

(١) **صحيح**: رواه ابن ماجه (٩٢٥)، والنسائي في «الكبرى» (٩٨٥٠)، وأحمد (٦/ ٢٩٤)، وعبد بن حميد (١٥٣٣)، [«صحيح ابن ماجه» (٧٥٣)].

ففي الحديثِ يخبرُنا النبيُّ ﷺ أن النارَ حَرُمت على كلِّ هيِّنٍ ليِّنٍ، ومفهومُ المخالفةِ أنها لم تحرُمْ على ذي القلب القاسي، وفي هذا ترغيبٌ في اللِّينِ، وترهيبٌ من القسوة.

واللِّينُ ينقسمُ بحسبِ ما يُضافُ إليه إلى:

١- **لينُ القولِ**، ويعني التلطُفَ في الحديثِ مع الناسِ، وأكثرُ ما يكونُ ذلك مرغوباً في مجالِ الدعوةِ إلى الله عز وجل، قال تعالى لموسى وهارون عندما أرسلهما إلى فرعون: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ [طه].

وعن أبي موسى الأشعريِّ رضي الله عنه: أن النبيَّ ﷺ بعثَهُ ومعاذاً إلى اليمنِ، فقال: «**يسِّرا ولا تُعسِّرا، وبشِّرا ولا تُنفِّرا، وتطاوَعا ولا تختلِفا**»(٢).

٢- **لينُ القلبِ**، ويعني رقَّتَهُ وخشيَتَهُ من الله عز وجل، وأكثرُ ما يكونُ ذلك عند سماع القرآن.

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الزُّمَر].

---

(١) **صحيح لغيره**: رواه الترمذي (٢٤٨٨)، [«صحيح الترغيب» (١٧٤٤)].

(٢) **متفق عليه**: رواه البخاري (٤٣٤٤)، ومسلم (١٧٣٣)

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾ [الأنفال].

٣- **لينُ المعاملةِ**، ويعني الرفقَ في معاملة الخلق. وهذا رسولُنا ﷺ يضربُ لنا أروعَ الأمثلةِ.

• في الرفقِ مع المقصرين الذين تولَّوا من المعركةِ يومَ أُحد.

قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ [آل عمران].

• في السماحةِ، في البيعِ والشراءِ، والتقاضي والقضاء.

عن جابرِ بنِ عبدِ الله رضي الله عنهما قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: «**رَحِمَ اللهُ عبداً سَمحاً إذا باعَ، سَمحاً إذا اشترى، سَمحاً إذا اقتَضى**»(١).

عَن رِبعِيِّ بنِ حِراشٍ رضي الله عنه قَالَ: اجتَمَعَ حُذَيفَةُ وَأَبُو مَسعُودٍ رضي الله عنهما، فَقَالَ حُذَيفَةُ: (رَجُلٌ لَقِيَ رَبَّهُ، فَقَالَ: مَا عَمِلتَ؟ قَالَ: مَا عَمِلتُ مِنَ الخَيرِ، إِلَّا أَنِّي كُنتُ رَجُلاً ذَا مَالٍ، فَكُنتُ أُطَالِبُ بِهِ النَّاسَ، فَكُنتُ أَقبَلُ المَيسُورَ، وَأَتَجَاوَزُ عَنِ المَعسُورِ، فَقَالَ: تَجَاوَزُوا عَن عَبدِي)، قَالَ أَبُو مَسعُودٍ: هَكَذَا سَمِعتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ(٢).

في الحِلمِ عن الجاهلِ، والرفقِ واللينِ في تعليمِه.

---

(١) **صحيح**: رواه البخاري (٢٠٧٦).

(٢) **صحيح**: رواه مسلم (١٥٦٠).

عن معاويةَ بنِ الحكمِ السُّلَميِّ رضي الله عنه قال: (بينَا أنا أصلي معَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم إذْ عطسَ رجلٌ من القوم. فقلت: يرحمُك اللهُ! فرماني القومُ بأبصارهم. فقلت: واثَكلَ أُمِّياه! ما شأنكم تنظرونَ إليَّ؟ فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذِهم. فلما رأيتُهم يُصْمتونني. لكني سكتُّ. فلما صلى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم. فبأبي هو وأمي! ما رأيتُ معلماً قبلَه ولا بعدَه أحسنَ تعليماً منه. فواللهِ ما كهرني ولا ضربني ولا شتمني. قال: «**إنَّ هذه الصلاةَ لا يصلحُ فيها شيءٌ من كلامِ الناس، إنما هو التسبيحُ والتكبيرُ وقراءةُ القرآنِ**»[(١)]).

فمن لانَ قلبُهُ لانَ قولُهُ، ولانَ عملُهُ، ولان تعاملُهُ مع الناس، فكان قريباً منَ الله، وقريباً من الناسِ.

وفازَ بالجنةِ، ونجامن النارِ.

قال صلى الله عليه وسلم: «**إنَّ في الجنةِ غُرَفاً يُرَى ظاهِرُها من باطِنِها، وباطِنُها من ظَاهِرِها**».

فقال أبو موسى الأشعريُّ: لمن هي يا رسولَ الله؟

قال: «**لمن ألانَ الكلامَ، وأطعمَ الطعامَ، وباتَ للهِ قائماً والناسُ نيام**»[(٢)].

وقال صلى الله عليه وسلم: «**من كانَ هيناً ليناً قريباً؛ حَرَّمَهُ اللهُ على النارِ**»[(٣)].

فمن لانَ قلبُه سعدَ في الدنيا والآخرةِ.

---

(١) **صحيح**: رواه مسلم (٥٣٧).

(٢) **حسن صحيح**: رواه أحمد (٢/١٧٣)، والطبراني في «الكبير» (١٠٣)، والحاكم (٢٧٠)، [«صحيح الترغيب» (٢٦٩٢)].

(٣) **صحيح لغيره**: رواه أبو يعلى (٥٠٦٠)، وابن حبان (٦٤٩)، والحاكم (٤٣٥)،[«صحيح الجامع» (١٧٤٥)].

الداءُ الثامنُ الذي يُصيبُ القلوبَ: شهوةُ الفرجِ (الزنا) ودواؤُهُ: الاستعفاف

قالَ ﷺ: «**إنَّ الله لم يُنزلْ داءً إلا أنزلَ له شفاءً، عَلِمَهُ من علمَهُ وجَهِلهُ من جَهله**»(١).

وهذا يَعمُّ أمراضَ القلوبِ وأدويتَها، فالقلوبُ تمرضُ كما تمرضُ الأبدانُ، وأمراضُ القلوبِ أخطرُ على الإنسانِ من أمراضِ الأبدانِ، وذلك لأنَّ مرضَ البدنِ غايتُهُ أنهُ يُفضي بصاحبِهِ إلى الموت، أما مرضُ القلب فإنهُ يُفضي بصاحبِهِ إلى الشقاءِ الأبدي.

والقلوبُ تمرضُ بمرضين: مرضِ الشهوات، ومرضِ الشُّبهات وقد يمرضُ الإنسانُ بهذين المرضين معاً، وقد يمرَضُ بأَحَدِهما.

والمرضُ الثامِنُ الذي يُصيبُ القلوبَ، وهو مرضٌ من أمراضِ الشهوات، ألا وهو: مرضُ شهوةِ الفرجِ (الزنا).

قال تعالى للنساءِ عامةً ولنساءِ النبيِّ ﷺ خاصةً: ﴿**فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ**﴾ [الأحزاب:٣٢].

(١) **صحيح**: رواه أحمد (١/٤٤٣)، وأبو يعلى (٥١٨٣)، وابن حبان (٦٠٦٢)، والطبراني في «الأوسط» (٧٠٣٦)، [«السلسلة الصحيحة» (١٦٥٠)].

وهذا المرضُ هو: مرضُ شهوةِ الفرجِ (الزنا).

وشهوةُ الفرج (الزنا) يسعى إليها ويبحثُ عنها مريضُ القلبِ، ومنَ الأَمثلةِ على ذلك:

المثالُ الأولُ: عَن أَبِي أُمَامَةَ قَالَ: (إِنَّ فَتًى شَابًّا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ! ائذَن لِي بِالزِّنَا فَأَقبَلَ القَومُ عَلَيهِ فَزَجَرُوهُ، وقَالُوا: مَه مَه!

فَقَالَ ﷺ: «**ادنُه**» فَدَنَا مِنهُ قَرِيبًا، قَالَ: «**فَاجْلِسْ**»، قَالَ ﷺ: «**أَتُحِبُّهُ لِأُمِّكَ؟**» قَالَ: لَا وَاللَّهِ، جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ!

قَالَ ﷺ: «**وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأُمَّهَاتِهِم**».

قَالَ: «**أَفَتُحِبُّهُ لِابنَتِكَ؟**» قَالَ: لَا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ! جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ. قَالَ: «**وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِبَنَاتِهِم**».

قَالَ: «**أَفَتُحِبُّهُ لِأُختِكَ؟**» قَالَ: لَا وَاللَّهِ، جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ. قَالَ: «**وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأَخَوَاتِهِم**».

قَالَ: «**أَفَتُحِبُّهُ لِعَمَّتِكَ؟**» قَالَ: لَا وَاللَّهِ، جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ. قَالَ: «**وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِعَمَّاتِهِم**».

قَالَ: «**أَفَتُحِبُّهُ لِخَالَتِكَ؟**» قَالَ: لَا وَاللَّهِ، جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ. قَالَ: «**وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِخَالَاتِهِم**».

قَالَ: فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيهِ، وَقَالَ: «**اللَّهُمَّ اغفِرْ ذَنبَهُ، وَطَهِّرْ قَلبَهُ، وَحَصِّنْ فَرجَهُ**» فَلَم يَكُن بَعدَ ذَلِكَ الفَتَى يَلتَفِتُ إِلَى شَيءٍ)(١).

---

(١) صحيح: رواه أحمد (٥/٢٥٦)، والطبراني في «الكبير» (٧٦٧٩)، والبيهقي في «الشعب» (٥٠٣٢)، [«السلسلة الصحيحة» (٣٧٠)].

فهذا شابٌّ مريضٌ بمرضِ شهوةِ الفرج، ولكنهُ عندما ذَكَّرهُ رسولُ الله ﷺ ودعا له شُفِيَ من مرضه، فلم يلتفتْ إلى الزنا مرةً أخرى.

المثالُ الثاني: يقولُ ﷺ: «**انطَلَقَ ثَلَاثَةُ نفرٍ مِمَّن كَانَ قَبلَكُم حَتَّى آواهمُ المَبِيتُ إِلَى غَارٍ فَدَخَلُوهُ، فَانحَدَرَت صَخرَةٌ مِن الجَبَلِ فَسَدَّت عَلَيهِم الغَارَ؛ فَقَالُوا: إِنَّهُ لَا يُنجِيكُم مِن هَذِهِ الصَّخرَةِ إِلَّا أَن تَدعُو اللهَ بِصَالِحِ أَعمَالِكُم**».

فَقَالَ أحدُهم: «**اللَّهُمَّ إنه كَانَت لِي ابنةُ عَمٍّ كَانَت أَحَبَّ النَّاسِ إِلَيَّ** -وفي رواية: **كنتُ أحبُّها كأشدِّ ما يُحِبُّ الرجالُ النساء**- **فَأَرَدتُهَا عَن نَفسِهَا، فَامتَنَعَت مِنِّي حَتَّى أَلَمَّت بِهَا سَنَةٌ مِن السِّنِينَ، فَجَاءَتنِي فَأَعطَيتُهَا عِشرِينَ وَمِائَةَ دِينَارٍ عَلَى أَن تُخَلِّيَ بَينِي وَبَينَ نَفسِهَا فَفَعَلَت، حَتَّى إِذَا قَدَرْتُ عَلَيهَا**».

وفي رواية: «-**فلما قعدتُ بين رجليها**- **قَالَت: اتق اللهَ ولَا تَفُضَّ الخَاتَمَ إِلَّا بِحَقِّهِ، فَانصَرَفتُ عَنهَا وَهِيَ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ، وَتَرَكتُ الذَّهَبَ الَّذِي أَعطَيتُهَا، اللَّهُمَّ إِن كُنتُ فَعَلتُ ذلك ابتِغَاءَ وَجهِكَ فَافرُج عَنَّا مَا نَحنُ فِيهِ، فَانفَرَجَت الصَّخرَةُ، غَيرَ أَنَّهُم لَا يَستَطِيعُونَ الخُرُوجَ مِنهَا**»(1).

وهذا رجلٌ مريضٌ بمرضِ الشهوةِ، ولكنه عندما ذَكَّرَتهُ الفتاةُ بتقوى الله**!** تَذَكَّرَ، وشُفِيَ من مرضِهِ، فتركَ الزنا بعد أن قَدَرَ عليه.

الشاهدُ من المثالين أنهُ لا يسعى إلى شهوةِ الفرج (الزنا) إلا مريضُ القلب بمرضِ الشهوةِ، ولكنهُ إذا أخذ العلاجَ شُفِيَ بإذنِ اللهِ تعالى.

---

(1) **متفق عليه:** رواه البخاري (٢٢١٥)، ومسلم (٢٧٤٣)، واللفظ من «رياض الصالحين» (١٣).

أما أصحابُ القلوبِ السليمةِ الطاهرةِ من مرضِ الشهوةِ فإنهم يرفضونَ شهوةَ الفرج (الزنا) ويبتعدون عنها خوفاً منَ الله، ومن الأمثلةِ على ذلك:

المثالُ الأولُ: يوسفُ عليه السلام عندما راودَتْهُ امرأةُ العزيزِ عن نفسِهِ فقال: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾.

يقول الله عز وجل: ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [يوسف].

وعندما هَدَّدَتهُ امرأةُ العزيزِ بالسجنِ والعذابِ الأليم قال أيضاً: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنۡهُ كَيۡدَهُنَّۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾ [يوسف].

المثالُ الثاني: جُريج مع بغيٍّ بني إسرائيل.

قَالَ ﷺ: «**لَم يَتكَلَّمْ فِي المَهدِ إِلاَّ ثَلاثَةٌ: عِيسَى ابنُ مَريَمَ، وَصَاحِبُ جُرَيجٍ، وَكَانَ جُرَيجُ رَجُلاً عَابِدًا، فَاتَّخَذَ صَومَعَةً، فَكَانَ فِيهَا، فَأَتَتهُ أُمُّهُ وَهُوَ يُصَلِّي، فَقَالَت: يَا جُرَيجُ!**

فَقَالَ: يَا رَبِّ! أُمِّي وَصَلاَتِي. فَأَقبَلَ عَلَى صَلاَتِهِ. فَانصَرَفَت فَلَمَّا كَانَ مِنَ الغَدِ أَتَتهُ وَهُوَ يُصَلِّي. فَقَالَت: يَا جُرَيجُ!

فَقَالَ: يَا رَبِّ! أُمِّي وَصَلاَتِي. فَأَقبَلَ عَلَى صَلاَتِهِ. فَانصَرَفَت فَلَمَّا كَانَ مِنَ الغَدِ أَتَتهُ وَهُوَ يُصَلِّي فَقَالَت: يَا جُرَيجُ!

فَقَالَ: أَي رَبِّ! أُمِّي وَصَلاَتِي، فَأَقبَلَ عَلَى صَلاَتِهِ.

فَقَالَتِ: اللَّهُمَّ! لاَ تُمِتْهُ حَتَّى يَنظُرَ إِلَى وُجُوهِ المُومِسَاتِ.

فَتَذَاكَرَ بَنُو إِسرَائِيلَ جُرَيجًا وَعِبَادَتَهُ وَكَانَتِ امرَأَةٌ بَغِيٌّ يُتَمَثَّلُ بِحُسنِهَا.

فَقَالَت: إِن شِئتُم لأَفتِنَنَّهُ لَكُم، قَالَ: فَتَعَرَّضَت لَهُ، فَلَم يَلتَفِتْ إِلَيهَا، فَأَتَت رَاعِيًا كَانَ يَأوِي إِلَى صَومَعَتِهِ، فَأَمكَنَتهُ مِن نَفسِهَا، فَوَقَعَ عَلَيهَا، فَحَمَلَت فَلَمَّا وَلَدَت، قَالَت: هُوَ مِن جُرَيجٍ. فَأَتَوهُ فَاستَنزَلُوهُ وَهَدَمُوا صَومَعَتَهُ وَجَعَلُوا يَضرِبُونَهُ.

فَقَالَ: مَا شَأنُكُم؟

قَالُوا: زَنَيتَ بِهَذِهِ البَغِيِّ. فَوَلَدَتْ مِنكَ.

فَقَالَ: أَينَ الصَّبِيُّ؟ فَجَاءُوا بِهِ.

فَقَالَ: دَعُونِي حَتَّى أُصَلِّيَ، فَصَلَّى فَلَمَّا انصَرَفَ أَتَى الصَّبِيَّ فَطَعَنَ فِي بَطنِهِ. وَقَالَ: يَا غُلاَمُ! مَن أَبُوكَ؟

قَالَ: فُلاَنٌ الرَّاعِي. قَالَ: فَأَقبَلُوا عَلَى جُرَيجٍ يُقَبِّلُونَهُ وَيَتَمَسَّحُونَ بِهِ. وَقَالُوا: نَبنِي لَكَ صَومَعَتَكَ مِن ذَهَبٍ.

قَالَ: لاَ! أَعِيدُوهَا مِن طِينٍ كَمَا كَانَت. فَفَعَلُوا»(١).

فالشاهدُ من المثالين أن صاحبَ القلبِ السليمِ الطاهرِ من مرضِ الشهوةِ يرفضُ شهوةَ الفرج (الزنا)، ويدفعُهَا ويبتعدُ عنها.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٥٥٠).

لأن شهوةَ الفرجِ (الزنا) حرامٌ وقبيحةٌ شرعاً وعقلاً، والدليلُ على ذلك:

قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾ [الإسراء].

فوصَفَ اللهُ عز وجل شهوةَ الفرج (الزنا) بأنها فاحشةٌ من دونِ تخصيصٍ، سواءٌ قبلَ ورودِ النهي أو بعدَه، فشهوةُ الفرج (الزنا) فاحشةٌ، واللهُ عز وجل حرَّمَ الفواحشَ ما ظهرَ منها وما بطن.

قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ [الأعراف:٣٣].

فشهوةُ الفرجِ (الزنا) تُستفحَشُ في الشرعِ والعقولِ والفِطرِ السويةِ، ومنَ الأمثلةِ على ذلك:

١- قولُهُ ﷺ: «**خَرَجْتُ مِن نكاحٍ، ولم أخرجْ من سِفاحٍ، منْ لَدُنْ آدمَ إلى أن ولدني أبي وأمِّي، لم يُصبْني من سِفاحِ الجاهليةِ شيءٌ**»(١).

٢- وهذا عثمانُ بنُ عفانَ رضي الله عنه عندما حاصرهُ البُغاةُ ليقتلوهُ، خرجَ عليهم فقال: (ولِمَ يقتُلُونني؟ وقد سَمِعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «**لا يحلُّ دَمُ امرءٍ مُسلم إلا بإحدى ثلاثٍ: كفرٌ بعدَ إسلام، أو زناً بعد إحصانٍ، أو قتلُ نفسٍ بغيرِ نفس**»، فواللهِ ما زنيتُ في جاهليةٍ ولا في إسلامٍ قطُّ)(٢).

٣- وهذه هندُ بنتُ عُتبةَ تقولُ وهي تبايعُ الرسولَ ﷺ مستنكرةً متعجبةً: (أَوَتزني الحرَّةُ يا رسولَ الله؟!)(٣).

---

(١) **حسن**: رواه الطبراني في «الأوسط»(٤٧٢٨)، [«صحيح الجامع» (٣٢٢٥).

(٢) **صحيح**: رواه أبو داود (٤٥٠٢)، والبزار (٣٤٦)، [«السلسلة الصحيحة» (٤٠٩)].

(٣) رواه أبو يعلى (٤٧٥٢).

فمرضُ شهوةِ الفرجِ (الزنا)، مرضٌ خطيرٌ جداً إذا أصابَ الإنسانَ دَمَّرهُ وسوَّدَ وجههُ، وعَرَّضه لعذابِ الدنيا والآخرة، وذلك:

أولاً: لأنَّ المصابَ بمرضِ شهوة الفرج (الزنا) ينقطعُ عنه نورُ الإيمانِ وهو يرتكبُ الفاحشة.

قال ﷺ: «**لا يزني العبدُ حين يزني وهو مؤمن**».

قال عكرمة: (قلتُ لابنِ عباسٍ رضي الله عنهما: كيف يُنزعُ الإيمانُ منه؟

قال: هكذا -وشبَّكَ بين أصابِعه ثم أخرجَها-، فإن تابَ، عادَ إليه هكذا -وشبَّكَ بين أصابِعه)[1].

ثانياً: لأن المصابَ بمرض شهوةِ الفرجِ (الزنا) لا يستجيب اللهُ دعاءهُ.

قال ﷺ: «**تُفتحُ أبوابُ السماءِ نصفَ الليل فينادي منادٍ: هل من داعٍ فيُستجابَ له؟ هل من سائلٍ فيُعطى؟ هل من مكروبٍ فيُفرَّجَ عنه؟ فلا يبقى مسلمٌ يدعو بدعوةٍ إلا استجابَ اللهُ عز وجل له، إلا زانيةً تسعى بفرجها أو عَشَّاراً**[2]»[3].

ثالثاً: لأنَّ المصابينَ بمرضِ شهوةِ الفرج (الزنا) يُعَرِّضونَ أنفسَهم وَالمجتمعَ الذي يعيشونَ فيه للعقوباتِ الجماعيةِ التي تنزلُ بالعُصاة.

قال ﷺ: «**لا تزالُ أمتي بخيرٍ ما لم يَفشُ فيهم ولدُ الزنا، فإذا فشا فيهم ولدُ الزنا فيُوشِكُ؛ أن يَعُمَّهمُ اللهُ عز وجل بعقاب**»[4].

---

(١) **صحيح**: رواه البخاري (٦٨٠٩).

(٢) العشَّارُ: من يأخذُ على السلع مَكساً.

(٣) **صحيح**: رواه الطبراني في «الأوسط» (٢٧٦٩)، وفي «الكبير» (٨٣٩١)، [«صحيح الترغيب» (٧٨٦)].

(٤) **حسن لغيره**: رواه أحمد (٦/٣٣٣)، والطبراني في «الكبير» (٢٤/٢٣/٥٥)، [«صحيح الترغيب» (٢٤٠٠)].

وقال ﷺ: «**إذا ظهرَ الزنا والربا في قريةٍ فقد أَحَلُّوا بأنفسهم عذابَ الله**»(١).

وقال ﷺ: «**لم تظهرِ الفاحشةُ في قومٍ قطُّ حتى يُعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعونُ، والأوجاعُ التي لم تكن مضت في أسلافِهم الذين مَضَوا**»(٢).

رابعاً: لأن المصابين بمرض شهوة الفرج (الزنا) يُعَرِّضونَ أنفسَهم للعقوبات الفردية.

والعقوباتُ الفرديةُ المقرَّرةُ في الشريعةِ للزُّناةِ تنقسمُ إلى قسمين: عقوباتٌ جسدية، وعقوباتٌ معنوية.

فالعقوباتُ الجسدية:

يفقدُ الزاني والزانيةُ إذا كانا مُحصَنَينِ حقَّ البقاءِ على قيدِ الحياةِ بارتكابهم جريمةَ الزنا.

قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**لا يحلُّ دمُ امرئٍ مسلمٍ يشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ، وأني رسولُ الله إلا بإحدى ثلاثٍ: الثيبُ الزاني، والنفسُ بالنفس، والتاركُ لدينه المفارقُ للجماعة**»(٣).

ويُقتلان رجماً بالحجارة.

---

(١) **حسن لغيره**: رواه الطبراني في «الكبير» (٤٦٠)، والحاكم (٢٢٦١) واللفظ له، والبيهقي في «الأوسط» (٥٠٣٣)، [«صحيح الترغيب» (٢٤٠١)].

(٢) **صحيح لغيره**: رواه ابن ماجه (٤٠١٩)، والبيهقي في «الشعب» (٣٠٤٢)، [«صحيح الترغيب» (١٧٦١)].

(٣) **صحيح**: رواه مسلم (١٦٧٦).

قال ﷺ: «**الولدُ للفراشِ وللعاهِرِ الحَجَرُ**»(١).

أما إذا كان الزانيان غيرَ مُحصَنَينِ، فيُجلَدُ كُلُّ واحدٍ منهما مائةَ جلدةٍ.

قال تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖۖ﴾ [النور:٢].

أما العقوباتَ المعنوية.

أولاً: التفضيحُ.

قال تعالى: ﴿وَلۡيَشۡهَدۡ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢﴾ [النور].

ولعلَّ التفضيحَ يُنكِّلُ بالزناةِ أشدَّ من التعذيب.

ثانياً: تحريمُ مُناكحةِ الزُّناةِ.

لما قال مَرثَدُ ابنُ أبي مرثدٍ رضي الله عنه: يا رسولَ الله! أَأَنكِحُ عناقاً؟ وكانت امرأةً بَغياً، لم يَرُدَّ ﷺ شيئاً حتى أنزلَ اللهُ: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوۡ مُشۡرِكَةٗ وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوۡ مُشۡرِكٞۚ﴾ [النور:٣].

فقال ﷺ: «**يا مرثدُ! الزاني لا ينكحُ إلا زانيةً أو مشركةً، والزانيةُ لا ينكِحُها إلا زانٍ أو مشركٌ فلا تنكِحْها**»(٢).

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري (٢٢١٨)، ومسلم (١٤٥٧).

(٢) **حسن**: رواه الترمذي (٣١٧٧)واللفظ له، والنسائي (٣٢٢٨)، والبيهقي في «الكبرى» (٧/٢٤٧)، [«صحيح الترمذي» (٣٥٣٨)].

ثالثاً: ردُّ شهادة الزُّناة.

فقد تقرَّرَ في الإسلام أن الزانيَ يفقدُ أهليةَ أداءِ الشهادةِ، عقوبةً له على ارتكابِ هذه الجريمةِ العظيمة.

قال رسولُ الله ﷺ: «**لا تجوزُ شهادةُ خائنٍ، ولا خائنةٍ، ولا زانٍ ولا زانيةٍ، ولا ذي غَمْرٍ**» -أي: حقدٍ- «**على أخيه**»[1].

كيف يعالجُ الإنسانُ نفسَهُ من مرضِ شهوةِ الفرجِ (الزنا)؟

أولاً: بغضِّ البصر.

فالنظرُ هو الشرارةُ الأولى لوقوعِ فاحشةِ الزنا، وانتشارِ هذا المرضِ في الأمة.

قال ﷺ: «**العينان تزنيان، واليدان تزنيان، والرجلان تزنيان، والفرجُ يزني**»[2].

وبينَ لنا رسولُ الله ﷺ في حديثٍ آخرَ ما هو زنا العينين؟ فقال ﷺ: «**كُتِبَ على ابنِ آدمَ نصيبُه من الزنى، مُدرِكٌ ذلك لا محالةَ، فالعينان زناهما النظرُ**» إلى أنْ قال ﷺ: «**والقلبُ يهوى ويتمنى، ويصدِّقُ ذلك الفرجُ أو يكذبُه**»[3].

---

(١) **حسن**: رواه ابن ماجه (٢٣٦٦)، والترمذي (٢٢٩٨)، وأحمد (٢/٢٠٨)، والدارقطني (٤٦٠١)، [«صحيح الجامع» (٧٢٣٦)].

(٢) **حسن صحيح**: رواه أحمد (١/٤١٢)، والبزار (١٩٥٦)، وأبو يعلى (٥٣٦٤)، والطبراني في «الكبير» (٨٦٦١)، [«صحيح الترغيب» (٤١٥٠)].

(٣) **متفق عليه**: رواه البخاري (٦٦١٢)، ومسلم (٢٦٥٧).

ولذلك جاءتِ الأوامرُ في الكتابِ والسنةِ بغضِّ البصر.

قال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ [النور:٣٠-٣١].

وقال ﷺ: «**اضمنوا لي ستاً من أنفسكم أضمنْ لكمُ الجنةَ**» وذكرَ منها: «**وغُضُّوا أبصارَكم**»(١).

وقال ﷺ لعليٍّ رضي الله عنه: «**يا عليُّ! لا تُتْبعِ النظرةَ النظرةَ، فإنَّ لكَ الأولى وليست لكَ الآخرة**»(٢).

ثانياً: بالزواج، فإن لم يستطع فبالصوم.

قال ﷺ: «**يا معشرَ الشبابِ! مَن استطاعَ منكم الباءةَ فَليتزوجْ، فإنه أغضُّ للبصرِ، وأحصنُ للفرج، ومن لم يستطعْ، فعليه بالصومِ فإنه له وِجاءٌ**»(٣).

ثالثاً: بالاستعفاف.

قال تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النور:٣٣].

---

(١) **صحيح لغيره**: رواه أحمد (٥/٣٢٣)، وابن حبان (٢٧١)، والحاكم (٨٠٦٦)، [«صحيح الترغيب» (١٩٠١)].

(٢) **صحيح**: رواه الترمذي (٢٧٧٧)، وأحمد (٥/٣٥٣)، والحاكم (٢٧٨٨)، [«صحيح الجامع» (٧٩٥٣)].

(٣) **متفق عليه**: رواه البخاري (١٩٠٥)، ومسلم (١٤٠٠).

وقال تعالى: ﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٦٠﴾ [النور].

وقال ﷺ: «**ومنْ يستعففْ يُعِفَّهُ اللهُ**»(١).

رابعاً: بعدم الاختلاطِ بالنساءِ.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ﴾ [الأحزاب:٥٣].

وقال ﷺ: «**ما تركتُ بعدي فتنةً أضرَّ على الرجالِ من النساءِ**»(٢).

وقال ﷺ: «**فاتقوا الدنيا واتقوا النساءَ فإنَّ أولَ فتنةِ بني إسرائيلَ كانت في النساء**»(٣).

وقال ﷺ: «**إياكم والدخولَ على النساء**».

فقال رجلٌ من الأنصار يا رسولَ الله! أفرأيتَ الحَمْوَ؟

قال: «**الحَمْوُ الموتُ**»(٤).

وقال ﷺ: «..**ألا لا يَخْلُوَنَّ رجلٌ بامرأةٍ إلا كان ثالِثَهما الشيطانُ**»(٥).

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري(١٤٦٩)، ومسلم (١٠٥٣).

(٢) **متفق عليه**: رواه البخاري (٥٠٩٦)، ومسلم (٢٧٤٠).

(٣) **صحيح**: رواه مسلم (٢٧٤٢).

(٤) **متفق عليه**: رواه البخاري (٥٢٣٢)، ومسلم (٢١٧٢).

(٥) **صحيح**: رواه الترمذي (٢١٦٥)، والنسائي في «الكبرى» (٩١٧٥)، وأحمد (١/٢٦)، [«صحيح الجامع» (٢٥٤٦)].

خامساً: بالخوف من الله تعالى.

قال ﷺ: «**سبعةٌ يُظلُّهُمُ الله في ظلهِ يومَ لا ظلَّ إلا ظلُّه**»، وذكر منهم: «**ورجلٌ دعته امرأةٌ ذاتُ منصبٍ وجمالٍ، فقال: إني أخافُ الله**»[1].

وكيف لا يخافُ من الله عز وجل، والله عز وجل أعدَّ للزناةِ عذاباً أليماً في النارِ.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [الفرقان].

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري (١٤٢٣)، ومسلم (١٠٣١).

الداءُ التاسعُ الذي يُصيبُ القلوبَ: اتِّباعُ الهوى ودواؤُهُ: اتباعُ الشرع

يقولُ اللهُ عز وجل في كتابه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّمَنۡ خَافَ عَذَابَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٖ مَّعۡدُودٖ ﴿١٠٤﴾ يَوۡمَ يَأۡتِ لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ فَمِنۡهُمۡ شَقِيّٞ وَسَعِيدٞ ﴿١٠٥﴾﴾ [هود].

والسعيدُ في ذلكَ اليومِ هو الذي لَقِيَ اللهَ بقلبٍ سليمٍ طاهرٍ من جميع الأمراض.

قال تعالى: ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء].

والجنةُ دارُ النعيمِ المقيمِ أعدَّها اللهُ للسُّعداءِ الذين طَهُرَت قلوبُهم.

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۖ عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ ﴿١٠٨﴾﴾ [هود].

ويقــول ســبحانه: ﴿وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ غَيۡرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٖ ﴿٣٢﴾ مَّنۡ خَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ وَجَآءَ بِقَلۡبٖ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾﴾ [ق].

أي: جاءَ يومَ القيامةِ بقلبٍ سليمٍ طاهرٍ من كلِّ أمراضِ القلوب.

والقلوبُ تمرضُ حتى تموتَ، كما أنَّ الأبدانَ تمرضُ حتى يموتَ صاحبُها، وأمراضُ القلوبِ أخطرُ على الإنسان من أمراض الأبدانِ، لأنَّ مرضَ البدنِ غايتُه

أنه يُفضي بصاحبِه إلى الموتِ، أما مرضُ القلبِ فإنهُ يُفضي بصاحبه إلى الشقاءِ الأبدي، ولذلك ينبغي على العاقلِ أن يهتمَّ بعلاجِ قلبِه من أمراضِ القلوبِ أكثرَ من اهتمامه بعلاج بدنه من أمراضِ الأبدانِ.

والنبيُّ ﷺ يقولُ: «**تداوَوا عبادَ الله! فإنَّ اللهَ تعالى لم يضع داءً إلا وضعَ له دواءً؛ غيرَ داءٍ واحدٍ، الهرمُ**»(١).

والمرضُ التاسعُ الذي يُصيبُ القلوبَ هو: اتباعُ الهوى.

اتباعُ الهوى مرضٌ خطيرٌ جداً يُميتُ القلوبَ، وذلك لأنَّ الشيطانَ يَدخلُ على الإنسانِ من مدخلِ الهوى، فيزيِّنُ له شهواتِهِ ويدفعُهُ إليها، فلا يعرفُ هذا الإنسانُ إلا شهواتِهِ وملذاتِهِ، ولو كان فيها سخَطُ ربِّهِ وغَضَبُهُ، فهو لا يبالي إذا فازَ بشهوتهِ وحَظِّهِ، رضيَ ربُّهُ أم سَخِطَ، فهو مُتَعَبِّدٌ لهواه .. إنْ أحبَّ أَحَبَّ لهواهُ، وإنْ أبغَض أبغض لهواه، وإنْ أعطى أعطى لهواه، وإن منعَ منعَ لهواهُ فهواهُ آثرُ عندَه، وأحبُّ إليه من رضى مولاهُ، فالهوى إمامُه، والشهوةُ قائدُهُ، والجهلُ سائقُهُ، والغفلةُ مَركَبُهُ، ولقد ربطَ اللهُ عز وجل بينَ الهوى والشيطان.

فقالَ تعالى: ﴿كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ﴾ [الأنعام:٧١].

أي: استَغوَتْهُ وَزَيَّنَتْ له هواهُ ودعتهُ إليه.

---

(١) **صحيح**: رواه أبو داود (٣٨٥٥)، وأحمد (٤/٢٧٨)، والطبراني في «الصغير» (٥٥٩)، [«صحيح الجامع» (٢٩٣٠)].

فالهوى مِن أعدى أعداءِ الإنسانِ، والشيطانُ عدوٌّ مبينٌ للإنسان، والنفسُ التي بَينَ جنبيك أمَّارَةٌ بالسوءِ، فكيف إذا دخلَ الشيطانُ من مدخلِ الهوى في النفسِ الأمَّارةِ بالسوء.

وكما قال القائل:

إني ابتُليتُ بأربعٍ ما سُلِّطُوا إلا لِشدَّةِ شِقْوتي وعَنائي

إبليسُ والدنيا ونفسي والهوى كيف الخلاصُ وكلُّهم أعدائي

والإنسانُ إذا أُصيبَ بمرضِ اتِّباعِ الهوى، ودخلَ عليه الشيطانُ من مدخلِ هواه؛ جعلهُ في مَصَافِّ الحيوانات؛ بل أضلُّ سبيلاً، ويجلبُ له الخزيَ في الدنيا والعذابَ في الآخرة.

قال تعالى في وصفِ هؤلاءِ المرضى باتباع الهوى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ [الفرقان].

ولذلك جاءَ الإسلامُ يأمرُ باتباعِ الشرعِ وأهلِهِ، وينهى عن اتباعِ الهوى وأهلِه.

قال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الجاثية].

وقال تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ﴾ [الشورى:١٥].

وقال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾﴾ [طه].

واشتَدَّ النهيُّ والتحذيرُ حتى قُرِنَ بالتهديد.

فقال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾ [البقرة].

وقال تعالى: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ [البقرة].

وقال تعالى: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾﴾ [الرعد].

بل أمرَ اللهُ رسولَهُ ﷺ أن يُصَرِّحَ بضلال الذين اتبعوا أهواءَهم، فقال له: ﴿قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأنعام].

وذلك لأن كلَّ من خالفَ الشريعةَ فقد وافقَ الهوى، ومن وافقَ الهوى فقد ماتَ قلبُه، وضلَّ ضلالاً مبيناً، كما قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ

فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ [القصص].

وقال تعالى: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ فَمَن يَهۡدِي مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الروم].

وقد حَذَّرَ اللهُ عبادَهُ من مرضِ اتباعِ الهوى؛ لأن عاقبتَهُ وخيمة، وأضرارَهُ كثيرة منها:

أولاً: عدمُ الاستجابةِ لرسلِ الله -عليهم السلام-.

قال تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ فَفَرِيقٗا كَذَّبۡتُمۡ وَفَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [البقرة].

ثانياً: الانحرافُ في العقيدة.

فالهوى يدفعُ كثيراً من أهلِ الأهواءِ إلى الانحرافِ في العقيدةِ، ولذلك قالَ تعالى لرسوله ﷺ: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾﴾ [المائدة].

فأهلُ الأهواءِ جميعاً ضلوا لأنهم اتبعوا أهواءَ الذين ضلوا مِن قَبلهم، أما من أرادَ النجاةَ فعليه أن يؤسسَ مُعتقدَهُ على الكتابِ والسنةِ بفهمِ سلفِ الأمةِ.

يقول شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ: (العباداتُ مبناها على الشرع والاتباع، لا على الهوى والابتداع، فإن الإسلامَ مبنيٌّ على أصلين:

أحدُهما: أن يُعبدَ اللهُ وحدَهُ لا شريكَ له.

والثاني: أن تعبُدَه بما شرعَه على لسانِ رسولِه ﷺ، لا تعبدُه بالأهواءِ والبدع)[1].

ثالثاً: الانحرافُ عن سبيل النجاةِ (سبيل المؤمنين).

قال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص:٢٦].

وقال له أيضاً: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ [الشورى:١٥].

وقال تعالى مهدداً الذين اتبعوا أهواءَهم، وضلوا عن سبيلِ المؤمنين: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ [النساء].

رابعاً: الانحرافُ في الحُكْم والشهادة.

المريضُ بمرضِ الهوى ينحرفُ في حكمه دائماً؛ ولذلك قال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [المائدة:٤٨].

والمريضُ بمرضِ الهوى ينحرفُ في شهادتِهِ.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١/ ٨٠).

ولذلك قال تعالى للمؤمنين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾﴾ [النساء].

خامساً: حصولُ التفرقِ والاختلافِ، ووقوعُ العداوةِ والبغضاءِ.

الخلافُ والتفرقُ في الأمةِ ناشئٌ عن اتباعِ الهوى، فأهلُ الأهواءِ يتبعونَ المتَشابهَ من الأدلةِ ابتغاءَ الفتنةِ، فيؤدي ذلك إلى وقوعِ العداوةِ والبغضاءِ بينَ الناس فَيَضِلون ويُضلون.

قال تعالى في وصفِ هؤلاء المرضى باتباعِ الهوى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ -مرضُ اتباعِ الهوى- ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ﴾ [آل عمران:٧].

وقال ﷺ في وصفِ هؤلاءِ أيضاً: «**يكونُ أقوامٌ تتجارى بهم تِلكَ الأهواءُ؛ كما يتجارى الكَلَبُ**» -وهو مرضٌ خطيرٌ يُصيبُ الإنسانَ من عَضِّ الكَلبِ الكَلِبِ(١)- «**بصاحبِه، فلا يبقى منه مِفصلٌ إلا دَخلَهُ**»(٢).

وعن معاويةَ رضي الله عنه قال: (قامَ فينا رسولُ الله ﷺ يوماً فذكرَ أنَّ أهلَ الكتابِ قبلكم تفرقوا على اثنتين وسبعين فِرقةً في الأهواءِ، ألا وإنَّ هذه الأمةَ ستفترقُ على ثلاثٍ وسبعين فرقةً في الأهواءِ، كُلُّها في النارِ إلا واحدةً وهي الجماعة)(٣).

(١) الكَلِبِ: بكسر اللام: أي الكَلبُ المصابُ بداء الكَلَب.

(٢) **صحيح**: رواه ابن أبي عاصم في «السنة» (١)، والحاكم (٤٤٣)، ابن بطة في «الإبانة الكبرى» (٢٦٨)، [«المشكاة» (٣٣)].

(٣) **صحيح**: رواه أحمد (١٠٢/٤)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٢)، والطبراني في «الكبير» (٨٨٥)، [«السلسلة الصحيحة» (٢٠٣)]

فما نراهُ اليومَ في الأمةِ من التفرقِ والاختلافِ والعداوةِ والبغضاءِ كُلُّهُ بسببِ انتشارِ مرضِ اتباعِ الهوى.

سادساً: انتشارُ الفسادِ الذي يؤدي إلى الهلاك.

قال تعالى: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾﴾ [المؤمنون].

والذين اتبعوا أهواءَهم واتخذوا دينَهم لهواً ولعباً يخبرُنا الله عز وجل في كتابه أنهم كانوا يكرهونَ الحقَّ ولا يتبعونه.

قال تعالى: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [الزُّخرُف].

فاتباعُ الهوى يؤدي إلى انتشارِ الفسادِ في الأرضِ، وانتشارُ الفسادِ يؤدي إلى الهلاكِ.

قال ﷺ: «**ثلاثٌ مهلكاتٌ: شحٌ مطاعٌ، وهوىً مُتَّبعٌ وإعجابُ المرءِ بنفسه**»(١).

وقال ﷺ: «**إنَّ مما أخشى عليكم شهواتِ الغيِّ في بطونِكُم وفروجِكم ومضلاتِ الهوى**»(٢).

(١) **حسن**: رواه البزار (٧٢٩٣)، والطبراني في «الأوسط» (٥٤٥٢)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/١٦٠)، [«صحيح الجامع» (٣٠٣٩)].

(٢) **صحيح**: رواه أحمد (٤/٤٢٠)، والبزار (٣٨٤٤)، والطبراني في «الصغير» (٥١١)، [«صحيح الترغيب» (٥٢)].

اتباعُ الهوى مرضٌ خطيرٌ يُصيبُ القلوبَ فَيُمرضُها ويُميتُها، والله عز وجل القادرُ على إحياءِ الأرضِ بعد موتِها، قادرٌ على إحياءِ القلوبِ الميتةِ بعدَ موتِها.

والدواءُ النافعُ لمرضِ اتباعِ الهوى هو: اتباعُ الشرع.

ولذلك قالَ تعالى لرسولِهِ ﷺ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الجاثية].

واتباعُ الشريعةِ هو اتباعُ الكتابِ والسنةِ، وفي الكتاب والسنة:

أولاً: الأمرُ بمخالفةِ النفسِ والهوى.

قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس].

وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات].

وقال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ﴾ -أي: اتبع هواه- ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ﴾ [الزُّمَر:٤١].

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ﴾ -أي: بسبب اتباع الهوى- ﴿تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾﴾ [آل عمران:٣٠].

ثانياً: الأمرُ بالاستعاذةِ باللهِ من شَرِّ الهوى.

كان ﷺ يستعيذُ من شرِّ الهوى، فيقولُ: «**اللَّهم إني أعوذُ بِكَ من مُنكراتِ الأخلاقِ والأعمالِ، والأهواءِ**»(١).

فالشيطانُ يَدخُلُ على الإنسان من مدخلِ الهوى، فيمنعُه من الاستغفارِ قال ﷺ: «**إنَّ الشيطانَ قال: وعزتِك يا ربِّ! لا أبرحُ أُغوي عبادَكَ ما دامت أرواحُهم في أجسادِهم، قال الرب: وعزتي وجلالي لا أزالُ أغفرُ لهم ما استغفروني**»(٢).

فالإنسانُ إذا اتبعَ هواه لا يستغفرُ أبداً.

قال الأوزاعيُّ رحمه الله: (إن إبليسَ قال لأوليائِه: مِن أين تأتون بني آدم؟

قالوا: مِن كلِّ شيءٍ، قال: فهل تأتونهم من قِبَلِ الاستغفار؟

قالوا: إن ذلك شيءٌ ما نُطيقُه، إنه لمقرونٌ مع التوحيد.

فقال: لآتينَّهم من بابٍ لا يستغفرونَ اللهَ منه.

قال: فبثَّ فيهِمُ الأهواء)(٣).

---

(١) **صحيح**: رواه الترمذي (٣٥٩١)، وابن حبان (٩٦٠)، والطبراني في «الكبير» (٣٦)، والحاكم (١٩٤٩) [«صحيح الجامع» (١٢٩٨)].

(٢) **حسن لغيره**: رواه أحمد (٢٩/٣)، وأبو يعلى (١٢٧٣)، والطبراني في «الأوسط» (٨٧٨٨)، [«صحيح الترغيب» (١٦١٧)].

(٣) رواه الدارمي (٣١٦)، والبيهقي في «الشعب» (٩٠٠٨).

ثالثاً: الأمرُ بالاستعاذةِ بالله من الشيطان.

فالمسلمُ إذا استعاذَ باللهِ من الشيطانِ أغلقَ بابَ الهوى الذي يدخلُ منه الشيطان.

قال تعالى: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾ [الأعراف].

وقال تعالى: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَۚ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنۡ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحۡضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾ [المؤمنون].

الداءُ العاشرُ الذي يُصيبُ القلوبَ: المعاصي والذنوبُ ودواؤُهُ: التوبةُ النصوحُ

يبعثُ اللهُ عز وجل الناسَ من قبورِهم يومَ القيامة للحسابِ والجزاء ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى ٣١﴾ [النجم].

قال تعالى: ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ٤٧ وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ٤٨ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ٤٩﴾ [الكهف].

ويقول سبحانه: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ٦﴾ [المجادلة].

في هذا اليوم لا ينجو من عذابِ اللهِ، ويفوزُ بالجنة إلا مَن أتى اللهَ بقلبٍ سليمٍ طاهرٍ من كُلِّ الأمراض.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ٨٩﴾ [الشعراء].

ولما كانتِ القلوبُ تمرضُ كما تمرَضُ الأبدانُ.

قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**تداوَوا عبادَ الله! فإنَّ اللهَ تعالى لم يضعْ داءً إلا وضعَ له دواءً؛ غيرَ داءٍ واحدٍ، الهرمُ**»(١).

---

(١) **صحيح**: رواه أبو داود (٣٨٥٥)، وأحمد (٤/٢٧٨)، والطبراني في «الصغير» (٥٥٩)، [«صحيح الجامع» (٢٩٣٠)].

والقلوبُ تمرضُ بمرضين: مرضِ الشهواتِ، ومرضِ الشبهاتِ، وقد يمرضُ الإنسانُ بهذين المرضَين معاً، وقد يمرضُ بأحَدِهما.

والمرضُ العاشرُ الذي يُصيبُ القلوبَ هو: المعاصي والذنوب.

المعاصي والذنوب أخطرُ مرضٍ على القلبِ، فهي تُمرِضُهُ وتُسَوِّدُهُ وتُميتُهُ.

عن حذيفةَ ﵁ قالَ: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**تُعرَضُ الفتنُ على القلوبِ عرضَ الحصيرِ عوداً عوداً، فأيُّ قلبٍ أُشرِبَها؛ نُكِتَت فيه نكتةٌ سوداءُ، وأيُّ قلبٍ أنكرَها؛ نُكِتَتْ فيه نكتةٌ بيضاءُ، حتى يصيرَ القلبُ أبيضَ مثلَ الصفا، لا تضرُّه فتنةٌ ما دامتِ السماواتُ والأرضُ، والآخرُ أسودُ مُرْبَادّاً كالكوز مُجَخِّياً، لا يعرفُ معروفاً، ولا يُنكرُ منكراً؛ إلا ما أُشرِبَ من هواه**»(١).

وقال ﷺ: «**إن العبدَ إذا أخطأ؛ نُكتت في قلبه نكتةٌ سوداءُ، فإن هو نزعَ واستغفرَ وتابَ صُقِلَ قلبُه، وإن عاد زيدَ فيها حتى تعلُوَ على قلبه، وهو الرانُ الذي ذكرَ اللهُ تعالى:** ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطفّفين: ١٤]»(٢).

فالمعاصي والذنوبُ تَضرُّ، وضرَرُها في القلوبِ أشدُّ من ضررِ السمومِ في الأبدان، فالسمومُ تُفضي بصاحِبها إلى الموتِ، أما المعاصي والذنوبُ فإنها تُفضي بصاحبِها إلى عذابِ الدنيا وعذابِ الآخرة، وذلك:

---

(١) **صحيح**: رواه مسلم (١٤٤).

(٢) **حسن**: رواه الترمذي (٣٣٣٤)، وابن ماجه (٤٢٤٤)، والنسائي في «الكبرى» (١٠١٧٩)، وأحمد (٢٩٧/٢)، [«صحيح الترغيب» (١٦٢٠)].

أولاً: لأنَّ الذنوبَ والمعاصيَ سببٌ للهلاكِ والدمار.

قال تعالى: ﴿فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ [الأنعام:٦].

وقال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت].

ونحن نرى المسلمين اليومَ قد استهانوا بكبارِ الذنوب فضلاً عن صغارِها، واحتقروها وعَدُّوها شيئاً قليلاً، حتى صدقَ فيهم قولُ أنسٍ رضي الله عنه: (إنكم لتعملونَ أعمالاً هي أدقُّ في أعينكم من الشَّعرِ، كنا نعدُّها على عهدِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم من الموبقات)(١).

أي: من كبائِرِ الذنوبِ المهلكات.

واللهُ عز وجل يُحَذِّرُ منَ الاستهانةِ بالذنوبِ والمعاصيْ فيقول: ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ [النور].

ورسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم يحذرُ منَ الاستهانةِ بالذنوبِ والمعاصي فيقول: «**إياكُم ومُحَقِّراتِ الذنوبِ، فإنهنَّ يجتمعنَ على الرجُلِ حتى يُهلِكْنَهُ، كرجلٍ كان بأرضِ فلاةٍ، فحضرَ صنيعُ القومِ، فجعلَ الرجلُ يجيءُ بالعودِ، والرجلُ يَجيءُ بالعودِ، حتى جمعوا من ذلك سواداً وأَجَّجُوا ناراً، فَأَنْضَجُوا ما فيها**»(٢).

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٦٤٩٢).

(٢) صحيح لغيره: رواه أحمد (١/ ٤٠٢)، والطبراني في «الكبير» (١٠٥٠٠)، [«صحيح الترغيب» (٢٤٧٠)].

فكم من المسلمين اليومَ يستهينونَ بالذنوب والمعاصي كبيرِها وصغيرِها.

ثانياً: لأن الذنوبَ والمعاصيَ سببٌ للذلِّ والفقرِ وحياةِ الضَّنكِ وانتشارِ الأمراضِ وحرمانِ المطرِ وتسليطِ الأعداءِ.

قال ﷺ: «**إذا تبايعتم بالعِينَةِ**» -وهي نوعٌ من أنواع الربا- «**وأخذتم أذنابَ البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهادَ سَلَّطَ اللهُ عليكم ذلاً، لا يَنزِعُه -عنكم- حتى ترجعوا إلى دينكم**»(١).

وقال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا﴾ [طه:١٢٤].

وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ۝١٠﴾ [الليل].

وقال ﷺ محذراً من الذنوب والمعاصي: «**يا معشرَ المهاجرين! خِصالٌ خمسٌ إذا ابتُليتم بهن، وأعوذُ بالله أن تدركوهن:**

- **لم تظهرِ الفاحشةُ في قومٍ قطُّ حتى يعلنوا بها، إلا فشا فيهم الطاعونُ والأوجاعُ التي لم تكن مَضَت في أسلافِهِمُ الذين مَضَوا.**
- **ولم يَنقصوا المكيالَ والميزانَ إلا أُخذوا بالسنينَ، وشدةِ المُؤنَةِ، وجَورِ السلطانِ عليهم.**

---

(١) **صحيح لغيره**: رواه أبو داود (٣٤٦٢)، والبزار (٥٨٨٧)، والطبراني في «الشاميين» (٢٤١٧)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٥/٥١٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (٥/٢٠٨)، [«صحيح الترغيب» (١٣٨٩)].

• ولم يمنعوا زكاةَ أموالهم إلا مُنعوا القطرَ من السماءِ، ولولا البهائمُ لم يُمطروا.

• ولم يَنقُضوا عهدَ اللهِ وعهدَ رسولِه إلا سَلَّط اللهُ عليهم عَدُوّاً من غيرِهم فأخذوا بعضَ ما كان في أيديهم.

• وما لم تحكمْ أئمتُهم بكتابِ اللهِ عز وجل ويتحرَّوا فيما أنزلَ اللهُ إلا جعلَ اللهُ بأسَهم بينهم»[١].

كيف لا؟

والله عز وجل يقول: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الشورى].

والنبيُّ ﷺ يقول: «يوشِكُ أن تَداعى عليكمُ الأممُ مِن كلِّ أفقٍ، كما تداعى الأكَلَةُ إلى قَصعَتِها».

قيل: يا رسولَ اللهِ! فمِن قلةٍ يومئذٍ؟

قال: «لا، ولكنكم غُثاءٌ كغُثاءِ السَيل، يُجعَلُ الوَهْنُ في قلوبِكم، ويُنزِعُ الرُّعبُ من قلوبِ عدوِّكم؛ لحُبِّكمُ الدنيا وكراهيتُكُمُ الموتَ»[٢].

---

(١) صحيح لغيره: رواه ابن ماجه (٤٠١٩)، والطبراني في «الأوسط» (٤٦٧١)، والبيهقي في «الشعب» (٣٠٤٣)، [«صحيح الترغيب» (١٧٦١)].

(٢) صحيح: رواه أحمد (٥/٢٧٨)، والطيالسي (١٠٨٥)، والبيهقي في «الشعب» (٩٨٨٧)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/١٨٢)، [«صحيح الجامع» (٨١٨٣)].

فيا من تتقلبُ في نعمِ اللهِ ليلاً ونهاراً!! احذرِ الذنوبَ والمعاصيَ فهي سببٌ لزوالِ النعم.

ابنَ آدم!

إذا كنـــتَ في نعمـــةٍ فارعَهـــا فـــإنَّ المعـــاصي تُزيـــلُ الـــنعم
وحـــافظ عليهـــا بـــشكرِ الإلهِ فـــإنَّ الإلهَ سريـــعُ الـــنِّقَم

ثالثاً: لأنَّ الذنوبَ والمعاصيَ تُمرضُ القلبَ، وتُسَوِّدُهُ وتُميتُه.

قال ﷺ: «**تُعرَضُ الفتنُ**» -أي: الذنوبُ والمعاصي- «**على القلوب عرضَ الحصيرِ عوداً عوداً، فأيُّ قلبٍ أُشرِبَها؛ نُكَتت فيه نكتةٌ سوداءُ**».

إلى أن قال ﷺ: «**والآخرُ أسودُ مُرْبَادّاً كالكوزِ مُجَخِّياً، لا يعرفُ معروفاً، ولا ينكرُ منكراً؛ إلا ما أشرِبَ من هواه**»(١).

وقال ﷺ: «**إنَّ العبدَ إذا أخطأ**» -أي: أذنبَ وعصى- «**نُكِتَت في قلبه نكتةٌ سوداءُ**».

إلى أن قال ﷺ: «**وإن عادَ زيدَ فيها، حتى تعلوَ على قلبِه، وهو الرانُ الذي ذكرَ اللهُ تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾** [المطفِّفين:١٤]»(٢).

---

(١) **صحيح**: رواه مسلم (١٤٤).

(٢) **حسن**: رواه الترمذي (٣٣٣٤)، والنسائي في «الكبرى» (١٠١٧٩)، وابن حبان (٢٧٨٧)، [«صحيح الجامع» (١٦٧٠)].

وأصحابُ القلوبِ المريضةِ الميتةِ التي رانَ عليها الرانُ توعَّدَها اللهُ عز وجل في كتابِه بالويلِ والعذابِ الأليم في الدنيا والآخرة.

• قال تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾﴾ [البقرة].

• وقال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الزُّمَر].

رابعاً: لأنَّ المعاصيَ والذنوبَ سببٌ للعذابِ في النارِ.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾ [النساء].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾﴾ [الجن].

وقال تعالى: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ -أي: بالمعاصي والذنوب- ﴿فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [النمل].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ -أي: المعاصي والذنوب- ﴿جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [يونس].

وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟﴾ -أي: اقترفوا المعاصيَ والذنوبَ- ﴿فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [السجدة].

وقال تعالى: ﴿كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ﴿٧﴾﴾ -أي: على القلوبِ المريضةِ الميتةِ- ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ﴿٩﴾﴾ [الهُمَزة].

أيها العاصي!

مَثل وقوفَك يومَ العرضِ عُريانا ... مستوحشاً قلقَ الأحشاءِ حيرانا
والنار تلهبُ من غيظٍ ومن حَنَقٍ ... على العصاةِ وربُّ العرشِ غضبانا
اقرأ كتابك يا عبدي على مَهَلٍ ... فهل ترى فيه حرفاً غيرَ ما كانا
لما قرأتَ ولم تنكر قراءتَه ... إقرارَ من عرفَ الأشياءَ عِرفانا
نادى الجليلُ خذوه يا ملائكتي ... وامضوا بعبدٍ عصى للنارِ عطشانا
المجرمونَ غداً في النارِ يلتهبوا ... والمؤمنونَ في دارِ الخلدِ سُكانا

المعاصي والذنوبُ مرضٌ خطيرٌ يُمْرِضُ القلوبَ ويُميتُها، ودواؤهُ النافعُ هو التوبةُ النصوحُ، والمسارعةُ إلى الأعمالِ الصالحةِ.

يقول ﷺ: «**إن العبدَ إذا أخطأ**» -أي: أذنبَ- «**نُكتت في قلبه نكتةٌ سوداءُ، فإن هو نزعَ واستغفرَ وتابَ صُقِلَ قلبُه، وإن عاد زيدَ فيها حتى تعلُوَ على قلبه، وهو الرانُ الذي ذكرَ اللهُ تعالى:** ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطفِّفين:١٤]»(١).

(١) حسن: رواه الترمذي (٣٣٣٤)، وابن ماجه (٤٢٤٤)، وأحمد (٢/٢٩٧)، [«صحيح الجامع» (١٦٧٠)].

ففي هذا الحديثِ شَخَّصَ لنا رسولُ اللهِ ﷺ الداءَ وهو الذنوبُ والمعاصي، ووصفَ لنا الدواءَ وهو التوبةُ والاستغفارُ والأعمالُ الصالحة.

فمن أرادَ منَ العصاةِ أن يُطهرَ قلبَهُ من أدناسِ المعاصي فعليه بالتوبةِ النصوحِ استجابةً:

لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ [التحريم:٨].

ولقوله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٣١﴾ [النور].

ولقوله سبحانه في الحديث القدسي: «**يا عبادي! إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفرُ الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم**»(١).

ولقوله ﷺ: «**يا أيها الناسُ توبوا إلى اللهِ فإني أتوبُ في اليومِ إليه مائةَ مرة**»(٢).

ولقوله ﷺ: «**إن اللهَ عز وجل يبسطُ يدَه بالليلِ ليتوبَ مسيءُ النهار، ويبسطُ يدَه بالنهارِ ليتوبَ مسيءُ الليلِ حتى تطلعَ الشمسُ من مغربِها**»(٣).

واللهُ عز وجل فتحَ أبوابَ التوبةِ على مِصراعَيها للذين ماتت قلوبُهم بالكفرِ، فقال تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾ [الأنفال:٣٨].

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٥٧٧).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٧٠٢).

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٧٥٩).

وأمَّا الذين ماتت قلوبُهم بالنفاق، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾﴾ [النساء].

بل فتحَ اللهُ أبوابَ التوبةِ أمامَ كلِّ العصاةِ الذين ماتت قلوبهم بالذنوبِ والمعاصي ليتوبوا.

عن ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما: أن ناساً من أهلِ الشركِ كانوا قد قَتَلوا فأكثَروا، وزَنَوا فأكثروا. فأتَوا محمداً ﷺ فقالوا: إن الذي تقولُ وَتدعو إليه لحسنٌ لو تُخبرُنا أنَّ لِما عَمِلنا كفارةً فنزلَ: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [الفرقان].

ونـزل: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزُّمَر][1].

وهذه التوبةُ النَّصوحُ التي تُطهرُ القلوبَ من أدناسِ المعاصي والذنوبِ تحتاجُ بعدها إلى المسارعةِ إلى الأعمالِ الصالحةِ قال تعالى: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾ [طه].

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٤٨١٠)، ومسلم (١٢٢).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود:١١٤]، أي: الأعمالَ الصالحةَ تمحو المعاصيَ والذنوبَ.

ولذلك قال ﷺ لمعاذِ بنِ جبلٍ رضي الله عنه: «**وأَتبعِ السيئةَ الحسنةَ تمحُها**»(١).

فالأعمالُ الصالحة تُطهرُ القلوبَ المريضةَ بالذنوب والمعاصي، وطهارةُ القلوبِ تدفعُ صاحبَها إلى المسارعةِ إلى الأعمالِ الصالحة قال تعالى في وصفِ أصحابِ القلوبِ الطاهرة: ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾**﴾ [المؤمنون].

وهاهمُ الصحابةُ رضي الله عنهم يضربونَ للأمةِ أروعَ الأمثلةِ في المسارعةِ إلى فعلِ الخيراتِ والأعمالِ الصالحةِ لطهارةِ قلوبهم.

فهذا أبو بكرٍ صِدِّيقُ هذه الأمةِ يضربُ لنا أروعَ الأمثلةِ في المسارعةِ إلى فعل الخيرات.

فعَن أَبِي هُرَيرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَن أَصبحَ مِنكُمُ اليَومَ صَائِمًا؟**». قَالَ أَبُو بَكرٍ: أَنَا.

قَالَ: «**فَمَن تَبِعَ مِنكُمُ اليَومَ جَنَازَةً؟**». قَالَ أَبُو بَكرٍ: أَنَا.

---

(١) **حسن لغيره**: رواه الترمذي (١٩٨٧)،أحمد (٥/١٥٣)، والدارمي (٢٨٣٣)، والبزار (٤٠٢٢)، [«صحيح الترغيب» (٢٦٥٥)].

قَالَ: «**فَمَن أَطعَمَ مِنكُمُ اليَومَ مِسكِينًا؟**». قَالَ أَبُو بَكرٍ: أَنَا.

قَالَ: «**فَمَن عَادَ مِنكُمُ اليَومَ مَرِيضًا؟**». قَالَ أَبُو بَكرٍ: أَنَا.

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**مَا اجتَمَعنَ فِي امرِئٍ إِلاَّ دَخَلَ الجَنَّةَ**»(١).

وهذا أبو طلحةَ الأنصاريُّ رضي الله عنه عندما سمع قولَ الله عز وجل: ﴿**لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ**﴾ [آل عمران:٩٢]، قام إلى رسولِ اللهِ ﷺ، فقالَ: يا رسولَ اللهِ! إن اللهَ تبارك وتعالى يقول: ﴿**لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ**﴾ وإنَّ أحبَّ أموالي إليَّ بَيرُحاءُ، وإنها لصدقةٌ للهِ أرجو برَّها وذُخرَها عندَ اللهِ، فَضَعْها يا رسولَ اللهِ حيثُ أَراكَ اللهُ(٢).

وهذا أعرابيٌّ أتى النبيَّ ﷺ فآمَن به واتبعه، فلما كانت غزوةٌ، غنمَ النبيُّ ﷺ سبياً فقسَّمه، وقَسَمَ له فجاءَ الأعرابيُّ فقال: ما هذا يا رسولَ اللهِ؟ فقال النبيُّ ﷺ: «**قَسَمتُه لك**». قال الأعرابيُّ: ما على هذا اتبعتُك، ولكني اتَّبَعتُكَ على أن أُرمى ها هنا -وأشارَ إلى حلقِه- بسهمٍ، فأموتَ فأدخلَ الجنةِ.

فقال: «**إن تَصدُقِ اللهَ يَصدُقْكَ**».

فلبثوا قليلاً ثم نهضوا في قتالِ العدو، فأُتِيَ به النبيُّ ﷺ يُحمَلُ، قد أصابه السهمُ حيثُ أشارَ، فقال النبيُّ ﷺ: «**أهوَ هو؟**» قالوا: نعم! قال ﷺ: «**صدقَ اللهَ**

---

(١) **صحيح**: رواه مسلم (١٠٢٨).

(٢) **صحيح**: رواه البخاري (١٤٦١).

فصدَقَه». ثم كَفَّنَهُ النبيُّ ﷺ وصلى عليه فكان فيما ظهرَ من صلاتِه: «**اللَّهمَّ هذا عبدُك، خرجَ مهاجراً، فَقُتِلَ شهيداً، أنا شهيدٌ على ذلك**»[1].

فهذه وسائلُ إصلاحِ القلوبِ منَ الكتابِ والسنةِ؛ اجتهدتُ في جَمعِها ووضعِها في هذا الكتاب، فعليكَ بها؛ عَضَّ عليها بالنواجذِ، لِيُصلِحَ قلبَك، فمن صَلَحَ قلبُهُ سَعِدَ في الدنيا والآخرة.

سائلاً اللهَ في علاهُ أن يُصلحَ قلوبَنا، وأن يجعلَ عملَنا هذا خالصاً لوجهِه الكريمِ، ننتفعُ به ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء].

---

(١) **صحيح**: رواه النسائي (١٩٥٣)، والطبراني في «الكبير» (٧١٠٨)، والحاكم (٦٥٢٧)، [«صحيح الترغيب» (١٣٣٦)].

الفهارس العامة

فهرس الآيات

سورة آل عمران

سورة النساء

سورة المائدة

سورة الأنعام

سورة الأعراف

سورة الأنفال

سورة التوبة

سورة يونس

سورة هود

سورة يوسف

سورة الرعد

سورة إبراهيم

سورة الحجر

سورة النحل

سورة الإسراء

سورة الكهف

سورة الأنبياء

سورة الحج

سورة النمل

سورة القصص

سورة العنكبوت

سورة الروم

سورة لقمان

سورة السجدة

سورة الأحزاب

سورة سبأ

سورة فاطر

سورة الصافات

سورة ص

سورة الزمر

سورة الفتح

سورة الحجرات

سورة ق

سورة المجادلة

سورة الحشر

سورة الصف

سورة الجمعة

سورة القلم

سورة الحاقة

سورة المعارج

سورة نوح

سورة الجن

سورة المزمل

سورة المدثر

سورة القيامة

سورة الإنسان

سورة النازعات

سورة عبس

سورة المطففين

سورة الفجر

فهرس الأحاديث

فهرس الآثار

فهرس الفوائد

الفهرس الموضوعي

الموضوع الصفحة

كتبٌ صدرت للمؤلف:

١- العقيدةُ أولاً لو كانوا يعلمون	٤ مجلدات
٢- أحسن البيان (طبعة جديدة)	مجلد واحد
٣- الدعاء النافع (طبعة جديدة)	مجلد واحد
٤- سبل السلام في صحيح سيرة خير الأنام(طبعة جديدة)	مجلد واحد
٥- الصحابة رضي الله عنهم(طبعة جديدة)	مجلد واحد
٦- تبصرة الأنام بالحقوق في الإسلام(طبعة جديدة)	مجلد واحد
٧- حياة السعداء	مجلد واحد
٨- الفرقان من قصص القرآن	مجلد واحد
٩- البيان من قصص القرآن	مجلد واحد
١٠- البرهان من قصص القرآن	مجلد واحد
١١- ثمرات السيرة النبوية	مجلد واحد
١٢- البشارات النبوية	مجلد واحد
١٣- المبشرون بالجنة	مجلد واحد
١٤- السبيل في فقه الدعوة	مجلدان
١٥- وسائل الثبات عل الدين	مجلد واحد
١٦- محبة علي بن أبي طالب بين الغلو والجفاء	غلاف
١٧- صيحة نذير (جديد)	غلاف
١٨- الحصن الحصين (جديد)	غلاف
١٩- مداخل الشيطان على الإنسان (جديد)	مجلد واحد
٢٠- وبشر الصابرين (جديد)	مجلد واحد
٢١- كيف تواجه الفتن (جديد)	مجلد واحد
٢٢- المبشرون بالنار (جديد)	مجلد واحد
٢٣- كيف تصلح قلبك؟ (جديد)	مجلد واحد
٢٤- كيف تصلح لسانك؟ (جديد)	مجلد واحد